آل أبي طالب

السيد محسن الأمين

الجزء الثالث

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع


شبكة الفكر
alfeker.net

آل أبي طالب



آل أبي طالب

أبو طالب، حمزة بن عبد المطلب،
عقيل بن أبي طالب، جعفر بن أبي طالب،
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)،
فاطمة الزهراء (ع)، الحسنان (ع)،
دول حسنية ودول حسينية

الجزء الثالث

أبو طالب، إلى إرسال أمير المؤمنين (ع) عماله إلى الأمصار

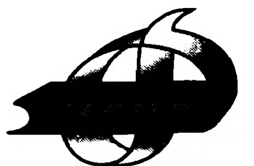
السيد محسن الأمين

مضافاً إليه أبحاث أخرى

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)

الخوارج

من الأخطاء الشائعة في فكر المستشرقين وبعض الذين نقلوا عنهم من العرب، تقدير فرق الخوارج، باعتبارها تمثل الديمقراطية العربية والمعارضة للحكم الاستبدادي في التاريخ العربي القديم.

ولكن الخوارج لم يكونوا كذلك، أو لم يبدأوا كذلك على الأقل، بل كانوا فرقة تحوم حولها تهم العمالة للفكر الاستبدادي الذي تزعمه معاوية بن أبي سفيان، وفي أحسن الفروض، فرقة مراجعة، تميل إلى السفسطة، أفسدت العمل الثوري العظيم الذي تزعمه الإمام الشهيد علي بن أبي طالب.

نشأة الخوارج

يتحدث المستشرقون عن نشأة الخوارج فيزعم فيلهوزن أنهم من جماعة القرَّاء، أي الدعاة الأوائل للإسلام من حفظة القرآن والحديث والسنة، أي أصلب العناصر الإسلامية. ذلك استناداً إلى «عبارة جافة»[1] لأبي مخنف أوردها

(١) الخوارج والشيعة ـ يوليوس فيلهوزن ـ ترجمة عبد الرحمٰن بدوي.

الطبري. ويزعم «برنوف» استناداً إلى رواية أخرى لأبي مخنف أيضاً أنهم من البدو، ويزعم مؤرخ عربي أن الخوارج عرب انضم إليهم مواليهم من غير العرب[1] «كما أنه كان لهؤلاء الموالي من المجوس الذين أسلموا بعض التأثير على العقيدة الخارجية»[2].

ولو تتبعنا ما قيل من تكهنات حول قضية الخوارج لمؤرخين آخرين لاستغرقنا في بحث أشبه بعمل النسابين العرب القدامى، هل هم من تميم أو هم من القبائل الشمالية أو هم من القبائل اليمانية، إلى غير ذلك من أسباب التفكير العنصري أو القبلي.

فالخوارج نشأوا حزباً سياسياً، له مصالح سياسة واقتصادية، وربما نتيجة مناورة من حزب معاوية أيضاً.

فحين بدأت الثورة ضد عثمان تبدو في الأفق، وضح أن الطامعين في الخلافة من أعضاء الشورى يجمعون الأنصار ويكتبون الكتب. وتكوَّنت تقريباً ثلاثة اتجاهات، الأول من كبار الأثرياء في المجلس بزعامة طلحة يريد استبعاد علي بن أبي طالب، والثاني الحزب الأموي ويريد استبعاد علي أيضاً، وإنشاء دولة بقيادة بني أمية، وهو الحزب الأكثر تمثيلاً لمصالح الأثرياء لما يملكون من ثروة، ومن مراكز السلطة التي أسندها إليهم عثمان بن عفان. والحزب الثالث حزب علي الذي يمثل الفقراء والمستضعفين والحالمين بالعدل الاجتماعي الذي نادى به الإسلام[3]. وهذه التيارات الثلاثة فعلاً قد اصطدمت بعضها

---

(١) الخوارج في الإسلام.

(٢) قال ابن الأثير (عن الخوارج بعد النهروان): خرج أبو مريم السعدي التميمي فأتى شهرزور وأكثر من معه الموالي، لم يكن معه من العرب غير ستة هو أحدهم، واجتمع إليه مائتان وقيل أربعمائة وقال أيضاً وهو يتحدث عن الخريت الخارجي: واجتمع إليه نحو مائتين وانضاف إليه علوج من أهل الأهواز.

ثم قال عن المعركة التي حدثت بين معقل بن قيس الذي أرسله علي لقتال الخريت وجماعته: فقتل أصحاب معقل منهم (من الخوارج) سبعين رجلاً من بني ناجية ومن معهم من العرب ونحواً من ثلثمائة من العلوج والأكراد.

(٣) يقول حسن الأمين: يجب أن لا ننسى أنه أثر وفاة النبي كانت هناك ثلاثة أحزاب تتنازع =

ببعض. التيار الأول صفي في معركة «الجمل» بواسطة حزب علي بن أبي طالب، والتيار الثاني استطاع أن يصفي علياً بن أبي طالب وحزبه.

وسنلاحظ تياراً رابعاً قعد عن الاشتراك في الصراع كان على رأسه عبد اللّه بن عمر، الذي لاذ بالتقوى والورع، وابتعد عن الصراع، وحتى هذا التيار ـ الذي كان له أنصار ـ لم يصدر عن التقوى والورع وحدهما بل عن ظروف سياسية قد تكون أقل بروزاً، ولكنها أساسية وموجهة للموقف الذي وقفه أصحابه. فنحن نعرف أن علياً بن أبي طالب كان يمثل المعارضة في حكم عمر بن الخطاب في السنوات الأولى من خلافته.

فعبد اللّه بن عمر وغيره من أتقياء قريش كانوا أميل إلى الوسط، وسنجد أن هذا الوسط كان أميل لتبرير فعل عثمان بن عفان والعطف عليه، وإن كان ينقده.

ولكن ما موقف الخوارج من هذه التيارات جميعاً؟.

والواقع أن الصراع لم يكن قد تبلور تماماً في حزبين أساسيين هما حزب علي وحزب معاوية حين بدأت الثورة على عثمان بن عفان. ولكن بعد أن بويع علي بالخلافة بدأت عناصر الصراع تستقطب بعضها، بحيث تعدد الصراع بين حزب علي وحزب معاوية. فالمحاربون في معركة «الجمل» لم يلبثوا أن أسفروا

= على الخلافة: حزب قريش، وحزب الأنصار، وهما حزبان قبليان تجمع أولهما رابطة قريش فقط، وتجمع الثاني رابطة الأنصار فقط.

وكان مرشح الحزب الأول: أبو بكر، ومرشح الحزب الثاني سعد بن عبادة. أما الحزب الثالث فنستطيع أن نطلق عليه اسم: (حزب الشعب) إذ لم تكن تربط بين رجاله أية رابطة قبلية، بل كان رجاله من مختلف القبائل ومن الشعوب غير العربية التي أسلمت. فكان فيه الهاشمي، والأموي (خالد بن سعيد بن العاص)، والغفاري (أبو ذر)، والكندي (المقداد بن الأسود)، والعبيد السابقون (عمار بن ياسر) إلى غير هؤلاء، ثم فريق من عيون المهاجرين والأنصار.

أما من غير العرب، فقد كان يمثل فيه الآسويين: سلمان الفارسي، ويمثل الأفارقة: بلال الحبشي، ويمثل من أسلم من أقباط مصر: أبو رافع القبطي وغيرهم. وكان مرشح هذا الحزب علي بن أبي طالب.

عن ميلهم السياسي فانضموا إلى معاوية كما انضمَّ من صفوف علي إلى معاوية بعض من لم تكن تربطهم بالثورة العلوية مفاهيم اجتماعية.

والخوارج ليسوا بدعاً في عملية الاستقطاب، فهم جماعة استدرجوا إلى شرخ في جبهة علي، ثم غدر بهم ولم ينالوا جزاءهم الحق ثمناً لهذا الشرخ الذي أحدثوه من أصحاب المصلحة فيه، فمضوا في موقفهم مستقطبين تلك العناصر الورعة التي لم تفهم من الصراع الدائر، إلاَّ أنه تنافس بين سلطات، ولعلهم لم يلتفتوا إلى الجانب الاجتماعي التفاتاً واعياً.

وهناك ما يدعو إلى التشكك في أول الخارجين يوم معركة صفين، فلو تتبعنا أنباء هذه المعركة من بدايتها لتكشفت لنا كل الأساليب التي اتبعها معاوية لإحداث الشرخ في جبهة علي.

معركة صفين

معركة صفين هي معركة التحول في الصراع الدائر بين حزب العدل الاجتماعي، وحزب رأسمالية التجار وكبار الملاك. فلقد استطاع معاوية أن يجمع جيشاً كبيراً يقوده ويحرضه كبار الأثرياء، واتجه لملاقاة جيش علي بعد كتابات ورسائل متبادلة بينه وبن الخليفة، اتسمت بالإقذاع من جانب معاوية وبالحلم والإسماح من جانب علي، رغم أن معاوية لم يكن إلاَّ عاملاً من عماله. وكانت حجة معاوية وأنصاره طلب تسليم قتلة عثمان المنطوين تحت لواء الخليفة وفي جيشه، لإيقاع القصاص بهم. ولم يلبث أن رفع المصاحف وطلب الاحتكام إلى القرآن.

وفيم الاحتكام إلى القرآن في الصراع الدائر بين الطرفين. وما أساس الصراع الدائر؟ إنه فيما يبدو قضية عثمان والاقتصاص من قتلته. أو هكذا كان موضوع المجادلة السائد بين الطرفين.

ولكن الهدف الأساسي الأكثر وضوحاً من دراسة وتأمل الكتب المتبادلة، والمناقشة الدائرة بين الرسل والزعماء هو قلب نظام الحكم والاستيلاء عليه.

ولما كان معاوية يعلم أن قوته العسكرية وحدها لا تكفي لتحقيق النصر، فقد لجأ إلى تفتيت وحدة قيادات جيش علي، ضاغطاً على الأسباب الحقيقية للصراع، وهي الثروة والتسلط والتفرد من جانب، والعدل الاجتماعي من الجانب الآخر. ومن البديهي أن اتصالات رجاله برجال علي كانت مدروسة، وانتقى الرجال الذين يقبلون وجهة نظره، بعد أن يعري الموقف من جانبه العاطفي والحماسي لتبقى المصلحة الاقتصادية متصدرة.

ولقد نجح معاوية في ذلك، حتى أننا نستطيع القول بأن رفع المصاحف كان توقيتاً لإعلان التمرد.

فكيف لجيش سينتصر انتصاره فجأة. بل كيف لجيش يقاتل وراء ابن أبي طالب وهو من هو في الإسلام، أن يقتنع بحجة رفع المصاحف وهو يعلم عن معاوية ما يعلم، ويزيد الأمر وضوحاً أن علياً رفض التحكيم إلى المصحف كاشفاً تلك الحيلة الخادعة من اللحظة الأولى، فكيف لجيش علي وهو منتصر وتحت قيادة رفيعة المكانة في الإسلام أن يقبل وقف القتال، بعد أن رفضه قائده الأعلى، إلاَّ أن يكون وراء كل هذا تدبير، ولقد يكفي أن يصرخ قائد في فصيلة أوقفوا القتال ليقف القتال قبل أن يتبينوا جلية الأمر. إن اتصالات رجال معاوية كانت بهذا الصنف الذي يملك أن يصيح بوقف القتال، فيقف القتال.

ويزيد الموقف وضوحاً أن علياً خطب واستعمل ما يملك من الحجج، ولكن خطبه ذهبت هباء. لأن الذين أرادوا أن يقف القتال لم يريدوه على أساس من القضية التي يحاربون من أجلها، بل على أساس آخر تماماً.

وهكذا وجد علي نفسه مضطراً لقبول التحكيم. فمن كان طلاب وقف القتال؟.

لقد كان أول الخوارج في طليعتهم... وسنرى الآن ذلك الجدل الذي نشب بين علي بن أبي طالب وبين أول فرقة للخوارج لنتبين أين كان موقفهم من قضية التحكيم. فبعد أن كشف التحكيم عن لعبة اشترك فيها الكثيرون ممن

استقطبهم حزب معاوية من جيش علي، كان من بينها تعمد اختيار أبي موسى الأشعري، وهو رجل عثماني الميل، يمثل ذلك التيار القديم الذي تزعمه عبد اللّه بن عمر وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من القاعدين عن الاشتراك في الصراع. فلقد عارض أيضاً علي بن أبي طالب في اختيار أبي موسى الأشعري ولكن من نادوا بوقف القتال نادوا باختيار أبي موسى، وانتهت القضية إلى خلع أبي موسى لعلي من الخلافة وترشيح عمرو بن العاص لمعاوية، الأمر الذي لم يكن موضعاً للتحكيم أصلاً.

إن الجدل الذي دار بعد ذلك بين علي والخوارج يكشف عن دورهم في كل تلك المؤامرة المتعددة الجوانب.

علي بن أبي طالب: ألا تعلمون أن هؤلاء القوم «حزب معاوية» لما رفعوا المصاحف قلت لكم، إن هذه مكيدة ووهن، وأنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لم يأتوني بل سألوني التحكيم. أفعلمتم أنه كان منكم أحد أكره لذلك مني؟.

الخوارج: إللهم نعم.

علي: فهل علمتنم أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم إليه، فاشترطت أن حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله عزَّ وجلَّ، فإن خالفاه فأنا وأنتم من ذلك براء.

الخوارج: نعم، ونحن مقرون بأنَّا قد كفرنا ونحن تائبون فأقرر بمثل ما أقررنا وتب.. ننهض معك إلى الشام.

وبالطبع رفض علي هذا اللجاج الفج، وانضمَّ إليه منهم من انضمَّ وأبى الباقون فقاتلهم علي حتى هزمهم.

وفي الوقت الذي كان الخليفة يقاتل الخصوم، كان الخوارج يهاجمونه ويقومون بالدعوة ضده، ويتهمونه بالكفر لأمر هم أصحابه الأولون.

وإن لنا أن نستريب في هذه الفرقة، وفي دوافعها. فهي أولاً دعت إلى وقف القتال، وثانياً تحمست لاختيار أبي موسى الأشعري ممثلاً لعلي، وثالثاً تراجعت عن هذا كله وناصبت حزب العدل الاجتماعي العداء حتى وصل الأمر إلى قتاله وتحريض الناس ضده وتقسيم وحدة الصف وراءه.

فهل نستطيع الزعم بأن فكرة الخوارج من صنع صاحب المصلحة في الأثر الذي ستحدثه؟.

نستطيع ذلك، على الرغم من أن الخوارج ناصبوا معاوية العداء، ولكن بعد أن صفي حزب العدل الاجتماعي تماماً.

ولن نستغرب كثيراً حين نعلم أن جريمة قتل علي بن أبي طالب كان أداتها رجلاً من الخوارج، وأنها نتيجة مؤامرة لم تتحقق فصولها تماماً ورائحة الخيانة تبدو فيها. فاغتيال الإمام لم يتم إلاَّ بعد أن وحَّد جيشه واستعد لضرب الثورة المضادة الضربة النهائية والحاسمة.

وأن القول بأن خارجين ثلاثة وكل إليهم قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، لم ينجحوا إلاَّ في قتل علي وحده، وفي هذا الظرف بالذات، لا يغير من الحقيقة في شيء فإن حزب العدل الاجتماعي ضرب بقتل علي ضربة قاضية بعد أن كان على أعتاب نصر نهائي.

وأن أصحاب الجريمة الأصليين يستطيعون أن يستتروا خلف أي لافتة، أو أي مظهر، وهي سياسة تتبع حتى الآن في المؤامرات التي يحوكها الاستعمار ونراها كل يوم تحت لافتات تبدو محلية تماماً.

مبادىء الخوارج

تلك كانت بداية الخوارج، وهي بداية تدين المؤسسين بالخيانة، وتفتيت وحدة القوى الثورية، بل وضربها مهما تكن الدعاوى التي استندت إليها.

أما بعد ذلك، وقد بدا أن من مصلحة حزب معاوية الإبقاء عليهم حتى

يضعفوا شيعة علي، بل وأن يناصبوهم العداء فيتساوى معاوية في نظر مؤيديهم والعاطفين عليهم مع الإمام المقتول.

ولكن ما المبادىء الأساسية التي ساروا عليها؟.

لقد تورطوا في إثم لم يستطيعوا الرجوع عنه، وعلى ذلك فليفلسفوا موقفهم، وليمضوا إلى أقصى غاية للتطرف.

فقالوا بنظرية «لا حكم إلاّ لله» وهو تقرير غامض ظهر بعد واقعة التحكيم، فهل يعني أنه ليس للبشر أن يحكموا في قضية فصل فيها القرآن.

إن كان هذا المعنى هو المقصود، فإن فكرة التحكيم الغرض منها الاستناد إلى القرآن وتحكيمه لا إلى مخالفته.

وهم ينتقلون من هذه الفكرة الغامضة إلى مسألة الإمامة فيقولون بحق الاختيار الحر للخليفة من جانب المسلمين بلا أي قيد، كالنسبة إلى قريش أو الحرية، أو النسبة إلى العرب، إلاّ أن يكون المختار مسلماً نقياً[1].

ثم دخلوا في مسائل العقيدة، فكفروا علياً لأنه قبل التحكيم، كفروا مسلمين كثيراً بخطأ في الرأي، حتى ولو كان هذا الخطأ من وجهة نظرهم وحدهم. وقتلوا مسلمين لهم ماض في الدعوة والجهاد بحجة الكفر لأنهم لم يكفروا علياً ولم يجحدوا التحكيم.

وقد جعلوا إقناع الناس بآرائهم أمراً جبرياً، إن لم يقتنعوا قتلوا.

ومضوا على ذلك يسنون تشريعات بعضها يحرم التزاوج من فئات من المسلمين وبعضها يضع الصغائر في مقام الكبائر، إلى غير ذلك من النزعات التشددية التي لا تفسير لها، إلاّ تلك البداية المريبة التي بدأوا بها خروجهم.

---

(١) لما قدر للخوارج أن تقوم لهم دولة في شمال أفريقية هي الدولة الرسمية، إذا بهم يقيمون حكماً ملكياً فردياً استبدادياً تتوارثه أسرة واحدة، ويناقض كل المناقضة دعواهم في اختيار الخليفة. وكذلك الحال في كل ما قام لهم من حكم (ح).

ومع ذلك فأهم ما دعوا إليه هو انتخاب الإمام انتخاباً حراً.

أما التشدد في الدين فلم يكن من بينهم من يستطيع الزعم بأنه أنصح إسلاماً من علي بن أبي طالب أو من زملاء كفاحه.

ونقطة غريبة أخرى، هي أنهم لم يولوا القضية الاجتماعية انتباهاً كبيراً، وفيما عدا شذرات هنا وهناك لا نستطيع أن نجد منهجاً واضحاً في علاج المشكلة الاجتماعية، هذا المنهج الذي كان أوضح ما يكون لدى الإمام المقتول، وكان أساس كفاحه.

إن الخوارج فرق دفعت إلى التعصب الأعمى والانغلاق، ولدت أول ما ولدت في ظروف الجمود، وقد ولدت ولادة تدعو إلى الريبة، وتلصق برجالها تهم الخيانة، لو استبعدنا العمد لقضية العدل الاجتماعي، حين خذلوا القيادة الثورية الحقة، وقاتلوها وهي تقاتل قوى الثورة المضادة.

أحمد عباس صالح

الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب (ع)

لا نعتقد أن بالإمكان دراسة الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب، ولا تقييم الجانب الثوري في هذا الفكر، إلاً في ضوء الوضع الاجتماعي لهذا الإمام، وهو الوضع الاجتماعي الوثيق الصلة بوضع الهاشميين الاجتماعي، قياساً إلى أوضاع غيرهم من «البطون»[1] العشرة التي تتكون منها قبيلة قريش، أي الأوضاع الاجتماعية لهذه «البطون».. لا بعد الإسلام فحسب، بل وقبيل ظهوره، ذلك أننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الأوضاع الاجتماعية لهذه «البطون» كانت ذات تأثير كبير في موقفها من دعوة الإسلام، بمحتواها

---

(١) البطن ـ في اصطلاح الدراسات القبلية والعشائرية ـ هو الوحدة التالية ـ تنازلياً ـ للقبيلة، عندما تقسم القبيلة، ويليه في التنازل «الفخذ»، فالقبيلة تنقسم إلى بطون، والبطن إلى أفخاذ.. إلخ.. إلخ..

الاجتماعي المتقدم والمتعاطف مع الفقراء والعبيد وضحايا الربا الفاحش، وكل المستضعفين في الأرض، أي مع الجماهير التي أراد الإسلام لهم أن يكونوا هم الأئمة وهم الوارثون. كانت المواقف الاجتماعية «لبطون» قريش العشرة ذات تأثير كبير على موقفها من الإسلام، وأيضاً كانت لها تأثيرات هامة على صراعات السلطة التي ظهرت بعد وفاة الرسول ﷺ، من حول منصب الخلافة والإمامة، ومن ثم كانت لها تأثيرات على موقف ممثلي هذه «البطون» من علي بن أبي طالب، وتوليه منصب الخلافة، وأيضاً على موقفه الإجتماعي هو إزاء الثروات التي حازها ممثلو هذه «البطون»، والمناصب التي تولوها، والتغييرات الاجتماعية التي أراد إحداثها عندما آلت إليه السلطة بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

ولما كان هذا الموضوع كبيراً، وتلزم للإحاطة بمعالمه الرئيسية دراسة هامة وكبيرة ومقصورة عليه ـ وهو ما يخرج عن موضوعنا وإطار بحثنا ـ فإننا نكتفي هنا بتقديم لمحة تكشف الفكرة التي نرى أن بحثها وتحديدها أمر ضروري لفهم الأساس المادي الواقعي للفكر الاجتماعي والثوري عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهذه اللمحة تتمثل في رؤيتنا للسلطة العليا التي كانت تتربع على قمة النظام السياسي في شبه الجزيرة العربية عندما ظهر الإسلام في مكة.. أي ـ بتعبيرنا المعاصر ـ الحكومة القرشية التي اعترف العرب في شبه الجزيرة بتميزها وسيادتها.. وهي الحكومة التي احتكرت مناصبها ومسؤوليتها وميزاتها البطون العشرة لقبيلة قريش.. أين كان الفرع الهاشمي ـ فرع الرسول وعلي بن أبي طالب ـ من هذه الحكومة؟.. وما وزن المسؤولية التي كان يتولاها، إذا ما قيست بالمسؤوليات الأخرى التي كانت تحتكرها باقي «البطون»؟.. وهو الأمر الذي يعكس الوضع الاجتماعي للفرع الهاشمي، ومن ثم يلقي الضوء على طبيعة الفكر الاجتماعي الذي ساد في صفوف أبناء هذا الفرع، لدى الرسول، ممثلاً في الفكر الاجتماعي المتقدم، ولدى علي بن أبي طالب، وهو الموضوع الذي نعقد له هذه الصفحات.

حكومة العرب قبل الإسلام

كانت هذه الحكومة تتألف من عشرة «وزارات» ـ إذا استعملنا تجاوزاً مصطلحات عصرنا، مع اعترافنا بالفوارق الكبيرة في المضامين ـ يمثل كل وزير منهم بطناً من «البطون» العشرة التي تتكون منها قبيلة قريش. . وأهم من ذلك فإن التغييرات التي كانت تصيب هذه المناصب كانت منحصرة في تغيير الأشخاص، أما اختصاص بمسؤولية محددة أي «وزراء» محددة، فكان أمراً مستقراً ودائماً، لأنه مرتبط بوزن كل «بطن» من هذه البطون من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والحربية في محيط القبيلة القرشية العام.

لقد كانت قريش تتألف من عشرة «بطون» هي:

١ ـ **هاشم**: وكان يمثله في الحكومة «العباس بن عبد المطلب» الذي كان يتولى منصب «سقاية الحجاج» الذين يحجون إلى الكعبة قبل الإسلام. . أي توفير الماء اللازم لشربهم، والإشراف على توزيعه.

٢ ـ **أمية**: وكان يمثله في الحكومة «أبو سفيان بن حرب»، وكانت مسؤوليته فيها هي القيادة الحربية لجيوش قريش في القتال إذ كان عنده راية قريش المسماة «العقاب».

٣ ـ **نوفل**: وكان يمثله في الحكومة «الحارث بن عامر»، وكانت مسؤوليته القيام على الأموال التي ترصدها قريش لإنفاقات موسم الحج، والتي يسمونها: «الرفادة».

٤ ـ **عبد الدار**: وكان يمثله في الحكومة «عثمان بن طلحة»، وكانت مسؤولياته مرتبطة بالكعبة له سدانتها وحجابتها، والقيام على دار الندوة، التي كانت يومئذٍ بمثابة البرلمان.

٥ ـ **أسد**: وكان يمثله في الحكومة «يزيد بن زمعة بن الأسود»، وكانت مسؤوليته فيها «المشورة»، إذ كان المرجع في الأمور المشكلة على هذه البطون.

٦ ـ **تيم**: وكان يمثله في الحكومة «عبد الكعبة ـ أو عبد اللّه ـ بن عثمان»، أي «أبو بكر الصديق» ـ كما اشتهر اسمه بعد ذلك ـ وكانت مسؤوليته فيها تقدير الديات والمغارم التي تلزم قريشاً والتعهد بأدائها وتنظيم ذلك. وكانوا يسمون هذه المسؤولية: «الأشناق»..

٧ ـ **مخزوم**: وكان يمثله في الحكومة «خالد بن الوليد»، وكانت مسؤوليته فيها القيام على الأموال المخصصة للحرب والقتال، وكذلك قيادة الخيل والفرسان في الحرب وكانوا يسمون هذه المسؤولية «القبة والأعنة».

٨ ـ **عدي**: وكان يمثله في الحكومة «عمر بن الخطاب» وكانت مسؤوليته فيها شبيهة بمسؤولية وزير الخارجية، وكانوا يسمونها يومئذٍ «السفارة».

٩ ـ **جمح**: وكان يمثله في الحكومة «صفوان بن أمية»، وكان مسؤولاً عن «الأيسار والأزلام» يذهب القوم إليه كي يديرها ويستشيرها قبل إقدامهم على مهمات الأمور.

١٠ ـ **سهم**: وكان يمثله في الحكومة «الحارث بن قيس»، وكانت مسؤوليته «الحكومة»، أي التحكيم، وكذلك القيام على الأموال الموقوفة على الآلهة التي يعبدونها..

كانت هذه هي حكومة قريش، التي مثلت أعلى سلطة عربية عرفتها هذ البقعة من شبه الجزيرة العربية عندما ظهر الإسلام..

أين بنو هاشم من هذا البناء؟:

وإذا كانت هذه هي المسؤوليات الأساسية التي عرفتها حكومة قريش، والتي توزعتها «بطونها» حسب الوزن المادي والمالي والقتالي الذي اجتمع لكل «بطن» من «بطونها»، فإننا نستطيع أن نقول: إن الفرع الهاشمي من قريش لمن يكن يمسك بمسؤولية من المسؤوليات الهامة ـ مادياً واقتصادياً وحربياً ـ في تلك الحكومة، وأن مسؤولية «سقاية الحجاج» في موسم حجهم لا تنهض كي توازي المسؤوليات الأخرى التي كان يقبض أصحابها على رايات القتال أو

ميزانياته، أو أموال المغارم والديات، أو السفارة إلى الخارج حيث البلاطات والعروش في القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية. . . إلخ. . إلخ. .

كان الهاشميون فقراء، ومن ثم فلم تكن لهم المسؤوليات الهامة ولا الخطيرة في حكومة الأغنياء، حكومة ملأ قريش وتجارها وملاك قوافل تجارتها وعبيدها.

وعلى هذه الحقيقة، ذات الدلالة الهامة في موضوعنا، تأتي الدلالة والشواهد الكثيرة، والتي نكتفي هنا ببعضها، من مثل:

١ ـ عندما أخذ الرسول الهاشمي يدعو بطون قريش، بمكة في بداية الإسلام، إلى تعاليمه، انطلقوا يعارضونه من منطلق طبقي صريح وواضح لا لبس فيه. فلقد كانوا يرون في دعوته تلك طموحاً سياسياً واجتماعياً للقيادة، ولبناء مجتمع جديد، وكانوا يرون كذلك ـ وهو الأهم ـ أن انتساب محمد إلى الفرع الهاشمي الفقير في قريش يجعله غير جدير بتولي هذا المكان القيادي، وتساءلوا من هذا المنطلق الطبقي: أليس الأحق بذلك غني من الأغنياء في شبه الجزيرة العربية، وبالتحديد أحد العظماء فيها، وخاصة: عظيم مكة «الوليد بن المغيرة» وعظيم الطائف «عروة بن مسعود الثقفي»؟!.

ولقد ردَّ القرآن الكريم على هذا التساؤل الجاهلي بتقرير حقيقة اجتماعية ثورية وهامة، تقول: إن هذا التمايز الطبقي الذي تؤمنون به، وتجتهدون للمحافظة عليه، وتريدون النبوة لعظيم من العظماء الذين اكتسبوا العظمة بمعاييره ومقاييسه، إن هذا النظام ليس ميزة تستحق المدح والتمسك بها، بل هو سلبية من سلبيات الحياة الاجتماعية، وبلاء أصاب الناس، وما ثمرته إلا تسخير بعض الناس للبعض الآخر، ومن ثم فإن ميزاته وامتيازاته لا تصلح معياراً على أساسه يختار الله من يختار لدينه الجديد.

جاء هذا التساؤل الجاهلي، ووقع عليه ذلك الرد القرآني في سورة الزخرف، المكية، في آياتها التي تقول: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ

ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . .﴾ ثم استنكر القرآن تساؤلهم ذلك فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ؟﴾ ثم حدثهم عن واقع مجتمعهم الطبقي، وكيف أن قسمة الأموال فيه، وما هي عليه من امتيازات للبعض دون البعض، إنما تمثل واقعاً يائساً أثمر إذلال بعضهم للبعض الآخر، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ ثم حدثهم عن ذلك الدين الجديد، ونبيه، وما يناضل المسلمون من أجل بنائه، وكيف أنه أفضل من ذلك الواقع السيء والمنهار الذي يتمسكون به، فقال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

فهو إذن منطق طبقي، كان يحتج أصحابه على دعوة الإسلام، لا بنقدها ونقض جوهرها، وإنما بأن الداعي إليها من الفرع الفقير في قريش، وليس من طبقة الأغنياء والموسرين.

٢ ـ كان في مقدمة الأسلحة التي استخدمها أغنياء قريش ضد المسلمين، سلاح المقاطعة الاقتصادية عندما كتبوا وثيقة بهذه المقاطعة، وأودعوها في جوف الكعبة، كي تكون لها الحرمة والقداسة، فلا ينقضها بطن من البطون، وتم عزل المسلمين، اقتصادياً واجتماعياً، في «شعب بني هاشم»، لا يبيعهم أحد طعاماً ولا شراباً ولا لباساً، حتى اضطرَّ الكثير منهم إلى الهجرة للحبشة إلى أن يحين فك ذلك الحصار. . ولو كان الهاشميون أغنياء، ولو كان الذين انخرطوا في الدين الجديد موسرين لما كان هذا الحصار ولا تلك المقاطعة سلاحاً مؤثراً، ولكن الملأ من قريش قد استغلوا فقر أنصار الدين الجديد كي يوجعوهم بهذه المقاطعة وذلك الحصار. .

٣ ـ وكما لم ير القرآن في فقر الرسول عيباً ولا منقصة، كذلك لم ير في فقر الذين أسلموا عيباً ولا منقصة للدين الجديد، بل لقد أبصر في ذلك ميزة

---

(١) سورة الزخرف، آيات: ٣١ ـ ٣٢. وانظر كذلك تفسير البيضاوي ص٦٧٨، ٦٧٩ ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م.

وأمراً طبيعياً يتفق مع موقف العداء الذي يتخذه هذا الدين من النظام الاجتماعي الظالم الذي كان سائداً في ذلك الحين. . وحاول القرآن كثيراً أن يبصر أعداء الدعوة الجديدة بأن منطقهم الطبقي هذا ليس جديداً، فلقد تبنّاه من قبل كل الذين أبصروا المخاطر من التغييرات الجديدة على مصالحهم التي حازوها بالاستغلال، ورغم ذلك فإن تيار التغير الاجتماعي الذي تبشر به الدعوة الجديدة سينتصر كما انتصر من قبل عبر التاريخ. . قال القرآن ذلك لأغنياء قريش، وذكر لهم أمثلة من التاريخ لعلهم يتذكرون. . فقصَّ عليهم موقف أسلافهم من أغنياء قوم نوح عندما اعترضوا على دعوته لأن جمهور الذين اعتنقوها هم من الفقراء والعامة، لا من السادة والصفوة والأغنياء. فقال حاكياً قول أغنياء قوم نوح عندما قالوا له: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾[1].

وقال المفسرون: إن مرادهم «بالأرذلين» هم العامة والفقراء «الأقلون جاهاً ومالاً»[2]. . وحكى القرآن، في موطن آخر، قول هؤلاء القوم، الصادر من منطقهم الطبقي، عندما قالوا لنوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا. .﴾[3].

كما تحدث القرآن إلى أغنياء قريش عن إرادة أخرى، غير إرادتهم تنطلق من منطق آخر غير منطقهم الطبقي، وتريد أن تحل في المجتمع مقاييس جديدة هي على العكس تماماً من مقاييسهم، فإذا كانوا يريدون السيادة والقيادة لعظيم من العظماء والأغنياء، فإن إرادة الله تريد العكس، أن تكون السيادة والقيادة لهؤلاء الفقراء المؤمنين. . وإن هذه الإرادة هي التي ستنتصر، لأنها هي التي انتصرت عبر التاريخ، فمنطقهم الطبقي هو منطق فرعون، أما منطق القرآن وإرادة المؤمنين به فإنها تسترشد بعبرة التاريخ التي تمثلت في قول القرآن، وهو يتحدث عن رفض منطق فرعون الطبقي، عندما قرر قول الله سبحانه وتعالى:

---

(١) سوررة الشعراء، الآية: ١١١.

(٢) تفسير البيضاوي ص٥٢١.

(٣) سورة هود، الآية: ٢٧.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[1].

٤ ـ بل لقد كانت معركة الإسلام الرئيسية ضد قريش، حاربوا أنصاره بمكة، وعندما أراد الرسول عرض الإسلام على القبائل الأخرى أقاموا من حوله الحصار والمواقع والعقبات.. وعندما هاجر إلى المدينة غزوه فيها وحاربوه. وعنما تمكن من الانتصار عليهم وتطويعهم لسلطانه التحق كثير منهم بصفوفه لأنه لم يعد أمامهم إلاَّ الاختيار بين الإسلام وبين السيف؟!. كان هذا موقف قريش من الدعوة الجديدة، وموقف الدعوة الجديدة من مصالح أغنياء قريش. والمرة الوحيدة التي ذكر فيها لفظ «قريش» في القرآن كان ذكره في معرض الإنكار عليهم إعراضهم عن الدين الجديد بينما هم يتمتعون ويرتعون في نعيم الله الذي وفَّر لهم مال التجارة والأمن من الأعداء ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[2].

فهو إذن منطق جديد، وثوري ينتصر به القرآن للعامة والجمهور والمجموع، ويعلن أن السيادة والقيادة لهم، وأن لهم الإمامة، ولهم ميراث طيبات هذه الحياة..

وكل ذلك ـ وغيره أكثر منه ـ يؤكد أن الفرع الهاشمي الذي انبعثت منه أنوار الدعوة الجديدة لم يكن الأكثر مالاً ولا الأعلى نفوذاً ولا الأقوى سلطاناً في مجتمع مكة عندما ظهر الإسلام.. وإن وضعه الاجتماعي هذا كان مصدراً هاماً لمعارضة الأغنياء لتلك الدعوة الثورية الجديدة ووقوفهم ضدها وضد تأثيراتها الاجتماعية على ثرائهم ونفوذهم..

ما بعد الرسول:

ولكن الصراع السياسي والعسكري والاجتماعي والفكري قد انتهى، في

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥.

(٢) سورة قريش، الآيات: ١ ـ ٤.

شبه الجزيرة العربية، بانتصار الدين الجديد، وتوحدت هذه المنطقة تحت رايات الإسلام، وخضعت لسلطان نبي من بني هاشم، الفرع الفقير في قريش، والذي لم يكن سلطانه ملحوظاً في حكومتها قبل الإسلام. . . وترتبت على ذلك تغييرات اجتماعية جعلت من العبيد والرعاة والفقراء قادة يقودون الحروب، ويؤمون الناس في الصلاة ويجلسون للفصل في المنازعات كقضاة، ويتولون الأمرة على الأقاليم، ويروي الناس عنهم الأحاديث ويلتمسون عندهم علم الدين الجديد. . حدث ذلك وغيره من الآثار الاجتماعية الجديدة والثورية، التي ليس هنا مكانُ الحديث عنها في هذه الصفحات.

ثم توفي الرسول عليه الصلاة والسلام. . وكان أبرز أبناء الفرع الهاشمي عندئذٍ علي بن أبي طالب، الذي كان يطمح إلى منصب خلافة الرسول، والذي كان يرى في نفسه ويرى فيه عدد من الصحابة، أو من فقراء الصحابة إذا شئنا الدقَّة، الضمانة الأساسية لاستمرار المنهج الاجتماعي الذي شهدته شبه الجزيرة على يد دعاة الإسلام، وأيضاً الضمانة الأساسية كي لا يعود ملأ قريش وأغنيائها، الذين التحقوا بالإسلام عندما لم يجدوا طريقاً لمقاومته، أن لا يعودوا للإمساك بالسلطة والسلطان من جديد تحت رايات الدين الجديد وأعلامه؟! . . .

كان علي يطمح إلى ذلك، وتؤهله لهذا الطموح مؤهلات كثيرة، ليس مكان الحديث عنها هذه الصفحات. ولكن قريشاً ـ نعم قريش ـ كانت بالمرصاد، فاجتمع رؤساؤها واختاروا أبا بكر الصديق، ـ وكان قبل الإسلام وزيراً في حكومتها، يتولى فيها منصباً هاماً ـ ومن بعده كان العهد إلى عمر بن الخطاب ـ وكان هو الآخر وزيراً في حكومة ما قبل الإسلام، يتولى سفاراتها الخارجية ـ ومن بعده عهد رؤوس قريش بالأمر إلى عثمان بن عفان ـ هو من بطن أمية ذي السلطان العالي في حكومة قريش الجاهلية ـ بينما استبعد، حتى ذلك التاريخ، علي بن أبي طالب، أبرز ممثلي الفرع الهاشمي في ذلك التاريخ.

ولقد قالها عمر بن الخطاب صراحة لعبد الله بن عباس، عندما حدَّثه عن أن قريشاً قد قررت أن لا تعطي السلطة للهاشميين بعد وفاة الرسول، فكفى

الهاشميين شرف النبوة الروحي والمعنوي؟! أما السلطان السياسي والمادي والدنيوي فلقد آثرت به قريش من كانوا يتولونه قبل الإسلام؟!.. قال عمر لعبد اللّه بن عباس: «إن الناس قد كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة، وأن قريشاً اختارت لنفسها فأصابت!!».

ونحن نعتقد أن الملأ من قريش، الذين مالوا بالخلافة عن علي بن أبي طالب، إنما كانوا يخشون من علي نهجاً اجتماعياً ثورياً ومتقدماً ـ أو على الأقل كان هذا موقف نفر غير قليل منهم، لا يكنون له المحبة ولا الولاء ـ ونعتقد كذلك أن هذا التيار القرشي القديم الذي يمثله هذه النفر من الأغنياء، ومن سار في طريقهم، قد حققوا مطامحهم الاجتماعية، على حساب التعاليم الاجتماعية الثورية التي بشَّر بها الإسلام، وعلى حساب جماهير الفقراء، عندما تولى الخلافة عثمان بن عفان.. فلقد حدثت يومئذٍ التحولات الاجتماعية التي عارضها علي وأنصاره، والتي استفاد منها أغنياء قريش القدامى، ومن سار في طريقهم الاجتماعي، وهي التحولات التي ثار عليها الناس حتى بلغوا في ثورتهم حد قتل عثمان ثم فرضوا على بقايا رؤوس قريش مبايعة علي بالخلافة كي يقوم بالتغيير لما وقع في ظل حكم عثمان بن عفان.

وحتى نصل إلى الحديث عن التغييرات والأفكار الاجتماعية عند علي بن أبي طالب، لا بد لنا من رؤية تلك الأوضاع الاجتماعية التي استحدثها الناس على عهد عثمان، لأنها هي التي تفسر لنا الثورة عليها، وفي ضوئها يمكن لنا أن نرى فكر علي بن أبي طالب الاجتماعي في حجمه الطبيعي وصورته الحقيقية.

التحولات الاجتماعية في عهد عثمان

لقد حدثت بالفعل تحولات اجتماعية في عهد عثمان بن عفان[1] لم تكن موجودة في عهد البعثة ولا في زمن أبي بكر وعمر، ففي عهد الرسول، لم تكن

---

(١) انظر كتابنا (مسلمون ثوار) الفصل الخاص بأبي ذر الغفاري ـ وكان أبو ذر من حزب علي وشيعته.

الفتوحات الكبرى قد حدثت بعد، ومن ثم فإن ثروة المجتمع لم تكن ذات وزن كبير، حتى أن الدولة العربية الإسلامية التي قامت بومئذٍ لم تعرف نظاماً مستقراً ومقنناً لماليتها من حيث الضبط والتنظيم للواردات والمصروفات. . ولم يختلف الحال كثيراً في عهد أبي بكر الصديق، لا من حيث الحدود التي امتدت إليها الفتوحات، تقريباً، ولا من حيث ثروة الدولة، بل لقد تأثّرت بالانقسامات التي حدثت على سلطة أبي بكر القائمة في «المدينة»، واستنفذت منها الحروب التي سميت «بحروب الردة» قدراً كبيراً من الجهد والنفقات، حتى أن بيت المال ـ (خزانة الدولة) ـ عند وفاة أبي بكر، لم يكن به سوى دينار واحد قد سقط وتخلف بطريق الخطأ والنسيان!!.

وفي عهد عمر بن الخطاب امتدت فتوحات الدولة حتى شملت المجتمعات الغنية الثلاثة التي كانت أهم مصادر للثروة في الامبراطورية العربية: مصر والشام والعراق. وجاءت إلى عاصمة الدولة كنوز القياصرة والأكاسرة، وفيها أكوام من التحف والعملات الذهبية التي ذهل لمرآها كثيرون من الصحابة.

وجاهد كثير من الناس لاقتناء الثروة وبناء الدور المريحة.

ولقد كان الفرع الأموي، من قريش، في مقدمة الذين استفادوا من هذا التطور الاجتماعي الجديد.

بل يبدو أن الفرع الأموي، بزعامة أبي سفيان، قد رأى في تولي عثمان الخلافة فرصة طالما انتظروها كي تعود لهم المكانة الأولى التي فقدوها منذ ظهور الإسلام على يد محمد بن عبد اللّه، من الفرع الهاشمي الفقير من بني عبد مناف. . ولقد ذكر عمار بن ياسر أنه قد حدث «عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان، ودخل داره، ومعه بنو أمية» أن قال لهم أبو سفيان، وكان قد كفّ بصره: «أفيكم أحد من غيركم؟. . قالوا: لا. . قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة!! فانتهره عثمان، وساءه ما قال، ونمي هذا القول إلى المهاجرين

والأنصار؟!..»[1] فهو إذاً انقلاب سياسي قد حدث، طالما رجاه وانتظره أبو سفيان وبنو أمية، وهي إذاً بداية حقبة من الحكم يعدون أنفسهم لتلقفه كالكرة حتى يصير ملكاً وراثياً يتولاه الصبيان. لقد سنحت لهم الفرصة، ورأوا في شخصية عثمان المناخ المناسب كي يحققوا ما يريدون.. ولذلك كان حكم هذا الخليفة بداية لأحداث وتطورات استحدثت في الحياة الاجتماعية الإسلامية، سعى إليها البعض، واغتنمها البعض، وناضل ضدها البعض الآخر.. ومن ثم كانت الصراعات التي برز فيها حزب علي بن أبي طالب، وكانت «الفتنة» ـ (الثورة) ـ التي شهدها آخر عهد عثمان بن عفان.

فلقد انتشر كثير من الصحابة، في الأمصار، وأقطعهم عثمان مساحات من الأرض التي كانت ملكية عامة لبيت مال المسلمين، فوزعت عليهم الأرض التي سبق أن صودرت لحساب بيت المال، والتي كانت مملوكة لكسرى وقيصر والأمراء والقواد الذين حاربوا ضد الفتح الإسلامي لهذه البلاد، وهي التي كانت تسمى أرض «الصوافي»، وكان دخلها على عهد عثمان ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، كما كان عثمان أول من أقطع أرض العراق[2].

وتغير حال العمال والولاة، فاستخدم عثمان الكثير من أقربائه، وحتى الذين كانوا يعملون على عهد عمر لم يعودوا يخشون شدة عمر، واستبدوا بالأمر من دون عثمان.. ومن حديث لعلي بن أبي طالب، عشية الثورة على عثمان، يعيب عليه فيه ضعفه إزاء الولاة والعمَّال، يقول له فيه: «إن عمر كان يطأ على صماخ من ولي ـ إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى العقوبة وأنت لا تفعل.. ضعفت ورققت على أقربائك» وعندما يقول له عثمان: «وهم أقرباؤك أيضاً»؟! يقول له علي: «أجل.. إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم» وعندما يعترض عثمان ويحتج بأنه قد ولى معاوية بعد أن ولاَّه عمر

(١) مروج الذهب ج٢ ص٣٥١ ـ ٣٥٢.
(٢) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ص١٤٨.

من قبل، يرد علي قائلاً: «أنشدك الله!! هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من «يرفأ» غلام عمر له؟!» أما الآن «فإن معاوية يقتطع الأمور دونك ويقول للناس: هذا أمر عثمان، وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه؟!»[١].

وانعكست هذه التطورات السياسية والإدارية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لدى عدد كبير من الولاة والصحابة والعمال. فسعيد بن العاص، والي عثمان على الكوفة، يسير في الناس سيرة منكرة، ويستبد بالأموال دونهم، ويقول عن أرض العراق: إنها بستان قريش؟!.. فيعترض عليه مالك الأشتر بن الحارث النخعي، قائلاً: «أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك؟!»[٢] يحدث هذا مع سعيد بن العاص ـ الأموي ـ رغم أنه قد ولي هذا المنصب كي يصلح ما أفسده الوالي السابق الوليد بن عقبة الذي استبدَّ وفسق وفجر. وفي هذه السيطرة القرشية المستبدة يقول أحد الشعراء الكوفيين:

فررت من الوليد إلى سعيد ... كأهل الحجر إذ فزعوا فباروا
يلينا من قريش كل عام ... أمير محدث أو مستشار
لنا نار تحرقنا فنخشى ... وليس لهم ولا يخشون نار[٣]

وتتبدى مظاهر الثراء والبذخ على عدد كبير من الصحابة، فالزبير بن العوام يبني له عدة دور ضخمة فخمة بالبصرة والكوفة، ومصر، والإسكندرية، وعندما تحضره الوفاة يحصون في ثروته ٥٠,٠٠٠ دينار، وألف فرس، وألفاً من العبيد والإماء.. إلخ[٤]..

وطلحة بن عبيد الله التميمي يبتني لنفسه هو الآخر إحدى الدور الفخمة بالكوفة، وأخرى بالمدينة يشيدها «بالآجر والجص والساج»، ويبلغ دخله من

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج٣، ص٧٤. طبعة القاهرة سنة ١٣٠١هـ.
(٢) مروج الذهب ج٢ ص٣٤٦.
(٣) شرح نهج البلاغة ج١٧ ص٢٤٢.
(٤) مروج الذهب ج٢ ص٣٤٢.

ممتلكاته بالعراق وحدها ألف دينار في اليوم الواحد؟ «وقيل أكثر من ذلك، وبناحية (الشراة) أكثر مما ذكرنا»[1]!!

ـ وعبد الرحمن بن عوف الزهري، تصبح ثروته مضرب الأمثال «فعلى مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم» وعندما توفي قدرت ثروته أكثر من مليونين ونصف من الدراهم، ولقد بلغ حجم القدر الذي أحضر منها إلى عثمان بن عفان في «البدر» و«الأكياس» قدراً من العظم جعله يحجب رؤية عثمان عن الرجل الواقف أمامه؟!»[2].

ويذكر سعيد بن المسيب أن في ثروة زيد بن ثابت ـ وكان من المدافعين عن عثمان حين ثار الناس ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار؟!»[3].

أما يعلي بن منية فإنه يخلف في تركته ٥٠٠,٠٠٠ دينار، تضاف إليها عقارات وديون له على الناس تقوم بمبلغ ٣٠٠,٠٠٠ دينار[4]؟!.

ويشيع في المدينة بناء الدور الفخمة الحديثة، ويتخذون لها الأماكن الجميلة في «الضواحي». فعلى بعد أميال من المدينة يبني «المقداد» بـ(الجرف) داراً «مجصصة الظاهر والباطن» ويجعل في «أعلاها شرفات»[5] ويصنع مثله بـ(العقيق) «سعد بن أبي وقاص»[6].

ونشهد مصادر التاريخ الإسلامي المعتمدة تسجل على هذا العهد ـ وللمرة الأولى ـ بوادر فكر نظري يجتهد كي يبرر للخليفة والحاكم التمتع بالأموال العامة الخاصة ببيت مال المسلمين.. فيروي «الزبير بن بكار» في كتابه

---

(١) المصدر السابق، ج٢ ص٣٩٤.
(٢) المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٩.
(٣) المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٢.
(٤) المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٣.
(٥) المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٣.
(٦) المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٢.

(الموفقيات) عن ابن عباس قوله: «لما بنى عثمان داره بالمدينة أكثر الناس عليه في ذلك، فبلغه، فخطبنا.. فقال: أتانا عن أناس منكم أنهم يقولون: أخذ فيئنا، وأنفق شيئنا، واستأثر بأموالنا.. مالي ولفيئكم وأخذ مالكم؟! ألست من أكثر قريش مالاً؟!.. وهبوني بنيت منزلاً من بيت المال، أليس هو لي ولكم؟!! ألم أقم أموركم،. وأني من وراء حاجاتكم؟!. فلم لا أصنع في الفضل ـ (الزيادة عن حاجات الناس) ـ ما أحببت؟ فلم كنت إماماً إذاً؟!.. فما لي لا أفعل في فضول الأموال ما أشاء؟!»[1].

كما تتحدث مصادر التاريخ هذه عن استخدام بنات عثمان وتمتعهن بالحلي المملوك لبيت المال فيروي «الزبير بن بكار» عن «الزهري» قوله: «لما أتي عمر بجوهر كسرى، وضع في المسجد، فطلعت عليه الشمس فصار كالجمر» وأراد عمر أن يقسمه بين المسلمين، فقال له خازن بيت المال: (يا أمير المؤمنين إن قسمته بين المسلمين لم يسعهم ـ لم يكفهم) ـ وليس أحد يشتريه، لأن ثمنه عظيم، ولكن تدعه إلى قابل ـ (تؤجله إلى العام القادم) ـ فعسى الله أن يفتح على المسلمين بمال فيشتريه منهم من يشتريه). قال: ارفعه فأدخله بيت المال.. وقتل عمر وهو بحاله، فأخذه عثمان لما ولي الخلافة فحلى به بناته؟!..»[2].

وتشهد الدولة الإسلامية أول خليفة من خلفائها يترك عند مماته ثروة طائلة، فيحصون لعثمان يوم مقتله «عند خازنه من المال خمسين ومائة ألف دينار (١٥٠,٠٠٠) وألف ألف درهم (١,٠٠٠,٠٠٠) «وذلك غير قيمة «ضياعه بوادي القرى وحنين» تلك التي قدِّرت بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ دينار هذا عدا الخيل والإبل، وغيرها من الممتلكات والمقتنيات[3].

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٩ ص٦ ـ ٢٣.
(٢) المصدر السابق، ج٩ ص١٦.
(٣) مروج الذهب، ج٢ ص٣٤١ ـ ٣٤٢.

ونحن نود ـ قبل أن ننتقل للحديث عن أثر هذه التحولات المستحدثة في المجتمع الإسلامي ـ أن ننبه إلى أن صحبة هؤلاء الرجال لرسول الله ﷺ، وسبق الكثير منهم إلى الإسلام، وبلاءهم الحسن في نشر الإسلام وإقامة دعوته، لم يكن له أن يمنع سعيهم هذا الذي حدث في سبيل الدنيا، لأن النفس البشرية عندما تتاح لها الفرصة لذلك، دونما مانع من القانون ورادع من النظام، فقلّما تحجم عن السعي في هذا الطريق. وهذه الموانع قد زالت، أو كادت، ومن ثم استباح الكثيرون لأنفسهم واستحلوا هذا النمط من أنماط الحياة.. ولقد كانت للقوم شبهة حل تجعل لهم هذا الأمر مباحاً لا حرج عليهم فيه.. يشهد لذلك قول عثمان بن عفان عن عبد الرحمٰن بن عوف، عندما أحضرت له بعض أكياس دنانيره ودراهمه، بعد وفاته: «إني لأرجو لعبد الرحمن خيراً، لأنه كان يتصدق، ويقري الضيف، وترك ما ترون»[1]. أي أنه قد كانت هناك «وجهة نظر» تمثل موقفاً فكرياً يرى أنه لا حرج على الناس ولا على ضمائرهم من السعي في هذا السبيل، وأن التقوى والإيمان لن ينقص منهما جمع الأموال، بشرط أن يتصدق أصحابها ويكرموا الضيوف ويبذلوا منها قدراً معلوماً في بعض وجوه «البر والإحسان».

بل لقد حدث أن استباح البعض ما حرمه الرسول على سبيل القطع في هذا الميدان.. وفي (صحيح مسلم) نقرأ هذا الحديث الشاهد لما نقول: «حدثنا عبد الله بن مسلمة، ابن قعنب، حدثنا سليمان ـ يعني ابن بلال ـ عن يحيى ـ وهو ابن سعيد ـ قال: كان سعيد بن المسيب يحدث أن معمراً قال: قال رسول الله ﷺ: **«من احتكر فهو خاطىء»**. فقيل لسعيد فإنك تحتكر! قال سعيد: إن معمراً، الذي كان يحدث هذا الحديث، كان يحتكر»؟!![2].. فما بالنا باستحداث أمور كانت للبعض فيها شبهة حل؟! ولم يكن في صف الذين

---

(١) المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٩.

(٢) صحيح مسلم، بشرح النووي، ج١١ ص٤٣: طبعة القاهرة.

أنكروها وحاربوها سوى سلاح الاجتهاد في تفسير النصوص، وقياس الأمر على كليات التعاليم وروح الشريعة الغرّاء؟!..

وعلى أي الوجوه قلبنا الأمر، فلقد أثمرت هذه التحولات التي شهدها عهد عثمان بن عفان مناخاً اجتماعياً ولد وشهد العديد من التناقضات والصراعات.. ومن الكلمات الجيدة التي تصف تلك الحالة الجديدة قول جمال الدين الأفغاني: أنه «في زمن قصير من خلافة عثمان، تغيرت الحالة الروحية في الأمة تغيراً محسوساً وأشد ما كان منها ظهوراً في سيرة وسير العمال والأمراء وذوي القربى من الخليفة، وأرباب الثروة بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى «أمراء» وطبقة «أشراف» وأخرى «أهل ثروة وثراء وبذخ»، وانفصل عن تلك الطبقات: طبقة العمال وأبناء المجاهدين، ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية والسابقة في تأسيس الملك الإسلامي وفتوحاته، ونشر الدعوة، وصار يعوزهم المال الذي يتطلبه طرز الحياة، والذي أحدثته الحضارة الإسلامية، إذ كانوا مع كل جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمنتمين إلى العمال ورجال الدولة. وقد فشت العزة والأثرة والاستطالة وتوفرت مهيئآت الترف في حاشية الأمراء وأهل عصبيتهم، وفي العمال، وبمن استعملوه وولوه من الأعمال.. إلخ.. فنتج من مجموع تلك المظاهر التي أحدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين في المسلمين، تكون طبقة أخذت تتحسس بشيء من الظلم، وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص، ومن سيرتي الخليفة الأول والثاني: أبي بكر وعمر»[1].

علي يتصدى لتغيير هذا الواقع

ولقد كان صوت علي بن أبي طالب في مقدمة الأصوات التي ارتفعت بالنقد والمعارضة لهذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني. دراسة وتحقيق: محمد عمارة، ص٤٢١ ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

المجتمع العربي الإسلامي على عهد عثمان بن عفان، بل لا نغالي إذا قلنا أن صوت معارضته ونقده كان أعلى هذه الأصوات.. ومن ثم فإن حركة المعارضة والنقد، ثم الثورة، ضد هذه الأوضاع الجديدة قد اتخذت من علي رمزاً لها، وقيادة تلتف من حولها، كي تمارس الضغط والنقد والتجريح لأصحاب المصلحة الحقيقية في هذه الأوضاع التي طرأت على المجتمع في ذلك الحين.

حدث ذلك حتى قبل مقتل عثمان ومبايعة علي بالخلافة.. ومن هنا كانت الوقائع والأحداث التي سجلتها لنا مصادر التاريخ تحكي علاقة علي بالثائرين على عثمان، وموقف علي من تصرفات عثمان.

* فعندما زحفت جموع الثائرين على ولاة عثمان والتغييرات الاجتماعية التي أحدثها.. عندما زحفوا من الولايات ـ مصر، العراق واليمن، والشام ـ على العاصمة ـ المدينة ـ يطلبون التغيير، ذهبت هذه الجموع إلى علي، وكلموه، وطلبوا منه أن يحمل مطالبهم إلى عثمان، ثم يأتيهم بالجواب، ويحكي علي وقائع مقابلته لعثمان عندما دخل عليه فقال له: «إن الناس ورائي، وقد استسفروني بينك وبينهم.. فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل.. وإن شر الناس عند الله إمام جائر. وإني أنشدك الله أن لا تكون إمام هذه الأمة المقتول.. الذي يفتح عليها القتل والقتال.. ويبث الفتن فيها.. فلا تكونن لمروان ـ (بن الحكم) ـ سَيِّقَة[1] يسوقك حيث شاء!..».

فطلب عثمان من علي أن يؤجله الثائرون وقتاً من الزمن يغير فيه المظالم ويجيب فيه المطالب ويحقق الشكايات.. ولكن علياً رفض التأجيل، وطلب إليه التغيير الفوري لما بالمدينة من مظالم، أما مظالم الأقاليم فأجل تغييرها هو الأجل الذي تصل فيه أوامر الخليفة إلى هذه الأقاليم.. وبعبارة (نهج البلاغة): قال عثمان لعلي: «كلِّم الناس أن يؤجلوني حتى أخرج إليهم من مظالمهم، فقال

---

(١) السيقة ـ بفتح السين وكسر الياء المشددة وفتح القاف ـ الذي يساق من الدواب.

له علي: ما كان بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك إليه!..[1].

* وفي لقاء آخر بين علي وعثمان ينتقد فيه علي عثمان لميله لبني أمية، وإطلاقه العنان لهم كي يستأثروا بخيرات الناس ويحتازوا حقوقهم، وينبهه إلى خروجه عن نهج الأمة الذي سار عليه أبو بكر وعمر، وينكر أن يكون عثمان - في نهجه - مساوياً لأبي بكر وعمر، فيقول:

«.. أما التسوية بينك وبينهما، فلست كأحدهما؟! إنهما وليا هذا الأمر فظلفا - (كفا) - أنفسهما وأهلهما عنه، وعمت فيه وقومك عوم السابح في اللجة.. فحتى متى، وإلى متى؟! ألا تنهي سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم؟! والله ولو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك!!»[2]..

* ويبدو أن عثمان قد ظنَّ أن وراء ثورة علي ومعارضته أسباباً يتصل بعضها بحرمانه من الثروة التي يرتع فيها الأمويون والملأ من أغنياء قريش، فاستدعاه يوماً وعرض عليه «صرتان من ورق - (فضة) - وذهب» وقال له: «دونك خذ من هذا حتى تملأ بطنك، فقد أحرقتني»؟!.. ولكن علياً رفض، وقال لعثمان: «إن كان هذا المال لك كنت أحد رجلين: أما آخذ واشكر، أو أوفر واجهد. وإن كان من مال الله، وفيه حق المسلمين واليتيم وابن السبيل، فوالله مالك أن تعطينيه ولا لي أن آخذه!» فاحتد عثمان، وسكت علي، ثم عاد إلى منزله وقد عزم على مقاطعة عثمان، وقال: «الله بيني وبينك إن كنت أمرتك بمعروف أو نهيتك عن منكر!!»[3].

* ومن هنا نستطيع أن نفهم موقف علي من الأحداث التي انتهت بقتل عثمان، وتقييمه لهذه الثورة التي هاجم رجالها منزل الخليفة حيث قتلوه وهو

---

(١) (نهج) البلاغة) ص١٨٦، ١٨٩. طبعة «الشعب»، القاهرة.
(٢) (شرح نهج البلاغة) ج٩ ص١٥.
(٣) المصدر السابق، ج٩ ص١٦.

يقرأ القرآن بعد أن حاصروه زمناً طويلاً. . وليس أصدق في التعبير عن موقف علي من هذه الأحداث من قوله هو ذاته عندما يلخص القضية في هذه الكلمات: «. . إنه قد كان على الناس والٍ ـ (عثمان) ـ أحدث أحداثاً، وأوجد للناس مقالاً فقالوا، ثم نقموا فغيروا. . .»[1].

أما عن حدث القتل ذاته، وعلاقته به، فإنه يتحدث عنه فيقول: «لو أمرت به لكنت قاتلاً، أو نهيت عنه لكنت ناصراً؟!» أي أنه لم يأمر به، ولم ينه عنه، لأنه لو نهى عنه لكان ناصراً لعثمان على ما أحدث من أحداث. . . ثم يقول: «وأنا جامع لكم أمره ـ (أمر عثمان) ـ: استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع»![2].

هذا عن الموقف من عثمان وما أحدث وأحدث الأمويون من تغييرات:

. . . وضد قريش

ونحن نعتقد أن موقف علي ضد الفرع الأموي من قريش إنما هو جزء في موقفه العام ضد ملأ قريش وأغنيائها، أولئك الذين ناصبوا الفرع الهاشمي العداء منذ ظهر الإسلام، وخاضوا ضده الحروب، ثم تربصوا ـ حينما هزموا ـ حتى انقضوا على دولة الدين الجديد تحت راياته وأعلامه مؤملين أن يسلبوا هذه التجربة الثورية الجديدة مضمونها الاجتماعي المتقدم الذي أراد به الرسول أن يجعل الذين استضعفوا في الأرض هم الأئمة والوارثين؟!. ولذلك فإننا نلتقي كثيراً في خطب علي وأحاديثه بالشكوى من «قريش». . فيقول مثلاً عندما اختاروا عثمان للخلافة بدلاً منه: «اللهم إني استعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمر هو لي»[3].

(1) (نهج البلاغة) ص٦٦.
(2) المصدر السابق، ص٥٦ ـ ٥٧.
(3) المصدر السابق، ص١٩٨.

وعندما بويع بالخلافة، وعقد له عهدها أولئك الذين ثاروا على عثمان وسلطان قريش، تصدَّت قريش لسلطانه، وتحركت من خلف الفرع الأموي، تحت حجة الطلب بدم عثمان.. وعن موقف قريش هذا يتحدث علي فيقول: «مالي ولقريش!! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، وإني لصاحبهم بالأمس، كما أنا صاحبهم اليوم؟!»[١].. ثم يكتب إلى أخيه عقيل بن أبي طالب فيقول: «... دع عنك قريشاً وتركاضهم[٢] في الضلال، وتجوالهم في الشقاق.. فإنهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله قبلي...»[٣].

بل إن هذا العداء المستحكم بين الفرع الهاشمي ـ والممثل في علي يومئذٍ ـ وبين قريش، لم يكن إدراكه والحديث عنه مقصوراً على الهاشميين، فهذا عمر بن الخطاب يشخصه بدقة عندما يتحدث عنه إلى عبد اللّه بن العباس فيقول: «يا عبد اللّه، أنتم أهل رسول الله وآله وبنو عمه، فما تقول في منع قومكم منكم؟! قال (ابن عباس): لا أدري علتها، والله ما اضمرنا لهم إلاَّ خيراً.. قال (عمر): «... إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبوا في السماء شمخاً وبذخاً.. ولعلكم تقولون: إن أبا بكر أول من أخَّركم.. أما أنه لم يقصد ذلك، ولكن حضر أمر لم يكن بحضرته أحزم مما فعل، ولولا رأي أبي بكر فيّ لجعل لكم من الأمر نصيباً، ولو فعل ما هنأكم قومكم. إنهم ينظرون إليكم نظر الثور إلى جازره؟!»[٤].

نعم.. إلى هذا الحد بلغت صراحة عمر في التعبير عن العداء المستكن بين ملأ قريش، وبين الهاشميين، حتى لقد قرر أن العلاقة بينهما هي العلاقة بين الثور وجازره؟!. ذلك أن الهاشميين ـ تحت أعلام الإسلام وبواسطته ـ قد

---

(١) المصدر السابق، ص٦٠.

(٢) التركاض ـ بفتح التاء وسكون الراء ـ الجري والإسراع.

(٣) (نهج البلاغة) ص٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٤) (شرح نهج البلاغة) ج١٢ ص٩.

أدالوا دولة قريش الجاهلية، وكان سيف علي من أبرز السيوف التي طالما قطعت رقاب أشراف قريش الذين تصدوا لدعوة الإسلام ودولته في ساحات القتال. .

العزم والإصرار على التغيير الاجتماعي

ولم يكن علي يخفي ـ حتى على عهد عثمان وقبل توليه الخلافة ـ عداءه للطبقة الجديدة التي احتازت الأموال، وعزمه الأكيد ـ إن هو تولى أمور المسلمين ـ على تغيير هذا الواقع الطبقي الجديد، والعودة إلى نظام المساواة الذي قرره الإسلام وطبقه الرسول ومن بعده أبو بكر. . ومن كلماته الشهيرة التي تعبر عن عزمه هذا قوله: «لو استوت قدماي من هذه المداحض ـ (المزالق) ـ لغيرت أشياء؟!»[١]. . وفي موقف آخر يبدي سخطه لاحتكار بني أمية لثروات الأمة، ويتوعدهم قائلاً: «والله لئن وليتها لأنفضنهم نفض اللحام الوذام التربة»[٢]، أي لأزيلنهم كما يزيل عامل اللحام التراب عن الحديدة بواسطة النار؟؟!.

وعندما تحقق ما أراد، وبايعه الناس بالخلافة، أعلن ما يمكن أن نسميه ـ بلغة عصرنا ـ الثورة الشاملة ضد الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي كانت محل نقده ومعارضته على عهد عثمان بن عفان.

١ ـ ففي السياسة: أعلن عزل عمال عثمان وولاته على الأقاليم. ولم يتراجع عن ذلك عندما نصحه الناصحون وأشفق عليه المشفقون، وهذا موقف شهير في كل كتب التاريخ لا يحتاج إلى تقديم الأدلة عليه ولا البراهين. .

٢ ـ وفي ميدان القطائع: كانت هناك الأرض التي جعلها عمر ملكاً خاصاً لبيت المال، ثم جاء عثمان فأقطعها لأوليائه وأعوانه وولاته وأهل بيته، وبصددها كان موقف علي حازماً وحاسماً. . فلقد ألغى تصرفات عثمان هذه،

---

(١) (نهج البلاغة) ص٤٠١.

(٢) المصدر السابق، ص٨٤.

وقرر رد هذه الأرض إلى ملكية الدولة وحوزة بيت المال، ورفض أن يعترف أو يقر التغييرات «والتصرفات العقارية» التي حدثت في هذه الأرض، وقال عن هذا المال كلمته الحاسمة: «والله لو وجدته ـ (أي المال) ـ قد تزوج به النساء، وملك به الإماء، لرددته.. فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق!..».

ثم أعلن أن التمايز الطبقي الذي رفع من لا يستحق وخفض من لا يستحق قد جاء الوقت لتصفيته، وأن الحين قد حان لخفض الذين ارتفعوا ورفع الذين انخفضوا، فقال: والذي بعث محمداً بالحق أنه «لا بدَّ أن يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، وليسبقن سابقون كانوا قصروا وليقصرن سباقون كانوا سبقوا؟!»[1].

٣ ـ وفي ميدان العطاء: أحدث علي تغييراً ثورياً لعلَّه كان من أخطر التغييرات الثورية التي قرَّرها، والتي أراد بها العودة بالمجتمع إلى روح التجربة الثورة الإسلامية الأولى.. بل لعلَّ هذا التغيير أن يكون كذلك الموقف الذي جعل العديد من القوى والأطراف تجمع أمرها وتوحد صفوفها وتتصدى لمحاربته، لأنها قد رأت في موقفه هذا نذير خطر يهدد امتيازاتها الطبقية والاجتماعية بالزوال..

ذلك أن النظام الذي كان معمولاً به من عهد النبي ﷺ فيما، يتعلق بالعطاء ـ والعطاء هو نظام قسمة الأموال العامة بين الناس، جنوداً كانوا أم غير جنود ـ كان قائماً على فلسفة التسوية بين الناس في قسمة الأموال بصرف النظر عن دور الفرد في النضال ـ سابقاً ـ مع الإسلام أو ضده، وبصرف النظر عن القبيلة العربية التي ينتمي إليها، وسواء أكان من أصل عربي أو كان من الموالي إلخ.. إلخ..

(١) المصدر السابق، ص٤١ ـ ٤٢.

ولما جاء عمر بن الخطاب، ألغى نظام التسوية بين الناس في العطاء ثم حدد المعايير التي على أساسها يكون التمييز بين الناس في العطاء، فالسابقون إلى الإسلام، وقريش ثم الأقربون من قريش، يأتون في المقدمة ثم يكون الترتيب التنازلي في هذا الميدان. .

ثم كان عهد عثمان الذي كرَّس القانون السابق ثم سار على دربه أشواطاً وأشواطاً. . حتى أصبح التمايز الطبقي نظاماً بشعاً، بلغت بشاعته حداً جعل الناس يثورون عليه، ثم انتهت ثورتهم بقتل عثمان وتولية علي أميراً على المؤمنين. .

ومن هنا كان قرار علي العدول عن تمييز الناس في العطاء، والعودة إلى نظام المساواة قراراً من أخطر قراراته الثورية، لأنه كان يعني انقلاباً اجتماعياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من دلالات. . كما كان رد فعل الأغنياء ـ وفي مقدمتهم ملأ قريش وأبناؤهم ـ ضد علي وقراره هذا بداية الثورة المضادة ضد حكمه.

لقد كانت هناك فلسفة اجتماعية تقف خلف موقف علي هذا نستطيع أن نلمسها ونعيها إذا نحن أمعنَّا النظر في كلماته التي يقول فيها: «إن الله، سبحانه، فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلاَّ بما متِّع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك!»[1].

فهو هناك يؤمن باشتراك الأمة في الثروة، ويقرر أن جوع الفقير مصدره وسببه احتجاز الغني الثروة التي خلقها الله كي يشبع بها هذا الفقير؟!.

* ولقد كان قرار علي التسوية بين الناس في العطاء من القرارات الأولى التي أصدرها عقب بيعته وجاء حديثه عنه في الخطبة التي خطبها في اليوم التالي لبيعته مباشرة، وهي الخطبة التي جاء فيها: «. . . ألا لا يقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة،

---

(١) (نهج البلاغة) ص٤٠٨.

واتخذوا الوصائف الروقة ـ (الحسان) ـ، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم ـ (قيدتهم) ـ إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك، ويستنكرون ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته، فإن الفضل النير غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيما رجل استجاب الله وللرسول، فصدق ملتنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد عى أحد، وللمتقين، عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار، وإذا كان غداً ـ إن شاء الله ـ فأغدوا علينا، فإن عندنا مالاً نقسمه فيكم، ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا عجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلاَّ حضر..».

فنحن هنا بإزاء موقف ثوري، اجتهد فيه علي لنفسه وللمسلمين، وبما أن الإسلام ـ ديناً وتشريعاً ـ لم يكن له موقف واضح ومقرر بالنصوص في هذا الموضوع ـ لقد اتخذ فيه أبو بكر موقفاً.. ثم جاء عمر فاتخذ موقفاً آخر.. ثم جاء علي فاتخذ هذا الموقف الجديد ـ وهو الموقف الذي يعلن المساواة التامة بين الناس في العطاء، سواء أكانوا عرباً أم غير عرب، وسواء أكانوا من السابقين إلى الإسلام أم من الذين تأخروا في الدخول فيه. والذي يلغي اتخاذ السبق إلى الإسلام والفضل في الدين ستاراً أو سبيلاً لاحتياز الثروات والأموال، والذي يدخل في ديوان العطاء من لم يكن قد دخل من قبل فيه..

وكما كان هذا الموقف الثوري أول قرارات علي عندما ولي الخلافة، كانت معارضة الأغنياء لهذا القرار أول معارضة حدثت لعلي في ذلك التاريخ.. وكما يقول أحد شيوخ المعتزلة ومؤرخيهم ـ أبو جعفر الأسكافي ـ: فلقد «كان هذا ـ (الأمر) ـ أول ما أنكروه من كلامه. وأورثهم الضغن عليه، وكرهوا

إعطاءه وقسمه بالسوية»[١] . . بل وثارت بين المعارضين وبين علي المناقشات والمجادلات حول هذا الموضوع، إذ استنكر الأغنياء والأشراف أن يتساووا بالموالي وبمن كانوا غلماناً وأرقّاء عندهم بالأمس القريب؟! «فقال سهيل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس وقد أعتقته اليوم؟! فقال (علي): نعطيه كما نعطيك؟! فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير، ولم يفضل أحداً على أحد»[٢].

ولقد كان في مقدمة الذين اعترضوا على موقف علي هذا: طلحة بن عبيد اللّه، والزبير بن العوام، وعبد اللّه بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم «ورجال من قريش وغيرها» . . بل لقد بلغوا في معارضتهم لقرار التسوية هذا حد نقض بيعتهم لعلي وإعلان الحرب عليه، تحت ستار الطلب بدم عثمان، على حين كانوا هم الذين تقدموا الناس في الثورة على عثمان؟!! . .

وإزاء هذه المعارضة شنَّ علي بن أبي طالب حملة ضد هذا الفريق، وألقى عدة خطب أوضح فيها موقفه الفكري والأسس التي بني عليها اجتهاده هذا . . فقال مثلاً: « . . أما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا، فمن لم يرض به فليتول كيف شاء، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه . . »[٣].

بل لقد دارت مناقشة مباشرة في مواجهة جرت بين علي وبين طلحة بن عبيد اللّه والزبير بن العوام ـ وهما اللذان قادا الحرب ضده ـ حول هذا الموضوع . . . فقال لهما علي: «ما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟».

---

(١) المصدر السابق، ج٧ ص٣٧.

(٢) المصدر السابق، ج٧ ص٣٨.

(٣) المصدر السابق، ج٧ ص٤٠.

قالا: خلافك عمر بن الخطاب في القسم، إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله علينا بأسيافنا ورماحنا وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا وظهرت عليه دعوتنا، وأخذناه قسراً قهراً ممن لا يرى الإسلام إلاّ كرهاً.

فقال علي: أما القسم والأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادىء بدء فقد وجدت أنا وأنتما رسول الله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.. وأما قولكما: جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقديماً سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلم يفضلهم رسول الله في القسم ولا آثرهم في السبق، والله سبحانه موف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما، والله، عندي ولا لغيركما إلاّ هذا.

فقال الزبير في ملأ من الناس: هذا جزاؤنا من علي! قمنا له في أمر عثمان حتى قتل، فلما بلغ منا ما أراد جعل فوقنا من كنا فوقه!!..»[1].

فقال علي ـ لما عاتبه بعض أصحابه على التسوية في العطاء، وطلب تمييز البعض إرضاء للخصوم ـ: «أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟! والله لا أطور ـ (آمر) ـ به.. لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟!..»[2].

كانت هذه وقفة ـ بل ثورة ـ علي ضد التمايز الطبقي الذي استشرى ورسخ على عهد عثمان.. وهو الاستشراء والرسوخ الذي يتحدث عنه شارح (نهج البلاغة) ـ «ابن أبي الحديد» ـ، فيقول: «فإن قلت: إن أبا بكر قسم بالسواء كما قسمه أمير المؤمنين علي، ولم ينكروا ذلك كما أنكروه أيام أمير المؤمنين علي، فما الفرق بين الحالتين؟!».. ثم يجيب ابن أبي الحديد فيقول:

---

(١) المصدر السابق، ج٧ ص٤١ ـ ٤٢.

(٢) (نهج البلاغة) ص١٥١.

«أن أبا بكر قسم محتذياً لقسم رسول الله، فلما ولي عمر الخلافة، وفضل قوماً على قوم، ألفوا ذلك، ونسوا تلك القسمة الأولى وطالت أيام عمر وأشربت قلوبهم حب المال وكثرة العطاء. وأما الذين اهتضموا فقنعوا ومرنوا على القناعة، ولم يخطر لأحد من الفريقين أن هذه الحال تنتقض أو تتغير بوجه ما، فلما ولي عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه، فازداد وثوق القوم بذلك، ومن ألف أمراً شقَّ عليه فراقه وتغيير العادة فيه، فلما ولي أمير المؤمنين علي أراد أن يرد الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله وأبي بكر، وقد نسي ذلك، ورفض، وتخلل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشقَّ ذلك عليهم، وأنكروه وأكبروه، حتى حدث ما حدث من نقض البيعة ومفارقة الطاعة. . »[1].

نعم. . كان هذا هو موقف علي ـ بل كانت هذه ثورة من الثورات التي فجرها في المجتمع العربي الإسلامي عندما ولي أمره ـ ولم تثن عزمه عن موقفه هذا تلك المخاطر التي لاحت أمامه في الشقاق الذي بدأه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، ثم في الحرب التي أشعلاها ضده بعد أن نقضا بيعتهما إياه. . كما لم تثنه عن موقفه هذا الحرب التي أعلنتها قريش ـ خلف الفرع الأموي بزعامة معاوية ـ ضده وضد سياسته الاجتماعية. . بل لقد ازداد استمساكاً بفكره الاجتماعي هذا، وإصراراً على تطبيق روح الإسلام الداعية إلى المساواة. . وحتى عندما جاءته الأخبار بأن الأغنياء والأشراف الذين بايعوه في المدينة وفي الأقاليم قد أخذوا يتسللون إلى الشام وينضمون إلى جيش معاوية، ظلَّ مستمسكاً بموقفه هذا المنحاز إلى المساواة. . وفي هذا الصدد نجده يكتب إلى «سهل بن حنيف» الأنصاري ـ عامله على المدينة ـ يقول: « . . أما بعد، فقد بلغني أن رجالاً ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم. . فإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها. . قد عرفوا العدل ورأوه. . وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة، فهربوا إلى

(١) (شرح نهج البلاغة) ص٤٢ ـ ٤٣.

الأثرة، فبعداً لهم وسحقاً!!»[1]، وعندما بلغه أن عامله على «اردشير خرة» ـ مصقلة بن هبيرة الشيباني ـ يفضل أهله على غيرهم في العطاء كتب إليه: «.. بلغني عنك أمر أن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وأغضبت إمامك.. إن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء..»[2].

كما يكتب إلى الأسود بن قطبية ـ صاحب جند «حلوان» ـ: «أما بعد، فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فإنه ليس في الجور عوض من العدل..»[3].

وعندما يولي أمر مصر إلى «الأشتر النخعي» يكتب له في عهده فيقول: «.. وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة.. فعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، وينتصف منك للمظلوم»[4].

نعم.. كانت هذه سياسة علي بن أبي طالب، موقفاً أصيلاً تمسك به، ولم يرهب المخاطر الحقيقية التي تهددت سلطته بسببها، وهي المخاطر التي أودت بسياسته، بل وبحياته، وهو الأمر الذي عبر عنه عبد الله بن العباس، عندما كتب إلى الحسن بن علي، بعد موت علي والبيعة للحسن فقال: «... واعلم أن علياً أباك إنما رغب الناس عنه إلى معاوية لأنه آسى ـ (ساوى) ـ بينهم في الفيء وسوى بينهم في العطاء، فثقل عليهم ذلك!..»[5].

على أن هناك حقيقة هامة في الفكر الاجتماعي الثوري لعلي بن أبي طالب لا بدَّ من التنبيه عليها، وهي أن الرجل لم يتخذ موقفه الثوري هذا ضد جمع الثروة واحتيازها تحت تأثير الزهد في الدنيا والرغبة عن نعيمها ـ كما قد يظن البعض ـ فالرجل كان من أنصار أن يجعل الإنسان لنفسه حظاً طيباً من طيبات

---

(1) المصدر السابق، ج١٨ ص٥٢.
(2) (نهج البلاغة) ص٣٣٤ ـ ٣٣٥.
(3) المصدر السابق، ص٣٥١.
(4) المصدر السابق، ص٣٤٧.
(5) (شرح نهج البلاغة) ج١٦ ص٢٣.

هذه الحياة، بل وأن تظهر آثار نعم الحياة على الناس، فهو القائل: «... ولير عليك أثر ما أنعم الله به عليك..»[1]. كما كان عدواً للفقر كارهاً له مدركاً للأخطار التي يتهدد بها حياة الناس.. وذلك الأمر يتجلى في كلماته التي يقول فيها: «إن الفقر (هو) الموت الأكبر... الفقر يخرس الفطن عن حجته..» وعن الفقر تحدث إلى ابنه محمد بن الحنفية فقال: «يا بني، إني أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل داعية للمقت..» وعن موقفه هو من الفقر كان دعاؤه إلى الله: «... اللهم صن وجهي باليسار - (الغنى) - ولا تبذل جاهي بالإقتار. فأسترزق طالبي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، وأبتلي بحمد من أعطاني، وأفتتن بذم من منعني!» بل لقد بلغت عبقرية الإمام في هذا المقام إلى الحد الذي أدرك فيه العلاقة الوثيقة بين حب الإنسان لوطنه وبين ما يكفله هذا الوطن لأهله من حقوق مادية تيسر لهم فيه أمور الحياة.. وهو ما نسميه الآن - بلغة عصرنا - «المضمون الاجتماعي والاقتصادي للوطنية».. وعن هذا المعنى العميق تعبر كلمات الإمام علي الجامعة التي تقول: إن «الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة»؟!! وإن «المقل غريب في بلدته..»[2].

فهو موقف اجتماعي إذن.. وفكر منظم يستند إلى فلسفة تؤمن بالمساواة بين الناس.. وليس بموقف الزاهد المحب للفقر الهارب من زينة الحياة الدنيا وزخرفها، كما يتصور بعض الناس شخصية أمير المؤمنين.

طبقات المجتمع ومكانها

بل إن هذا الموقف الاجتماعي الذي ألمحنا من خلال الحديث عنه إلى فكر الإمام علي المتعلق بالثروة والمساواة بين الناس إزاءها، ليس سوى جزئية من الجزئيات التي ينتظمها موقف عام وتصور كلي كان لدى الرجل إزاء

---

(١) (نهج البلاغة) ص٣٥٩.. من كلماته إلى «الحارث الهمذاني».

(٢) المصدر السابق، ص٣٦٦، ٣٧٣، ٤٠٧، ٢٧٥، ٣٥٩.

المجتمع الذي حاول أن يقيم دعائمه في ذلك التاريخ. . وهو تصور نستطيع أن نستشف قسماته وملامحه إذا نحن أمعنّا النظر في تلك الوثيقة الهامة التي كتبها إلى الأشتر النخعي عندما ولاه على مصر. . ففيها نجد، ضمن ما نجد:

(أ) اعترافه بالواقع الذي يقسم المجتمع إلى طبقات. .

(ب) وحديث عن العاملين بالأرض، والموقف إزاءهم.

(ج) ثم حديث عن طبقة التجار والصنّاع.

(د) ثم حديث عن المساكين. .

(هـ) وأخيراً. . الحديث عن «الخاصة»، والموقف الذي يجب على الوالي عندما يتعامل معهم.

وفي كل ذلك نطالع ملامح واضحة لفكر اجتماعي متقدم تحلى به الإمام علي في الوقت الموغل في التاريخ.

١ ـ انقسام المجتمع إلى طبقات:

وهو انقسام تحدث عنه الإمام علي وأوضح معالمه بالتفصيل. . كما ذكر في ثناياه ما يرتبط ويتعلق بهذه الطبقات من «الفئات». . فعنده أن من طبقات المجتمع وفئاته: الجنود ـ والكتاب ـ والقضاة. . والعمال على الأقاليم والقائمون على شؤون جهاز الدولة. . والفلاحون الذين يدفعون الخراج عن الأرض، مسلمين كانوا أم معاهدين. . . والتجار وأهل الصناعات. . ثم أهل الحاجة من المساكين، الذين يسميهم: الطبقة السفلى. . وعنده كذلك أن هناك ارتباطاً بين هذه الطبقات والفئات يجعل من جميعها كلاً متكاملاً وجسماً واحداً، وأن الرباط الذي يربطها ويحفظ توازنها هو العدل الذي يجب أن يتوافر لها من قبل الحكام. .

أما كلماته التي تحكي عن ذلك فهي التي يخاطب بها «الأشتر النخعي» فيقول: «. . . واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلاّ ببعض، ولا غنى

بعضها عن بعض، فمنها: جنود الله، ومنها: كتاب العامة والخاصة، ومنها: قضاة العدل، ومنها: عمال الانصاف والرفق، ومنها: أهل الجزية والخراج، من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها: التجار وأهل الصناعات، ومنها: الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة... فالجنود حصون الرعية.. وسبل الأمن.. ثم لا قوام للجنود إلاّ بما يخرج الله لهم من الخراج.. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلاّ بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب. ولا قوام لهم جميعاً إلاّ بالتجار وذوي الصناعات...»[1].

٢ ـ الذين يفلحون الأرض:

ولقد احتلت مكانة الطبقة التي تفلح الأرض وتستزرعها مكاناً بارزاً وهاماً في الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب، بل أن حديثه عنها ووصاياه بشأنها تجعلنا نقول: إن فكره الاجتماعي قد جعل مكان هذه الطبقة أبرز مكان وأهمه بالقياس إلى باقي الطبقات. فقد كانت المجتمعات التي فتحت ـ في العراق والشام ومصر ـ مجتمعات زراعية بالدرجة الأولى، وكان الخراج ـ ضريبة الأرض الزراعية ـ أهم مصدر من مصادر ثروة الدولة، وكان المرتبطون بالأرض يمثلون الأغلبية العددية للسكان، ومن هنا ـ مع فكر الرجل الاجتماعي المتقدم ـ كان المكان الهام والبارز لهذه الطبقة في فكره الاجتماعي.

فهو يطلب من واليه على مصر أن يرعاهم ويتفقد أمرهم، لأن أمر سائر طبقات المجتمع متوقف على أمرهم.. ويرسم له فلسفة تدعو إلى التعمير كوسيلة تثمر بالتبعية تحصيل ضريبة الخراج، فالتعمير والاستصلاح أولاً، ثم التفكير بعد ذلك في تحصيل الخراج.. فيقول له: «وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلاّ بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله.. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلاّ بالعمارة، ومن طلب

(١) المصدر السابق، ص٣٢٧.

الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلاَّ قليلاً. فإن شكوا ثقلاً أو علة.. خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم.. فلا يثقلن عليك أي شيء خففت به المؤونة عنهم.. وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر!!»[١].

ثم يحدد لعمال الخراج وجباة الضرائب وظائفهم، فهم ليسوا بمتسلطين، وإنما هم القائمون على خزائن الأموال، وهذه الخزائن إنما هي للرعية أصلاً، ومن ثم فإنهم «وكلاء الأمة» كما هم «سفراء الأئمة» ولذلك فهو يدعوهم للإنصاف ويقول لهم: «.. فانصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم» إذا حلَّ أجل خراجهم ولم يتيسر لهم الأداء[٢]..

وفيما يتعلق بسلوك الجهاز الحكومي القائم على جمع الضرائب وجباية الخراج، يزخر الفكر الاجتماعي للإمام علي بمجموعة من القواعد والوصايا التي ترسم العلاقة بين هذا الجهاز وبين الفلاحين، وتحدد الحدود التي يجب أن لا يتعداها أهل هذا الجهاز.

فهو يطلب من عامل الخراج أن لا يفزع الناس ولا يروعهم ولا يظهر لهم الكراهة.. وإذا دخل مكاناً لجباية ضرائبه فلينزل بعيداً عن موضع أموال الناس، ولا يذهب إلى مكان ثرواتهم إلاَّ بإذنهم ودعوتهم.. ولا يطلب خراجاً إلاَّ ممن يعترف راضياً بأن لديه النصاب الذي يجب فيه الخراج.. وعند القسمة وتحديد نصيب بيت المال، يقسم عامل الخراج ويدع الاختيار لصاحب المال..

وفوق ذلك كله يقرر الإمام علي بأن هناك حداً أدنى لمستوى المعيشة يلزم توفيره للإنسان، فلا يجوز الاستيلاء على شيء منه وفاء بدين أو خراج مستحق للدولة عند المواطنين، وهذا الحد الأدنى يتمثل في: كسوة الإنسان، صيفاً وشتاء، وأدوات عمله في الأرض، بما فيها الدواب والعبيد..

---

(١) المصدر السابق، ص٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٢) المصدر السابق، ص٣٣٢.

ثم يعلن تحريم العقوبات البدنية ويمنع استخدامها كوسيلة للكشف عن الأموال التي يعتقد عمال الخراج أنها مخبأة ومستورة لدى الناس. . ويقرر منع المصادرات على الإطلاق، سواء أكان المواطن مسلماً أم غير مسلم، اللهم إلاّ إذا تعلق الأمر بأدوات قتال يستخدمها البعض في الاعتداء على الإسلام والمسلمين؟!.

وعن هذه المبادىء والقواعد والوصايا والقوانين يتحدث الإمام علي إلى عماله على الخراج فيقول: «. . فأنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم، فإنكم خزّان الرعية، ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة. ولا تحشموا ـ (تغضبوا) ـ أحداً عن حاجته، ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعن الناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يحتملون عليها ولا عبيداً، ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم، ولا تمسن مال أحد من الناس، مصل ولا معاهد، إلاّ أن تجدوا فرساً أو سلاحاً يعدى به على أهل الإسلام. .»[1].

وفي «بيان عام» كتبه وصية لمن كان يتولى أمر الخراج، تحدث إلى عامل الخراج يقول: «. . . ولا تروعن مسلماً، ولا تجتازن عليه كارهاً، ولا تأخذ منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار. . فتسلم عليهم. . ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل: لا، فلا تراجعه، وإن أنعم لك منعم ـ (أي قال لك: نعم) ـ فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلاّ بإذنه، فإن أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها؟ ولا تسوءنَّ صاحبها فيها. .»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص٢٩٨ ـ ٢٩٩.

ثم يستطرد الإمام علي ـ في موطن آخر ـ فيحذر عمال الخراج من ظلم الرعية وخيانة الأمانة، قائلاً لهم: إن «من استهان بالأمانة، ورتع في الخيانة، ولم ينزه نفسه ودينه عنها، فقد أحلَّ بنفسه، الذل والخزي في الدنيا، وهو في الآخرة أذل وأخزى، وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأفظع الغش غش الأئمة..»[1].

هذا عن الذين يفلحون الأرض من طبقات المجتمع.

٣ ـ طبقة التجار والصناع:

أما أصحاب التجار وأرباب الصناعات فلقد نبَّه الإمام علي عامله في مصر إلى أهمية دورهم ومكانهم في المجتمع، فهم الذين يجلبون احتياجات الناس من مصادرها إلى حيث ييسرونها لمحتاجيها، وهم الذين تقوم بهم وعليهم مرافق البلاد، ومن ثم فإن على الوالي أن يتفقد شؤونهم ويرعى أحوالهم... ولكنه يلفت نظر واليه إلى ما في هذه الطبقة من سلبيات وعيوب اجتماعية واقتصادية، ففيهم يتفشى البخل والشح، والرغبة في الاحتكار والاستغلال، فعلى الوالي أن يتصدى لمنع كل ذلك ومطالبة أصحابه، بل والتنكيل بهم، في غير إسراف؟!.. فيقول للأشتر النخعي «... ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات، وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله ـ (أي المتجول في البلدان) ـ والمترفق ببدنه ـ (أي المتكسب بعمله اليدوي) ـ فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجلابها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها. فتفقد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك.. واعلم ـ مع ذلك ـ أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة، وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله منع منه، وليكن البيع بيعاً سمحاً، بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين: من البائع والمبتاع،

---

(١) المصدر السابق، ص٣٠٠.

فمن قارف حكرة ـ (احتكاراً) ـ بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبه في غير إسراف . . »[1] .

٤ ـ الطبقة السفلى :

ثم يوصي عامله على مصر خيراً بالطبقة السفلى من طبقات المجتمع، وهم الذين لا قدرة لهم على الكسب والتكسب، ومن ثم فإن لهم ـ في فكر علي الاجتماعي ـ حقوقاً مقررة ومقدسة في بيت المال. . وفي هذه الطبقة يعد علي: العاجزين عن العمل «من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى» ـ أي أصحاب الأمراض والعاهات المزمنة ـ وكذلك اليتامى وكبار السن، من «أهل اليتم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة لهم». وكذلك الذين يمنعهم الحياء عن سؤال الناس رغم حاجتهم. . ولكل هؤلاء يطلب الإمام علي تخصيص قسم من أموال «صوافي الإسلام في كل بلد» ـ أي من الأموال العامة الخاصة بالدولة ـ، وأن يتفرغ لرعاية أمرهم وبحث أحوالهم، وعرض شأنهم على الوالي، قوم أهل ثقة «ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم. . » . . بل، وأكثر من ذلك، فإن على الوالي أن يخصص من وقته قسماً يتفرغ فيه لأمور هذه الطبقة، بعد أن يبعد عنهم جنوده وحرّاسه وأعوانه، حتى يتحدثوا إليه في قضاياهم واحتياجاتهم ومظالمهم دون رهبة، وفي طلاقة لا تحجب ألسنتهم دونها «تعتعة» مصدرها الخوف والإرهاب، فيقول له: « . . . وتجلس لهم مجلساً عاماً، فتتواضع فيه. . وتقعد عنهم جندك وأعوانك. . حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع، فإني سمعت رسول الله يقول في غير موطن: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع . . . »[2] .

٥ ـ طبقة «الخاصة» :

ونحن نعتقد أن كلمات الإمام علي التي تحدث بها إلى عامله على مصر

---

(١) المصدر السابق، ص٣٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص٣٤٢ ـ ٣٤٣.

ـ الأشتر النخعي ـ هي من أكثر الكلمات حسماً ووضوحاً في الدلالة على الموقف الاجتماعي المتقدم والفكر الثوري الذي كان لدى هذا الإمام العظيم. . .
فهو يطلب من واليه أن يكون اعتماده دائماً وأبداً على «العامة» دون «الخاصة»، لأن «العامة» هم «عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدة للأعداء». . بينما «الخاصة» لا همَّ لهم إلاً مصالحهم الذاتية الضيقة، ومطالبهم الأنانية الفردية، ثم هم يضعون أنفسهم في خدمة كل ظالم بصرف النظر عن الدول والعهود!!. . ثم يطلب إليه أن يكون يقظاً إلى أطماع طبقة «الخاصة»، فهم يريدون «الاستئثار» بالأموال والاحتكار للمزايا، و«التطاول» على الرعية، وهم يجنحون دائماً إلى «قلة الإنصاف». . . ثم ينهاه عن أن يهبهم الهبات أو يقطعهم الاقطاعات، أو يسمح لهم بتسخير الناس لديهم أو الغفلة عن محاولاتهم الاستئثار بالمنافع العامة، مما يجلب لهم المنفعة، ويسبب النقد والسخط على الدولة والولاة؟!. .
وعن كل ذلك يقول الإمام علي للأشتر النخعي: «. . ثم إن للوالي خاصة وبطانة، فيهم استئثار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال؟!. ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك ـ (خاصتك وقرابتك) ـ قطيعة (إقطاعاً ومنحة من الأرض) ـ ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس من شرب أو عمل مشترك، يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهنأ ذلك ـ (أي منفعته الهنيئة) ـ لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة. . وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمقها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة. . وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر، من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين، وجماع المسلمين والعدة للأعداء، العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم وميلك معهم!!»[1].

---

(١) المصدر السابق، ص٣٣٦.

ثم ينصح واليه أن لا يتخذ له وزيراً قد شارك في خدمة سلطة ظالمة من قبل فيقول له: «. . إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة. . وأنت واجد منهم خير الخلف، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم ـ (ذنوبهم) ـ وأوزارهم، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه. .»[1].

هذا عن الطبقات والفئات الاجتماعية التي أبصر فكر الإمام علي الاجتماعي انقسام المجتمع إليها، ودور كل منها في الحياة العامة، وموقفه هو شخصياً وتقديره لكل طبقة من هذه الطبقات. . ولقد رأينا كيف انحاز فكره وموقفه إلى «العامة» ضد «الخاصة»، لأن العامة هم «عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدة للأعداء» بينما «الخاصة» أثقل مؤونة في الرخاء، وأقل معونة في البلاء، وأكره للانصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر. . ؟!».

المال العام

وقسمة أخرى من قسمات الفكر الاجتماعي المتقدم للإمام علي تطالعنا في موقفه من حق الحاكم وحريته إزاء المال العام. . فنحن قد أشرنا من قبل إلى تلك الفلسفة التي وجدت طريقها إلى فكر عثمان بن عفان، والتي تبيح للإمام أن يتصرف لحسابه الخاص في «فضول الأموال»، أي ما زاد عن أعطيات الناس، وإلاً فلم كان إماماً إذاً؟!! غير أننا نلتقي في الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب بفلسفة هي على النقيض من تلك تماماً. .

فهو الذي رفض أن يعطي أخاه «عقيلاً» شيئاً من بيت المال، رغم حالة الفقر الشديد التي كان عليها، عندما أصبح «صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم» رفض علي أن يعطيه «صاعاً» من قمح بيت المال، لأن رأى أنه

---

(١) المصدر السابق، ص٣٣٦.

بذلك سيكون «ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام؟!»[1].

وهو الذي رفض أن يعطي أحد شيعته ـ عبد اللّه بن زمعة ـ شيئاً من بيت المال، وقال له: «. . إن هذا المال ليس لي ولا لك، وإنما هو فيء المسلمين» وأنه ثمرة لجني أيديهم وقتالهم، وما تجنيه الأيدي يكون لأفواه أصحاب هذه الأيدي، لا للذين لم يشاركوهم العمل والجهاد[2]!!

فنحن هنا بإزاء فلسفة متميزة ونظرة خاصة للمال العام، لا تستحل التصرف فيه إلاَّ لأهله، حتى ولو كان مصدر هذا التصرف هو أمير المؤمنين.

وذلك. . مع ما تقدم من التصدي لملأ قريش وأغنيائها. . . وعزل عمال عثمان الذي حولوا ثروة المسلمين العامة إلى «بستان» خاص لقريش، وجعلوا مال الناس العام «طعمة» خاصة لأفواه قلة قليلة. . والتغيرات الاجتماعية لنظام التمايز والتمييز الطبقي الذي ساد واستشرى زمن عثمان بن عفان، والانحياز إلى طبقة «العامة» ضد «الخاصة» عند التقييم لطبقات الأمة الاجتماعية. . إن ذلك كله، وكثير مثله، يضع يدنا ويفتح عقولنا على صحفة مشرقة من صفحات تراثنا الفكري تتمثل في الفكر الاجتماعي الثوري والمتقدم لعلي بن أبي طالب، وهي صفحة تبعث فينا الفخر والاعتزاز، وتستحق منا التأمل والدرس والاعتبار.

الدكتور محمد عمارة

الاستراتيجية والتكتيك العسكري عند علي (ع)

تناول الكثير من الكتاب مختلف جوانب حياة الإمام علي بالبحث والتنقيب، واكتشفوا من خلال مسيرة البحث الطويلة تلك ـ والتي سوف لن تنتهي أبداً ـ الكثير من الصفات النادرة النبيلة التي كان يتمتع بها الإمام وأخرجوها للعالم على شكل كتب أصبحت تتداول في كل بيت ومكتبة تشهد

---

(١) المصدر السابق، ص٢٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص٢٧٩.

للإمام بالحجة الواضحة بما يملكه من تلك المواهب والصفات، فمنهم من كتب عن شجاعته، ومنهم من كتب عن عدالته واستقامته في حياته، ومنهم من كتب عن إنسانيته وعروبته، ومنهم من كتب عن زهده، بحيث لم يبقَ مما هو معروف من الصفات الحميدة إلا ووجد بأنه المبرز المتقدم فيها. وعلى كثرة ما كتب عنه (ع) إلاً أن جانباً آخر مهماً من حياته لم تتم معالجته بالصورة التي تبرز ما يملكه من قدرات وإمكانيات كبيرةٍ وفهم واسع في مجال آخر، أعني به مجال القيادة العسكرية والقدرة على إدارة الحرب والتخطيط لها، وربما كان سبب ذلك يعود إلى أن كل من يتناول صفاته وقدراته الأخرى في البحث والتنقيب لم يكن يمتلك الخبرة والقدرة المهنية التي تؤهله لأن ينعطف على هذا الجانب فينقب فيه مكتشفاً كنوزه الرائعة، أي أن كل من كتب عن الإمام علي استطاع أن يبرز في الجوانب التي يمتلك فيها خبرة أو اختصاصاً مكنه في أن يخوض ما خاض فيه خارجاً بنتائج وآراء مهمة وجيدة، أما الجانب العسكري في حياة الإمام علي فإنه يحتاج هو الآخر إلى من يمتلك الخبرة في هذا المجال تمكنه من البحث والتنقيب منتهياً إلى إبراز هذا الجانب الهام من حياة الإمام الزاخرة الممتلئة بالكفاح المسلح والجهاد المتواصل حتى آخر يوم من حياته الشريفة دفاعاً عن المثل والقيم الإسلامية والإنسانية التي نذر حياته من أجلها، وكتب التاريخ العربي والإسلامي مليئة بمشاهد فريدة ناصعة له، تستحق منا أن نلتفت إليها نافضين عنها غبار الزمن مقدمة بحلة عصرية يتقبلها ذوق العسكري والمثقف على حد سواء، وربما كان من الأسباب التي جعلت الكُتّاب المعاصرين يحجمون عن الكتابة في هذا الجانب هو كون حروب الإمام علي كانت داخلية وإن البحث فيها مدعاة لإثارة هواجس البعض ومشاعرهم، إلاً أننا لا نجد ذلك مبرراً لأن نقف أمام هذا التراث العظيم من الخبرة والموهبة موقف الإهمال، ونحن هنا نهدف إلى الدراسة المجردة البعيدة عن الخوض في الأسباب التي أدت إلى هذه الحروب والتي يمتلك إزاءها الكثير من المسلمين مواقف فكرية مختلفة كانت ولا زالت جزءاً من أسباب الاختلاف بينهم.

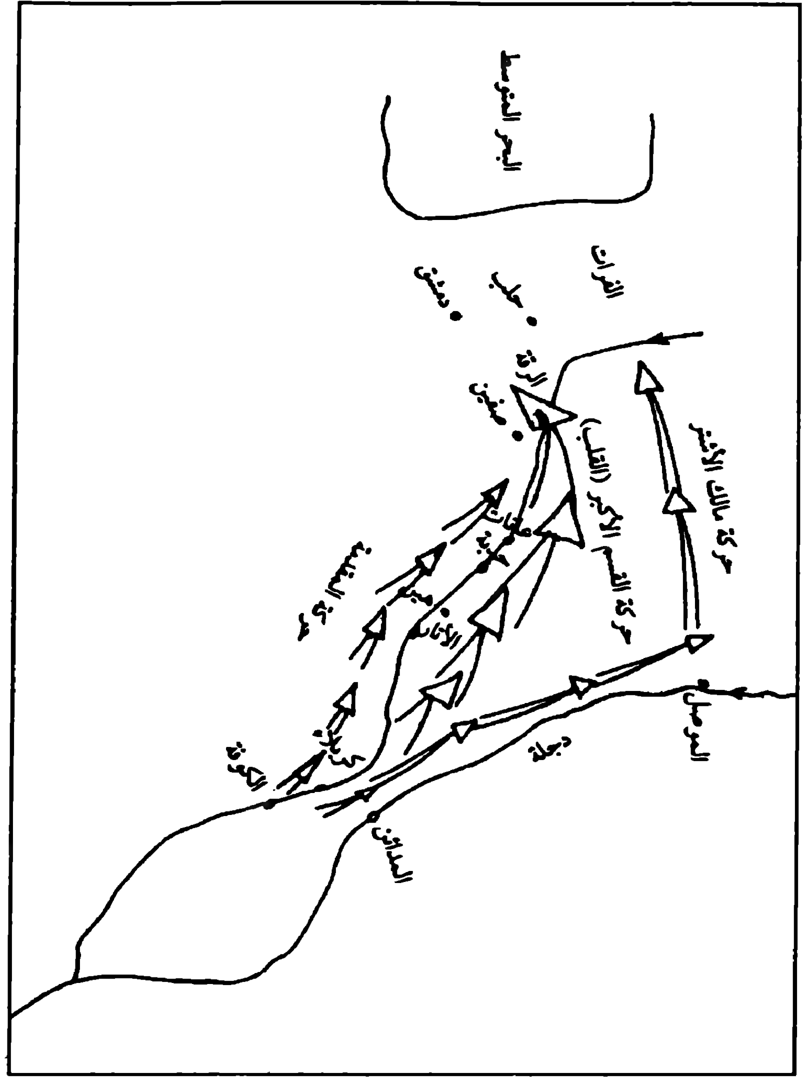
وبالطبع فإن هذا لا يعني بأننا سوف نعزل الحرب بصورة عامة عن أسبابها ـ وهي سياسية ـ لأننا سوف لن نوفق بصورة كاملة إلى الوصول إلى عرض جاد وحقيقي، لأن الحرب أساساً هي إحدى وسائل السياسة. بل إنها آخر وسيلة من وسائلها، فهي إذن جزء منها، إلاّ أننا سوف نبذل جهدنا كي نبتعد عن المواضع التي تثير أو تساعد على إثارة تلك الأسباب، لأننا لا نهدف أساساً إلى ذلك، والله الموفق.

الاستراتيجية والتكتيك عند الإمام علي (ع)

تبرز قدرة الإمام علي وفهمه «الاستراتيجي» واضحين للعيان خلال تقدمه الكبير على رأس قواته من الكوفة ـ وبالتحديد من منطقة التحشد التي انتخبها في منطقة النخيلة والتي تقع إلى مسافة حوالي ٢٠ كلم جنوب كربلاء ـ إلى منطقة صفين حيث قطع مسافة لا تقل عن ١٠٠٠ كلم عبر فيها الوديان والسهول والصحاري على رأس جيش يصل تعداده إلى ما يزيد عن الخمسين ألفاً من المقاتلين حيث أعد العدة وأكمل استعداداته لهذا التقدم الطويل بكل تفاصيله ومتطلباته. يعتبر كل من عاملي الأمن والاستخبارات من أهم مبادىء نجاح التقدم، ولم يكن هذا الأمر قد غاب عن الإمام مطلقاً وقد درس الأرض التي تعتبر مفتاح نجاح عملية التقدم، ووضع على ضوء تلك الدراسة خطة واضعاً نصب عينيه المبدأين اللذين أشرنا إليهما آنفاً، فالأرض التي قرر الإمام أن يتقدم عليها تحدها من الغرب صحراء قاحلة تنتهي إلى أرض الشام، حيث لم يغفل الإمام احتمال أن يدفع خصمه بقوة قادرة على إرباك عملية التقدم متوجهة شرقاً باتجاه نهر الفرات عبر المسالك الكثيرة التي تخترق الصحراء، لذا فإنه قد أفرد قوة مقدمة تعدادها إثنا عشر ألفاً من الفرسان تسير بمحاذاة الجانب الأيمن لنهر الفرات مزوداً إياها بوصايا واضحة عن واجباتها وأساليب عملها هي أروع وصايا يصدرها قائد لجزء من قواته مكلف بواجب خاص ـ متحدث عنها بصورة مفصلة ـ وقد سبق إرسال الإمام للمقدمة تلك إرسال فرقة بقيادة مالك الأشتر

انطلقت من المدائن وسارت بمحاذاة نهر دجلة متجهة إلى الموصل ويعنبين ودارا ثم انكفأت بمحاذاة نهر الخابور مخترقة جبال سنجار متجهة إلى عنة وهيت، وبذا يكون الإمام قد أتم الإجراءات التي تكفل له ضمان أمن قواته المتقدمة شمالاً، بعد أن ظهرت تلك القوة في مناطق الموصل والجزيرة وأعالي الفرات تذكر بأن جيش الإمام يستطيع الوصول إلى أقصى نقطة تمتد إليها سلطة الدولة شمالاً، وقد قام مالك الأشتر قائد تلك القوة بالظهور في المناطق التي توالي معاوية في كل من حرّان والرقة وقرقيسيا، مما ترك أثراً كبيراً في نفوس عامة الناس ومنعهم من القيام بأي عمل مناوىء لسلطة الخلافة. تقدمت بقية القوات والتي تتألف من القسم الأكبر مع الجنبات والمؤخرة، ـ الساقات ـ بين نهري دجلة والفرات، حيث عبرت قواته كربلاء متجهة إلى بابل ومنها إلى المدائن التي تركها بسرعة مارّاً بالخانق الضيق الذي يفصل بين النهرين والذي تقع فيه الآن مدينة بغداد متجهاً شمالاً نحو مدينة الأنبار الواقعة على نهر الفرات، ثم تقدم منها بمحاذاة الجانب الأيسر لنهر الفرات مارّاً بهيت وحدية وعنة ثم الرقة حيث عبر منها إلى الجانب الأيمن من نهر الفرات نحو الجزيرة المترامية التي تفصل العراق عن الشام.

وكانت خطة الإمام أن تلتقي قواته في الرقة، حيث كانت تتألف من ثلاثة مجموعات: جيش مالك الأشتر الذي أرسله إلى الموصل والجزيرة، وقوة المقدمة بقيادة زياد بن النضر وشريح بن هانىء، وقوات القسم الأكبر التي يقودها هو، وكانت خطته تلك تستهدف في الواقع تأمين عاملي الأمن والاستخبارات الجيدة ـ الحصول على المعلومات عن العدد ـ وقد أمكنه ذلك بالفعل فكانت قوات الأشتر وقوات المقدمة ترسل له يومياً المعلومات المفصلة عن طبيعة الأرض واتجاهات السكان وطبيعة تعاطفهم وموقفهم من الحرب، كما قامت بعمليات جس النبض في المنطقة التي تقدمت فيها حيث نشبت بعض المعارك المحدودة بين قوات مالك الأشتر وقوات أرسلها معاوية لنفس الغرض، وقد كانت الخطة تهدف أساساً إلى ظهور قوات الإمام من أعالي الشام في منطقة



الرقة التي تواجه سهل حلب الفسيح، مما سيترك آثاراً هامة على سكان المدن الواقعة شمال الجزيرة بموازاة حافاتها حتى مدينة حمص ـ التي امتنع عدد كبير من أهلها من المشاركة في جيش معاوية ـ إضافة إلى أنه قد اكتسح كل المقاومات التي نظمتها قوة مقدمة أفرزتها قوات معاوية دون قتال يذكر مع العلم بأن مناطق فارس كلها إلى الشرق وولايات الجنوب حتى نجد والحجاز كانت موالية له. كما يخضع شمالي أرض الخلافة بصورة مطلقة له، وبذا يكون قد أمن جناحه الأيمن بصورة كاملة، كما أن خط سيره الممتد عبر سهول مروية وأرض ملائمة للتقدم وبمحاذاة الجانب الأيسر لنهر الفرات قد أمن له الماء بصورة مستمرة خلال مسيره الطويل إلى أرض المعركة التي انتخبها مسبقاً من أرض العدو قريبة إلى قاعدته الرئيسية في دمشق، أي أن المعركة ستكون فاصلة وحاسمة لن يكون لعدوه فرصة إعادة تنظيمه لمعركة مشابهة لتلك التي ستجري في صفين وقد يكون مستحيلاً عليه أن يستطيع أن يقاتل مرة أخرى.

ولم يكن الإمام يجهل التكتيك ـ تعبئة القوات في ساحة الحرب ـ بل كان يملك من الخبرة في هذا المجال ما يفوق به غيره من القادة المعروفين في

التاريخ العسكري، فلننظر إلى توجيهه المكتوب الذي أصدره إلى كل من زياد بن النضر وهاني بن شريح ولقد كتب لهم توجيهاته تلك كما يفعل القادة في الحروب الحديثة، ويقصد من ذلك هو إلزامهم بتطبيق تلك الأوامر وعدم إعطائهما أي عذر بسبب نسيانهما لها فيما لو أصدرها لهم شفهياً، لم تكن الأوامر حرفية تدخل في كل التفاصيل الواجب اتباعها عند كل موقف، فقد ترك لهما الحرية في معالجة الأمر عند حدوث اشتباك محدود ومعالجة موقف طارىء. إلا أنه ألزمهما بالإطار العام لعمل المقدمة التي كلفا بقيادتها. كما أن الإمام قد قام بمعالجة الخلاف الذي وقع بينهما بنظرة القائد الثاقبة، فعندما كتبا له بأنهما لا يعرفان من هو المسؤول عن قيادة القوة أجابهما بكتاب أوضح فيه درجات القيادة. فقد قسم القوة إلى قسمين وجعل على كل واحد منهما أميراً أما إذا واجهت القوة موقفاً يقتضي منها وجود قائد واحد، كأن تشتبك مع العدو أثناء تقدمها فإن قائد القوة زياد بن النضر، وهو المسؤول عن إدارتها وقيادتها، وإن افترقت القوتان فعلى كل واحد منهما أمير، وهذا الأسلوب متبع الآن في الحرب الحديثة، حيث توضع قوة بأمرة قوة أخرى لأغراض الحركات، حيث يصدر أمر الحركات الخاص بهذه القوة ويحدد فيه القائد المسؤول عن قيادتها، وهي درجة من درجات القيادة في العمليات، وما فعله الإمام مهم جداً، لأنه يتوجب وجود قائد واحد يكون وحده المسؤول عن إدارة العمليات، لأن وجود قائدين في آن واحد على رأس القوة سوف يفقدها قابلية اتخاذ القرار السريع والضروري لمعالجة أي موقف طارىء، وهناك مثل معروف تتداوله الجيوش الحديثة حول مشكلة تعدد القادة، وهو «قائد واحد غير كفوء خير من عدة قادة أكفاء».

كتب الإمام توجيهه التالي:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى زياد بن النضر وشريح بن هانىء سلام عليكما، فإني أحمد إليكما الله لا إلٰه إلا هو. أما بعد فإني قد وليت

مقدمتي زياد بن النضر وأمرته عليها، وشريح على طائفة منها أمير، فإن أنتما جمعكما بأس فزياد بن النضر على الناس، وإن افترقتما فكل واحد منكما أمير الطائفة التي وليناه أمرها. واعلما أن مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم. فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع. ومن نفض الشعاب والشجر والخَمَر في كل جانب كي لا يغتركما عدو، أو يكون لكم كمين، ولا تسيّرن الكتائب والقبائل من لدن الصباح إلى المساء إلاّ على تعبية، فإن دهمكم داهم أو غشيكم مكروه كنتم قد تقدمتم في التعبية، وإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن كرُكم في قبل الإشراق أو سفاح الجبال أو أثناء الأنهار، كي ما يكون ذلك لكم ردءاً وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين. واجعلوا رقباءكم في صياحي الجبال وبأعالي الإشراف ومناكب الهضاب يرون لكم لئلا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن. وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً، وإذا غشيكم ليل فنزلتم فحفوا عسكركم بالرماح والأترسة، ورماتكم يلون ترستكم ورماحكم، وما أقمتم فكذلك فافعلوا كي لا تصاب لكم غفلة، ولا تلفى منكم غرة، فما قوم حفوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون، واحرسا عسكركما بأنفسكما، وإياكما أن تذوقا نوماً حتى تصبحا إلا غراراً أو مضمضمة، ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنتهيا إلى عدوكما، وليكن عندي كل يوم خبركما ورسول من قبلكما، فإني ـ ولا شيء إلا ما شاء الله ـ حثيث السير في آثاركما. عليكما في حربكما بالتؤدة، وإياكم والعجلة إلا أن تمكنكم فرصة بعد الأعذار والحجة. وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما إلا أن تبدءا أو يأتيكما أمري إن شاء الله والسلام».

تقسم القوة المتقدمة عادة إلى الأقسام التالية (وهذا التقسيم لم يتبدل في جوهره مطلقاً وظلت الجيوش المتقدمة خلال كل الحروب قديمها وحديثها تتبع نفس الأساليب هذه حتى عصرنا الراهن، وقد اتبع الإمام نفس تلك الأساليب خلال تقدمه هذا):

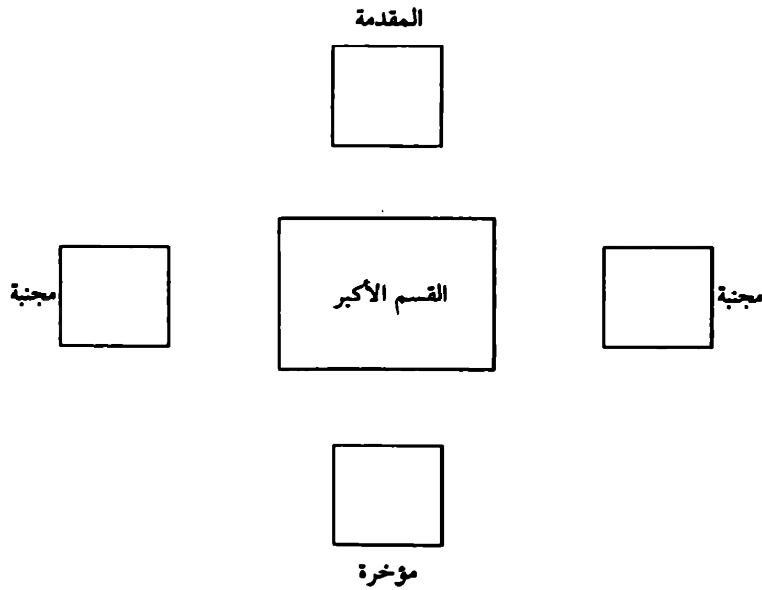
أولاً المقدمة :

ثانياً: القسم الأكبر.

ثالثاً: المجنبات ـ واحدة أو اثنين ـ حسب طبيعة الأرض وتهديد العدو.

رابعاً: المؤخرة ـ أو الساقات ـ.

ويؤثر في كل قسم من هذه الأقسام الأربعة وفي حجم قواته ونوعية أسلحته عوامل كثير أهمها: طبيعة الأرض وقوة العدو التي يفرزها على محور تقدم القوات ونوع التسليح المعادي، وهذه العوامل تفرض نفسها على جسم كل منها في كل العصور والأزمان. فتأليف قوة المقدمة يتأثر بطبيعة الأرض، جبلية كانت أم سهلية أم صحراوية، كما يتأثر بحجم القوات التي يفرزها العدو على محور تقدمها لفرض فرص الإعاقة عليها، أو إيقاع أكبر ما يمكن من الخسائر بها، كما يؤثر نوع التسليح المعادي على حجم القوة ونوع التسليح الواجب، امتلاكها له. ويظهر ذلك جلياً في الحرب الحديثة، فإذا كانت الأرض تسهل حركة نوع معين من القوات كالدروع مثلاً، كأن تكون مفتوحة وصلبة كالأراضي الصحراوية والسهلية، فإن قوة المقدمة يمكن أن تحتوي على نسبة من الدروع، أما إذا كانت جبلية قليلة المسالك فإنها تعتمد على المشاة الذين ينتقلون على الحيوانات، كما أن مقاومة العدو ـ قوته ـ إن كانت كبيرة، فإنها تحتاج إلى قوة أكبر في المقدمة، وإذا كان العدو يملك قوة نارية ضخمة في مواقع الإعاقة التي يتركها على محور أو محاور التقدم



فإننا سنحتاج إلى أسلحة تؤمن قوة نارية ملائمة لمعالجة قوة العدو تلك، حيث تفرز مدفعية معينة أو قوة مدرعة لتأمين هذا التوازن، إلا أن امتزاج هذه العوامل الثلاثة هو الذي يؤثر في القرار النهائي على حجم وطبيعة تسليح القوة المتقدمة، وهذه العوامل الثلاثة تؤثر أيضاً على تشكيل قوات المقدمة. وهذه العوامل الثلاثة فرضت تأثيرها كذلك على تشكيل قوة المقدمة خلال الحروب السالفة، فالأرض تؤثر على نوع القوة راجلة أو راكبة، نوع تسليحها وثقله وهكذا.

ولم يكن العرب في الجاهلية يعرفون هذا التقسيم للقوات لا أثناء التقدم ولا أثناء المعارك التي كانت تأخذ طابع الكر والفر المنهك للقوات، إلا أنهم تعلموه من خلال احتكاكهم بجيوش الدولتين التي قاتلوها أثناء الفتح الإسلامي لبلاد الشام والعراق، وهما الدولتان البيزنطية والفارسية.

وقد أوضح الإمام علي (ع) واجبات المقدمة بدقة رائعة تبعث على الإعجاب ولم يكن توجيهه هذا يقل روعة وبياناً عن أي كراسة عسكرية تدرس في كليات الأركان في مختلف جيوش العالم.

فواجب المقدمة الأساسي هو الاستطلاع والصد، أما القسم الأكبر، وهي عيون المقدمة التي ترى فيها العدو، كما جرت العادة أن تفرز المقدمة قوة صغيرة أمامها تسمى بالطليعة تتقدم أمام المقدمة تكون بمثابة عين لها. حيث يوصي الإمام قائدي قوة المقدمة أن لا يملاً من إخراج الطلائع أمام قواتهما وتوجيهها إلى كل الاتجاهات، فتقوم بالتفتيش في كل الوديان والغابات، ولقد جاءت كلمة (نَفض) بليغة جداً في معناها اللغوي فهي تعني الجماعة الحشد الذي ينتشرون في الأرض ليتحسسوا وبالتالي لينظروا هل فيها عدو أو خوف، والغاية من ذلك هي حرمان العدو من مباغتة القوة أو وقوعها في كمين، ينصبه العدو لها أثناء تقدمها، وقد أمر الإمام (ع) أن تكون الكتائب المتقدمة متأهبة للقتال دوماً، وذلك بأن تأخذ شكل الانفتاح النهائي للمعركة، لأن ذلك يجنب القوة ضياع الوقت، وفي حالة تقدم المقدمة بشكل اعتيادي فإن القائد سوف

يحتاج بالتأكيد إلى وقت تستغرقه عملية إصدار الأوامر ثم انفتاح القوة يميناً ويساراً وإلى الأمام، مما سيمكن العدو من الفرار بعد أن يقوم بضرب القوة، لذا فإن تقدم قوة المقدمة، وهي منفتحة بتشكيل المعركة، سوف يمكنها من الرد الفوري والسريع إزاء أي هجوم مباغت معادي يمنع العدو من التملص والفرار مما يضطره إلى الانسحاب دون أن ينفذ هجومه أو تتحرك كمائنه.

يوضح الإمام كذلك أسلوب احتلال معسكر في العراء، وهو موضوع عالجته كراسات التعبية في المناطق الجبلية أيضاً، فالإمام يطلب إنشاء هذا المعسكر عندما تقترب القوة من العدو أو يقترب هو منها في المناطق المرتفعة أو سفوح الجبال أو في منعطفات الأنهار، كي تؤمن لهذه المعسكرات ستراً طبيعياً من رصد ونيران العدو ـ سهامه ورماحه قديماً ـ كما يؤمن ذلك حماية لأحد جوانب المعسكر مما يؤدي إلى الاهتمام بمراقبة جهة معينة أو اثنتين، والذي تفرضه طبيعة الأرض، وهذا الأسلوب يجبر العدو على التحرك باتجاه معين، كما يقتضي أن تخرج، القوة التي اتخذت لها معسكراً، قوة من الراصدين أو الرقباء تدفعهم إلى المناطق المرتفعة التي تحيط بالمعسكر، فتقوم بالرصد وإخبار القوة المعسكرة بأي حركة يقوم بها العدو، وبهذا يحرم من مباغتة القوة والهجوم عليها وهي في معسكرها دون استعداد أو إنذار مسبق، ولبقاء القوة متماسكة أهمية كبيرة في تنفيذ الواجبات وصد غارات العدو وإفشال كمائنه، فإذا انقسمت القوة إلى مجموعات ثانوية تنتقل الواحدة بعيداً عن الأخرى دون تنسيق بكتل صغيرة، فإنها ستصبح عرضة للتدمير الواحدة بعد الأخرى، لذا فإن الأمام ينصح القائدين بأن يعسكرا سوية ويرتحلا سوية كي لا يصبحا هدفاً سهلاً اصطياده في حال تفرق القوة وتنقلها بوحدات فرعية ليلاً ونهاراً، ثم يعود الإمام (ع) إلى وصف المعسكر، الذي تتخذه القوة أثناء تنقلها أو عند مقابلتها للعدو قبل نشوب القتال، فيحدد شروطاً هامة فيه تتعلق ببنائه أولاً وأسلوب العمل داخله من حيث توزيع الأسلحة والقوات. وكراسات التعبئة في المناطق الجبلية أكدت على

شروط معينة في بناء المعسكر وهي بناء جدار حول المعسكر من أكياس الرمل أو المواد التي تتيسر في المنطقة، ثم توزيع القوات داخله، كما تثبّت الأسلحة على جداره الخارجي، لأن بعض المعسكرات التي تمكث فيها القوات فترة طويلة يعمد فيها إلى بناء جدار داخلي إضافة إلى جدارها الخارجي لتأمين الحماية للمقاتلين الذين يكلفون بالدفاع عن المعسكر من نيران الهاونات عند سقوطها داخل المعسكر، وعدم الخروج ليلاً من المعسكر، إخراج الدوريات والكمائن على الطرق المحتملة لتحرك العدو، احتلال القمم المسيطرة على المعسكر لحرمان العدو من استخدامها كقواعد نارية أو الهجوم على المعسكر الذي أسس أسفلها أو على مقربة منها، والإمام يطلب من قائدي القوة أن ينتبها إلى تأمين حماية جيدة لمعسكرهما عندما يحلّان فيه بعد طول تنقل، فيطلب إنشاء جدار للمعسكر من رماح المقاتلين وتروسهم يتم غرزها في الأرض بصورة متلاصقة لتشكيلة هذا الجدار، يقف رماة النبال خلف هذا الجدار على أهبة الاستعداد لتوجيه نيرانهم ـ سهامهم ـ نحو العدو عندما ترصد حركته من بعيد، ويشبه الإمام (ع) هذا المعسكر الذي أنشىء على هذه الصورة بالقلعة أو الحصن التي تعطي المتحصنين فيه قوة ومنعة تمنع العدو من مباغتة القوة وتدميرها. . وقد كان القائد «الإسكندر المقدوني» يستخدم الأشجار في بناء هذا الجدار عندما يؤسس معسكراً له في العراء. حيث يقوم بقعطها فوراً ثم غرز رؤوسها التي يعمد إلى بريها كي تصبح مدببة يسهل نفاذها في الأرض ودقها، ولأن المناطق التي تنقل فيها الإسكندر كانت مناطق غابات أو تكثر فيها الأشجار، ولأن أوروبا كلها كانت أرضاً مغطاة بالغابات الكثيفة والأشجار لذا فإن الإسكندر كان يستفيد منها بصورة آلية لأنها تساعد على العمل بهذه الشاكلة، أما المناطق التي عاش فيها الإمام (ع) والمناطق التي تنقل فيها لم تكن فيها أشجار طبيعية يمكن الاستفادة منها لأغراض بناء المعسكرات، لذا فإنه أوصى باستخدام رماح ودروع المقاتلين لهذا الغرض، ولو أنه واصل تقدمه خلال مناطق مشجرة أو مناطق

غابات لاستبدل رماح وتروس مقاتليه بأشجار يقطعها من الغابات التي يجتازها ويترك رماح وتروس مقاتليه بأيديهم لحاجتهم لها عند نشوب قتال خلال مهاجمة العدو للمعسكرات التي تنشأ في العراء.

وينتقل الإمام إلى مهمات القادة في تلك المواقف، وهي السهر على أمن القوة وسلامتها، ويأمر قائدي المقدمة أن يشرفا شخصياً على ترتيبات الحراسة والتأكد من سلامتها وذلك ببقائهما ساهرين عليها ليلاً يتنقلون من مركز رصد وحراسة إلى آخر، ويذكّرهما بأن لا يناما إلا قليلاً كي يستطيعا أن يعالجا المواقف الطارئة بسرعة وأن يظلاّ هكذا حتى يلتقيا بقوات العدو، ثم يعرج الإمام إلى الواجب الرئيسي لهذه القوات، بعد أن يبين أسلوب تعبئتها وتنقلها فيأمر قائدي القوة بإرسال تقارير يومية ـ تسمى اليوم «تقارير الاستخبارات» ـ تتضمن معلومات تفصيلية عن العدو والأرض والطقس إلى القسم الأكبر أو القلب الذي يكون في حالة حركة معقباً قوة المقدمة، وتوضح كراسات كليات الأركان واجبات قوة المقدمة بصورة مقاربة لما بين الإمام، فتثبت واجبين أساسيين وهما: الإخبار عن العدو والاشتباك معه عند الضرورة القصوى لأنها قوات قليلة لا طاقة لها على القتال لمدة طويلة أو الدخول في معارك حاسمة مع قوات العدو التي ربما كانت أكثر منها عدداً وأقوى تسليحاً، خاصة إذا كانت قوات العدو التي تلتقي بها ـ قوة المقدمة ـ هي القلب أو الجزء الأكبر من قواته، وهنا يذكر الإمام الحالات والظروف التي ترغم فيها قوة المقدمة على القتال فيوصي بالتأني في الدخول في معارك مع العدو أولاً، وهذا أمر يجب أن تنتبه إليه قوة المقدمة دوماً وتضعه نصب أعينها، فلا تدخل في معركة مع العدو إلا بعد أن تجد نفسها قد امتلكت المبادأة في ظروف ملائمة جداً لتحقيق نصر مضمون، كما أوصاها في الحالات الأخرى بعدم القتال إلا أن يبدأ به أو بأمرٍ يصدره هو شخصياً لقائد القوة المكلف بقيادتها عند حدوث اشتباك مع العدو.

ما تقدم، مجرد تأمل أولي ببعض النصوص المأثورة عن أمير

المؤمنين (ع) والناظرة إلى الأساليب العسكرية التي كان يتبعها الإمام (ع) في حروبه مع أعدائه، وقد أجرينا مقارنة سريعة مع الفن (التكتيكي) في التعبئة والزحف وتوزيع الأدوار لآخر ما وصلت إليه «الأكاديميات» العسكرية الحديثة، والنتيجة الأولية التي ظهرت هي أن الإمام كان قد قطع شوطاً كبيراً في التخطيط العسكري بمختلف مراحله وأشكاله، ونحن إذ نقدم هذه الدراسة نأمل أن يوفقنا الباري تعالى على إتمام دراسة وافية عن هذا الجانب من حياة الإمام علي (ع).

العقيد الركن: أحمد الزبيدي

نهج البلاغة

إن كتاب «نهج البلاغة» جمعه الشريف الرضي محمد بن الحسين المتوفى ٤٠٦هـ وأودع فيه ما اختاره من كلام أمير المؤمنين (ع) وقد أتم جمعه في رجب سنة ٤٠٠ للهجرة كما نص هو على ذلك في آخر الكتاب. وقد وهم جرجي زيدان ـ فنسب جمع النهج للشريف المرتضى علي بن الحسين، وربما تابع فيه بغير تثبت ـ بروكلمان الذي قال: «والصحيح أنه من جمع الشريف المرتضى».

ولو رجع بروكلمان وجرجي زيدان ومن شايعهما إلى كتابي الشريف الرضي: حقائق التأويل والمجازات النبوية ـ وهما مطبوعان ومعروفان لوقفا على تكرار الإشارة من الرضي إلى كونه هو الجامع لكتاب النهج.

وحظي هذا الكتاب من الأهمية والشأن بما لم يحظ به كتاب غيره على مر العصور، وأصبح له من الشروح ما بلغ (٧٥) شرحاً في حساب بعض المؤلفين و(١٠١) من الشروح في حساب مؤلف آخر.

وقد حاول بعض الناس أن يثير شكوكاً في صحة نسبة الكتاب إلى الإمام، والحقيقة أن هذه الشكوك لا تستحق المناقشة، والشريف الرضي أرفع من أن تلحقه التخرصات، وأمير المؤمنين أعظم من أن يخترع له محبوه منقبة ينحلونه إياها. وقد كان غاية ما أمكن أن يقولوه هو أن جامع «النهج» لم يذكر أسانيده فيما روى، وقد انبرى لرد ذلك في عصرنا الشيخ عبد الله نعمة في كتاب سماه

«مصادر نهج البلاغة» ذكر فيه أسانيد كل قول وارد في نهج البلاغة. وكذلك فعل السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب في كتاب سماه «نهج البلاغة وأسانيده».

وفيما يلي كلمة عن «النهج» وبلاغة علي (ع) وأقواله، بقلم: جورج جرداق.

قال جورج جرداق:

من تتبع سير العظماء الحقيقيين في التاريخ لا فرق بين شرقي منهم أو غربي، ولا قديم ومحدث، أدرك ظاهرة لا تخفى وهي أنهم، على اختلاف ميادينهم الفكرية وعلى تباين مذاهبهم في موضوعات النشاط الذهني، أدباء موهوبون على تفاوت في القوة والضعف.

هذه الحقيقة تتركز جلية واضحة في شخصية علي بن أبي طالب (ع) فإذا هو الإمام في الأدب، كما هو الإمام في ما أثبت من حقوق وفي ما علم وهدى، وآيته في ذلك «نهج البلاغة» الذي يقوم في أسس البلاغة العربية في ما يلي القرآن من أسس، وتتصل به أساليب العرب في نحو ثلاثة عشر قرناً فتبني على بنائه وتقتبس منه ويحيا جيدها في نطاق من بيانه الساحر.

أما البيان فقد وصل علي سابقه بلاحقه، فضم روائع البيان الجاهلي الصافي المتحد بالفطرة السليمة اتحاداً مباشراً، إلى البيان الإسلامي الصافي المهذب المتحد بالفطرة السليمة والمنطق القوي اتحاداً لا يجوز فيه فصل العناصر بعضها عن بعض. فكان له من بلاغة الجاهلية، ومن سحر البيان النبوي، ما حدا بعضهم إلى أن يقول في كلامه: إنه «دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق».

ولا عجب في ذلك، فقد تهيأت لعلي جميع الوسائل التي تعده لهذا المكان بين أهل البلاغة. فقد نشأ في المحيط الذي تسلم فيه الفطرة وتصفو، ثم إنه عايش أحكم الناس محمد بن عبد الله، وتلقى من النبي رسالته بكل ما فيها من حرارة وقوة، أضف إلى ذلك استعداداته الهائلة العظيمة، فإذا بأسباب التفوق تجتمع لديه من الفطرة ومن البيئة جيمعاً!.

أما الذكاء، الذكاء المفرط، فتلقى له في كل عبارة من «نهج البلاغة» عملاً عظيماً. وهو ذكاء حي، قادر، واسع، عميق، لا تفوته أغوار. إذا هو عمل في موضوع أحاط به بعداً فما يفلت منه جانب ولا يظلم منه كثير أو قليل، وغاص عليه عمقاً، وقلّبه تقليباً، وعركه عركاً، وأدرك منه أخفى الأسباب وأمعنها في الاختفاء، كما أدرك أصدق النتائج المترتبة على تلك الأسباب: ما قرب منها أشد القرب، وما بعد أقصى البعد.

ومن شروط الذكاء العلوي النادر، هذا التسلسل المنطقي الذي تراه في النهج أنى اتجهت. وهذا التماسك بين الفكرة والفكرة حتى تكون كل منها نتيجة طبيعية لما قبلها وعلة لما بعدها. ثم إن هذه الأفكار لا تجد فيها ما يستغنى عنه في الموضوع الذي يبحث فيه. بل إنك لا تجد فيها ما يستقيم البحث بدونه، وهو لاتساع مداه، لا يستخدم لفظاً إلا وفي هذا اللفظ ما يدعوك لأن تتأمل وتتمعن في التأمل، ولا عبارة إلا وتفتح أمام النظر آفاقاً وراءها آفاق.

فعن أي رحب وسيع من مسالك التأمل والنظر يكشف لك قوله: «الناس أعداء ما جهلوا» أو قوله: «قيمة كل امرىء ما يحسنه». أو «الفجور دار حصن ذليل!». وأي إيجاز معجز هو هذا الإيجاز: «من تخفف لحق». وأي جليل من المعنى في العبارات الأربع وما تحويه من ألفاظ قلائل فصلت تفصيلاً، بل قل: أنزلت تنزيلا!.

ثم عن أي حدة في الذكاء واستيعاب للموضوع وعمق في الإدراك، يشف هذا الكشف العجيب عن طبع الحاسد وصفة نفسه وحقيقة حاله: «ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: نفس دائم وقلب هائم وحزن لازم. مغتاظ على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملك!».

ويستمر تولد الأفكار في «نهج البلاغة» من الأفكار، فإذا أنت منها أمام حشد لا ينتهي. وهي مع ذلك لا تتراكم، بل تتساوق ويترتب بعضها على

بعض. ولا فرق في ذلك بين ما يكتبه علي (ع) وما يلقيه ارتجالاً. فالينبوع هو الينبوع ولا حساب في جريه لليل أو نهار.

ففي خطبه المرتجلة معجزات من الأفكار المضبوطة بضابط العقل الحكيم والمنطق القويم. وإنك لتدهش، أمام هذا المقدار من الأحكام والضبط العظيمين، حين تعلم أن علياً لم يكن ليعد خطبه ولو قبيل إلقائها بدقائق أو لحظات.

فهي جائشة في ذهنه منطلقة على لسانه عفو الخاطر، لا عنت ولا إجهاد، كالبرق إذ يلمع، ولا خبر يأخذه أو يعطيه قبل وميضه. وكالصاعقة إذ تزمجر ولا تهيء نفسها لصعق أو زمجرة، وكالريح إذ تهب فتلوي وتميل وتكسح وتنصب على غاية ثم إلى مداورها تعود، ولا يدفعها إلى أن تروح وتجيء إلا قانون الحادثة ومنطق المناسبة في حدودها القائمة لا قبل ولا بعد!

ومن مظاهر الذكاء الضابط القوي في «نهج البلاغة» تلك الحدود التي كان علي (ع) يضبط بها عواطف الحزن العميق إذ تهيج في نفسه وتعصف. فإن عاطفته الشديدة ما تكاد تغرقه في محيط من الأحزان والكآبات البعيدة، حتى يبرز سلطان العقل في جلاء ومضاء، فإذا هو آمر مطاع.

ومن ذكاء علي المفرط الشامل في نهجه كذلك، أنه نوَّع البحث والوصف، فأحكم في كل موضوع ولم يقصر جهده الفكري على واحد من الموضوعات أو سبل البحث. فهو يتحدث بمنطق الحكيم الخبير عن أحوال الدنيا وشؤون الناس، وطبائع الأفراد والجماعات. وهو يصف البرق والرعد والأرض والسماء ويسهب في القول في مظاهر الطبيعة الحية فيصف خفايا الخلق في الخفاش والنملة والطاووس والجرادة وما إليها. ويضع للمجتمع دساتير، وللأخلاق قوانين. ويبدع في التحدث عن خلق الكون وروائع الوجود. وإنك لا تجد في الأدب العربي كله هذا المقدار الذي تجده في نهج البلاغة من روائع الفكر السليم والمنطق المحكم، في مثل هذا الأسلوب النادر.

أما الخيال في نهج البلاغة فمديد وسيع، خفاق الجوانح في كل أفق. وبفضل هذا الخيال القوي الذي حرم منه كثير من حكماء العصور ومفكري الأمم، كان علي (ع) يأخذ من ذكائه وتجاربه المعاني الموضوعية الخالصة، ثم يطلقها زاهية متحركة في إطار تثبت على جنباته ألوان الجمال على أروع ما يكون اللون. فالمعنى مهما كان عقلياً جافاً، لا يمر في مخيلة علي إلا وتنبت له أجنحة تقضي فيه على صفة الجمود وتمده بالحركة والحياة.

فخيال علي نموذج للخيال العبقري الذي يقوم على أساس من الواقع بهذا الواقع ويبرزه ويجلِّيه، ويجعل له امتدادات من معدنه وطبيعته، ويصبغه بألوان من مادته ولونه، فإذا الحقيقة تزداد وضوحاً، وإذا بطالبها يقع عليها أو تقع عليه!

وقد تميز علي بقوة ملاحظة نادرة، ثم بذاكرة واعية تخزن وتتسع. وقد مر من أطوار حياته بعواطف جرها عليه حقد الحاقدين ومكر الماكرين، ومر منها كذلك بعواطف كريمة أحاطه بها وفاء الطيبين وإخلاص المخلصين. فتيسرت له من ذلك جميعاً عناصر قوية تغذي خياله المبدع. فإذا بها تتعاون في خدمة هذا الخيال وتتساوق في لوحات رائعة حية، شديدة الروعة والحيوية، تتركز على واقعية صافية تمتد لها فروع وأغصان، ذات أورق وأثمار.

ومن ثم يمكنك، إذا أنت شئت، أن تحول عناصر الخيال القوي في نهج البلاغة إلى رسوم مخطوطة باللون، لشدة واقعيتها واتساع مجالها وامتداد أجنحتها وبروز خطوطها. ألا ما أروع خيال «الجمل»، قائلاً: «لتغرق بلدتكم حتى كأنني أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ طير في لجة بحر»[1].

أو في مثل هذا التشبيه الساحر: «فتن كقطع الليل المظلم».

أو هذه الصورة المتحركة:

«وإنما أنا كقطب الرحى: تدور علي وأنا بمكاني!».

---

(١) **الجؤجؤ**: الصدر.

أو هذه اللوحة ذات الجلال التي يشبه فيها امتدادات بيوت أهل البصرة بخراطيم الفيلة، وتبدو له شرفاتها كأنها أجنحة النسور: «ويل لسكككم العامرة وللدور المزخرفة التي لها أجنحة كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيلة!».

ومن مزايا الخيال الرحب قوة التمثيل، والتمثيل في أدب الإمام وجه ساطع بالحياة. وإن شئت مثلاً على ذلك فانظر في حال صاحب السلطان الذي يغبطه الناس ويتمنون ما هو فيه من حال، ولكنه أعلم بموضعه من الخوف والحذر، فهو وإن خاف بمركوبه إلا أنه يخشى أن يغتاله. ثم انظر بعد ذلك إلى علي كيف يمثل هذا المعنى يقول:

«صاحب السلطان كراكب الأسد يغبط بموقعه، وهو أعلم بموضعه».

وإن شئت مثلاً آخر فاستمع إليه يمثل حالة رجل رآه يسعى على عدو له بما فيه إضرار بنفسه، فيقول: «إنما أنت كالطاعن نفسه ليقتل ردفه!» والردف هو الراكب خلف الراكب. ثم إليك هذا النهج الرائع في تمثيل صاحب الكذب: «إياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب: يقرب عليك البعيد ويبعد عنك القريب!».

أما النظرية الفنية القائلة بأن كل قبيح في الطبيعة يصبح جميلاً في الفن، فهي إن صحت فإنما الدليل عليها قائم في كلام ابن أبي طالب في وصف من فارقوا الدنيا. فما أهول الموت وما أبشع وجهه. وما أروع كلام ابن أبي طالب فيه وما أجمل وقعه. فهو قول آخذ من العاطفة العميقة نصيباً كثيراً، ومن الخيال الخصيب نصيباً أوفر فإذا هو لوحة من لوحات الفن العظيم لا تدانيها إلا لوحات عباقرة الفنون في أوروبا ساعة صوروا الموت وهوله لوناً ونغماً وشعراً.

فبعد أن يذكّر علي (ع) الأحياء بالموت ويقيم العلاقة بينهم وبينه يوقظهم على أنهم دانون من منزل الوحشة بقول فيه من الغربة القاسية لون قاتم ونغم حزين: «فكأن كل امرىء منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته، فيا له من بيت وحدة ومنزل وحشة، ومفرد غربة!». ثم يهزهم بما هم مسرعون إليه ولا يدرون

بعبارات متقطعة متلاحقة وكأن فيها دوي طبول تنذر تقول: «ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر!» بعد ذلك يطلق في أذهانهم هذه الصورة الرائعة التي يأمر بها العقل، وتشعلها العاطفة، ويجسم الخيال الوثاب عناصرها ثم يعطيها هذه الحركات المتتابعة وهي بين عيون تدمع وأصوات تنوح وجوارح تئن، قائلاً: «وإنما الأيام بينكم وبينهم بواك ونوائح عليكم». ثم يعود فيطلق لعاطفته وخياله هذه اللوحة الخالدة من لوحات الشعر الحي:

«ولكنهم سقوا كأساً بدلتهم بالنطق خرساً، وبالسمع صمماً، وبالحركات سكونا. فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات[1]! جيران لا يتآنسون، وأحباء لا يتزاورون، بليت بينهم عرى التعارف، وانقطعت منهم أسباب الإخاء، فكلهم وحيد وهم جميع، وبجانب الهجر وهم أخلاء، لا يتعارفون لليل صباحاً، ولا لنهار مساء. أي الجديدين[2] ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً[3]».

ثم يقول هذا القول الرهيب: «لا يعرفون من أتاهم، ولا يحفلون من بكاهم، ولا يجيبون من دعاهم!».

فهل رأيت إلى هذا الإبداع في تصوير هول الموت ووحشة القبر وصفة سكانه في قوله:

«جيران لا يتآنسون وأحباء لا يتزاورون!» ثم هل فطنت إلى هذه الصورة الرهيبة لأبدية الموت التي لا ترسمها إلا عبقرية علي: «أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا!» ومثل هذه الروائع في «النهج» كثير.

هذا الذكاء الخارق وهذا الخيال الخصب في أدب الإمام يتحدان اتحاد

---

(١) ارتجال الصفة: وصف الحال بلا تأمل، فالواصف لهم بأول النظر يظنهم صرعى من السبات، أي النوم.

(٢) **الجديدان**: الليل والنهار.

(٣) **سرمد**: أبدي.

الطبيعة بالطبيعة، مع العاطفة الهادرة التي تمدها بوهج الحياة. فإذا الفكرة تتحرك وتجري في عروقها الدماء سخية حارة. وإذا بها تخاطب فيك الشعور بمقدار ما تخاطب العقل لانطلاقها من عقل تمده العاطفة بالدفء. وقد يصعب على المرء أن يعجب بأثر من آثار الفكر أو الخيال في ميادين الأدب وسائر الفنون الرفيعة، إن لم تكن للعاطفة مشاركة فعالة في إنتاج هذا الأثر، ذلك أن المركب الإنساني لا يرضيه، طبيعياً ، إلا ما كان نتاجاً لهذا المركب كله. وهذا الأثر الأدبي الكامل هو ما نراه في نهج البلاغة. وإنك لتحس نفسك مندفعاً في تيار جارف من حرارة العاطفة وأنت تسير في نهج البلاغة من مكان إلى آخر.

أفلا يشيع في قلبك الحنان والعطف شيوعاً وأنت تصغي إلى علي (ع) يقول: «لو أحبني جبل لتهافت» أو «فقد الأحبة غربة!» أو «اللهم إني استعديك على قريش، فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفأوا إنائي» وقالوا: «ألا إن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تمنعه، فاصبر مغموماً أو مت متأسفاً! فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا أهل بيتي!».

وإليك كلاماً له عند وفاة السيدة فاطمة، يخاطب به ابن عمه الرسول:

«السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك! قَلَّ، يا رسول الله، عن صفيتك صبري، وَرَقَّ عنها تجلدي، إلا أن لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز!» ومنه «أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم!».

ثم إليك هذا الخبر:

روى أحدهم عن نوف البكالي بصدد إحدى خطب الإمام علي قال:

«خطبنا هذه الخطبة بالكوفة أمير المؤمنين (ع)، وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي، وعليه مدرعة من صوف وحمائل سيفه ليف وفي رجليه نعلان من ليف، فقال (ع)، في جملة ما قال:

«ألا أنه أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً وأقبل منها ما كان مدبراً. وأزمع الترحال عباد الله الأخيار، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى، بكثير من الآخرة لا يفنى! ما ضر إخواننا الذين سفكت دماؤهم وهم بصفين أن لا يكونوا اليوم أحياء يسيغون الغصص، ويشربون الرنق؟! قد، والله، لقوا الله فوفاهم أجورهم وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم! أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على النية؟».

قال: ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة فأطال البكاء!.

وأخبر ضرار بن حمزة الضبابيء قال: فأشهد لقد رأيته ـ يقصد الإمام ـ في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في ظلامه قابض على لحيته يتململ ويبكي بكاء الحزين، ويقول: «يا دنيا، يا دنيا، إليك عني! أبي تعرضت أم إليَّ تشوقت؟ لا حان حينك، هيهات! غرّي غيري، لا حاجة لي فيك: قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها! فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير! آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر وعظيم المورد!».

هذه العاطفة الحارة التي عرفها الإمام في حياته، تواكبه أنى اتجه في نهج البلاغة، وحيث سار. تواكبه في ما يحمل على الغضب والسخط، كما تواكبه في ما يثير العطف والرضا.

حتى إذا رأى تخاذل أنصاره عن مساندة الحق فيما يناصر الآخرون الباطل ويحيطونه بالسلاح وبالأرواح تألم وشكا، ووبخ وأنب، وكان شديداً قاصفاً، مزمجراً، كالرعد في ليالي الويل! ويكفيك أن تقرأ خطبة الجهاد التي تبدأ بقوله: «أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم الصلاب إلخ...»، لتدرك أية عاطفة متوجعة ثائرة هي تلك التي تمد هذه الخطبة بنبض الحياة وجيشانها!.

وإنه لمن المعيي أن نسوق الأمثلة على تدفق العاطفة الحية التي تبث

الدفء في مآثر الإمام. فهي في أعماله، وفي خطبه وأقواله، مقياس من المقاييس الأسس. وما عليك إلا أن تفتح هذا الكتاب، كي تقف على ألوان من عاطفة ابن أبي طالب، ذات القوة الدافقة والعمق العميق! الأسلوب والعبقرية الخطابية.

أما من حيث الأسلوب، فعلي بن أبي طالب ساحر الأداء. والأدب لا يكون إلا بأسلوب، فالمبنى ملازم فيه للمعنى، والصورة لا تقل في شيء عن المادة. وأي فن كانت شروط الإخراج فيه أقل شأناً من شروط المادة!.

وإن قسط علي بن أبي طالب من الذوق الفني، أو الحس الجمالي، لمما يندر وجوده. وذوقه هذا كان المقياس الطبيعي الضابط للطبع الأدبي عنده. أما طبعه هذا فهو طبع ذوي الموهبة والأصالة الذين يرون فيشعرون ويدركون فتنطلق ألسنتهم بما تجيش به قلوبهم وتنكشف عنه مداركهم انطلاقاً عفوياً. لذلك تميز أدب علي بالصدق كما تميزت به حياته. وما الصدق إلا ميزة الفن الأولى ومقياس الأسلوب الذي لا يخادع.

وإن شروط البلاغة، التي هي موافقة الكلام لمقتضى الحال، لم تجتمع لأديب عربي كما اجتمعت لعلي بن أبي طالب. فإنشاؤه مثل أعلى لهذه البلاغة، بعد القرآن. فهو موجز على وضوح، قوي جياش، تام الانسجام لما بين ألفاظه ومعانيه وأغراضه من ائتلاف، حلو الرنة في الأذن، موسيقي الوقع. وهو يرفق ويلين في المواقف التي لا تستدعي الشدة ويشتد ويعنف في غيرها من المواقف، لا سيما ساعة يكون القول في المنافقين والمراوغين وطلاب الدنيا على حساب الفقراء والمستضعفين وأصحاب الحقوق المهدورة. فأسلوب علي صريح كقلبه وذهنه، صادق كطويته، فلا عجب أن يكون نهجاً للبلاغة.

وقد بلغ أسلوب علي من الصدق حداً ترفع به حتى السجع عن الصنعة والتكلف. فإذا هو على كثرة ما فيه من الجمل المتقاطعة الموزونة المسجعة، أبعد ما يكون عن الصنعة، وأقرب ما يكون من الطبع الزاخر.

فانظر إلى هذا الكلام المسجع وإلى مقدار ما فيه من سلامة الطبع: «يعلم عجيج الوحوش في الفلوات، ومعاصي العباد في الخلوات، واختلاف الحيتان في البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات!» أو إلى هذا القول من إحدى خطبه: «وكذلك السماء والهواء، والرياح والماء، فانظر إلى الشمس والقمر والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجر هذه البحار، وكثرة الجبال، وطول هذه القلال، وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفات إلخ...» وأوصيك خيراً بهذ السجع الجاري مع الطبع: «ثم زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب[1] وأجرى فيها سراجاً مستطيراً[2] وقمراً منيراً في فلك دائر، وسقف سائر إلخ...» فإنك لو حاولت إبدال لفظ مسجوع في هذه البدائع جميعاً، بآخر غير مسجوع، لعرفت كيف يخبو أشراقها، ويبهت جمالها، ويفقد الذوق فيها أصالته ودقته وهما الدليل والمقياس. فالسجع في هذه الأقوال العلوية ضرورة فنية يقتضيها الطبع الذي يمتزج بالصناعة امتزاجاً حتى لكأنهما من معدن واحد يبعث النثر شعراً له أوزان وأنغام ترفق المعنى بصور لفظية من جوها ومن طبيعتها.

ومن سجع الإمام آيات ترد النغم على النغم رداً جميلاً، وتذيب الوقع في الوقع على قرارات لا أوزن منها على السمع، ولا أحب ترجيعاً. ومثال ذلك ما ذكرناه من سجعاته منذ حين، ثم هذه الكلمات الشهيات على الأذن والذوق جمعاً: «إنه يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فاعمل فِيَّ خيراً، وقل خيراً!».

وإذا قلنا أن أسلوب علي تتوفر فيه صراحة المعنى وبلاغة الأداء وسلامة الذوق، فإنما نشير إلى القارىء بالرجوع إلى روائع نهج البلاغة ليرى كيف تتفجر كلمات علي من ينابيع بعيدة القرار في مادتها، وبأية حلة فنية رائعة الجمال تمور وتجري. وإليك هذه التعابير الحسان في قوله: «المرء مخبوء

(١) **الثواقب**: المنيرة المشرقة.
(٢) **سراجاً مستطيراً**: منتشر الضياء، ويريد به الشمس.

تحت لسانه». وفي قوله: «الحلم عشيرة» أو في قوله: «من لان عوده كثفت أغصانه» أو في قوله: «كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع» أو في قوله أيضاً: «لو أحبني جبل لتهافت». أو في هذه الأقوال الرائعة: «العلم يحرسك وأنت تحرس المال. رب مفتون بحسن القول فيه. إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت سلبته محاسن نفسه. ليكن أمر الناس عندك في الحق سواء. افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً، فإن صغيره كبير، وقليله كثير. هلك خزان المال وهم أحياء. ما متع غني إلا بما جاع فقير!».

ثم استمع إلى هذا التعبير البالغ قمة الجمال الفني أراد به أن يصف تمكنه من التصرف بمدينة الكوفة كيف شاء، قال: «ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها..».

فأنت ترى ما في أقواله هذه من الأصالة في التفكير والتعبير، هذه الأصالة التي تلازم الأديب الحق بصورة مطلقة ولا تفوته إلا إذا فاتته الشخصية الأدبية ذاتها.

ويبلغ أسلوب علي (ع) قمة الجمال في المواقف الخطابية، أي في المواقف التي تثور بها عاطفته الجياشة، ويتقد خياله فتعتلج فيه صور حارة من أحداث الحياة التي تمرس بها. فإذا بالبلاغة تزخر في قلبه وتتدفق على لسانه تدفق البحار. ويتميز أسلوبه، في مثل هذه المواقف. بالتكرار بغية التقرير والتأثير، وباستعمال المترادفات وباختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين، وقد تتعاقب فيه ضرورة التعبير من أخبار إلى استفهام إلى تعجب إلى استنكار. وتكون مواطن الوقف فيه قوية شافية للنفس. وفي ذلك ما فيه من معنى البلاغة وروح الفن. وإليك مثلاً على هذا خطبة الجهاد المشهورة، وقد خطب علي بها الناس لما أغار سفيان بن عوف الغامدي على مدينة الأنبار بالعراق وقتل عامله عليها:

«هذا أخو غامد قد بلغت خيله الأنبار وقتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين».

«وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينزع حجلها وقلبها، ورعاثها، ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً، ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً».

«فيا عجباً! والله يميت القلب ويجلب الهم اجتماع هؤلاء على باطلهم وتفرقكم عن حقكم. فقبحاً لكم حين صرتم غرضاً يرمى: يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغْزَوْنَ ولا تَغْزُون، ويعصى الله وترضون!».

فانظر إلى مقدرة الإمام في هذه الكلمات الموجزة، فإنه تدرج في إثارة شعور سامعيه حتى وصل بهم إلى ما يصبو إليه. وسلك إلى ذلك طريقاً تتوفر فيه بلاغة الأداء وقوة التأثير. فإنه أخبر قومه بغزو سفيان بن عوف الأنبار، وفي ذلك ما فيه من عار يلحق بهم. ثم أخبرهم بأن هذا المعتدي إنما قتل عامل أمير المؤمنين في جملة ما قتل، وبأن هذا المعتدي لم يكتف بذلك بل أغمد سيفه في نحور كثيرة من رجالهم وأهليهم.

وفي الفقرة الثانية من الخطبة توجه الإمام إلى مكان الحمية من السامعين، إلى مثار العزيمة والنخوة من نفس كل عربي، وهو شرف المرأة. وعلي يعلم أن من العرب من لا يبذل نفسه إلا للحفاظ على سمعة امرأة وعلى شرف فتاة، فإذا هو يعنف هؤلاء القوم على القعود دون نصرة المرأة التي استباح الغزاة حماها ثم انصرفوا آمنين، ما نالت رجلاً منهم طعنة ولا أريق لهم دم.

ثم إنه أبدى ما في نفسه من دهش وحيرة من أمر غريب: «فإن أعداءه يتمسكون بالباطل فيناصرونه ويدينون بالشر فيغزون الأنبار في سبيله، فيما يقعد أنصاره حتى عن مناصرة الحق فيخذلونه ويفشلون عنه».

ومن الطبيعي أن يغضب الإمام في مثل هذا الموقف، فإذا بعبارته تحمل كل ما في نفسه من هذا الغضب فتأتي حارة شديدة مسجعة مقطعة ناقمة: فقبحاً

لكم حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون وتغزون ولا تغزون. ويعصى الله وترضون!».

وقد تثور عاطفته وتتقطع فإذا بعضها يزحم بعضاً على مثل هذه الكلمات المتقطعة المتلاحقة: «ما ضعفت، ولا جبنت، ولا خنت، ولا وهنت!». وقد تصطلي هذه العاطفة بألم ثائر يأتيه من قوم أراد لهم الخير وما أرادوه لأنفسهم لغفلة في مداركهم ووهن في عزائمهم، فيخطبهم بهذا القول الثائر الغاضب، قائلاً: «ما لي أراكم أيقاظاً نوماً، وشهوداً غيباً، وسامعة صماء، وناطقة بكماء... إلخ».

والخطباء العرب كثيرون، والخطابة من الأشكال الأدبية التي عرفوها في الجاهلية والإسلام ولا سيما في عصر النبي والخلفاء الراشدين لما كان لهم بها من حاجة. أما خطيب العهد النبوي الأكبر فالنبي لا خلاف في ذلك. أما في العهد الراشدي، وفي ما تلاه من العصور العربية قاطبة، فإن أحداً لم يبلغ ما بلغ إليه علي بن أبي طالب في هذا النحو. فالنطق السهل لدى علي (ع) كان من عناصر شخصيته، وكذلك البيان القوي بما فيه من عناصر الطبع والصناعة جميعاً، ثم إن الله يسر له العدة الكاملة لما تقتضيه الخطابة من مقومات أخرى على ما مر بنا. فقد ميزه الله بالفطرة السليمة، والذوق الرفيع، والبلاغة الآسرة، ثم بذخيرة من العلم انفرد بها عن أقرانه، وبحجة قائمة، وقوة إقناع دامغة، وعبقرية في الارتجال نادرة. أضف إلى ذلك صدقه الذي لا حدود له، وهو ضرورة في كل خطبة ناجحة، وتجاربه الكثيرة المرة التي كشفت لعقله الجبار عن طبائع الناس وأخلاقهم وصفات المجتمع ومحركاته. ثم تلك العقيدة الصلبة التي تصعب مداراتها، وذلك الألم العميق الممزوج بالحنان العميق وبطهارة القلب وسلامة الوجدان وشرف الغاية.

إنه من الصعب أن تجد في شخصيات التاريخ من اجتمعت لديه كل هذه الشروط التي تجعل من صاحبها خطيباً فذاً، غير علي بن أبي طالب ونفر من

الخلق قليل، وما عليك إلا استعراض هذه الشروط، ثم استعراض مشاهير الخطباء في العالمين الشرقي والغربي، لكي تدرك أن قولنا هذا صحيح لا غلو فيه.

وابن أبي طالب على المنبر رابط الجأش شديد الثقة بنفسه وبعدل القول. ثم إنه قوي الفراسة سريع الإدراك يقف على دخائل الناس وأهواء النفوس وأعماق القلوب، زاخر جنانه بعواطف الحرية والإنسانية والفضيلة، حتى إذا انطلق لسانه الساحر بما يجيش به قلبه أدرك القوم بما يحرك فيهم الفضائل الراقدة والعواطف الخامدة.

أما إنشاؤه الخطابي فلا يجوز وصفه إلا بأنه أساس في البلاغة العربية. يقول أبو الهلال العسكري صاحب «الصناعتين»: ليس الشأن في إيراد المعاني ـ وحدها ـ وإنما هو في جودة اللفظ، أيضاً وصفائه، وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف.

من الألفاظ ما هو فخم كأنه يجر ذيول الأرجوان أنفة وتيهاً. ومنها ما هو قعقعة كالجنود الزاحفة في الصفيح. ومنها ما هو كالسيف ذي الحدين. ومنها ما هو كالنقاب الصفيق يلقى على بعض العواصف ليستر من حدتها ويخفف من شدتها. ومنها ما له ابتسامة السماء في ليالي الشتاء! من الكلام ما يفعل كالمقرعة، ومنه ما يجري كالنبع الصافي.

كل ذلك ينطبق على خطب علي في مفرداتها وتعابيرها. هذا بالإضافة إلى أن الخطبة تحسن إذا انطبعت بهذه الصفات اللفظية على رأي صاحب الصناعتين، فكيف بها إذا كانت، كخطب ابن أبي طالب، تجمع روعة هذه الصفات في اللفظ إلى روعة المعنى وقوته وجلاله!.

وإليك شيئاً مما قلناه في الجزء الثالث من كتابنا «الإمام علي صوت العدالة الإنسانية» بصدد بيان الإمام لا سيما ما كان منه في خطبه:

نهج البلاغة آخذ من الفكر والخيال والعاطفة آيات تتصل بالذوق الفني الرفيع ما بقي الإنسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر، مترابط بآياته متساوق، متفجر بالحس المشبوب والإدراك البعيد، متدفق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والذوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع، متآلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتىٰ ليندمج التعبير بالمدلول، أو الشكل بالمعنى، اندماج الحرارة بالنار، والضوء بالشمس، والهواء بالهواء، فما أنت إزاءه إلا ما يكون المرء قبالة السيل إذ ينحدر، والبحر إذ يتموج، والريح إذ تطوف. أو قبالة الحدث الطبيعي الذي لا بد له أن يكون بالضرورة على ما هو كائن عليه من الوحدة، لا تفرق بين عناصرها إلا لتمحو وجودها وتجعلها إلى غير كون!.

بيان لو نطق بالتقريع لانقض على لسان العاصفة انقضاضاً! ولو هدد الفساد والمفسدين لتفجر براكين لها أضواء وأصوات! ولو انبسط في منطق لخاطب العقول والمشاعر فأقفل كل باب على كل حجة غير ما ينبسط فيه! ولو دعا إلى تأمل لرافق فيك منشأ الحس وأصل التفكير فساقك إلى ما يريده سوقاً، ووصلك بالكون وصلاً، ووحد فيك القوى للاكتشاف توحيداً. وهو لو راعاك لأدركت حنان الأب ومنطق الأبوة وصدق الوفاء الإنساني وحرارة المحبة التي تبدأ ولا تنتهي، أما إذا تحدث إليك عن بهاء الوجود وجمالات الخلق وكمالات الكون، فإنما يكتب على قلبك عداد من نجوم السماء!.

بيان هو بلاغة من البلاغة، وتنزيل من التنزيل. بيان اتصل بأسباب البيان العربي، ما كان منه وما يكون، حتى قال أحدهم في صاحبه أن كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق!.

وخطب علي جميعاً تنضح بدلائل الشخصية حتى لكأن معانيها وتعابيرها هي خوالج نفسه بالذات وأحداث زمانه التي تشتعل في قلبه كما تشتعل النار في موقدها تحت نفخ الشمال، فإذا هو يرتجل الخطبة حساً دافقاً وشعوراً زاخراً وإخراجاً بالغاً غاية الجمال.

وكذلك كانت كلمات علي بن أبي طالب المرتجلة، فهي أقوى ما يمكن للكلمة المرتجلة أن تكون حيث الصدق، وعمق الفكرة، وفنية التعبير، حتى أنها ما نطقت بها شفتاه ذهبت مثلاً سائراً.

فمن روائعه المرتجلة قوله لرجل أفرط في اتهامه بنفسه: «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك».

ومن ذلك أنه لما اعتزم أن يقوم وحده لمهمة جليلة تردد فيها أنصاره وتخاذلوا، جاء هؤلاء وقالوا له وهم يشيرون إلى أعدائه: يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم. فقال من فوره: «ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم؟ إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها، فإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي، كأنني المقود وهم القادة».

ولما قتل أصحاب معاوية محمداً بن أبي بكر فبلغه خبر مقتله قال: «إن حزننا عليه قدر سرورهم به. إلا أنهم نقصوا بغيضاً ونقصنا حبيباً».

وسئل: أيهما أفضل العدل أم الجود؟ فقال: «العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يخرجها من جهتها، والعدل سائس عام، والجود عارض خاص، فالعدل أشرفهما وأفضلهما».

وقال في صفة المؤمن، مرتجلاً:

«المؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدراً وأذل شيء نفساً، يكره الرفعة، ويشنأ السمعة، طويل غمه، بعيد همه، كثير صمته، مشغول وقته، شكور صبور، سهل الخليقة، لين العريكة!».

وسأله جاهل متعنت عن معضلة، فأجابه على الفور: «اسأل تفقهاً ولا تسأل تعنتاً فإن الجاهل المتعلم شبيه بالعالم، وإن العالم المتعسف شبيه بالجاهل المتعنت!».

والخلاصة أن علي بن أبي طالب (ع) أديب عظيم نشأ على التمرس

بالحياة وعلى المرانة بأساليب البلاغة فإذا هو مالك ما يقتضيه الفن من أصالة في شخصية الأديب، ومن ثقافة خاصة تنمو بها الشخصية وتتركز الأصالة.

أما اللغة، لغتنا العربية الحبيبة التي قال فيها مرشلوس، في المجلد الأول من كتابه «رحلة إلى الشرق» هذا القول الذكي: «اللغة العربية هي الأغنى والأفصح والأكثر والألطف وقعاً بين سائر لغات الأرض. بتراكيب أفعالها تتبع طيران الفكر وتصوره بدقة، وبأنغام مقاطعها الصوتية تقلد صراخ الحيوانات ورقرقة المياه الهاربة وعجيج الرياح وقصف الرعد»، أما هذه اللغة بما ذكر مرشلوس من صفاتها وبما يذكر، فإنك واجد أصولها وفروعها وجمال ألوانها وسحر بيانها، في أدب الإمام علي (ع)!.

وكان أدباً في خدمة الإنسان والحضارة!

جورج جرداق

الأغراض الاجتماعية في نهج البلاغة

تمهيد

إن شخصية الإمام علي من أقوى الشخصيات التي عرفها التاريخ ولست بسبيل أن أفصّل ما فيها من نبل وقوة وخصائص تستهوي الأفئدة، وإنما سبيلي أن أبحث جانباً من جوانب هذه الشخصية الرائعة المستفيضة. هو جانب النظرة الاجتماعية فيها، تلك النظرة التي أودعها نهج البلاغة والتي بلغت من العمق والبيان درجة أغرى سموها بعض أشياع الأمويين وفريقاً من الباحثين، إلى نفيها عنه والذهاب إلى أنها هدية الخلود، صاغها للجد حفيده الشريف الرضي، الشاعر الموهوب.

أقسام البحث

غير أن هذه الآراء كثيرة مبعثرة، وكثيراً ما يتكرر الرأي الواحد أكثر من مرة، وليس «نهج البلاغة» بمقسم تقسيماً يفصل كل مجموعة متشابهة من الآراء

عمَّا عداها، وهذا هو موطن الصعوبة ولكنه أيضاً مهمة الباحث، وعلى هذا فسنقسم الآراء إلى:

١ ـ علاقة الإنسان بربه.

٢ ـ علاقة الإنسان بنفسه.

٣ ـ علاقة الإنسان بغيره.

٤ـ ثم سياسة الدولة وهو باب متشعب كما سنرى.

وقد يعترض معترض بأن القسمين الأولين الباحثين في علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه يجب أن يستبعدا من بحث مقصور على الأغراض الاجتماعية، أي على ما يقوم بين الناس من معاملات ليس منها معاملات الفرد للخالق ولا لنفسه التي بين جنبيه ولكن هذا الاعتراض غير وجيه، إلاَّ بالنسبة للآراء الميتافيزيقية البحتة التي بحث فيها الإمام بحثاً مطولاً عن منشأ الكون وعلاقة الأجرام بعضها ببعض وكيفية خلق الملائكة والبشر، تلك الآراء التي وجدناها خارجة عن موضوعنا فاستبعدناها، أما علاقة الإنسان بربه، فالمقصود بها هنا، الوصايا التي وجهها الإمام إلى مجتمعه ليعمل بها فيما يختص بالخالق الجليل وبذلك تكون أعمالاً بشرية، إن لم تكن اجتماعية بالمعنى العلمي الحرفي، فهي اجتماعية لأنها مطلوب القيام بها من الجماعة، ولأنها مظهر اجتماعي ومؤثر قوي في السلوك الاجتماعي البحت أي في سلوك الأفراد إزاء بعضهم بعضاً. أما فيما يختص بعلاقة الإنسان مع نفسه فالمسألة أوضح، لأننا بتدريب أنفسنا على منهج خاص نخلقها خلقاً جديداً، وهذا الخلق مؤثر أبعد التأثير في نوع تعاملنا مع الآخرين، ولأن العدوى موجودة في الخير وفي الشر، فكوننا على هذه الحال أو تلك إغراء لمن هم دوننا ولمن هم بمعرض التأثر بمثالنا على أن يحتذوا ذلك المثال، ولأننا نحن مكونو المجتمع وكما نكون يكون.

هذا إلى أن هذين القسمين شيء قليل بالنسبة للقسمين الآخرين.

١ ـ علاقة الفرد بربه

ضم نهج البلاغة بين دفتيه صفحات نادرة في تمجيد الله وتجليل صفاته، وكثر فيه النصح بإلقاء النفس إلى الله ـ كما جاء في وصية الإمام لابنه ـ وبشكره على نعمائه وعدم الاغترار بما يوفق إليه من النجاح «وإذا أنت هديت لقصدك، فكن أخشع ما تكون لربك».

وأوصى ابن أبي بكر بقوله: «... ولا تسخط الله برضا أحد من خلقه فإن في الله خلفاً من غيره» وبمثل هذا كان يفتتح خطاباته إلى ولاته وقضاته: ولنستمع إلى قوله حين بعث بعض عماله إلى الصدقة: «آمره بتقوى الله في سرائر أمره وخفيات عمله، حيث لا شاهد غيره ولا دليل دونه، وآمره أن لا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر فيخالف إلى غيره فيما أسر» وليس غريباً أن يوصي بما أوصى به القرآن من الرجوع إليه وإلى الحديث عند التباس الأمور فيقول: «واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور». وليس غريباً أيضاً أن يعتبر الشكوى من نوائب الزمان شكوى من الله فيقول: «من أصبح يشكو مصيبة نزلت به فقد أصبح يشكو ربه».

وقد ظهرت عقيدته الراسخة في الله ودعوته إلى نصرة دينه في قوله: «لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك وولدك وأولياء الله، فإن الله لا يضيع أولياءه» «وأن يكونوا أعداء الله فما همك وشغلك بأعداء الله».

على أن نغمته الزاهدة لا تفتأ تتكرر فهو يقول لنا هنا: «من رضي برزق الله لم يحزن على ما فاته» ويقول لنا هناك أن «الرزق رزقان رزق تسعى إليه ورزق يسعى إليك» وهذا قول حكيم لأنه لا يدعو إلى الكسل وانتظار الرزق من الله، بل يقول أن السعي يزيد الرزق ولكن يجب على المرء ألاَّ يشتغل بجميع جوارحه بالسعي وراء الدنيا فيغفل عن العمل الصالح.

سبق إيراد قوله (ع): «إن من أصبح يشكو مصيبة نزلت به فقد أصبح يشكو ربه».

والآن نضم إلى ذلك قوله: «ولا يحمد حامد إلاً ربه، ولا يلم لائم إلاً نفسه». إن النص الأول يدعونا إلى عدم شكوى الزمان، لأن الزمان يجري كما قضى الله وقدر فثورتنا عليه ليست إلاً ثورة على قضاء الله وقدره، أما النص الثاني فإنه يدعونا إلى أن نعتقد أن الخير من الله، وأن الشر من أنفسنا، أي أن الله أعطانا عقلاً نميز به بين الطريقين كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ فإن سلكنا طريق الشر فلا نلم إلاً أنفسنا. وإن سلكنا طريق الخير فلا نحمد إلاً الله لأنه هو الذي أرشدنا.

٢ ـ علاقة الإنسان مع نفسه

(أ) قال في وصيته إلى ابن أبي بكر «... فأنت محقوق أن تخالف على نفسك» أي أن تخالف هواك وتحكم عقلك. ثم قال في موضع آخر: «من كان له من نفسه واعظ، كان عليه من الله حافظ». وأوضح ذلك الرأي بموضع ثالث بقوله: «من لم يعن نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر، لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ».

لقد عرف الإمام علي أن بالنفس نوازع شر ونوازع خير فدعا إلى التشديد عليها حين تأمر بالسوء واستعان عليها بالله في قول: «والله المستعان على نفسي وأنفسكم» ثم اعتمد على الضمير اليقظ وأهاب بنا أن نقويه فإنه عاصمنا ومنه المزدجر. وقد زاد من عنايته بالتدريب النفسي أنه اعتقد أن الطباع كسبية فقال: إن لم تكن حليماً فتحلم فإنه قل من تشبه بقوم إلاً أوشك أن يكون منهم» وأنه اعتقد أن الإنسان مفطور على الخير وأن الخير في عودته لفطرته فقال: «الله بعث في الناس رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته» فمهمة الأنبياء عنده أعادتنا إلى الفطرة التي فطرنا عليها.

(ب) ونلاحظ أنه أكثر من النهي عن «الأمل» لا الأمل الذي نعرفه والذي حثَّ الله عليه بل أوجبه في ذكر أقواله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وإنما الأمل بمعنى الاعتماد على طول

الأجل، وارتكاب المحرمات، وإرجاء الفرائض اعتماداً على ذلك، وهذا رأي نشاركه كلنا فيه، فإن كل ما بالعالم يمر في سرعة وثابة، وما أنصف ولا أصاب من يبذر في صحته أو ماله، اعتماداً على وفرة صحته أو ماله ولا من يؤجل العمل انتظاراً للغد. فإن الغد يمر ونمر معه، وإذن فما أحرانا أن نعمل بنصيحة الإمام القائلة «وبادروا آجالكم بأعمالكم» وأن نتدبر قوله: «إن أخوف ما أخافُ عليكم اتباع الهوى وطول الأمل».

(ج) لم أكد أبدأ الكتابة في علاقة الإنسان بربه حتى شعرت بنحولة الفاصل بين هذا القسم والقسمين الأخيرين، وها أنذا الآن أشعر بهذه النحولة أيضاً: فها هي حكم ووصايا تدخل في سلوك المرء مع نفسه وتدخل في سلوكه مع غيره كقوله: «قرنت الهيبة بالخيبة والحياء بالحرمان والفرصة تمر مر السحاب، فانتهزوا فرص الخير». ومثل قوله: «امش بدائك ما مشى بك» وقوله: «الصبر صبران: صبر على ما تكره، وصبر على ما تحب» وقوله البليغ: «أفضل الزهد إخفاء الزهد» ونهيه: «وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين» فإن دعوته إلى الشجاعة والجرأة وانتهاز فرص الخير وتحمل الداء وعدم الاستنامة إليه، والصبر بنوعيه، وإخفاء الزهد أي الزهد في سبيل التظاهر، والزهد بالقلب مع مواصلة العمل والجهاد، ونهيه عن الإعجاب بالنفس وحب الثناء، كل هذه العهود يتناولها المرء بينه وبين نفسه وبين غيره، أما أمره: «ولا تتمن الموت إلاً بشرط وثيق» أي لا تعرض نفسك للهلاك إلاً أن تقضي غاية سامية وضرورة لازمة، فإنه أدخل في نطاق المعاملة النفسية.

٣ ـ علاقة المرء مع غيره

إذا كان علي (ع) قد وضع لنا هذه القاعدة النبيلة في قياس الفضيلة والخير وهي ألاً نعمل في السر ما نخجل من عمله في العلن حيث قال: «واحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحى منه في العلانية» فإنه قد حبانا أيضاً بمقياس نبيل

لأعمالنا تجاه الآخرين في قوله الخالد: «يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم» ولو اتبع البشر هاتين النصيحتين لامتنع الظلم والشر جيمعاً، غير أنه يمكن أن نلاحظ ملاحظة متواضعة على النصيحة الأولى: تلك أن نظرة المجتمع قد تتغير نحو بعض الفضائل أو الرذائل، فإذا كان ما يستحى من عمله يعمل على رؤوس الأشهاد فهل الفضائل خالدة، أم هي يجري عليها ناموس التطور، وهل يطيع نصيحة الإمام أم لا يطيعها رجل يحتسي الخمر على قارعة الطريق غير خجل لكثرة من يحتسونها؟ أما أنا فأميل إلى القول بأن الفضائل خالدة، وأن الكذب لن يكون فضيلة لأن الناس يكذبون، بل الفضيلة فضيلة والرذيلة رذيلة ولن يزال راكبها يشعر في نفسه بالتضاؤل وبنوع من الحياء، لا حين يلقى أمثاله، ولكن حين يلقى الأخيار.

وما لي أذهب بعيداً؟ إن الإمام يفسر لنا ذلك في موضع آخر حيث يقول في بيان شاف: «إن المؤمن يستحل العام ما استحل عاماً أول ويحرم العام ما حرم عاماً أول، وإن ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئاً مما حرَّم الله عليكم، ولكن الحلال ما أحلَّ الله والحرام ما حرَّم الله».

(ب) وإذا ذكرنا تطور الفضائل وخلودها فلنستعرض رأي الإمام القائل: «اقدموا على الله مظلومين ولا تقدموا على الله ظالمين». إن من الناس من لا يريد أن يسلم بأن الانظلام فضيلة.

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وربما مال أيضاً إلى أن يقول مع هيغل: «إن ظفر شعب هو البرهان القوي على حقوقه» غير أن عبارة الإمام إنما يراد بها مبالغة في التنفير من الظلم.

(ج) ولقد دعا الإمام إلى التعاون دعوة صريحة في عبارة نبيلة حيث قال يودع جنوداً ذاهبين للقتال: «وأي امرىء منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ورأى من أحد إخوانه فشلاً، فليذب عن أخيه بفضل نجدته التي فضل بها

عليه كما يذب عن نفسه، فلو شاء الله لجعله مثله». وما أوصى به الإمام جنود جيشه يصح أن يستوصي به جنود الحياة. إن الغني لو ذبَّ عن الفقير بفضل ماله الذي فضل به عليه والعالم لو ذب عن الجاهل بفضل علمه، والحكيم لو أرشد السفيه بفضل حكمته، لو كان هذا سبيل الناس في الحياة، لانتصر جيشهم على آلام الحياة القابلة للانهزام. إن الإمام لا يزال يلح في دعوته إلى التعاون، وإنه ليسوقها هنا في منطق واضح وحجة لازمة: «أيها الناس إنه لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم» «ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذي لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض منه عنهم أيدٍ كثيرة». إن الإنسان مدني بالطبع، أو هو كما وصفه فيلسوف اليونان «حيوان اجتماعي» ولهذا دعا الإمام دعوته.

(د) وقد تكررت دعوة الإمام هذه في صورة أخرى في حثه على الصدقة بقوله البليغ: «وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حين يحتاج إليه فاغتنمه وحمله إياه». وبوصيته: «إن اللسان الصالح ـ أي الذكرى الطيبة ـ يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه من لا يحمده». وفي تذكيره بفريضة الزكاة في قوله: «إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلاً بما مُتِّع به غني والله تعالى سائلهم عن ذلك». وقد بلغ من تقريره للتعاون ولأثر الزكاة والإحسان في إسعاد إفراد المجتمع جميعاً أنه استنَّ تشريعاً طريفاً بقوله: إن الرجل إذا كان له الدين الظنون يجب عليه أن يزكيه لما مضى إذا قبضه» أي أن من كان له دين ولم يكن واثقاً أن مدينه سيرده إليه سالماً، ثم رده إليه بعد عامين مثلاً، وجب عليه أي على صاحب المال الدائن أن يدفع للفقراء زكاة هذا المال للسنتين الماضيتين. ولست أعرف حكم الشريعة الإسلامية في هذا. ولكني ألاحظ أن رأي الإمام وجيه إذا اعتبرنا أن المال صار بالنسبة للدائن مفقوداً بوجوده عند من لا يثق به. فإذا عاد إليه فكأنما عثر على كنز غير منتظر. وإذاً فليس كثيراً أن يدفع منه شيئاً للفقراء إن

لم يكن زكاة عنه فشكراً لله عليه. «ومن كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه» كما قال الإمام وكما قال شكسبير: «إن التشاريف العظيمة أحمال عظيمة».

(هـ) لقد زهد الإمام بهذه الدنيا وأهاب بها أن تغر غيره. بل لقد زمجر منها في صرختة: «والله لو كنت شخصاً مرئياً وقالباً حسياً لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأماني وألقيتهم في المهاوي». هكذا كانت نظرته الصادقة إلى الحياة، فلا عجب أن يمتلأ قلبه بالعطف على الناس وأن يدعو إلى إنقاذ الضعفاء وعدم خزن المال بكلمته الرهيبة: «يا ابن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك».

إن الشعور السائد على نهج البلاغة كله هو شعور التنديد بالتهالك على الدنيا «وحفظ ما في يديك أحب إليَّ من طلب ما في يد غيرك... فاخفض في الطلب وأجمل المكتسب فإنه رب طلب قد جرَّ إلى حرب.. فليس كل طالب بمرزوق ولا كل مجمل بمحروم». هذه وصاياه، ولكنه لا يدعو إلى الزهد الذي ينافي الدين والحياة. فهو يعمل ويحارب. ولكن على أرض الشرف ولغاية نبيلة.

(و) إن ما مرَّ بنا من دعوته إلى التعاون والإحسان ووفاء الزكاة ليس إلاَّ بعض دعوته إلى «الحب العام» فإن قلبه النبيل قد غمر بهذه العاطفة الشريفة وثبتها إيمانه القوي المنقطع النظير وليس غريباً ممن صادق النبي ـ والأصدقاء قليل ـ وشاطره آلامه وجهاده، فشعر بحلاوة الصداقة. ومن عانى من الحسد والحقد اللذين دفعا معاوية وغيره لمناوأته. ومن خبر تأثير التخاذل والتباغض حين خرج الخوارج وتخاذل قومه، ليس غريباً على من هذا شأنه أن يهيب بنا «ولا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب، ولا تباغضوا فإنها الحالقة». وأن يقول «صحة الجسد من قلة الحسد» ذلك القول الذي تؤيده ملاحظتنا اصفرار الوجه ونحوله فيمن عرفوا بالحقد. وأن يقسم لنا: «والذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلاَّ وخلق الله من ذلك السرور

لطفاً، فإذا نزل به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل» وأن يوصينا خيراً بجيرتنا قائلاً: «الله الله في جيرانكم فإنها وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم».

(ز) قلت أنه قد عرف الصداقة في نفسه وخبرها فلنستمع إلى وصاياه بصددها: لقد بالغ في طلب الحرص على الصديق الوفي حتى قال: «ولا يكن على مقاطعتك أقدر منك على صلته» وأوصى بالبحث عن الرفيق قبل الطريق. وحمد الذين «يتواصلون بالولاية ويتلاقون بالمحبة». ودعا إلى عدم الكلفة بين الأصدقاء بقوله «شر الأخوان من تكلف له»، ولكنه نصح أيضاً بعدم الاندفاع في حب الصديق أو بغض العدو بقوله: «أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما» ولقد نتساءل كيف يشك الإنسان في صديق وفي خيره فيحتاط في صداقته، وكيف تستقيم صداقة مع تحوط. ولكننا لا يصعب علينا أن نعرف ما حمل الإمام على قول ذلك فقد عانى من تقلب الأصحاب وانشقاق الأخوان ما عانى. ولعلّ هذا العناء هو ما دفعه ـ ولنقل ذلك ونحن بمعرض آرائه في الصداقة ـ إلى أن يقول «الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله» إن هذه الكلمة القوية ما كانت لتصدر من ذلك القلب الوادع المسالم لولا أن أصابته شظايا الغدر فثار.

(ح) دعا الإمام إلى القصد في الحب والبغض وهذه الدعوة تذكرنا بدعوات له أُخر تحثّ كلها على الاعتدال وعدم الاندفاع وليس أبلغ من قوله في الحدة أنها «ضرب من الجنون مستحكم» وقوله الذي يذكرنا بنظرية الأوساط، وبالمثل الفرنسي: **les deux extrêmes se touchent**.

وهو: «اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادة»، وقد أنذر بأنه سيهلك فيه صنفان: «محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق»، وهذه الكلمات هي، بجانب دعوتها

إلى القصد، دعوة إلى الخصومة الشريفة ونزع الهوى الشخصي عند مناقشة أعمال الحكام والسواس.

(ط) ما كان نهج البلاغة، وقد ضمَّ بين دفتيه هذه الآراء الاجتماعية الكثيرة، ليغفل «المرأة» وشأنها في المجتمع. ولقد عبَّر الإمام عن رأيه فيها بوضوح، فإذا به رأي قاس لا يقل قسوة وعنفاً عن رأي «شوبنهور» فيها وذلك الرأي يتلخص في قوله: «المرأة شرٌّ كلها وشرُّ ما فيها أنه لا بدَّ منها» وهكذا ذهب في موضوع آخر إلى أن «خيار خصال النساء شرار خصال الرجال» وهذا القول قد يحمل على أن ما يستحب في النساء لا يستحب في الرجال. ولكن هذا الاحتمال لا يؤثر في الموضوع، فرأي الإمام في المرأة واضح وقد نعتها في موضع ثالث بأنها «عقرب حلوة اللبسة». ثم دعا الناس إلى أن يتقوا شرار النساء ويكونوا من خيارهن على حذر وألاّ يطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر، وبمثل هذا نهى في موضع آخر عن التمكين لهن والسماح لهن بالتشفع والرجاء في أمور الناس. والذي نلاحظه أنه (ع) قد سلَّم بأن بين النساء خياراً بدليل قوله: «وكونوا من خيارهن على حذر»، فهويتهم الطبيعة النسوية على العموم ويخشى أن تتغلب على خيار النساء فيصبحن شريرات.

(ي) لم يكن رأي الإمام في النساء صادراً عن تعصب جنسي، فإن المعركة لم تكن قد نشبت بعد بين النساء والرجال، وما كان علي ليتعصب وهو الذي ذم العصبية في الخطبة «القاصعة» وردَّ أصلها إلى تعصب إبليس للنور ضد الطين: «أما إبليس فتعصب على آدم لأصله وطعن عليه في خلقه» فقال: «أنا ناري وأنت طيني» وأما الأغنياء من مترفة الأمم فتعصبوا لآثار مواقع النعم فقالوا: «نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين» فإن كان لا بدَّ من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الفعال». وليست الدعوة ضد العصبية دعوة هينة فالعصبية سبب لمصائب كثيرة كان منها حروب كثيرة آثارها التعصب للجنس أو الدين أو اللون أو المذهب أو الوطن. ولعلَّ مما يبين كراهيته (ع)

للتعصب، وهو حقيق أن يكره التعصب لما ذاق من تعصب أهل الشام لمعاوية، قوله: «ليس بلد بأحق من بلد، خير البلاد ما حملك».

(ك) وقد نهى (ع) عن الغش في المكاييل، وعن احتكار التجارة وقبح الغيبة بتحليل بديع قائلاً: «وإنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم، فكيف بالعائب الذي عاب أخاه وَعَيَّرَهُ ببلواه.. وأيم الله لئن لم يكن عصاه «عصى الله» في الكبير وعصاه في الصغير لجرأته على عيب الناس أكبر.. فليكفف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلاً له عن معافاته مما ابتلي به غيره».

وكذلك دعا إلى الاتحاد قائلاً: «وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب»، ونهى عن البدعة في قوله: «وما أحدثت بدعة إلاً ترك بها سنة فاتقوا البدع، والزموا المهيع»، وحذَّر من تعلم النجوم إلاً ما يهتدى به في بر أو بحر فإنها تدعو إلى الكهانة، «والمنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار».

(ل) إن من تحصيل الحاصل أن نقول أن الإمام دعا إلى اتباع الحق، وإنما الذي نريد هو أن نرى فهمه للحق كيف كان، وأن نرى نسبة هذا الفهم إلى نظريات أخرى في الحق.

يقول «اهرنغ» وغيره من متشرعي الألمان الذين تأثروا بمبدأ فناء الفرد في الدولة أن الحق هو ما جعلته الدولة حقاً، ويقول الواقعيون أن الحق ليس إلاً من وضع الإنسان ولم يخرج تكييفه عن إرادته وهواه، ويقول اهرنغ أيضاً «إن أساس الحق ليس فكرة منطقية وإنما هو القوة». ويقول هيغل: «إن ظفر شعب هو البرهان القوي على حقوقه».

هذا هو رأي فريق من العلماء في الحق ومقياسه وهو رأي خطر وقد اتهمه الفرنسيون بأنه سبب الحرب العالمية، واتهموا الألمان لأنهم أنصاره ومروجوه.

وهو رأي يعارضه فريق كبير من العلماء والناس، وقد كان «قوبيه» لسان هذه المعارضة في قوله: «الحق فكرة تتوجه نحو المستقبل وأساسها الضمير الإنساني والشعور بالمساواة والحرية للجميع، ورأي «باسكال» أن القوة يجب ألا تستعمل إلاَّ لخدمة الحق: «علينا أن نحمل العدالة والقوة معاً، وإنما لا نقصد إلاَّ ما كان حقاً، ولا نستعمل القوة إلاَّ لتوطيد الحق».

هذان هما الرأيان المتعارضان فإلى أيهما ينتمي رأي الإمام علي؟ لسنا محتاجين إلى أقل تفكير للقول أن رأيه هو الثاني. قال الإمام علي: «حق وباطل ولكل أهل، فلئن أمر الحق فقديماً فعل، ولئن كثر الباطل فربما ولعل، ولعل ما أدبر شيء فأقبل» وهذا النص واضح صريح في أن الإمام لا يرى كثرة الباطل تجعله حقاً، بل ينتظر أن تزول دولته قائلاً أن الشيء قد يدبر فيقبل، أي أنه مؤمن بخلود الحق وهو القائل في غير نهج البلاغة: «دولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة» وقد تروى «دولة الباطل ودولة الحق» لأنهم لم يفرقوا كثيراً بين العدل والحق.

أما نظرية الحق والدولة فهي منافية لرأي الإمام بالطبع ما دام يعتبر الحق خالداً، وهو لا يفتأ ينهى الولاة عن ظلم الرعية ويدعو إلى المساواة والشورى والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله. أي أنه لا يرى للحاكم حق اختراع الحقوق ولا يرى الحق كما رآه الواقعيون من وضع الإنسان. ولا يرى انتصار شعب برهاناً على حقوقه بل يقول: «إن الله لا يقصم جباري دهر قط إلاَّ بعد تمهيل ورخاء. ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلاَّ بعد ذل وبلاء».

وإذا كان اتفق مع القائلين بأن الحق أزلي وبأنه تراعى فيه مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة. فإنه اتفق مع رأي باسكال القائل باستعمال القوة لتوطيد الحق، فالإمام يقول: «وإني لراضٍ بحجة الله عليهم وعلمه فيهم، فإن أبوا أعطيتهم حد السيف، وكفى به شافياً من الباطل وناصراً للحق». وخاطبه قوم في عقاب قاتلي عثمان. فقال إن الحكمة تقضي بالتريث حتى يستتب الأمر «وإذا لم

أجد بداً فآخر الدواء الكي» أي القتل والحرب يستعملهما حين تفشل وسائل السلم، وحين يرفض خصومه الاحتكام إلى الله.

يقول فريق من الناس أن الحق قد يتعدد، فأنا أظن الأمر وأنت تظن نقيضه، ولكني محق وأنت مثلي محق، ويقول آخرون أن الحق واحد لا يتعدد، وقد أخذ الإمام بهذا الرأي الأخير فقال: «ما اختلفت دعوتان إلاَّ كانت إحداهما ضلالة».

٤ ـ سياسة الدولة

إن للإِمام آراء قيمة محكمة في طبيعة الحكم وسياسته ومهمة الحاكم وكيفية انتقاء القضاة وتقسيم العمل ومهمة العلماء إلى غير ذلك، وقد جمعت رسالته إلى الأشتر النخعي كثيراً من الأمور، ولكنها ليست الوعاء الوحيد الذي ننشد فيه ذلك الحكم فنقصر بحثنا عليها.

(أ) قال: «لا بدَّ للناس من أمير برٍ أو فاجر يعمل في أمرته المؤمنون، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو وتؤمن به السبل ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بر ويستراح به من فاجر» وهذا كما نرى رأي يعاكسه الفوضويون اليوم وقد عاكسه الخوارج بالأمس، ولكن ما كان لعلي الحكيم الذي اعتنق دين النظام صبياً أن يدعو بدعوتهم، لقد عرف أن النظام هو كفيل النجاح، وتألم وشكا قومه لأن: «المعروف عندهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرىء منهم إمام نفسه قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات وأسباب محكمات».

(ب) وإذا كان قد مقت الخروج عما يمكن أن نسميه «الشرعية» فإنه كذلك قد مقت أيضاً الاختلاف بين الفقهاء والمفسرين في الفتيا قائلاً: «ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي

استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً وإلٰههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد».

وليس يصعب علينا أن نلمح أن الذي استفزه إلى هذا الانتقاد هو رغبته في النظام وفي توحيد القضاء.

(ج) وإذا كان قد دعا إلى «الشرعية» وعدم تشعب الآراء واستقلال كل برأيه، فليس معنى هذا أنه دعا إلى الاستبداد والحكم المطلق، بل على العكس لا نزال نسمعه يلح بالدعوة إلى الشورى، فيقول لنا: «من استبدَّ برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها» ويكرر ذلك في أماكن أخرى وبألفاظ كثيرة.

وقال في كتاب لأحد ولاته: «وإن ظنت الرعية بك حيفاً فاصحر لهم بعذرك واعدل عنك ظنونهم بإصحارك فإن في ذلك رياضة منك لنفسك ورفقاً برعيتك وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق».

وهذه كلمات كبيرة حكيمة، فيها نوع من المسؤولية الوزارية كما نعرفها ونسميها وفيها أيضاً بيان لحكمتها فهي تزيل شكوك الرعية، ثم هي رياضة للنفس على تقبل النقد وعدم الإزورار منه، وعلى التدقيق في الأعمال علماً بأن هناك من سيحاسب عنها.

إن النزعة الديمقراطية في نهج البلاغة أبين من أن تحتاج إلى بيان: فها هو يأمر الوالي بأن يجلس لذوي الحاجات دون جند أو حرس لكيلا يتعتعوا في توضيح مسائلهم.

بل قد فضل العامة على الخاصة وإن سخط الخاصة فقال: «إن سخط العامة يجحف برضى الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة، وليس أحد أثقل على الوالي من الرعية مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف وأقل شكراً على الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء: العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم وميلك

معهم». وهذا كلام صريح في تفضيلهم والاعتماد عليهم، وأنا شخصياً أميل إلى الظن بأن هذا الكلام كان له تأثير في سلوك بعض زعمائنا الذين عرفوا بميلهم إلى الإمام علي والتشبه بكلامه في أكثر من موضع. ولن أطيل في تفصيل هذه الديمقراطية، ولنردد في سرور قول الإمام الجامع: «إن أعظم الخيانة خيانة الأمة وأفظع الغش غش الأمة» وقوله الذي يذكرنا بالقول السائر: صوت الشعب من صوت الله «إنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده».

(هـ) وإذا كان الإمام قد أخذ بالديمقراطية كما وضح فمن الطبيعي أن نراه نصير الحرية يهيب بابنه «ولا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً» وأن نراه رفع لواء المساواة لا يزال يذكرها ويوصي بها ويقول لمن يوليه «وآس ـ وساو ـ بينهم في اللحظة والنظرة حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم». ويقول في موضع آخر: إن المال لو كان ماله لساوى بين الناس فكيف والمال مال الأمة؟.

(و) ولكن للجمهور سيئاته كما أن له حسناته فلنسمع كلمة الإمام في الغوغاء. قال: «الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، ولم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق». ووصف الغوغاء في موضع آخر من أنهم من إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرقوا نفعوا، لأن كل صانع ينصرف إلى عمله فيحصل النفع، وقد وضع الإمام اصبعه على آفة وطبيعة من آفات وطبائع الجماهير هي سرعة التقلب، تلك الخاصة الجماهيرية التي وضحها شكسبير أبلغ إيضاح في «يوليوس قيصر» وكذلك أصاب في أن اجتماعها غلبة وتفرقها ضياء وفي أن اجتماعها قد يكون في بعض الأحيان مجلبة للضرر، كما أن تفرقها مجلبة للنفع لانصراف كل عامل إلى عمله، وهذه النظرة إلى الجماهير قد تبدو متعارضة بعض التعارض مع ما سبق من رأيه فيهم ولكن بيان نقص الغوغاء لا يستلزم استبعاد رأيهم.

(ز) عرض (ع) الصفات الواجب توفرها في الإمام فقال: «من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه» وذم العلماء الذين لا يعملون بعلمهم في أكثر من موضع. وحدد العلاقة بين الراعي والرعية فقال:

«أيها الناس إن لكم عليَّ حقاً ولي عليكم حق، فأما حقكم عليَّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا. وتأديبكم كيما تعلموا، وأما حقي عليكم بالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب والإجابة حين أدعوكم والطاعة حين آمركم». ولنلاحظ هنا أنه يجعل من حقه على الشعب أن ينصحه الشعب وهذا مبالغة في السعي وراء الكمال، وكم هو نبل قوله لقومه رداً على من أثنى عليه: «فلا تكلموني بما تكلمون به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له، والعدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإني لست بنفسي بفوق أن أخطىء».

وذم خلة الغدر فقال: «والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن لكل غدرة فجرة ولكل فجرة كفرة ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة». فأمير المؤمنين إذن على خلاف مع «أمير» مكيافلي.

وأدلى علي بآراء قيمة فيما يجب في الولاة فقال إنهم ملزمون بأن يعيشوا عيشة جمهور الشعب «لكيلا يتبيغ بالفقير فقره» أي ليكلا يسخط الفقير لفقره وليتعزى بحال أميره: «أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر أو أكون لهم أسوة في جشوبة العيش؟».

ونصح علي الولاة بقوله مؤكداً لأحدهم: «ولا يطولن احتجابك عن رعيتك» وتلك نصيحة حق فإن كثرة ظهور الحاكم بين الرعية استئلاف لقلوبها

وإشهار لها بأن الحاكم مهتم بمصالحها، ثم هو منير للحاكم سبيل حكمه ومعطيه الصورة الواضحة لحال شعبه فيعمل على نورها.

وقال: «إنه ليس شيء أدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم» أي أن الراعي حين يحسن لرعيته يطمئن قلبه ويأمن خيانتهم.

وأمر باحترام التقاليد الشعبية فكان حكيماً بعيد النظر «ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية».

ووجه علي نصيحة غالية كل الغلو صادقة كل الصدق في قوله: «إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ومن شاركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم... ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك» ونظرية علي صحيحة تماماً، فإن من أثم فيما مضى لا يؤمن إثمه فيما حضر، ومن اتصل بالظلمة بالأمس لا يؤمن اتصاله بهم اليوم وإعانتهم على كيدهم بماله من سلطة الوزارة. وكان حكيماً في قوله: «فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة وداولهم بين القسوة والرأفة».

وأمر الوالي أن لا يرغب عن رعيته «تفضيلاً بالإمارة عليهم فإنهم الأخوان في الدين والأعوان على استخراج الحقوق» ثم قال له: «وأنا موفوك حقك فوفهم حقوقهم وإلاّ فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة بؤساً لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين». ودعاه إلى أن يساوي نفسه بهم فيما الناس فيه سواء وهذا القيد يظهر بعد نظره وفهمه لحقيقة المساواة الممكنة.

ودعا إلى تشجيع المحسن وعقاب المسيء قائلاً: «ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء». ولفت نظر جباة الضرائب إلى الرفق بالأهلين وعدم بيع شيء ضروري ـ وهذا ما فعلته القوانين الحديثة إذ منعت الحجز على الملابس ومرتبات الموظفين ـ وبالغ في الرفق الحكيم فقال: «فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش،

خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم» وهذا بعد نظر حكيم وسياسة مالية محكمة تزيد وضوحاً في قوله: «وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلاَّ بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد»، وإذا تذكرنا ما جرَّ التعسف في جبي الضرائب في فرنسا وولايات تركيا وغيرها عرفنا قيمة هذه النصيحة التي يؤيدها المنطق ويسندها التاريخ.

(ح) وقد أدى بعد نظر الإمام به إلى أن يدعو إلى تقسيم العمل، ذلك المبدأ الذي لم نعرفه إلاَّ حديثاً فقد قال ناصحاً: «واجعل لكل إنسان من خدمك عملاً تأخذ به فإنه أحرى ألا يتواكلوا في خدمتك» وقال من رسالة إلى الأشتر النخعي أيضاً: «واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلاَّ ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، وكلاً قد سمى الله سهمه» ثم فصل بعد ذلك وظيفة كل فرقة.

وتمشياً مع قاعدته في تقسيم العلم واختصاص كل بما يحسنه ردَّ على من قال له: إنك تأمرنا بالسير إلى القتال فلم لا تسير معنا؟ إنه لا يجوز أن يترك مهماته من قضاء وإدارة وجباية ضرائب، وكذلك نصح عمر بألاَّ يخرج للقاء الفرس بنفسه «لأن الأمير كالنظام من الخرز يجمعه» ولأنه إن خرج انتقضت عليه العرب من أطرافها.

(ط) إن هذا الإمام المجرب ما كان ليغفل الدعوة إلى الاتعاظ بالتجارب في الحكم، فها هو ذا يقول «إن الأمور إذا اشتبهت اعتبر آخرها بأولها»، ويقول في مكان آخر: «استدل على ما لم يكن بما كان»، ثم يقول أيضاً «العقل حفظ

التجارب»، ولست أحمل هذا القول الأخير أكثر مما يحتمل إذا قلت أنه هو الرأي الفلسفي المعارض للرأي القائل بأن العقل يتفاوت عند الأشخاص بطبيعته. والذاهب على العكس إلى أن العقل ليس إلاً عمل التجارب والتهذيب. والدافع لحجة الرأي الأول القائلة بأنا لو ربينا أشخاصاً ذوي أعمار واحدة تربية واحدة في بيئة واحدة لنشأوا رغم ذلك مختلفي العقليات، بأنهم إنما يختلفون لسبق تأثرهم بمزاج وراثي مختلف.

(ي) وتكلم الإمام في رسالته إلى الأشتر عن القضاة كلاماً قال عنه الأستاذ العشماوي أستاذ القانون الدستوري بكلية حقوق القاهرة أن كلاماً غيره في أي دستور من دساتير العالم لم يفصل مهمة القضاة وطرق اختيارهم مثل ما فعل. قال الإمام: «ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس، واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك» وهذا دستور حكيم بل هو أحكم ما نعرفه وحسبه أنه انتبه إلى وجوب إجزال العطاء المالي للقضاة ليستغنوا بذلك عن الارتشاء وأنه شدد في إعطائهم منزلة قريبة من الوالي ليقطع بذلك الطريق على الوشاة وليعمل القضاة في جو هادىء.

وفي غير هذه الرسالة ذم من يتصدى للحكم وليس أهلاً له قائلاً: «جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً من رأيه ثم قطع به، جاهل خباط جهالات عاش ركاب عشوات تصرخ من جور قضائه الدماء وتعج منه المواريث إلى الله» وفي موضع

آخر يقول: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها» ومعنى هذا أن على الخواص مهمة هي عدم الصبر على الظلم بل مجاهدته ولو لم يقع عليهم.

(ك) وتكلم في سياسة الجند وأمر جيشه ألا يتتبع عند الفوز فاراً ولا يهين امرأة وإن سبته فإن النساء ضعيفات. وهذا دليل الخصومة الشريفة ونبل الخلق. وقال في عهده إلى الأشتر: «وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هماً واحداً في جهاد العدو فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية. وإنه لا تظهر مودتهم إلاّ بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحتهم إلاّ بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مودتهم، فأفسح في آمالهم وواصل في حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله، ثم اعرف لكل امرىء منهم ما أبلى ولا تضيفن بلاء امرىء إلى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرىء إلى أن تعظم من بلائه ما كان ضعيفاً ولا ضعة امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً».

ختام

والآن وقد سرنا في نهج البلاغة شوطاً يغرينا بالاستزادة فلنقف، وإذا كان الإمام علي قد نهى قومه عن أن يمدحوه فلا يخافن اليوم اغتراراً وهو بعيد عن حياة الغرور، إن نحن انحنينا أمام عبقريته، لقد حبانا نهج البلاغة فأحسن ما حبانا، فلنطبق عليه قوله: «قيمة كل امرىء ما يحسنه».

عبده حسن الزيات

المجتمع والطبقات الاجتماعية
عند الإمام علي (ع)

الإرث الثقافي، وليس الحضارة المادية، هو أثمن ما خلفه الإنسان للإنسان، فبالثقافة يستكمل الإنسان وجوده الحق، لأنها تمده بالمعنى الذي لا يكون لولاه سوى وجود تافه في ميزان القيم الأقدار.

وليست الحضارة المادية، مهما عظمت سوى حسنة صغيرة من حسنات الثقافة الإنسانية إذا قيست بالآثار المعنوية بهذه الثقافة.

ولا تفوتنا ملاحظة أن أغلب الآثار الثقافية وقتية وليست خالدة، وتخص بعض الشعوب دون أن تكون للإنسانية كلها، وذلك لأنها تصدر بتأثير عوامل اجتماعية معينة فتلبي حاجات عقلية واجتماعية معينة، ثم تفقد قيمتها عندما ينتفي العامل الذي أثارها، ولا يكون لها من الأصالة والعمق والعمومية ما يهيىء لها أن تتعدى محيطها الخاص إلى محيط أوسع.

وإلى جانب هذا الإرث الثقافي الموضعي تختص كل أمة من الأمم بآثار قليلة تعتبرها خالدة عندها، لا ينال من جدتها الزمان مهما طال، لأن البحث فيها يتصل بما يدخل في الكيان الصميمي لتلك الأمة، فهي لذلك تعتبر عند هذه الأمة خالدة ما دام لها كيان.

وأقل منها تلك الآثار التي تعتبر ملكاً للإنسانية كلها في كل زمان، فلئن كان القسم الأعظم من الثقافة الإنسانية محدوداً بحدود الزمان والمكان، ولئن كان القسم القليل منها محدوداً بالمكان وحده، فإن القسم الأقل والأعظم قيمة، من الثقافة الإنسانية لا يحده زمان ولا مكان.

هذه الآثار خالدة عند الناس كلهم لأنها لم توضع لفريق دون فريق ولم يراع فيها شعب دون شعب، وإنما خوطب بها الإنسان أنى وجد وكان، ولأنها

تلامس كل قلب، وتضمد كل جرح، وتكفكف كل دمعة، كانت ملكاً للناس أجمعين، وكانت خالدة عند الناس أجمعين.

وهي قليلة، ولكنها لا تزال على قلتها، تثير في الناس الدوافع الطيبة النبيلة وتسمو بهم إلى أعلى، إلى ملاعب النور، كلما شدتهم عوامل الشر إلى التراب.

ونهج البلاغة من هذه الآثار.

وسواء نظرت إليه من ناحية الشكل أو من ناحية المضمون وجدته من الآثار التي تقل نظائرها في التراث الإنساني على ضخامة هذا التراث. فقد قيل في بيان صاحبه أنه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، بيان معجز البلاغة، تتحول الأفكار فيه إلى أنغام، وتتحول الأنعام فيه إلى أفكار، ويلتقي عليه العقل والقلب، والعاطفة والفكرة، فإذا أنت من الفكرة أمام كائن حي، متحرك ينبض بالحياة، ويمور بالحركة، وتلك هي آية الإعجاز في كل بيان.

ولم يكرّس هذا البيان المعجز لمديح سلطان، أو لاستجلاب نفع، أو للتعبير عن عاطفة تافهة مما اعتاد التافهون من الناس أن يكرسوا له البيان... إن البيان في نهج البلاغة قد كرس لخدمة الإنسان.

فلم يمجد الإمام الأعظم في نهج البلاغة قوة الأقوياء، وإنما مجد نضال الضعفاء، ولم يمجد غنى الأغنياء، وإنما أعلن حقوق الفقراء، ولم يمجد الظالمين العتاة، وإنما مجد الأتقياء والصلحاء.

إن الحرية والعبودية، والغنى والفقر، والعدل والظلم، والجهل والعلم، والحرب والسلم، والنضال الأزلي في سبيل عالم أفضل لإنسان أفضل، هو مدار الحديث في نهج البلاغة.

فنهج البلاغة كتاب إنساني بكل ما لهذه الكلمة من مدلول: إنساني باحترامه للإنسان وللحياة الإنسانية، وإنساني بما فيه من الاعتراف للإنسان

بحقوقه في عصر كان الفرد الإنساني فيه عند الحاكمين هباءة حقيرة لا قيمة لها ولا قدر، إنساني بما يثيره في الإنسان من حب الحياة والعمل لها في حدود تضمن لها سموها ونقاءها.

لهذا ولغيره كان نهج البلاغة وسيبقى على الدهر أثراً من جملة ما يحويه التراث الإنساني من الآثار القليلة التي تعشو إليها البصائر حين تكتنفها الظلمات.

وحق له أن يكون كذلك وهو عطاء إنسان كان كوناً من البطولات، وديناً من الفضائل، ومثلاً أعلى في كل ما يشرف الإنسان.

وهذه دراسات من نهج البلاغة تكشف عن ناحية ما فطن لها من كتبوا عن الإمام علي (ع)، وهي آراؤه في الاجتماع والاقتصاد والسياسة، فإن آراء الإمام الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم تلاق من الكتاب العناية التي تستحقها، وكأن البحث في نشاطه السياسي قد صرفهم عن البحث في نشاطه العلمي، مع أن نشاطه السياسي لا يمكن أن يفهم حق الفهم إلا إذا درس على ضوء آرائه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وشيء آخر حفزني إلى وضع هذه الدراسات، وهو أن قسماً كبيراً من الوعاظ يقدمون نهج البلاغة إلى الجماهير على أنه كتاب وعظي يشل في الإنسان إرادة الحياة، على ما هو المعروف من أساليب كثير من وعاظ هذه الأيام، فأردت أن أكشف في هذه الدراسات عن أن نهج البلاغة ليس كتاباً وعظياً بقدر ما هو كتاب يعنى بمشاكل الإنسان الروحية والاجتماعية والاقتصادية ويضع لها الحلول، وحتى القسم الوعظي منه ينكشف، إذا ردّ إلى أصوله الاجتماعية، عن مفاهيم لا تمت إلى ما يقوله هؤلاء الوعاظ بصلة، ولا تلتقي معه على صعيد[1].

فكرة المجتمع

لعل فكرة المجتمع من أقدم الفكر التي اهتدى إليها الإنسان ـ الفكر التي

---

(١) راجع بحث (الوعظ عند علي) في حرف الواو.

لعبت دوراً خطيراً في تطوير الحياة الإنسانية، ودفعت بالإنسان إلى القيام بتجارب كثيرة كانت، على ما فيها من أخطاء وحماقات، تربة خصبة لتجارب أعظم أصالة وأشد أحكاماً وأقرب إلى شريعة الصواب من سابقها، وكانت أيضاً حافزاً إلى القيام بمحاولات جديدة تهدف إلى تطوير الحياة الاجتماعية وإرسائها على ركائز تضمن لها استقرارها ونموها.

ودخلت هذه الفكرة دورها الذهبي ـ ولا تزال فيه حتى اليوم ـ يوم جعلها العقل العلمي ميداناً لبحثه، فخرجت، بهذا، عن أن تكون ميداناً لتجارب جماهيرية عشواء، أو ميداناً لتطبيقات السياسيين الضيقي الأفق، الناظرين إلى قريب، المبتغين النفع العاجل من جلّ ما يصنعون ـ خرجت عن أن تكون ميداناً لمثل هذه التجارب الفجة لتصير ميداناً للنظر العلمي المتزن الرصين. وصار من همّ الفيلسوف ـ وهو رجل المعرفة الأول الذي عرفته البشرية بعد النبي ـ أن يتعرف على آليات الحياة الاجتماعية وقوانينها، ويدرس اتجاهاتها، ويصنف هذه القوانين والاتجاهات.

خصها بمزيد من العناية سقراط وأرسطو وأفلاطون، هذه القمم الشامخة في الفكر الفلسفي، وتعاقب بعدهم فلاسفة كثيرون لم يغفلوا هذه الفكرة ولم يبخسوها حقها من البحث والتفكير. . حتى جاء ابن خلدون فسجل في (مقدمته) حدثاً علمياً عظيماً بالنسبة إلى هذه الفكرة حين خطا الخطوة الأخيرة، فجعل منها علماً قائماً بنفسه يفترق عن الفلسفة في مادته وهي الحياة الاجتماعية، ويفترق عنها في منهجه وهو الملاحظة، ويفترق عنها في غايته وهي التعرف على أحسن الوسائل لتنمية الحياة الاجتماعية.

وجاء العصر الحديث، عصر الجماهير، فزادت أهمية هذه الفكرة وحصلت على هبتها العظمى من أوغست كنت في الفلسفة الوضعية وأصبح لها دوائر معارف خاصة هي دوائر المعارف الاجتماعية، وأصبح لها معاهد علمية خاصة لا تخلو منها جامعة تشرف عليها هيئات علمية تخصصت في هذا العلم: علم الاجتماع.

هذا عرض خاطف، وأرجو ألا يكون مقتضباً جداً، لمراحل تكوُّن فكرة المجتمع وتبلورها. وهنا تجيء لحظة التساؤل عن صلة نهج البلاغة بهذا كله؟ والجواب عن ذلك أننا أردنا أن نكشف عن أن نهج البلاغة لم يحظ بالالتفات الجدير به من هذه الناحية، ونحن بعد أن نعرف أن لفكرة المجتمع في نهج البلاغة مكاناً مرموقاً بين ما اشتمل عليه من بحوث، وبعد أن نعرف أن الإمام علي قد تمرس بهذه الفكرة وعاناها كما لم يتمرس بها ولم يعانها حاكم في زمانه على الإطلاق، وبعد أن نعرف أن معاناته لها قد انتهت به إلى نتائج باهرة ـ بعد أن نعرف هذا كله يتبين لنا أن نهج البلاغة كان يجب أن ينال حظاً من الالتفات إليه من الاجتماعيين، لأنه يسجل حدثاً مهماً في فكرة المجتمع.

لا نريد أن نقول أن الإمام علي قد اخترع علم الاجتماع لنرتفع بنسب هذا العلم من ابن خلدون إليه بعد أن تبين للدوائر الاجتماعية أن الأب الشرعي لهذا العلم ليس أوغست كنت، لا نريد أن نقول هذا، فلم يكرس الإمام نفسه لاختراع العلوم، وإن كان قد شارك في هذا المجال الإبداعي فاخترع وحده العلم الذي حفظ للعربية أصولها وضمن لها الخلود، ذلك علم النحو، لقد كانت مشاكل السياسة والإدارة والحرب هي شاغله الأول وهي ميدانه الأصيل كحاكم. إن الذي نريد أن نقوله هو أنه ـ كحاكم عادل ـ قد فكر في المجتمعات التي حكمها، وفكر في أفضل الطرق والوسائل التي تنمي حياتها الاجتماعية وترتفع بها إلى الذورة من الرفاهية والقوة والأمن، مع ملاحظة أنها تدين بالإسلام وأن شؤون اقتصادها وحربها وسلمها وعلائقها الاجتماعية تخضع لقوانين الإسلام، وأنها يجب أن تأخذ سبيلها إلى النمو في إطار إسلامي بحت. وقد هداه تفكيره إلى نتائج باهرة في التنظيم الاجتماعي: فالحكم وضرورته، والنزعة القبلية وعقابيلها، وشغب الغوغاء ونتائجه، ودعامات المجتمع ومقوماته، والطبقات الاجتماعية وآليتها، كل ذلك خصه الإمام بمزيد من البحث والتفكير، وطبق النتائج التي اهتدى إليها على المجتمعات الإسلامية، ولولا أن أعداءه الأشرار شغلوه عن أن يفرغ لمهام العمل السلمي لترك لنا من أعماله الشيء العظيم.

وإن ما بين أيدينا من كلامه في المجتمع ليدل دلالة واضحة على أنه راصد اجتماعي من الطراز الأول، وأن تقسيمه للطبقات الاجتماعية وتعريفة بآلياتها ليدخل في باب الحدس العبقري والإلهَام.

ويقيناً لو أن الشريف الرضي حين جمع كتاب نهج البلاغة حفظ لنا كل ما وقع إليه من كلام أمير المؤمنين علي ولم يؤثر الفصيح الباذخ وحده لانتهى إلينا من ذلك شيء عظيم ولو ضم ما ضاع من كلامه إلى ما حفظ إلى زمان الشريف لانتهى إلينا من ذلك شيء أجل وأعظم خطراً وقدراً.

وسيكون مصب البحث في حديثنا هذا هو الطبقات الاجتماعية في نهج البلاغة، وقبل أن نأخذ سبيلنا إليه يحسن بنا أن ندخل في حسابنا أمراً بالغ الأهمية بالنسبة إلى بحثنا هذا، فلقد قلنا آنفاً أن الإمام علي لم يقصد إلى وضع أصول علم جديد وإنما فكر ـ كحاكم عادل ـ في شؤون المجتمع وخرج من تفكيره بنتائج طبقها أو أراد تطبيقها على المجتمع، فلذلك لم يفرغ آراءه الاجتماعية كلها في قالب علمي مجرد، وإنما قدم بعضها مفرغاً في التجربة العملية، ولا يسلبها قيمتها كحقيقة موضوعية أنها مفرغة في قالب تجريبي اجتماعي يسبغ عليها، بدل جمود الحقيقة العلمية المجردة، حيوية وحركة تنشآن من حيوية الجماعات وحركيتها.

لا نعرف متى دخلت فكرة الطبقة، كوحدة اجتماعية كبيرة وذات مدى امتدادي رحب، في تركيب المجتمع الإنساني، ففي تاريخ الإنسان المكتوب لا نجد حضارة تألقت ثم انطفأت إلا وكانت تعرف فكرة الطبقات وكان لهذه الفكرة واقع عياني يضرب بجذوره عميقاً في تنظيماتها الاجتماعية. كل المجتمعات التي وجدت وبادت والتي لا تزال مستمرة الوجود تقوم على النظام الطبقي، وهذا يعني في ظاهر الحال أنه لم يمر على البشرية وقت طويل لم تعرف فيه فكرة الطبقات.

وربما كان هذا حقاً بالنظر إلى ما نرجحه في تعليل نشوء المجتمع

الإنساني، فالمجتمع الإنساني، فيما نرجح، يخضع في نشوئه لعاملين: عامل الغريزة «بمعناها الواسع الذي يشمل عاطفة الأبوة والدوافع النفسية إلى تكوين العائلة» وعامل الثقافة بمعناها الواسع أيضاً. وهذا يعني أن المجتمع الإنساني وجد منذ اللحظة التي تعدد فيها أفراد النوع، فلم يمر على الإنسان أمد طويل كان فيه حيواناً غير اجتماعي.

ومنذ أخذ المجتمع الإنساني في الاتساع وجدت فكرة الطبقة سبيلها إلى العقل، فالأفراد يختلفون في مقدار ما يأتونه من أعمال البر والخير، ويختلفون في المواهب وفي القدرة البدنية، ويختلفون تبعاً لهذا في القدرة على الصيد وحيازته... وهذه الامتيازات وأخرى غيرها وجدت سبيلها إلى الوعي الإنساني في تصورات طبقية استتبعت فكرة الطبقات.

هذا، ولكننا حين نريد أن نتناول الطبقات بالبحث لا يمكن أن نتناولها على هذا المستوى الساذج البسيط، فقد أصبحت الطبقة مؤسسة اجتماعية ضخمة تمدها بالغذاء تقاليد عريقة، وتقوم على جذور موغلة في أعماق الماضي.

الانقسام الطبقي

ما هو المبدأ الذي يقوم عليه الانقسام الطبقي؟

لقد اختلفت آراء الاجتماعيين في هذا المبدأ، فبعضهم يرى أنه المهنة، وثان يرى أنه الدخل والثروة، وثالث يرى أنه الدخل والمهنة معاً.

ولأجل الحصول على جواب صحيح لهذا السؤال نلاحظ أن هذا المبدأ يختلف باختلاف النظر إلى الطبقة كمؤسسة اجتماعية، فتارة ينظر إلى الطبقة باعتبارها تقوم بدور معين في العمليات الاجتماعية، وتقدم خدمات معينة إلى المجتمع وأخرى ينظر إليها باعتبارها كتلة بشرية ذات مستوى «مادي» اقتصادي واحد وذات مزاج نفسي وعقلي خاص يوحد بين مفاهيم أفرادها في الأسرة وغيرها من المؤسسات الاجتماعية ومختلف الأذواق والطباع والعادات.

لا بد من اعتبار المهنة وحدها مبدأً للانقسام الطبقي إذا نظرنا إلى الطبقة من زاوية الدور الذي تقوم به في العمليات الاجتماعية، وذلك لأن هذا الدور يشتق من المهنة التي تمارسها الطبقة. أما حين ننظر إلى الطبقة من زاوية مستوى الحياة المادي والمعنوي الذي تتمتع به فلا بد من اعتبار مبدإ الانقسام الطبقي المهنة والدخل معاً، فالمهنة بما تخلفه في صاحبها من آثار نفسية معينة، والدخل بما يتيحه لصاحبه من مستوى معيشي معين يشتركان في صياغة الحياة المادية والنفسية للإنسان.

ويختلف مبدأ الانقسام الطبقي عن هذا وذاك حين ننظر إلى الطبقة الاجتماعية من زاوية المركز الاقتصادي الذي تتمتع به في المجتمع حسب نظام الإنتاج والتوزيع، ففي هذا الحال لا بد من جعل مبدإ الانقسام الطبقي الداخل وحده، لأن مجموع دخل الطبقة يعبر عن المركز الاقتصادي الذي تحتله بين الطبقات الأخرى. والدخل ينظر إليه هنا باعتباره ثروة متكدسة قارة ذات إمكانات اقتصادية لا باعتباره وسيلة إلى بلوغ مستوى معيشي معين[1].

هذه مبادىء مختلفة للانقسام الطبقي وهي تختلف باختلاف زاوية النظر إلى الطبقة كما رأينا.

إن هذه المبادىء كلها إنما تعتبر مبادىء انقسام طبقي فقط، ولا تستتبع حكماً تقويمياً للطبقات. فمبادىء المهنة أو الدخل والمهنة معاً تشير إلى سبب الانقسام وحده، أما إن هذه الطبقة ذات قدر معين تحتله في سلم القيم والأقدار فذلك شيء لا يتضمنه مبدأ من هذه المبادىء على الإطلاق.

وهنا نتساءل: ما هو المبدأ الذي يتبعه الحكم في تقويمه للطبقات؟

---

(١) دكتور محمد ثابت الفندي: الطبقات الاجتماعية: ص٦٤ ـ ٨٠. وثمة خلاف في وجهة النظر إلى مبادىء الانقسام الطبقي فقد ذكرنا هنا أنها لا تستتبع أحكاماً تقويمية ولا تسلسلاً طبقياً بخلاف ما ذهب إليه أصحابها.

وبعبارة أخرى: نحن لا نتمثل المجتمع في أذهاننا سطحاً مستوياً تتساوى فيه الرؤوس، وإنما نتمثله هرمي الشكل، فيما توجد طائفة من الناس تحتل الهرم، توجد طائفة أخرى تحتل قاعدته، وتوجد بينهما طوائف تختلف بالرفعة والانحطاط على حسب قربها أو بعدها عن القمة والحضيض.

وإذن فإن كان لكل طبقة من الناس قيمة معينة في التصنيف الهرمي الاجتماعي، فمن أين جاء هذا التنصيف الذي يستتبع أحكاماً تقويمية لمختلف الطبقات؟

إننا، فيما أحسب، لا نستطيع أن نضع أيدينا على ضابط حقيقي لهذا التصنيف الاجتماعي إلا إذا درسناه من زاوية القيمة العليا للحياة. وذلك لأن أي حكم تقويمي إنما حدث بسبب هذه القيمة العليا، فترى أنه كلما قرب المرء من هذه القيمة وشارك فيها وزاد في تأكيدها واكتسب خصائصها ارتفعت قيمته وعلت منزلته، وبالعكس نراه كلما بعد عنها ولم يساهم إلا بقسط ضئيل فيها أو لم يساهم فيها على الإطلاق هبط في المنزلة الاجتماعية.

والقيمة العليا للحياة قد تكون الاقتصاد أو الفضيلة أو السياسة أو الحرب. وقد تكون هذه القيمة العليا عبارة عن المبدأ الذي استدعى التشعب الطبقي، وذلك كما في المجتمعات التي يكون الاقتصاد هو القيمة العليا فيها، فقد رأينا أن الاقتصاد وحده، أو منضماً إلى المهنة، يكون المبدأ للانقسام الطبقي، فإذا ما كان بالإضافة إلى هذا قيمة عليا أيضاً استتبع حينئذ أحكاماً تقويمية تتفاوت بتفاوت القدرة الاقتصادية التي تملكها كل طبقة من الطبقات، وقد تكون القيمة العليا شيئاً آخر غير المبدأ الذي سبب الانقسام الطبقي وحينئذ تحدث هذه القيمة انقساماً في داخل كل طبقة من الطبقات، وذلك كما لو كانت القيمة العليا للحياة عبارة عن الفضيلة فإن هذه القيمة تستتبع أحكاماً تقويمية تحدث انقساماً في داخل الطبقات نفسها، فقد يكون الفرد منتسباً من حيث المهنة، أو المهنة والدخل، أو القوة الاقتصادية، إلى طبقة ضعيفة ومنحطة المستوى المعيشي،

ولكنه يكون بسبب قربه من القيمة العليا التي هي الفضيلة في ذروة الهرم الاجتماعي[1].

ومهما يكن من أمر فإن هذه القيم التي ذكرنا تستتبع أحكاماً تقويمية تختلف باختلافها، ويتشكل وضع المجتمع صحة وفساداً بسبب ما تخلفه فيه هذه القيم من آثار، وهذا ما نلمسه حين ندرس الطبقات على أساس أن المثل الأعلى للحياة هو الفضيلة أو الاقتصاد.

فتارة تكون القيمة العليا للحياة هي الفضيلة. . . هي أن يكون الإنسان فاضلاً ورحيماً بالضعفاء، باذلاً لهم المعونة دون أمل في تلقي الجزاء، ساعياً في خدمة النوع مؤثراً لذلك على مصالحه الخاصة وأطماعه، مستعداً للتعاون مع الغير في سبيل المنفعة العامة، منافحاً عن الحق أياً كان موطنه ومستقره، محارباً الباطل في جميع أشكاله وألوانه، شاعراً بمسؤوليته كإنسان عاملاً على ضوء هذه المسؤولية بحرارة وإيمان.

تارة تكون القيمة العليا للحياة عبارة عن هذا، وحينئذ تتحدد المراتب الاجتماعية على أساس هذه المفاهيم، فيرقىٰ إلى القمة كل من استطاع أن يجعل من نفسه مثلاً أعلى للفضيلة، ويحتل المرتبة السفلى من المجتمع أولئك الذين لا فضيلة لهم أو الذين يستمسكون بالفضيلة استمساكاً واهياً، وما بينهما تتفاوت المراتب الاجتماعية على أساس الحصيلة الأخلاقية التي يحويها الإنسان ويعمل عليها.

في مجتمع كهذا توجد طبقات، وقد رأيت الأساس الذي أدى إلى انقسامها، ولكن هذا التفاوت الطبقي الناشىء عن تفاوت المستوى الاقتصادي والمعيشي عند هذه الطبقات من الناس لا يأخذ صفة الصراع المتمثل في استغلال الطبقات العليا للسفلى ومحاولة هذه الأخيرة التفلت من أسر هذا

---

(١) المصدر السابق: ص٣٦ ـ ٤٤.

الاستغلال بالثورة أو بغيرها من أساليب الصراع، وإنما تنظر الطبقات السفلى إلى العليا نظر حب ورحمة وإكبار، لأنها لا ترى في الطبقات العليا مستغلين يريدون امتصاص دمائها وجهدها، وإنما ترى فيهم رسل أصلاح ضحوا بمصالحهم في سبيل مصالح الجميع، وتنكروا لأنفسهم وشهواتهم في سبيل الآخرين، فهم ليسوا مستغلين لأن أكفهم لم تتعود غير العطاء. وفي مجتمع كهذا تنظر الطبقات العليا إلى السفلى نظرة رحمة وإشفاق وتحاول جهدها أن تنشلها من الوهدة التي قبعت فيها إلى الأفق العالي حيث يقبل جبينها نور الشمس. لا صراع ولا تناحر، لأن الطبقات السفلى هنا لم تنحط عن القمة لأنها منعت من الصعود. لا صراع ولا تناحر، لأن الأجنحة التي يحلق بها الإنسان هنا ليست شيئاً خارجاً عن النفس يملكه فريق ولا يجده الآخرون، وإنما هي شيء ينبع من النفس.. هي أنت بما أودع الله فيك من إمكانات الصعود ولم تبق حيث أنت لأنك لا تملك هذه الإمكانات، وإنما لأنك فضلت واقعك اللاذ على الأفق العالي حيث الثمن هو التضحية وإنكار الذات. وفي مجتمع كهذا يحتل الاقتصاد مرتبة ثانوية من حيث التقويم فإذا اتخذه الإنسان وسيلة لنشر الفضيلة كان مزية يحمد عليها، وإلا كان رذيلة لا تهبه قيمة ولا تسبغ عليه قدراً.

وأخرى تكون القيمة العليا للحياة هي الاقتصاد... النجاح المادي الخارق القائم على تكديس الأموال وتراكم العقارات، حينئذ تتحدد المراتب الاجتماعية على هذا الأساس، فيرتفع إلى القمة أولئك الأغنياء الكبار ملوك المال والأعمال، ويقبع في الحضيض أولئك الذين لا يملكون شيئاً أو يملكون شيئاً قليلاً، وتتفاوت مراتب الناس بين هاتين الطبقتين على مقدار ما يملكون.

في مجتمع كهذا توجد طبقات كما رأيت، ولكن التفاوت الطبقي يأخذ صفة الصراع، لأن ما سبب الانقسام الطبقي هو مصدر القيمة في المجتمع، ولأن القيمة العليا هنا شيء خارج عن النفس فلا يكون للطبقات السفلى حينئذ أمل بالارتفاع.

ومن هنا ينشأ عند الطبقات السفلى شعور بالاستغلال ويواكب هذا الشعور

شعور آخر، فالطبقات العليا عند هؤلاء تعني ـ بالنسبة إليهم ـ المزاحم على متع الحياة والسعادة والقوة، ويولد هذا الشعور في أنفسهم مشاعر الحقد والبغضاء ويدفع إلى الخيانة والإجرام.

وهذا التخطيط الذي ذكرناه يصح بالنسبة إلى كل المجتمعات التي تجعل الاقتصاد مثلاً أعلى لها، سواء منها ما يرفع إلى القمة الرأسماليين أو ما يرفع إليها العمال والفلاحين، لأن الصراع في هذه الأخيرة هو الصراع في المجتمعات الرأسمالية، ومنابعه هنا هي منابعه هناك، فالأحقاد والمطامع والنيات السيئة والمكر الخبيث هي المد النفسي الذي يطغى على الكتلة الاجتماعية في المجتمعات الشيوعية وينسج مصيرها. غاية ما في الباب أن قمة الهرم الاجتماعي وقاعدته متعاكستان، فبينما يحتل الرأسماليون القمة في المجتمعات الرأسمالية يحتلها العمال في المجتمعات الشيوعية القائمة اليوم. على أننا لا نستطيع أن نعقل ما تصوره الدعاية الشيوعية من أن الطبقة العاملة في المجتمعات الشيوعية هي التي تحتل قمة الهرم الاجتماعي. إن العلماء والأطباء والمهندسين والكتاب والممثلين ورؤساء المصانع ورؤساء الهيئات العالمية والمزارع التعاونية يتمتعون بميزات اجتماعية واقتصادية لا تتاح لسائر العمال.

وإذن لا فرق بين المجتمعات الرأسمالية والشيوعية في العقابيل التي تنشأ من جعل الاقتصاد قيمة عليا، ولإن كان ثمة فرق فإنّما هو في السطح والشكل، أما الأعماق، وأما ينابيع الصراع فهي واحدة في كل هذه المجتمعات.

وهكذا ترى كيف أن جعل الاقتصاد قيمة عليا للحياة يسوق إلى التفسخ الاجتماعي. ولا أتصور جريمة أكبر من جريمة الماديين الذين ينادون بأن الاقتصاد هو القيمة العليا في الحياة، إنهم بخرافتهم هذه يجرون المجتمع إلى شر عظيم، ويشوهون المثل الإنسانية العليا.

الطبقات الاجتماعية

من هذين المثلين تعرف أن الطبقات الاجتماعية لا يمكن أن تدرس دراسة

موضوعية صحيحة تؤدي إلى فهمها حقاً وإلى وعي مستلزماتها القريبة والبعيدة إلا إذا تناولها الباحث على صعيد المثل الأعلى في الحياة للمجتمع الذي يدرس الطبقات فيه.

ولا بد لنا، إذا رمنا وعياً حقيقاً لرأي الإمام في هذه المسألة أن نتناول مسألة الطبقات الاجتماعية على هذا الصعيد.

لقد اعترف الإسلام كما اعترف الإمام بالطبقات الاجتماعية القائمة على أساس اقتصادي أو مهني، أو عليهما معاً، وذلك لأن وجود هذه الطبقات ضرورة لا غنى عنها ولا مفر منها في المجتمع، فلا بد أن يوجد تصنيف مهني يقوم بسدّ حاجات المجتمع المتجددة، ولا بد أن يوجد أناس لديهم مال كثير وآخرون لا يملكون من المال إلا قليلاً لأن التحكم التام في توزيع الثروات أمر مستحيل إطلاقاً، وإذا اختلفت المهن وتفاوتت الثروات فلا بد أن يختلف مستوى المعيشة ويتفاوت طراز الحياة المادي والنفسي وحينئذ توجد الطبقات.

وقد رأينا أن التفاوت الطبقي يصير منبعاً للصراع الطبقي إذا جعل الاقتصاد مثلاً أعلى للحياة، وإذن فالتفاوت الطبقي الناشىء للمجتمع نظام يذهب بالخطر من هذا التفاوت ويستبقي جانب الخير فيه فإنه خليق بأن يسبب للمجتمع بلبلة تقوده إلى الدمار.

وهنا تتجلى عبقرية الإسلام وعبقرية الإمام.

فقد تدارك الإسلام هذه الثغرة فسدها بنظام من القوانين عظيم، وجاء الإمام فوضع قيوداً أخرى تحول بين التفاوت الطبقي وبين أن يخلف في المجتمع عقابيله الضارة وآثاره الوبيلة.

وعند الحديث عن التدابير الحكيمة التي وضعها الإسلام لوقاية المجتمع من شرور التفاوت الطبقي يجيء الحديث عن المثل الأعلى للحياة في الإسلام قبل كل حديث.

وحديثنا عن المثل الأعلى للحياة في الإسلام يسوقنا إلى الحديث عن

المثل الأعلى للحياة عند الإمام. وما نهج البلاغة إلا انعكاس الإسلام في نفس الإمام. ومن هنا كان الحديث عن أحدهما يلزمه الحديث عن الآخر كما تستهدي العين بخيوط الشعاع على مركز الإشراق.

إن المثل الأعلى للحياة في الإسلام وعند الإمام هو التقوى. فقلّ أن ترد سورة في القرآن لم يرد فيها الأمر بالتقوى، تقوى الله. وقلّ أن ترد خطبة أو كلام في نهج البلاغة لم يرد فيه الأمر بالتقوى تقوى الله. فالقرآن أمر بالتقوى، وفصلها ومدح المتقين والإمام أمر بالتقوى ووصفها ومدح المتقين.

قال (ع):

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإنها حق الله عليكم، والموجبة على الله حقكم، وأن تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها على الله، فإن التقوى في اليوم الحرز والجنة، وفي غد الطريق إلى الجنة. مسلكها واضح وسالكها رابح، ومستودعها حافظ، لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين والغابرين، لحاجتهم إليها غداً... فاهطعوا بأسماعكم إليها، وكظوا بجدكم عليها، واعتاضوها من كل سلف خلفاً».

وقال (ع):

«إما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء عشا أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم... فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها واحلولت له الأمور بعد مرارتها وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وسهلت له الصعب بعد إنصابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها. وتحدّبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبلت عليه الكرامة بعد ارذاذها».

وقال (ع):

«... فإن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب وينجو الهارب، وتنال الرغائب».

ولكن ما هي التقوى؟

إن الإمام (ع) لم يتعرض لوصف التقوى من داخل إذا صح التعبير. إنه اكتفى على كثرة ما قاله فيها بوصفها من خارج: ميزاتها، وفضلها، وثمرتها، وأصحابها، أما هي بذاتها: مقوماتها، طبيعتها، فأمر لم يتعرض له الإمام (ع) وإنما تعرض له القرآن. ولعل الإمام ترك الكلام في هذه الجهة اعتماداً على ما جاء في القرآن واعتماداً على أن المسلمين إذ ذاك كانوا ولا شك يعون ما هي التقوى، فاكتفى بتشويقهم إلى الأخذ بها والاعتصام بحبلها. أو أن الإمام قد تكلم في هذا الموضوع وأعطاه حقه من البيان ولكن الشريف رحمه الله لم يقع على شيء منه، أو وقع عليه ولم يكن بين ما اختاره. وعلى أي حال ففيما قدمه لنا القرآن غنى وكفاية.

قال الله تعالى:

﴿.. ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢ ـ ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

وقال تعالى:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[2].

وروي عن النبي (ع) أنه قال: جماع التقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

من هذه النصوص الإلهية، وغيرها أكثر منها، نعرف طبيعة التقوى. إنها الفضيلة في أرفع معانيها وأجل صورها. إنها الإيمان بالله في أطهر حالاته وأسمى معانيه، وبذل المال لمن أعوزه المال... ولكن كيف...؟ إنها بذل المال على حبه... حب الله تعالى، فلا امتنان على المعطي ولا أفضال، ومتى؟ إنها بذله في السراء والضراء.. وهي الصبر في جميع المواطن وفي جميع الأحوال. وهي كظم الغيظ، وهي العفو عن الناس، وهي العدل فيهم والإحسان إليهم، وهي... وهي...

هذه هي التقوى، فإذا حققت التقوى في نفسك: وعيت وجود الله وأمره ونهيه في كل ما تلم به من فعل أو قول، وتحرّيت الفضيلة أنى كانت فأخذت بها وأخضعت نفسك لها، وجعلت من نفسك وجميع إمكاناتك خلية إنسانية حية، تعمل بحرارة وإخلاص على رفع مستوى الكيان الاجتماعي الذي تضطرب فيه،

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن ١/ ٣٧، والآية في سورة النحل: ٩٠.

وصدرت في ذلك كله عن إرادة الله المتجلية فيما شرع من أحكام، تكون قد حققت في نفسك المثل الأعلى الذي نصبه الإسلام.

فالمال لا يكسب قيمة إلا إذا بذل حيث أجاز الله أن يبذل، وإلا إذا اتخذ وسيلة إلى رضوان الله. أما أولئك الذي لا يبذلون أموالهم فلا جدوى منهم للجماعة، ولذلك فلا مزية لهم على غيرهم من الناس الذين لا مال لهم. والسلالة لا قيمة لها حين لا يكون صاحبها متقياً لله. والقوة لا قيمة لها حين لا يستخدمها صاحبها في مرضاة الله. والسلطان، أنه لا يكسب صاحبه قيمة إلا إذا كان ذا تقوى.

هناك أغنياء وفقراء وحاكمون ومحكومون، وأقوياء وضعفاء وأناس تحدروا من سلالات لها ماض عريق وآخرون ليس لهم ماض مذكور، ولكن كل هذا لا يرفع من صاحبه ولا يضع إلا إذا اقترن بالتقوى أو عري عنها. وتعاليم الإسلام صريحة في ذلك لا لبس فيها ولا غموض، فهي تنص على أن القطب الذي يدور عليه التفاضل ليس شيئاً غير التقوى.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

وقال النبي ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**».

وقال الإمام علي (ع): لا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا.

وإذن فالقيم الاجتماعية تتفرع عن هذا الأصل، وتنبثق من هذا الينبوع.

وهكذا تكون الرغبة في الخير ورضوان الله، ومساعدة الضعفاء، وتكريس المواهب في سبيل الجماعة تقرباً إلى الله هي رائد كل إنسان وعى مبادىء الإسلام، وهكذا تكون الطبقات مظهر حب، ورحمة وتآزر وإيثار وتعاون على البر والتقوى، بدل أن تعبر عن تفسخ وانحلال.

هذا هو المثل الأعلى للحياة في الإسلام وعند الإمام.

ولكن الإسلام حين جعل الفضيلة مصدر القيمة الاجتماعية، وأراد اتباعه على أن يحملوا أنفسهم على هذا المركب صوناً للمجتمع من أخطار التفاوت الطبقي لم يغفل أمر الواقع النفسي والشعوري للإنسان.

فإن القوي الغني يتغنى بالفضيلة في كل آن، ولكنه عندما تستيقظ فيه نوازع العدوان يمضي في سبيل الشر دون أن يصغي إلى نداء فضيلة أو تقريع ضمير. وعندئذ تغدو الفضيلة ضلاً لا أثر له في صيانة المجتمع من أخطار التفاوت الطبقي. لذلك لم يكل أمر تحقيق القيمة العليا إلى الإنسان وحده وإنما جعل لها سنداً من القانون ليكون لها من القوة ما يحمل الأغنياء الأقوياء والفقراء الضعفاء على التمسك بها. وكان من ذلك أن ساوى بين جميع الطبقات في الحقوق والواجبات فالجميع سواء أمام الله والجميع سواء أمام القانون، وجريمة الغني هي جريمة الفقير، وجريمة الرفيع هي جريمة الوضيع، وجريمة الأمير هي جريمة الصعلوك، لا يمتهن هؤلاء لضعفهم ولا يحابى أولئك لشرفهم.

وبهذا حال بين الطبقات العليا وبين أن تطغى وتعتز، لأنه أثبت لها أن الغنى والسلالة والماضي العريق لن تجدي شيئاً أمام القانون. وحال بين الطبقات السفلى وبين أن تشعر بالحيف والضعة والاستغلال، لأنه أثبت لها أن الفقر وضعة النسب لا تجعل من القانون لها عدواً، وإنما هي أدعى لأن تجعله أرفق بها، وأحنى عليها، وأرعى لشؤونها في السراء والضراء.

وحين تحتد الفروق الاقتصادية فتتسع وتتعمق، تغيض منابع الفضيلة من المجتمع وتسوده نوازع الحيوان.

فأنت لا تستطيع أن تطلب من جائع لا يجد القوت أن يصير فاضلاً، لأن الحرمان لا يدفع إلى الفضيلة، وإنما يخلق تصورات الحرمان التي تدفع إلى التمرد والإجرام حين لا يجد المحروم اليد البارة الوصول.

إن الجائع الذي لا يجد ما يسد جوعته وإن خشن وهان، والعاري الذي يجد للريح مثل لسع السياط وللشمس مثل مس الحميم، والمريض الذي لا يجد

ثمن الدواء ولا الخلاص من اللأواء ـ هؤلاء لا يستطيعون أن يتغنوا بالفضيلة حين يرون الغني الكاسي الصحيح الذي لا يعرف معنى للجوع، فالفضيلة ليست طعاماً ولا كساء ولا دواء، إن هؤلاء ينقلبون إلى قتلة ومجرمين ولصوص حين لا يجدون ما يسدون به حاجتهم الأولية من طريق مشروع.

وهكذا يظهر إلى العيان الصراع الطبقي بالرغم من أن المثل الأعلى هو الفضيلة ومكارم الأخلاق.

وعى الإسلام هذا الواقع فلم يكل أمر صيانة المجتمع من أخطار التفاوت الطبقي إلى المثل الأعلى وحده، وإنما أولى الاقتصاد ما له من الأهمية في أمر الصيانة والعلاج. فجعل في أموال الأغنياء ضريبة ترد على الفقراء فترد عنهم غائلة الحاجة، وتباعد ما بينهم وبين الحرمان، وبذلك يشعر الفقراء أنهم ليسوا مهملين: لا عين ترعاهم ولا يد تأسر جراحهم، وتقيلهم عثرات الزمان... بل يشعرون أنهم ملء سمع المجتمع وبصره فتختفي دوافع الإجرام من أنفسهم، وحينذاك يقول لهم الإسلام أن المثل الأعلى هو الفضيلة، ويطلب إليهم أن يكون فضلاء... وأن يجعلوا الأرض أختاً للسماء.

عند الإمام

وعى الإمام علي أن الإنسان الجائع، المستغل، المحروم، المصفد بالإغلال لا يستطيع أن يكون فاضلاً، وأن من اللغو أن يوعظ بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وأن إنساناً كهذا ينقلب كافراً: كافراً بالقيم، الفضائل، والإنسان. إن معدته الخاوية، وجسده المعذب، ومجتمعه الكافر بإنسانيته، المتنكر له، وشعوره بالاستغلال، وميسم الضعة الذي يلاحقه أنّى كان ـ هذه كلها تجعله لصاً، وسفاحاً وعدواً للإنسانية التي لم تعترف له بحقه في الحياة الكريمة.

ووعى أن المجتمع القائم على سيادة فريق وعبودية فريق، مجتمع لا

يمكن أن توجد فيه فضيلة ولا يمكن أن يوجد فيه فضلاء، إنه ليس إلا مجتمع تسيّر أفراده الأحقاد والمكر والاستغلال.

على أساس من هذا الوعي جعل الإمام علي الإصلاح الاقتصادي أساساً للإصلاح الاجتماعي.

ولقد كان من الطبيعي جداً ـ حتى عند المفكرين والمصلحين ـ في عصر الإمام علي وقبله أن يوجد أناس جائعون فقراء، وأن يوجد أغنياء يحارون كيف ينفقون أموالهم، فلم يكن الفقر بذاته والغنى بذاته مشكلة اجتماعية تطلب حلاً، لأنها أمر طبيعي لا محيد عنه، إنما المشكلة هي: كيف السبيل إلى إسكات الفقراء وحماية الأغنياء؟ فكان الإمام علي هو أول من كشف أن الفقر والغنى مشكلة اجتماعية خطيرة، ونظر إليها على أساس أفاعيلها الاجتماعية.

إن فلسفة الفقر عنده تجتمع في هاتين الكلمتين:

«ما جاع فقير إلا بما متع به غني».

و«ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع».

ومن هنا أصبح من أبرز المشاكل التي حفل بها منهجه الإصلاحي يوم ولي الحكم مشكلة الفقر والغنى.

ولقد كان مجتمعه إذ ذاك يعاني جراحاً عميقة بسبب هذه المشكلة، فقد ولي الإمام علي الحكم والتفاوت الطبقي في المجتمع الإسلامي على أشد ما يكون عمقاً واتساعاً.

ففي زمان عمر كانت الطريقة المتبعة في التقدير وإظهار الكرامة هي التفضيل في العطاء، فلما ولي الخلافة عثمان اتبع هذه الطريقة أيضاً ولكنه خرج بها عن حدود المعقول، ففضل من لا سابقة له في الكفاح ولا قدم له في الإسلام على ذوي السوابق والأقدار. وقد أدت هذه الطريقة إلى العاقبة التعسة

التي صار إليها عثمان وحكومته والمجتمع الإسلامي في زمانه، فقد أوجد هذا اللون من السياسة المالية طبقة من الأشراف لا تستمد قيمتها من المثل الأعلى للإسلام وإنما تستمدها من السلالة والغنى والامتيازات التي أسبغها عليها عثمان، وطبقة الشعب التي ليس لديها مال ولا امتيازات ولا ماض عريق وكان من عقابيل ذلك أن أحس الفقراء الضعفاء بالدونية واستشعر الأشراف الاستعلاء، وحرم الفقراء المال الذي تدفق إلى جيوب الأغنياء.

فلما ولي الإمام علي الحكم ألفى بين يديه هذا الإرث المخيف الذي يهدد باستئصال ما غرسه النبي في نفوس المسلمين، وقد عالج هذا الواقع الذي سيق إليه بالتسوية بين الناس في العطاء فالشريف والوضيع، والكبير والصغير، والعربي والعجمي، كلهم في العطاء سواء. فلم يجعل العطاء مظهراً للتفاضل بين الأفراد والأفراد والطبقات ولطبقات. وبهذا أظهر للناس أن القيمة ليست بالمال، وحال بين الفقراء والضعفاء وبين الشعور بالدونية، وبين الأشراف والأقوياء وبين أن يشعورا بالاستعلاء. وأهاب بالناس أن يقوبوا إلى الله فيجعلوا التقوى مناط التفاضل ومقياس التقويم.

وقد ثارت الطبقة الارستقراطية لسياسة المساواة المالية التي قام بها الإمام فأشاروا عليه أن يصطنع الرجال بالأموال، فقال:

«أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله إلا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف..».

ولم يكن هذا كل ما ينتظر الطبقة الأرستقراطية على يديه يوم أمسك بالزمام، لقد كانت أموال الأمة تتدفق ـ تحت عينيه ـ في زمن عثمان إلى جيوب فريق من الناس، فأخذ على نفسه عهداً بمصادرتها، بردها إلى أهلها، وكان أن أعلن للناس يوم ولي الحكم مبدأ من جملة المبادىء التي أعدها لمحاربة الفقر الكافر في مجتمعه الموشك على الانهيار، فقال:

«ألا أن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال. فإن الحق لا يبطله شيء».

وكم كان يقض مضجعه عدم التوازن في توزيع الثروات في زمانه فتراه يصرخ أكثر من مرة من على منبر الكوفة بمثل هذا القول:

«... وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً والشر فيه إلا إقبالاً. أضرب بطرفك حيث شئت من الناس: هل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً؟ أو غنياً بدل نعمة الله كفراً؟ أين خياركم وصلحاؤكم وأحراركم وسمحاؤكم؟ وأين المتورعون في مكاسبهم، والمتنزهون في مذاهبهم؟

لا يعالج الفقر عند الإمام علي بالمواعظ والخطب، وإنما يعالج بحماية مال الأمة من اللصوص والمستغلين، ثم بصرفه في موارده. وبهذا عالجه الإمام، فكان عيناً لا تنام عن مراقبة ولاته على الأمصار، وعن التعرف على أموال الأمة وطرق جبايتها وتوزيعها. وكم من وال عزل وحوسب حساباً عسيراً لأنه خان أو ظلم أو استغل، وكم كتاب كتبه إلى ولاته يأمرهم أن يلزموا جادة العدل فيمن ولّوا عليهم من الناس، وبينما هو يأمرهم بهذا يضع عليهم العيون والرقباء ليرى مدى طاعتهم وتنفيذهم لأوامره، لقد كان بهذا، أول من اخترع نظام التفتيش.

ولقد كان يكتب إلى ولاته: «إن أعظم الخيانة خيانة الأمة» وليس الولاة أعضاء في شركة مساهمة هدفها أن تستغل الأمة وإنما هم كما كان يكتب إليهم «خزان الرعية، ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة».

وكون الأموال العامة هي أموال الأمة مفهوم لم يأخذ صيغته الحقة إلا على لسان الإمام علي وفي أعماله.

بهذا كله لم يكل الإمام علي أمر التزام الفضيلة في السلوك إلى الضمير وحده وإنما جعل لها سنداً من القانون يكفل لها أن تصير واقعاً اجتماعياً تنبني عليه العلاقات الاجتماعية والسلوك الإنساني، ولكنه لم يجعل القانون كل شيء

في حياة الإنسان لئلا يكون آلة مسيرة لا تملك اختيار ما تريد، وإنما أناط جانباً من سلوكه بملزمات الضمير بعد أن أيقظ هذا الضمير، ولم يكل أمر صيانة المجتمع من أخطار التفاوت الطبقي إلى الفضيلة وحدها، لأنها لا تسد حاجات الإنسان التي لا يقوى بدونها على التزام الفضيلة ومكارم الأخلاق، وإنما أناط جانباً من مهمة الصيانة بالاقتصاد لأنه هو الذي يسد حاجات الإنسان، .

وهكذا، بين الضمير اليقظ والقانون الواعي لحاجات الفرد والمجتمع ينمو الإنسان، ويأخذ سبيله إلى الكمال النسبي الذي يتاح للإنسان.

وحيث قد تبين لنا موقف الإمام من الطبقات الاجتماعية والتفاوت الطبقي، فلنسلك سبيلنا إلى دراسة الطبقات الاجتماعية في نهج البلاغة.

مصدرنا الوحيد، من نهج البلاغة، في دراسة الطبقات الاجتماعية عند الأمام علي هو كتابه إلى مالك بن الحارث الأشتر حين ولاه مصر، ولكن يشاء الله لحكمة خفية ألا يطبق في مصر شيء من هذا القانون الذي كتبه الإمام علي، فقد دس معاوية من قضى على الأشتر وهو في أعتاب مصر بسم دسّ في كأس من عسل، وبعد ذلك قتل محمد بن أبي بكر وتمت لمعاوية الغلبة على مصر فنزل عنها لعمرو بن العاص وفاء بالعهد الذي بينهما.

وما بين أيدينا من هذا العهد ليس تمامه، لا، وإنما قطع منه اختارها الشريف الرضي. وليته أثبته كله، إذن لزدنا بصراً بآراء الإمام في هذا الموضوع، ولكن ماذا نصنع والشريف لم يختر إلا البليغ من كلام علي (ع).

ويحسن بنا أن ننوّه، ونحن على أعتاب البحث عن الطبقات الاجتماعية في نهج البلاغة، بأن التقسيم الطبقي الذي ذكره الإمام يقوم بالدرجة الأولى على الوظيفة الاجتماعية التي تؤديها كل طبقة، وهناك تقسيم آخر يتم في داخل الطبقات هو التقسيم على أساس المثل الأعلى، والتقسيم الأول لا يستتبع حكماً تقويمياً على الشخص المنتسب إلى طبقة ما يجعله في القمة أو ينحدر به إلى الحضيض. إن التقسيم الذي يستتبع الحكم التقويمي أعني الذي يحدد قيمة

الشخص إنما هو التقسيم الثاني، فالإنسان، الذي يستغل إمكاناته في سبيل خير المجتمع هو في القمة، أما الإنسان الذي يتخذ هذه الإمكانات سبيلاً إلى العبث والإفساد وإضرار المجتمع فذلك شخص يحتل مركزه في الطبقات السفلى.

وإذن فترتيب الطبقات في التقسيم لا يعني ترتيبها في القيمة، فيكون الجنود هم الطبقة العليا، ويكون المعدمون هم الطبقة السفلى، وتكون قيمة ما بينهما على هذا الترتيب قرباً من الجنود وبعداً عنهم، لا، فقد عرفت أن الإمام لم يراع قيمة طبقة حين قدمها وأخرها، وإنما راعى الخدمات الاجتماعية التي تقوم بها، أما القيمة فلا تقاس إلا بالتقوى.

ونقدم بين يدي بحثنا هذا ملاحظة لها خطرها، وهي: إن هناك طبقات افترض الإمام وجودها وتحدث عنها كأهل الخراج، والتجار، والصناع، والمعدمين، وهناك طبقات لم يفترض وجودها وإنما تكلم رأساً في كيفية إنشائها وتكوينها، فإلام تشير هذه الملاحظة؟

إن ما تشير إليه هذه الملاحظة، فيما أرى، أمر طريف جداً ومعجب حقاً، فالطبقات التي تكلم الإمام في كيفية إنشائها وتكوينها هي: طبقات العسكريين، والوزراء، والولاة، والقضاة. وهذه الهيئات هي التي تشرف على تسيير الجهاز الاجتماعي، وبها يتعلق مصيرها النيّر أو الوبيل، وقد كان هذا الجهاز قبل عهد الإمام فاسداً ومتهرئاً فأراد الإمام أن ينشأه من جديد.

ومن هذه الملاحظة نستكشف مدى عظمة الإمام في المسائل الاجتماعية، فالمجتمع، خيره وشره، نحن نصنعه بأيدينا، وليس ضربة لازمة لنا أن نعيش في مجتمع متذائب متداع لا يوفر لأفراده فرصاً حسنة، وإنّما بإمكاننا أن نعيش في مجتمع حسن التنظيم يجد فيه كل فرد من الأفراد المجال الرحب لتحقيق مطامحه التي يريد، ولا يتم ذلك إلا إذا أصلحنا الأجهزة الاجتماعية المتداعية أو بدلناها بأخرى أجدى منها.

بهذه العقلية العظيمة الواعية نظر الإمام (ع) إلى مجتمع مصر في أيامه،

وبهذه العقلية العظيمة الواعية وضع له هذا النهج وسن له هذا القانون، ولكن مجتمع مصر لم يسعد بتطبيق هذا النظام.

طبقات المجتمع

قسم الإمام الرعية إلى طبقات سبع: الجنود، كتاب العامة والخاصة، وهم بمنزلة الهيئة الوزارية ومساعديها، القضاة، الولاة، الزراع، التجار، الطبقة السفلى.

ولكنه في مورد ثان جعل القضاة والولاة والكتاب طبقة واحدة، وإن كان فيما بعد قد جرى في الكلام عن الطبقات على تقسيمه الأول.

ومع أنه يمكن إدراج الكتاب والولاة في طبقة واحدة باعتبارهم إداريين من حيث الوظيفة، وباعتبار أن «نوع الحياة» الذي يحيونه واحد أيضاً، فإن مستوى الدخل والإنفاق والتصورات الاجتماعية عندهم واحدة أو متقاربة تقارباً شديداً - أقول مع أنه يمكن إدراج هاتين الطائفتين في طبقة واحدة جعلهما الإمام طبقتين متمايزتين. واحسب أن الذي دفعه إلى ذلك هو رغبته الأكيدة في التنصيص التام على كيفية تأليف كل جهاز من أجهزة الحكم في الدولة مثلاً يقع اللبس والإبهام في اشتراك طائفتين مختلفتي مجال النشاط في حديث واحد. ونحن، محافظة منا على إبراز جميع خصائص العهد، سنجري في كلامنا عن الطبقات حسب تقسيمه (ع) وإن لم تكن ثم ضرورة، بلحاظ الطبقات ذاتها، تدعو إلى اتباع هذا النهج.

العسكريون

وبعد أن قسم الإمام الطبقات على النحو الذي رأيت، تقدم بملاحظة ذات مغزى، وهي أن كل واحدة من هذه الطبقات، عدا الطبقة التي لا تستطيع عملاً، ضرورية للمجتمع، والعمل الذي تقوم به ضروري الوجود، وكما أنه يعتمد في وجوده على جهود الآخرين كذلك جهود الآخرين لم تكن لتوجد لولاه. ولذلك

قال (ع): «الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى لبعضها عن بعض».

لولا الجنود لانعدم الأمن، وحينئذ تنعدم التجارة ويختل نظام الزراعة، وإذا اختل هذان انهار الكيان الاجتماعي، ولولا التجارة والزراعة لما وجدت الضرائب التي تمد الجنود بالمال والسلاح، ولولا التجارة لحدثت أزمات اجتماعية تنشأ من تكدس الإنتاج في غير مكان الحاجة إليه وعدم وجوده في مكان الحاجة إليه، والعمال «الولاة» والكتاب يشرفون على تنظيم هذا النشاط الاجتماعي ولولاهم لتسيب واتجه اتجاهات غير صالحة، ولولا القضاة للجأ الناس إلى تسوية مشاكلهم بالعنف، وذلك يؤدي إلى بلبلة الاجتماع. وإذن، فالنشاطات الاجتاعية متشابكة ومتداخلة، وليس فيها لأحد على أحد فضل، فكل واحد من الناس يؤدي عملاً يأخذ في مقابله من المجتمع أعمالاً كثيرة، ولو كف المجتمع عن تقديم المعونة له لما أمكنه أن يقوم بشيء.

قال (ع):

«. . . فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن، وليست تقوم الرعية إلا بهم، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاةَ والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامّها. ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم».

وحيث كان النشاط الاجتماعي متشابكاً على هذا النحو، متداخلاً على هذه الشاكلة، فيجب أن تشق له القنوات التي يجري فيها على نحو لا يختل ولا يتدافع، ولا يطغى لون منه على لون، وأمر هذا موكول إلى الحاكم.

قال (ع):

«وفي الله لكل سعة، ولكل على الوالي بقدر ما يصلحه، وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل».

العسكريون خطر وضرورة في آن

هم خطر لأن الطبقة التي ينتمون إليها هي أقوى طبقات الأمة كلها، فالجيش طوع أمرهم، والسلاح تحت أيديهم، ولا قوة تمنعهم من الثورة إذا ما أرادوا، ولا حاجز يحول بينهم وبين ظلم الرعية إذا تمكن ذلك من أنفسهم، ووجد هوى في صدورهم. والوجدان الذي ينتظم أفراد هذه الطبقة يقتضيهم ذلك وينزع بهم نحوه، فإن التصورات التي يتكون منها هذا الوجدان هي تصورات القوة والغلبة والفتك وما يتبع هذه من تصورات الخيلاء والاستعلاء. وطبيعة عملهم العسكري تقتضيهم أن يواجهوا مشاكلهم من طريق العنف والقسر وتحملهم على أن يحلوها من هذا الطريق. وطبيعة عملهم أيضاً تجعلهم ينظرون إلى المجموعات الإنسانية «كوحدات عددية» تقوم بعمل معين لا أكثر ولا أقل، وذلك لأنهم لا ينظرون من الجندي الذي يدين لهم بالطاعة إلى أكثر من أنه آلة تجيد استعمال السلاح، أما ما وراء ذلك من صفات نفسية وسمات ذاتية فلا ينظرون إلى شيء منها، لأن هذه كلها تنطمس في التجمع البشري الضخم المسمى بالجيش، ولأنها لا تغني كثيراً في أداء المهمة المطلوبة من الجندي، وإذا كانوا ينظرون إلى الجماعة الإنسانية على هذا النحو فلا يؤمنون من الانحراف عن جادة الصواب في معاملتهم مع الناس، لأن الصفات النفسية هي التي يجب أن تلحظ في هذه المعاملة وهم يغفلونها لأن طبيعة عملهم تقتضي ذلك كما رأيت.

هذا الوجدان الطبقي «وهو ضروري إذ لولاه لما كانوا عسكريين» خطر إذا

احتد وعبَّر عن نفسه في غير أوانه وجرى في غير أقنيته الحقيقية، هذا هو وجه الخطر فيهم.

وهم ضرورة لأن وجودهم يحفظ الأمن ويصون الدولة، ويردع السفيه ويضرب على يد المعتدي.

وحيث كانوا ضرورة فلا بد من وجودهم، وحيث كانو خطراً فلا بد من تفاديه. وإذا قد لزم هذا وذاك فقد شرع الإمام (ع) لحاكم مصر نظاماً يستهدي به في تأليف هذه الطبقة من جديد، وشريعة يجري عليها في انتخاب من يريد ضمه إليها من رعيته، وسنة يأخذ بها في معاملتها. وقصد من ذلك كله إلى أن يؤمّن من هذه الطبقة جانب الضرورة، وينأى بها عن أن تكون مصدر خطر وإرهاب.

الشخصية العسكرية ضرورة لازمة للقائد العسكري لزوم الهواء لكل كائن حي.

وهذه الشخصية عبارة عن طائفة من الصفات تلتقي في القائد فتكوّن له شخصية. فيجب أن يكون القائد العسكري متصفاً بصفة النفوذ والهيبة التي تجعله نافذ الأمر، وذلك لأن الصفة الأولى المطلوبة من الجندي هي الطاعة وبدونها لا يمكن أن ينجح جيش على الإطلاق، وما لم يكن للقائد العسكري صفة النفوذ والهيبة بعدت الطاعة عن منال يديه، وحينئذ لا ينجح في عمله العسكري. ويجب أن يكون واجداً لصفة الخبرة بمن يعمل تحت يديه من مرؤوسيه، عارفاً بإمكاناتهم وكفاءاتهم ليضع كلاً منهم موضعه اللائق به، لأن خطأً بسيطاً في تعيين قائد ربما أدى إلى كارثة قومية. ويجب أن يكون واجداً للثقافة العسكرية: عارفاً بأساليب قيادة الجيش وحركاته والاستراتيجية العسكرية. ولما كان القائد هو المثل الأعلى للجندي وجب أن يكون هذا القائد مثلاً يحتذى لجنوده في الصبر على المكاره، والتفاني في القيام بالواجب، وهما من ألزم الصفات العسكرية في الجنود والقادة على السواء.

ولا توجد هذه الصفات في عامة الناس، وهي ليست صفات تنحدر

بالوراثة من جيل إلى جيل، بل لا بد فيها من التربية المنهجية الواعية. ولم تكن في زمن الإمام (ع) مدارس وكليات عسكرية تقدم مثل هؤلاء القادة في كل وقت، هذه الملاحظات دفعت بالإمام إلى تعيين العناصر التي يؤخذ منها هؤلاء. هذه العناصر هي البيوتات الشريفة ذات الأحساب والتقاليد المتوارثة، فقد كانت هذه البيوتات تأخذ أبناءها بتربية قاسية واعية توفر لهؤلاء الأبناء الثقافة العسكرية وهي من أهم ما كان يأخذ به العرب ويعنون باتقانه، وتغرس في أنفسهم الشعور بالمسؤولية والتحمل والصبر على المكاره. وقد كانت هذه البيوتات تحتل في نفوس أبناء الشعب، وهم الذين يؤخذ منهم عامة الجند، مركزاً سامياً حصلت عليه بسبب الخدمات التي تقدمها هذه البيوت للأمة في الحرب والسلم على السواء، وهذا يوفر للقائد صفة الهيبة، ويضمن له نفوذ الأمر وحصول الطاعة.

قال (ع):

«ثم الصق بذوي المروءات والأحساب، وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة، والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم، وشعب من العرف».

ولكن هؤلاء القادة يستمدون من وسطهم العائلي تصورات القوة والاستعلاء لما كان لهم من مركز مرموق في المجتمع، ويستمدون من وظيفتهم الجديدة ما يعزز هذه التصورات ويمدها بالحرارة والفعالية وينزع بها إلى التحقيق نظراً إلى ما توفر لهم من الهيمنة على الجيوش والسلاح، ويستمدون من ثقافتهم ما يزين لهم الفعل ويبرر لهم العمل ـ هذه الينابيع الثلاثة للوجدان الطبقي عند العسكريين تعمل دائماً على إثارة هذا الوجدان وبعثه. وهنا يظهر وجه الخطر فيهم، وقد وضع الإمام العلاج الواقي من هذا الخطر.

فإلى جانب الصفات السابقة يجب أن تتوفر في القائد صفات أخرى منها الثقافة، وهذه الثقافة لا يكفي فيها أن تكون «علماً» بالواجبات الدينية فقط وإنما يجب أن تكون «وعياً» لهذه الواجبات بحيث تكون في جهاز القائد النفسي قوة

دافعة تحمله على أن يسير على هديها في حياته العملية، ولا تبلغ هذه الثقافة هذا المدى في تأثيرها إلا إذا استحالت في القائد إلى «طاقة شعورية» محركة. ومنها أن يكون أميناً لا تمتد يده إلى ما ليس له، حليماً لا يحمله الغضب على فعل ما لا تحمد عقباه، واسع الصدر يجد العذر موقعاً في نفسه، رحيماً بالضعيف لا يتخذه موضوعاً لإظهار مدى سلطته..

وهكذا، فإلى جانب الثقافة الدينية التي يجب أن تبلغ من نفس القائد مرتبة الطاقة الشعورية يجب أن يكون على مستوى أخلاقي عال يصده عن الفساد، ويمسكه على الجادة، ويأخذ بعنقه إلى الهدى.

قال (ع):

«... فولّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيباً، وأفضلهم حلماً، ممن يبطىء عند الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف».

وبعد أن نهج الإمام القواعد التي يجب أن تتبع في اختيار أفراد هذه الطبقة أخذ في بيان الأسلوب الذي يجب أن تعامل به.

يرى الإمام أنه لا يجوز للحاكم أن يعتمد على التربية وحدها، وعلى الخلق الشخصي وحده فيما يرجع إلى ضمان إخلاص هذه الطبقة. فهو بقدر ما يحرص على أن يكون القادة العسكريون ذوي تربية عالية وخلق متين يحرص كذلك على توفير ما يتوقون إليه من الناحيتين: المادية والمعنوية.

فهؤلاء القادة يتوقون إلى أن يروا أن أعمالهم التي يقومون بها تلاقي التقدير الذي تستحقه عند الحاكم، ويتوقون إلى أن يروا أن عين من فوقهم ترعاهم وتتعاهد أعمالهم وتوفيها ما تستحق من جزاء. وهؤلاء القادة. كغيرهم من الناس، خاضعون للضرورات الاقتصادية، وربما كانت حاجتهم إلى المال

أكثر من حاجة غيرهم إليه، وإذ كانوا كذلك فلا بد للحاكم من مراعاة حالتهم الاقتصادية.

ولا يجوز له أن يعتمد على الخلق والتربية في ضمان إخلاصهم وتمسكهم بمثلهم العليا، فإن الحاجة تدفع إلى الإجرام. ولا بد له من تتبع مآثرهم والإشادة بها، ومدحهم والثناء عليهم بما أبلوا من بلاء حسن وأتوا من فعل عظيم.

فأما حين تغفل عنهم عينه، فلا يتفقد أحوالهم، ولا يوليهم منه جانب اللين والرأفة ـ حين يجدون هذا منه يشعرون بأن أعمالهم لا تجد ثوابها وإن جهدهم يذهب أدراج الرياح، ويعظم في أعينهم الصغير ويصغر العظيم، وتنعدم ثقتهم بالحاكم، ويذهب وده من قلوبهم، فلا يمحضونه النصح، ولا يخدمونه بصدق، لأنهم لا يجدون في أنفسهم ما يدفعهم إلى خدمته وهو متخاذل عنهم مقصر معهم، ويدفعهم هذا الموقف النفسي إلى استثقال دولته، واستطالة مدته، والتبرم بحكمه، فماذا يمنعهم، وهذا موقفهم منه. عن أن ينتقضوا عليه ويكيدوا له ويواجهوه بما لو أحسن السياسة لاتقاه؟

قال (ع):

«ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به، ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به، وإن قل، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك. ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه... فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك. وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية، وأنه لا تظهر مودتهم إلاَّ بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة الأمور وقلة استثقال دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدتهم، فافسح لهم في آمالهم، وواصل في حسن

الثناء عليهم، وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله».

وتأمل الفقرة الأخيرة: «.. فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل..» فإنها تتضمن مغزى عميقاً، فبدلاً من أن يوجه اللوم إلى الناكل لنكوله مما قد يولد في قلبه الضغن والنية السيئة ـ بدلاً من هذا ـ يبعث إلى العمل عن طريق المنافسة، فحين يسمع الثناء على ذوي البلاء الحسن من أقرانه، وحين يرى أن العمل يجد صدى مستحباً عند الرئيس يعبر عنه بالتقدير، يندفع إلى لعمل بباعث نفسي، فيجد فيه متعة ولذة يدفعانه إلى إتقانه، بدل أن يزاوله مكرهاً، لو دفع إليه عن طريق اللوم فلا يجد فيه لذة ولا يشعر نحوه بأي سرور نفسي يدفعه إلى التجويد والاتقان.

وعلى الحاكم أن يكون يقظاً في تتبع أفعالهم، فينسب الفعل إلى صاحبه، ولا يتجاوز به إلى غيره، ولا يقصر في جزائه، فإن غفلته عنهم تشعرهم بأن أعمالهم لا تجد ثوابها الحق ولا تلقى التقدير الذي تستحق.

قال (ع):

«ثم أعرف لكل امرىء منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرىء إلى غيره، ولا تقصر به دون غاية بلائه».

والمقياس في الجزاء والثواب وحسن الأحدوثة نفس العمل، لا السلالة، ولا الغنى، ولا أي شيء آخر.

قال (ع):

«ولا يدعونك شرف امرىء إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما».

والمشاركة الوجدانية من الأمور التي يجب توفرها بين القائد وجنوده. فحينما تتوفر المشاركة الوجدانية بين القائد وجنوده ويشعرون بأنهم ليسوا تحت

سلطان جبار يسومهم العذاب ويتخذهم سبلاً إلى إظهار سلطانه ووسائل لخدمة مآربه، وإنما هم تحت رعاية أب بار يعمل لخيرهم، ويسعى لإسعادهم، ويحدب عليهم، ويرأف بهم، ويوجههم نحو ما فيه صلاحهم. . . حينما يستقر في أعماقهم هذا الشعور يعملون بإخلاص وإتقان وحرارة وإيمان، ويقبلون على عملهم بشوق رغبة منهم في إبهاج قائدهم وإشاعة الزهو والفرح في قلبه، فإن القائد بجنوده، وكلما كان عملهم رائعاً ومتقناً دلّ ذلك على حسن توجيهه وواسع خبرته وعظيم معرفته. وليس يخاف ما يعود به هذا على الدولة من القوة والتماسك.

وكما أن المحبة والعطف والخلق الحسن شروط لازمة في حصول هذا الشعور عند الجنود، فإن تأمين الناحية الاقتصادية شرط لازم أيضاً. فلا يسع جندياً أن يخلص لعمله وهو يسمع، بقلبه، صراخ زوجته وأطفاله من الجوع أو العري أو المرض، لذلك أرشد الإمام الحاكم إلى أن طبقة العسكريين يجب أن تتألف ممن يولون كلا الناحيتين: الاقتصادية والمعنوية عظيم اهتمامهم، وأن خير قواده خيرهم لجنوده، وأحدبهم عليهم، وأرفقهم بهم، وأرعاهم لشؤونهم في السراء والضراء، فإن هذا هو السبيل الوحيد إلى توليد هذه المشاركة الوجدانية التي تعود على الدولة بأجل الفوائد وأعظم الخيرات.

وإن الإمام (ع) ليقدر هذه السلطة حق قدرها، فيختم وصاياه إلى عامله فيما يتعلق بها بقوله:

«. . فانظر في ذلك نظراً بليغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار، يعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا».

وهذا ما لم نشاهده منه في غير هذه الطبقة من الطبقات التي يتألف منها جهاز الحكم، مما يدل على أنه كان يعي كيف أن القضاء حين يصير إلى غير أهله ينقلب إلى أداة للظلم: ظلم الضعفاء، ويصير مؤسسة ترعى مصالح الأقوياء فحسب.

وقد تحدث كثيراً عن هؤلاء الذين يتسنمون مناصب القضاء وليسوا لها بأهل، فيتحولون بهذا المنصب إلى أداة للشر والإفساد.

قال (ع):

«.. وآخر قد تسمى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس شركاً من حبائل غرور وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه يؤمن من العظائم ويهون كبير الجرائم، يقول: أقف عند الشبهات وفيها وقع. ويقول: واعتزل البدع وبينها اضطجع، فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان».

وقال (ع):

«.. ورجل قمش جهلاً، موضع في جهال الأمة عاد في أغباش الفتنة، عم بما عقد الهدنة، قد سماه أشباه الناس عالماً وليس به، فاستكثر من جمع ما قلَّ منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من ماء آجن، واكتنز من غير طائل، جلس بين الناس قاضياً ضامناً تخليص ما التبس على غيره فإن نزلت به إحدى المهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه ثم قطع به فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت».

ولأجل تفادي هذا المصير السيىء لسلطة القضاء، وضع (ع) نظاماً يجب أن يتبع في تأليف هذه الطبقة، يضمن أن تكون على مستوى عال من الكفاءات المناطة بها.

تؤتى السلطة القضائية من ناحيتين، الأولى: ناحية القاضي نفسه فإذا كان غير كفء لمنصبه أسفّ بهذا المنصب، ولم يؤد حقه المفروض. والثانية: ناحية المنصب نفسه، فما لم يكن مستقلاً في حكمه لا يخضع لتأثير هذا وإرادة ذاك، لم تكن هناك سلطة قضائية بالمعنى الصحيح، وإنما تكون السلطة القضائية حينئذ أداة لإلباس رأي فلان ثوب الحق وإسباغ مسحة الباطل على دعوى فلان. ولا تؤتى السلطة القضائية من غير هاتين الناحيتين.

وقد رسم الإمام في عهده إلى الأشتر ثلاثة أمور ينبغي أن تتبع في انتقاء أفراد هذه الطبقة ومعاملتهم، واتباع هذه الأمور يكفل لهم أن يمارسوا مهمتهم بحرية، وأن يؤدوا هذه المهمة بإخلاص.

هل يكفي في صلاحية الرجل للقضاء أن يكون على معرفة بمواد القانون الذي يقضي به دون اعتبار لتوفر ميزات أخرى فيه؟

إن الجواب السديد على هذا السؤال هو النفي، فلا يكفي في القاضي أن يكون على علم بمواد القانون فحسب، لأنه إذا لم تتوفر فيه غير هذه الصفة يكون عالماً بالقانون، ولا يصلح أن يكون قاضياً، لأن منصب القضاء يتطلب من شاغله، إلى جانب علمه بالشريعة، صفات أخرى فصلها الإمام في عهده، وأناط اختيار طبقة القضاة بتوفرها، وهذا يعني أن فاقدها ليس جديراً بهذا المنصب الخطير.

يجب أن يكون القاضي واسع الصدر كريم الخلق، وذلك لأن منصبه يقتضيه أن يخالط صنوفاً من الناس وألواناً من الخلق، ولا يستقيم له أن يؤدي مهمته على وجهها إلا إذا كان على مستوى أخلاقي عال يمسكه عن التورط فيما لا تحمد عقباه.

ويجب أن يكون من الورع وتأصل العقيدة، والوعي لخطورة مهمته وقيمة كلمته، بحيث يرجع عن الباطل إذا تبين له أنه حاد عن شريعة العدل في حكمه، ولم يصبها اجتهاده، ولم يؤده إليها نظره، فلا يمضي حكماً تبين له خطأه خشية قالة الناس.

ويجب أن يكون من شرف النفس، ونقاء الجيب، وطهر الضمير، بحيث «لا تشرف نفسه على طمع» في حظوة أو كرامة أو مال، فضلاً عن أن يتأصل فيه الطمع ويدفعه إلى تحقيق موضوعه، وذلك لأن القاضي يجب أن يجلس للحكم ضميراً نقياً، وروحاً طاهراً، وعقلاً صافياً، ونفساً متعالية عن مسافّ الأغراض، وألا يشغل نفسه بعرض من أعراض الدنيا لأن ذلك ربما انحرف به من حيث لا

يدري فأدان من له الحق، وبرأ من عليه الحق. لتأثره بهاجس نفسه، وهاتف قلبه، ومطمح هواه.

ويجب أن يكون من الوعي لمهمته بحيث لا يعجل في الحكم، ولا يسرع في إبرامه، وإنما عليه أن يمضي في دراسة القضية ويقتلها بحثاً ويستعرض وجوهها المختلفة، فإن ذلك أحرى أن يهديه إلى وجه الحق وسنة الصواب، فإذا ما استغلق الأمر واشتبه عليه فلا يجوز له أن يلفق للقضية حكماً من عند نفسه، وإنما عليه أن يقف حتى ينكشف له ما غمض عنه، وينجلي له ما اشتبه عليه.

هذه الصفات يجب أن تتوفر في القاضي، ويجب أن يناط اختيار الرجل لمنصب القضاء بما إذا توفرت فيه، وبذلك يضمن الحاكم ألا يشغل منصب القضاء إلا الأكفاء في عملهم، ودينهم، وبصرهم بالأمور.

قال (ع):

«ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك: ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصوم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن يزدهيه إطراء، ويستميله إغراء».

وهنا، كما في كل موطن، يضع الإمام بين عينيه التأمين الاقتصادي ليضمن الاستقامة والعدل وحسن السيرة.

فالقاضي مهما كان من سموّ الخلق، وعلو النفس، وطهارة الضمير، إنسان من الناس يجوز عليه أن يطمع في المزيد من المال، والمزيد من الرفاهية، وإذا جاز عليه هذا جاز عليه أن ينحرف في ساعة من ساعات الضعف الإنساني فتدفعه الحاجة إلى قبول الرشوة، ويدفعه العدم إلى الضعف أمام الإغراء، وإذا

جاز عليه ذلك أصبحت حقوق الناس في خطر، فلا سبيل للمظلوم إلى الانتصاف من الظالم وتغدو الحكومة حكومة الأقوياء والأغنياء.

هذه أمور قدرها الإمام حق قدرها، وأدرك مدى خطرها، فوضع الضمانات لتلافيها. وذلك يكون أولاً: بأن يتعاهد الحاكم قضاء قاضيه وينظر فيما أصدره من الأحكام، فإن ذلك كفيل بأن يمسك القاضي عن الانحراف، ويستقيم به على السنن الواضح لأنه حينئذ يعلم أن المراقبة ستكشف أمر الحكم الجائر، ووراء ذلك ما وراءه من عار الدنيا وعذاب الآخرة. وثانياً: بأن يعطى المزيد من المال لينقطع داعي الطمع من نفسه فيجلس للقضاء وليس في ذهنه شيء من أحلام الثروة والمال.

قال (ع):

«... ثم أكثر تعاهد قضائه، وأفسح له في البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس».

والقاضي، بعد، إنسان يخاف: يخاف على ماله أن ينهب، ويخاف على مكانته أن تذهب ويخاف على كرامته أن تُنال، ويخاف على حياته أن يعتدي عليها بعض من حكم عليهم من الأقوياء، فإذا لَم تكن لديه ضمانات تؤمنه كل ذلك اضطره الخوف إلى أن يصانع القوي لقوته، والشرير لشره، وحينئذ يطبق القانون من جهة واحدة. يطبق على الفقراء والضعفاء الذين يؤمن جانبهم.

هذا الخوف ينشأ من عدم تأمين مركز القضاء وصيانته ضد الشفاعات وينشأ من زجه في المساومات السياسية وغيرها، وحينئذ تكفي كلمة من قوي أو غني لسلب القاضي مركزه ومكانته.

هذه الناحية وعاها الإمام (ع) وأعد لها علاجها، فيجب أن يكون القاضي، لكي يأمن ذلك كله، من الحاكم بمكانة لا يطمع فيها أحد غيره، ولا تتاح لأحد سواه، وبذلك يأمن دسَّ الرجال له عند الحاكم، ويثق بمركزه وبنفسه، وتكسبه منزلته هذه رهبة في قلوب الأشرار يقوى بها على حملهم على

الحق وردهم إليه حين ينحرفون عنه ويتمردون عليه. قال (ع): «. . . وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك. فانظر في ذلك نظراً بليغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا».

هذه هي الضمانات الثلاثة التي وضعها الإمام (ع)، مبيناً فيها النهج الذي يحسن أن يتبع في انتخاب أفراد هذه الطبقة، وشارحاً كيفية معاملتهم ليؤدوا مهمتهم على نحو نموذجي.

وقد سجل الإمام بما شرعه هنا سبقاً عظيماً على إنسان اليوم، وذلك لأن استقلال مركز القضاء وعدم تأثره بأي سلطة أخرى، وتأمين الناحية الاقتصادية للقاضي، ونظام التفتيش القضائي، جهات تنبه لها الإمام وجعلها واقعاً يخلف في حياة المجتمع آثاره الخيرة، في عصر كانت سلطة القضاء أداة يديرها الحاكمون والمتسلطون كما يحبون.

ولا شيء ادعى إلى ثقة الناس بالقضاء من نفوذ حكم القاضي على جميع الناس، حتى على من تربطهم بالحاكم الأعلى قرابة قريبة أو صداقة حميمة، فإن ذلك خليق بأن يطمئن الرجل العادي، ويدخل في روعه أنه حينما يدخل مجلس القضاء لا يواجه بنظرة احتقار. وإن الحاكم الأعلى لأحرى الناس بالمحافظة على ذلك والحرص عليه، فإذا ما اعتدى بعض خاصته على بعض الناس وجب عليه أن يرده إلى الحق حين يروغ عنه، ويرده إلى الجادة حين يؤثر العصيان.

قال (ع):

«وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبة ذلك بما يثقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة».

الولاة

إنهم رجال الإدارة، وأيدي الحاكم التي تمتد في أطراف بلاده، والأداة

التي يستعين بها على تنفيذ أمره وإمضاء ما يريد إمضاءه من الشؤون. وهم المرآة التي ينظر بها الرعية إليه، وأعمالهم تنسب إليه وتحمل عليه، ويناله خيرها وشرها.

والوجدان الطبقي لهذه الطبقة ينزع بها نحو التسلط الناشىء من تصورات القوة والهيبة والنفوذ، ويصبح هذا الوجدان خطراً وبيلاً إذا عبّر عن نفسه في غير موضعه، وجرى في غير أقنيته.

لهذا وذاك: لمكان الخطر فيهم، ومبلغ الفائدة منهم، احتاط لهم الإمام واحتاط منهم، فوضع الشروط التي ينتخبون على أساسها، والطريقة التي يعاملون بها، و«الكوابح» التي تزعهم عن أي يسيئوا سلطانهم وأن يخرجوا به عما أنشىء لأجله من منفعة الرعية إلى استغلاله في سبيل المنافع الخاصة والمصالح الشخصية.

لا يدخل في هذه الطبقة كل من شاء له الحاكم أن يدخل وإنما يدخل فيها من خبر المجتمع عن كثب، فعرف حاجاته، وتبين نقائصه، فإنسان كهذا إذا ولي عملاً مضى فيه على بصيرة، فلا يرتجل الخطط ارتجالاً دون أن يعي حاجات المجتمع، ويلبي في خططه ومناهجه هذه الحاجات.

وإلى جانب التجربة والخبرة العملية يجب أن يتوفر له مستوى عال من الأخلاق، فهو كما قلنا، المرآة التي ينظر بها الشعب إلى الحاكم، ولذلك فينبغي أن يكون على خلق رفيع يمسكه عن الشطط ومجانبة العدل، ويستقيم به على الجادّة، ويؤم به قصد السبيل. فالحياء خلق يجب أن يتوفر فيه، والحياء هنا ليس على معناه المبتذل وإنما هو الحياء من النفس... من تلويثها بالظلم والعدوان والتهاون في القيام بالواجب، وهذا الخلق يدفع بصاحبه دائماً إلى التعالي والتسامي. ويجب أن تتوفر فيه صفة القناعة بأن لا يلوث نفسه برذيلة الطمع التي توشك أن تنقلب إلى حقيقة خارجية حين تجد لها محلاً في نفس الإنسان، وصدى في تصوراته.

وإلى جانب هذه الميزات يجب أن يجمع بعد النظر، وأصالة الفكر، وجودة الفهم، فهذه الصفات ضرورية لمن أنيط به أمر جماعة من الناس واعتبر مسؤولاً عن أمنهم ونشاطهم الاجتماعي.

ولم يكن في زمن الإمام (ع) مدارس تعدّ الموظفين الإداريين وتلقنهم الثقافة الإدارية، لذلك أرشد الإمام الحاكم إلى اختيار هؤلاء من بين أبناء الأسر المحافظة على التقاليد، الآخذة أبنائها بطراز عال من التربية، العاملة على تنشئتهم نتشئة نموذجية.

قال (ع):

«... وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح أعراضاً، وأقل في المطامع إسرافاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً».

ويخضع هؤلاء الولاة في ولاياتهم للاختبار، فحين ينتقيهم الحاكم ممن توفرت فيهم الشروط السابقة يجب عليه أن يوليهم اختباراً، فيرى، وقد عرف نظرياً مدى كفاءاتهم، إلى كفاءاتهم في المجال العملي، فإذا أثبتوا أنهم أكفاء حقاً، وأنهم يعون مسؤوليات عملهم وآلياته ثبتوا وإلا عزلوا، واستبدل بهم غيرهم. لهذا المبدأ، مبدأ الاختبار، يجب أن يخضع اختيار الولاة، أما أن يوليهم الأعمال تحبباً إليهم، ودون أن يستشير في أمرهم، ودون أن يعرف مدى كفاءاتهم، فذلك جور عن الحق، وانحراف عن الجادة، وخيانة للأمة في مصالحها، فإن مصالح الأمة أمانة في يد الحاكم يجب أن يسلمها إلى أكفاء ولاته.

ومن هنا نعلم أن القوانين الحديثة التي تنص على وجوب خضوع الموظف الإدراي الحديث العهد بالوظيفة لفترة اختبار تطول وتقصر، لم تأت بجديد، فقد أدرك الإمام بقرون وقرون هذه الحقيقة وسجلها في قانونه العظيم.

قال (ع):

«ثم انظر في أمور عمالك فولِّهم اختباراً، ولا تولهم محاباة وأثرة، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة».

وليس يكفي في حسن الظن بهم والركون إليهم مراعاة الدقة في انتخابهم، فإن الوجدان الطبقي لهؤلاء ينزع بهم نحو التسلط وإظهار القوة وحين يجري هذا الوجدان في غير أقنيته يصير خطراً على الرعية، لأنه يدفع صاحبه حينئذ إلى الانحراف والزيغ.

لأجل هذا يقرر الإمام أن على الحاكم ألا يغفل عن تعقب هذه الطبقة ومراقبتها، فيلزمه بانتخاب رقباء من أهل الدين والمعرفة والأمانة يبثهم في أطراف البلاد، ويجعلهم عيوناً له على عماله، يراقبونهم في أعمالهم. ويرصدون مبلغ ما يتمتع به هؤلاء الولاة من خبرة في الإدارة، وقدرة على التنظيم، ومعرفة بوجوه الإصلاح، ثم يرفعون ذلك كله إلى الحاكم فينكل بالمنحرف الذي خان أمانته، ويستأديه ما حاز لنفسه من أموال المسلمين، ويجعله عبرة لغيره. ويشجع الصالح في نفسه، الصالح في عمله. ويرشد المخطىء إلى وجه الصواب.

إن هذا التدبير يمسك الوالي عن الإسراف، ويحمله على العدل في الرعية. لأنه حين يعلم أن ثمة عيناً ترقب أفعاله يحذر من الخروج عن الجادة، ويحرص على اتباع ما يصلح بلاده. وهذا التدبير الذي نهجه الإمام هو نظام التفتيش المعمول به في أربعة أنحاء المعمورة.

قال (ع):

«... ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والأمانة عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة، والرفق بالرعية. وتخفظ من الأعوان، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة في بدنه، وأخذته بما

أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة، ووسمته بالخيانة، وقلدته عار التهمة».

ولقد كان الإمام (ع) يحرص أشد الحرص على اتباع هذا الأسلوب مع ولاته، ففي نهج البلاغة طائفة كبيرة من كتبه إلى عماله تدور كلها حول هذا المعنى، فيها تنديد بخيانة، وعزل عن ولاية، وزجر عن ظلم الرعية، وفيها توجيه وإرشاد ونصيحة.

قال (ع):

«... وإن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعى لمن فوقك، ليس لك أن تفتات في رعية، ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يديك مال من مال الله عز وجل، وأنت من خزانه حتى تسلمه إليّ».

وقال:

«بلغني عنك إن كنت فعلته فقد أستخطت ربك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك. بلغني أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إليّ حسابك».

وقال:

«بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلٰهك، وأغضبت أمامك: أنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن أعتامك من أعراب قومك، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقاً لتجدن بك عليّ هواناً، ولتخفن عندي ميزاناً».

وقد كانت شرور هذه الطبقة هي التي سببت الثورة على عثمان، فقد ولّى على البلاد الأحداث من ذوي قرابته، ممن لا خبرة لهم في الحكم، ولا عاصم لهم من دين، ولا ورع لهم عن المحارم، فظلموا الرعية، وامتصوا دماءها، وكانت عاقبة ذلك وبالاً.

وعلى النقيض من هذا كانت سياسة الإمام مع ولاته، فهو ينتخبهم

انتخاباً، ثم يوليهم اختباراً ثم يراقبهم، ويحملهم على الإصلاح ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

والعامل الاقتصادي أداة يستخدمها الإمام هنا ـ كما في كل موطن ـ لأجل ضمان استقامة الولاة على ما سنّه لهم من شرائع العدل. ولذلك لم يغفل الإمام (ع) ما للعامل الاقتصادي من عظيم الأثر في إصلاح هذه الطبقة وإفسادها، فقد تدفع الحاجة أحدهم إلى الخيانة والظلم، وهم ـ كما عبر عنهم الإمام في بعض كتبه ـ: «خزان الرعية، ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة». فلو ضيق عليهم الحاكم في الرزق، ولم يرفّه عليهم في النعمة، كان حرمانهم مدعاة إلى أن تطمح أعينهم إلى ما أتمنوا عليه من مال، وذلك داعية الرغبة في الخيانة، واختلاس شيء من أموال الأمة.

لهذا أشار الإمام على حاكم مصر بأن يوسع على الولاة في الرزق، لئلا يتخذوا الحاجة مبرراً للخيانة.

قال (ع):

«ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوك، وثلموا أمانتك».

الكتّاب:

الكتاب وأعوانهم هم الهيئة الوزارية ووكلاؤها، ومديروها. وإلى هذه الطائفة يرجع أمر الدولة كله: سلمها، وحربها، واقتصادها، وكل ما يلمّ به من خير أو شر. فهي الجهاز الأعلى الذي ينظم النشاط الاجتماعي، ويشرف على توجيهه. وعلى قدر ما تكون عليه هذه الطائفة من الصلاح والاستقامة، تصلح الدولة، وتستقيم ويعظم شأنها.

وقد نص الإمام (ع) في عهده على من يصلح أن يلحق بهذه الطائفة ومن لا يصلح لذلك، وأفاض في ذكر الصفات التي يجب أن تتوفر في الوزير، وبيَّن الأسلوب الذي يحسن بالحاكم أن يتبعه في الأخذ منه والسماع عنه.

من جملة ما قدمناه بين يدي هذا البحث ملاحظة ذكرنا فيها أن الإمام كتب هذا العهد وهو يطمح إلى إنشاء جهاز جديد للحكم في مصر، جهاز واعٍ لمسؤولياته، تقدمي في برامجه ومشروعاته، ليستجيب للحاجات التي يفتقر إليها المجتمع. وقد رأيناه في البحوث المتقدمة محافظاً على هذه السمة في عهده، فهو دائماً يؤكد أن جهاز الحكم يجب أن يكون سليماً، واعياً، تقدمياً، عاملاً لمصلحة المجتمع.

وها هو، بالنسبة إلى طائفة الوزارة ومن يتعلق بهم، ينص على هذا المعنى ويؤكده تأكيداً وافياً.

فلا يجوز أن يدخل في هذه الطبقة رجال كانوا وزراء للظلمة والأشرار وذلك لأن تأليف هذه الطبقة من هؤلاء يستتبع عواقب وخيمة تعود بالضرر على الدولة. فهم، وقد استمرؤوا فعل الظلم وتعودوا على مقارفته لا يعفون عن العودة إليه والارتكاس فيه. وإذا كانوا ذوي أنفس شريرة مست أعمالهم المجتمع كله نظراً إلى سعة سلطانهم، وعظيم قدرتهم، لأن ملاك القوى كلها مجتمع عندهم. وضرر آخر ينجم عن دخولهم في هذه الطبقة، فالشعب الذي عرفهم بالجور، وذاق منهم مرّ الظلم تذهب ثقته بالحكم المهيمن عليه حين يراهم قد عادوا إلى مراكزهم، ويعتبره حكماً أقيم لمصلحة طبقة خاصة، ومتى ذهب إيمان الشعب بحاكميه أهمل من حقوق الحاكمين عليه ما يجب أن يؤديه، لاعتقاده أنه حين يلبيهم فيما يطلبون لا يقوم بعمل يعود بالنفع عليه.

وقد أصبح من المعطيات البديهية في علم الاجتماع أن ما يثير الشعوب ليس الظلم نفسه وإنما الشعور بالظلم، وسيطرة أشخاص مثل هؤلاء على دفة الحكم يوقظ في الشعب تصورات الظلم الذي ذاقه على أيديهم في عهودهم السابقة، وهذا كاف لأن يولد في نفسه الشعور بالظلم وإن لم يكونوا ظالمين. وهكذا تحدث بين الحاكم والمحكوم هوّة تبعد أحدهما عن الآخر، وتسلب ثقة كل منهما بالآخر، وفي بعض ذلك ما يجر الدولة إلى مصير وبيل.

قال (ع):

«إن شرّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأثمة، وإخوان الظلمة».

ولا يجوز أن يناط اختيار أفراد هذه الطبقة بالفراسة وحسن الظن فإن الرجال يتصنعون الصلاح، ويتظاهرون بالمقدرة والأمانة، ليظفروا بمثل هذا المنصب، فيخدعون الفراسة، وينتزعون حسن الظن بتصنعهم دون أن يكونوا على شيء من الصلاح والكفاءة.

إن اختيار أفراد هذه الطبقة يجب أن تلاحظ فيه اعتبارات متعددة.

يجب أن يكونوا على معرفة تامة بمحيطهم وبحاجاته، ليصدروا في إدارته عن وعي.

ويجب أن يكونوا إلى جانب المعرفة أكفاء، ذوي مقدرة على تصريف ما أنيط بهم من أمور.

ويجب أن يكونوا إلى جانب هذا وذاك ـ ممن يعرفهم الشعب بالحب له، والحدب عليه، ورعاية مصالحه وتيسير حاجاته، والسهر على رفاهيته وسعادته، فإن هذه الطبقة حين تتألف من مثل هؤلاء يطمئن الشعب إلى الحكم ويستريح إلى أعمال الحاكم[1].

ويعرف ذلك كله بالنظر إلى سابق ما ولوه من أعمال الصالحين من الحكام: هل أحسنوا إدارته؟ وهل برهنوا فيه على دراية بأساليب الإصلاح؟ وهل كانت للشعب فيهم ثقة؟ فإذا اجتمعت فيهم هذه الصفات: من قدرتهم وكفاءتهم، إلى معرفتهم بمحيطهم، إلى حب الشعب لهم، وإيمانه بهم، حقّ لهم أن يدخلوا في هذه الطائفة، وحق على الحاكم أن يؤلفها منهم.

---

(١) نقول هذا في القانون الديني حين يتولى الأمر حاكم كالإمام علي (ع)، لا حين يتولاه ملوك كملوك الأمويين والعباسيين وغيرهم من الذين استعبدوا الناس باسم الإسلام، والإسلام منهم بريء.

قل (ع):

«.. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك، وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم، وحسن خدمتهم، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك: فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثراً، وأعرفهم بالأمانة وجهاً، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره».

لم يكن مبدأ انفصال السلطات الثلاث: «التشريعية والتنفيذية، والقضائية» مبدأ معترفاً به في الدولة الإسلامية. بل لم يكن للدولة للإسلامية في عهودها الأولى وزارة بالمعنى المفهوم لهذا اللفظ. لقد كانت السلطات كلها تتجمع في يد الحاكم الأعلى، فهو المرجع الأول والأخير في كافة الشؤون.

ولا أحسب أن دولة في عالم اليوم لا تأخذ بمبدأ فصل السلطات، إما حقيقة أو ظاهراً، وحجة فلاسفة الحكم على رجحان هذا المبدأ هي أن تركه يؤدي إلى تجمع السلطات كلها في يد واحدة، وذلك يجر إلى طغيان الفرد. أما حين تنفصل السلطات فلا يمكن أن يحصل الطغيان لأن كل واحد ممن يملكون سلطة معينة يترك الطغيان خشية أن تعارضه السلطات الأخرى.

ونقول: إن هذا المبدأ قد يكون معقولاً حين يكون القانون الذي تسير عليه سلطتا التنفيذ والقضاء قانوناً وضعياً يمكن أن يكون المحكم في وضع مواده وتفسيرها هو الأهواء والشهوات وأما حين يكون القانون دينياً ليس لأي سلطة مهما بلغت من النفوذ والقوة أن تحرفه، وتتلاعب فيه وتجعله في صالح فريق من الناس دون آخرين وحين يكون هذا القانون معروف الحدود مفصل المواد فلا ضرورة تدعو إلى فصل السلطات لأن أي انحراف عنه يعرف فيعزل المنحرف ويقوم الشاذ[1].

(1) لعل مونتسكيو ١٦٨٩ ـ ١٧٥٥م هو أول من تكلم في مبدأ فصل السلطات، وقد عقد للحديث عنه فصلاً في كتابه روح الشرائع ١/٢٢٨ ـ ٢٤٢. وتابع الموضوع من الوجهة التاريخية في ٢٤٣ ـ ٢٧٩.

على أن هذا لا يمكن أن يؤخذ به على إطلاقه: أي كلما كان القانون وضعياً وجب اتباع مبدأ فصل السلطات وذلك لأن الحاكم الأعلى إذا كان عادلاً وكفواً لم يعد تجمع السلطات في يده بأي ضرر لأن الطغيان ـ وهو المحذور الذي من أجله وضع هذا المبدأ ـ مأمون من قبل إنسان كهذا ولا يغني فصل السلطات شيئاً حين يكون القائمون عليها فاسدين وشريرين لأن هذا المبدأ لا يمنعهم من التعاون على الشر والطغيان، وبدل أن يعتدي الحاكم على حقوق الناس ويعرف بالظلم والعدوان، يمكنه هذا المبدأ من الاعتداء على حقوق الناس باسم القانون والمصلحة العامة، وكلنا يعرف كيف تكون سلطات التشريع ـ وهي أعلى السلطات ـ في بعض البرلمانات مصدر المساومة على حقوق الشعب أو الجماعات أو الأفراد.

قدمت هذا الحديث لأخلص منه إلى القول بأن الظن يذهب ببعض الكتاب إلى أن الإمام (ع) قد شرع في عهده إلى الأشتر مبدأ فصل السلطات في خلال حديثه عن الوزراء ويجعل ذلك مفخرة من مفاخر الإمام لأنه اهتدى إلى هذا المبدأ قبل فلاسفة الحكم في الغرب بمئات الأعوام.

وهذا وهم لا واقع له في كلام الإمام. فقد رأينا أولاً أن مبدأ فصل السلطات إذا صح في المجتمعات التي تحكم بقوانين وضعية فإنه لا يصح في المجتعات التي تحكم بقوانين سماوية. وقد رأينا ثانياً أنه حتى في المجتمعات التي تحكم بقوانين وضعية لا يعود هذا المبدأ بالنفع المقصود منه في كثير من الأحوال. وثالثاً أن الإمام تكلم في هذا الموضع عن الوزارة، والوزارة عبارة عن السلطة التنفيذية، فكيف يشرع مبدأ فصل السلطات في داخل إحدى السلطات، مع أن هذا المبدأ يجب أن يشرع في تشكيل الدولة العام؟ ورابعاً أنه هو لم يأخذ بهذا المبدأ في حكمه فيكف يأمر به أحد عماله؟

الذي أراه هو أن الإمام نظر فرأى أن طائفة الوزراء هي أعظم أجهزة الدولة أهمية، لأن جميع الشؤون تناط بها، وترجع إليها، وتصدر عنها، في السياسة والإدارة والحرب.

ولا يصح أن تناط هذه المهام بشخص واحد أو بمجموعة من الأشخاص، فإن الإحاطة بدقائق كل هذه المهام ومعرفة أسرارها لا تتاح في العادة للشخص الواحد، ولو أتيحت لواحد فأنيط به أمرها لما أحسن التصرف، ولوقع في الخطأ وسوء التدبير، لأن اضطلاعه بها يرهقه ويبهظه فإما أن يصرفها كلها فيقع في الخطأ، وينأى عنه بعد النظر وأصالة الرأي وسلامة التدبير. وإما أن يهمل بعضها ويصرف بعضها الآخر فيقع الاضطراب في أعمال الدولة بسبب إهماله. وإن أنيطت المهام بجماعة من الناس دون تحديد المهمة الملقاة على عاتق كل منهم وقعت البلبلة وشاع الإهمال، فينقض أحدهم ما أبرمه الآخر، ويصرف أحدهم ما أمسكه صاحبه، ويمضي اثنان أمرين متضادين، ويهمل كل واحد منهم بعض المهمات اتكالاً على رفاقه.

فأحسن الوسائل لضمان سير أعمال الدولة على مستوى عال من حسن التدبير، وإصابة الهدف هو ما قرره الإمام (ع)، وهو أن يناط بكل واحد من هؤلاء الوزراء بعض مهمات الدولة ويراعى في إلحاق من اختير للوزارة لعمل من الأعمال أن يكون ذا اختصاص بذلك العمل وذا خبرة بدقائقه وأسراره ليؤدي ما استعصى منه على خير وجه.

قال (ع):

«واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها. ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته».

وفي هذه الفقرة الأخيرة «ومهما يكن. . .» قرار الإمام أن الحاكم مسؤول عما يكون في وزرائه من العيوب، وذلك لأنه ـ وقد اختار ـ يجب أن يتحمل مسؤولية اختياره.

وعلى رأس هؤلاء جميعاً رئيسهم، وهو من يقال له (كاتب الكتَّاب) ومهمة هذا الوزير هي الإشراف على من دونه من الوزراء، ومراقبة أعمالهم، ومهمته أيضاً هي تولي السياسة العليا للدولة مع الحاكم، فهو عضد الحاكم في

رسم الخطط السياسية، وإعلان الحرب وعقد معاهدات الصلح، والتعرف على نيات من يخلف منهم على أمن الدولة وكيانها، فهو مع الحاكم الأعلى، العقلان اللذان يديران عملية الحكم كلها.

هذا الوزير يشترط فيه الإمام شروطاً لا يصلح بدونها:

فيجب أن يمتاز عن بقية الوزراء بأن يكون خيرهم، وذلك بأن يكون أكثر منهم إلماماً بشؤون الدولة وإمكاناتها، ليتسنى له أن يوجه كلاً منهم إذا انحرف، ويفهم عنه إذا قال.

ويجب أن يكون عارفاً بمركزه وأنه لا يخرج عن كونه وزيراً يستمد الصلاحية ممن استوزره، فلا تبطره الكرامة التي حصل عليها، فتدفعه إلى إشاعة خلافه مع الحاكم بين الناس، لأن ذلك يشعر الناس بأن في جهاز الحكم خللاً، وربما سبب شيوع ذلك تحفز المشاغب إلى إظهار شغبه اغتناماً لفرصة الانشقاق. إن الإمام يطلب من الوزير أن لا يسلم بوجهة نظر الحاكم في كل ما يقول وإلا كان ببغاء ولم يكن وزيراً، إن عليه أن يجاهر برأيه حين يرى الحق في جانبه، ولكن ذلك يجب أن يبقى سراً بينه وبين الحاكم ولا يجوز أن يذاع في الناس.

ويجب أن يكون على وعي لكنه السياسة التي تسير عليها الدولة فيتبع في أوامره التي يصدرها إلى الولاة وفي مباحثاته السياسية هدى سياسة الدولة، ولا يغفل عنها فيلزم نفسه بما يتنافى وسياسة دولته التي يمثلها.

ويجب أن يكون عارفاً بأحابيل السياسة وألاعيبها، فيحافظ على التزامات الدولة السياسية التي تعود عليها بالنفع والقوة، ويعرف وجه الحيلة في إخراج الدولة من المآزق السياسية التي يكيدها بها أعداؤها.

ويجب أن يكون إلى جانب هذه جميعاً أجمع وزرائه لوجوه صالح الأخلاق، لأن المهام التي تناط به تتطلب قوة في الدين تمسكه على الجادة وشعوراً بالمسؤولية يحمله على الإخلاص والاتقان، وعفة تعصمه من الإغراء.

قال (ع):

«ثم انظر في حال كتّابك، فول على أمورك خيرهم. وأخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترىء بها عليك في حضرة ملأ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك، وإصدار جواباتها على الصواب عنك، فيما يأخذ لك ويعطي عنك، ولا يضعف عقداً اعتقده لك، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك»، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل».

وفي هذه الفقرة الأخيرة: «ولا يجهل..» يشترط الإمام في الوزير أن يكون واقعياً، ينظر إلى الأمور نظرة جدية، ويعرف واقعه تمام المعرفة، فإذا كان مركزه ضعيفاً احتاط لنفسه بما يحتاط به الضعيف ولا يهمل الاحتياط غروراً منه واستعلاء، وإذا كان قوي المركز وجب عليه أن يمثل دور القوي. ولا يهن أمام خصومه فيعطيهم من نفسه ما لو شاء لمنعه، ثم لا يلحقه من وراء ذلك شيء.

قلنا إن الوزير الذي يصوب كل ما يقوله الحاكم حتى إذا كان مخطئاً فيه ليس وزيراً وإنما هو ببغاء تقمصت أهاب وزير. وظيفة الوزير هي أن يتعاون مع الحاكم الأعلى على إدارة جهاز الحكم إدارة صحيحة، وعليه إذا أخطأ الحاكم في الرأي أن يرده إلى الصواب، وعليهما أن يتعاونا على معرفة أصلح الوجوه فيما يأخذان ويدعان من الأمور، لذلك يجب أن يعطى الوزير حرية الرأي بحيث لا يقيده في هذا المجال شيء، لأنه كلما كان أوسع حرية عظمت فائدته، ويجب أن ينال الوزير من الحضوة بمقدار ما يكون صريحاً في رأيه، معلناً الحاكم بالحق راداً له إلى الصواب فكلما ازداد قولاً بالحق وإيثاراً للصدق ازداد كرامة ورفعة. وأما حين يتبين الوزير في الحاكم أنه لا يطلب النصح وإنما يطلب الموافقة على رأيه فقط فإنه ينقلب إلى ببغاء، وحينئذ يسير الحاكم بالدولة معصوب العينين لأن أحداً لا يجرؤ أن يقول في وجهه كلمة الحق.

قال (ع):

«وليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق ذلك، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع... ثم رضهم على ألا يطروك، ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من العزة».

الزرّاع

هذه الطبقة من أعظم الطبقات الاجتماعية وأبلغها أثراً في حياة المجتمع.

ففي زمان الإمام (ع) كانت هذه الطبقة أضخم الطبقات الاجتماعية، وكانت مركز الكثافة في المجتمع، كما أن مركز الكثافة فيه هي طبقة العمال في العصر الحديث.

وكانت المجتمعات القديمة مجتمعات زراعية في الدرجة الأولى، فكان كيان الأمة الاقتصادي يقوم على الأرض ومنتجاتها، لأن الصناعة لم تكن إذ ذاك على حال تسمح بأن يقوم عليها الصرح الاقتصادي للأمة، لضعفها وضيق نطاقها. ولم تكن التجارة وحدها كذلك لتسمح بإقامة هذا الصرح في كثير من البلدان، لعدم انتظام التجارة العالمية إذ ذاك، ولضعف المواصلات، ولعدم وجود طرق تجارية كافية ومأمونة في جميع الأوقات.

وإذن فقد كان الكيان الاقتصادي يقوم في الدرجة الأولى على الأرض ومنتجاتها، والرفاهية الاقتصادية منوطة بأن تتاح للأرض أفضل الفرص التي تمكنها من أن تعطي عطاء كثيراً، ومنوطة بأن تتاح للزارع أفضل الوسائل التي تعينه على صيانة أرضه، وخدمتها، والحصول منها على نتاج وفير.

وقد برهن الإمام (ع) في عهده إلى الاشتر أنه على وعي تام لمدى أهمية هذه الطبقة في الكيان الاجتماعي، ثم للعمليات الاجتماعية التي يعتبر نشاط هذه الطبقة ضرورياً لاستمرارها.

يقرر الإمام (ع) أن النشاط الاقتصادي كله يتوقف على ما يدفعه أهل الخراج من الأموال. فسكان المدن على أقسام: الجنود المقاتلة، وأصحاب الحرف والصناع، وأصحاب التجارات، والذين لا يستطيعون عملاً يرتزقون منه، أو لديهم أعمال لا يكفيهم ريعها. ويوزع قسم كبير من أموال الخراج على الجنود، وعلى الفقراء، وعلى من لا يكفيه عمله من ذوي الأعمال. وبهذه القوة الشرائية التي يحدثها هذا المال تستمر العمليات الاجتماعية، فتنشط حركة التجارة والصناعة، لأن في أهل المدن حاجة إلى الطعام والكساء والآنية والوقود وغيرها. يحصلون عليها من التجار والصناع والعمال، وبهؤلاء حاجة إلى الزراع فيشترون منهم المواد الحيوانية والنباتية وغيرها، لأجل أن يلبوا حاجات المدن المتجددة، وبالزراع حاجة إلى الكساء والآنية والسلاح وما إليها، فيحصلون بهذا المال الذي يصير إليهم على ما يريدون.

وهكذا يتوقف ازدهار النشاط الاقتصادي على طبقة الزراع، وإذن فاضطراب أمور هذه الطبقة لن يعود عليها بالضرر وحدها، وإنما يمتد بآثاره الضارة إلى المجتمع كله، فيشل نشاطه، ويؤدي به إلى أزمات اقتصادية حادة ينجم منها التفسخ الاجتماعي.

قال (ع):

«وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس عيال على الخراج وأهله».

وتعتمد هذه الطبقة اعتماداً مطلقاً على الأرض، وعلى العناصر الطبيعية، وعلى سواعدها.

فيجب أن تصان الأرض لتبقى في حالة جيدة، ولتستفيد من العناصر الطبيعية إلى أقصى مقدار ممكن، فيجب أن تشق الترع، وتبنى القناطر والسدود، وتحفر الآبار، لتتوفر للأرض حاجاتها من المياه وينتظم نظام الري،

ويجب شق الطرق الزراعية التي تمكن هذه الطبقة من الاتصال ببعضها، وتسهل قضاء المهام الزراعية والاستعانة بالعمال الزراعيين.

وصيانة الأرض ليست أمراً يعود بالنفع على هذه الطبقة وحدها، وإنما يعود بالنفع على الدولة كلها، فقد رأينا ما لنشاط طبقة الفلاحين من تغلغل حيوي في العمليات الاجتماعية، فصيانة الأرض والحال هذه من المصالح العامة، فيجب الإنفاق عليها من الأموال العامة.

فأما حين تهتم الحكومة بالجباية فقط وتهمل أمر الإصلاح والعمارة، حين تتجه هذا المتجه يصير بها الأمر إلى أن تخرب البلاد وتهلك العباد ثم لا تجد مورداً تجبي منه المال لعدم وجود إنتاج صحيح، لأن الخراج ـ كثرة وقلة ـ متصل بحالة الأرض، فعلى مقدار ما تأخذ الأرض تعطي، وعلى مقدار ما تعطي تكون قدرة أهلها على إجابة الحاكم إلى أداء ما يفرضه عليهم من خراج.

قال (ع):

«... وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله... وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً».

وطبقة الفلاحين أكثر الطبقات كدحاً، وأشقها عملاً، فعند من عداهم من الطبقات والطوائف وقت مخصص من اليوم للعمل، وأوقات أخرى للراحة والتسلية، بخلاف الفلاحين فإن عملهم يمتد طول اليوم، وعلى مدار العام. وهذا العمل إما في مركز الإنتاج وهو الحقل، وإما في بيوتهم بإعداد البذار والآلات وما إليها. وحتى في الأوقات التي ينقطعون فيها عن العمل هنا وهناك لا ينقطعون عنه في أحاديثهم وتصوراتهم، وطبيعة عملهم تفرض عليهم هذا اللون من الحياة، وهذا المقدار من الجهد، فغيرهم من الناس يستطيع أن يتحكم بعمله فيختار الوقت الملائم لأدائه ثم ينقطع عنه، أما الفلاح فعمله ينحصر في

مساعدة العناصر الطبيعية على أن تؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل، فهو عبد لهذه العناصر، وعليه أن يكون يقظاً دائماً ليعمل ما يجب عمله، ولما كان عمله متصلاً بهذه العناصر فإن أي تقصير منه يعود عليه بضرر كبير، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في الطبيعة البيولوجية ويسخرها حسب هواه.

هذا العمل المرهق يجب أن يقابله مستوى من المعيشة ومقدار من الدخل يشعران هذه الطبقة بأنها حين تعمل لا تستغل لصالح الآخرين وإنما تعمل لنفسها في الدرجة الأولى.

ويجب أن يشعر الفلاح بأنه سيد أرضه وأن لا أحد يمكن أن ينازعه في هذه السيادة.

وحيث كان من اللازم مراعاة حال الفلاح وتمكينه من أن يحيا على مستوى لا يشعر معه بالاضطهاد والاستغلال، وحيث كان من اللازم إشعاره بأنه سيد أرضه ـ لهذا وذاك ـ يجب أن يكون مسموع الكلمة فيما يتصل بأرضه وبقدرتها على الإنتاج، فإذا اشتكى ثقل الخراج لعدم تناسبه مع إنتاج الأرض أو شكى آفة ألمّت بالأرض فأثرت على إنتاجها أو ذهبت به فلذلك لا يستطيع دفع ما فرض عليه من المال، إذا شكى شيئاً من هذا كان من اللازم أن يسمع كلامه، فيوضع عنه من المال مقدار ما يصلحه.

وقد يذهب الظن بالبعض إلى أن هذه المعاملة تؤثر على مالية الدولة وتضعفها، ولكن هذا الظن بعيد عن الصواب، لأن هذه الوضعية التي يحصل عليها الفلاح تعود على الدولة نفسها بفوائد عظيمة تزيد في ازدهارها ورفاهيتها. وذلك لأن هذا المال يصرف في إصلاح الأرض وعمارتها، ويصرف في سد حاجات الفلاح نفسه من مسكنه وملبسه ومرافق حياته الأخرى فيكون في ذلك تزيين للبلاد بما أتاح لها هذا المال من العمران ويكون في ذلك شعور هذه الطبقة بالطمأنينة والرضى مما يدفعها وهي أكثر طبقات المجتمع عدداً وأعظمها إنتاجاً إلى المحافظة على الحكم القائم والدفاع عنه لأنه يحفظ لها مصالحها. ولدينا

شاهد من التاريخ على هذا، فقد كان نابليون الثالث (إمبراطور فرنسا) ممن حدبوا على هذه الطبقة ورعوا مصالحها، وحموها من عتاة الظلمة، وأشعروا الفلاح الفرنسي أنه سيد أرضه وأن أمرها منوط به وحده، وقد كان موقفه هذا مما دفع بالفلاحين إلى أن يخصوه بأصواتهم في الانتخابات دائماً لما لمسوه من رعايته لمصالحهم وفهمه لموقفهم.

وهذه النتيجة «عطفهم على الحكم القائم» مع عمران أرضهم تجعلهم على استعداد للمعونة حين تطلب منهم، لحسن ظنهم بالحكم القائم ورغبتهم في استمراره من جهة، ولأن حالهم المالية تسمح لهم بالمساعدة لوفرة الإنتاج.

فهذا المال الذي وضع زاد في عمران البلاد، ومن ثم زاد في إيرادها، ومن ثم جعلها تحتمل من الضرائب فوق ما كانت تحتمل وهي أقل عمراناً، وحمل الفلاحين على حب الحكم القائم وبذل المعونة له حين يشكو العجز وتأييده حين يشكو الخذلان.

قال (ع):

«فإن شكوا ثقلاً أو علة، أو انقطاع بآلة، أو إحالة أرض اغتمرها غرق، أو أجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم، ورفقك بهم فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملته».

ولهذه الفقرات وجوه أخرى من الدلالة، عظيمة القيمة، بالغة الأهمية فمن الشروط الأساسية لنجاح العمل وازدهاره أن يقبل العامل عليه بهمة ونشاط، وأن يشعر نحوه بالحب والرغبة. وأن يحس حين يزاوله أنه ينمي به شخصيته الإنسانية، ويؤكد قدرتها على الإبداع ـ إذا كان هذا هو موقف العامل النفسي من

عمله ازدهر العمل وتقدم، ولا يمكن أن يقف العامل من عمله هذا الموقف إلا إذا شعر بأن عمله له، وبأنه يعود عليه بالنفع والفائدة.

ومن هنا اعتبرت الملكية الخاصة من أعظم الأسباب الدافعة إلى ازدهار العمل، لأن هذا اللون من الملكية يدفع العامل إلى بذل طاقته كلها مع شعوره بالسرور لأنه يعمل لنفسه.

ويتغير هذا الموقف حين يكون العمل للغير ولا يرجع إلى العمل من ثمراته شيء يذكر فإنه حين ذاك يشعر بالكراهية نحو عمله، ويتهاون فيه ولا يتحرى كماله وإتقانه ويتحرى الفرص للتهرب منه وهذا يضعف سير العمل، ويهبط به، ويسري هذا الموقف النفسي إلى صاحب العمل نفسه فيتمنى العامل هلاكه، ليتخلص منه.

هذه الملاحظات تفيدنا هنا. فحينما توضع على الفلاحين الضرائب الفادحة التي لا تتناسب مع دخلهم، مع إهمال عمارة الأرض وصيانتها يشعر هؤلاء الفلاحون أنهم لا يعملون لأنفسهم ولا يجنون من وراء كدحهم المرهق شيئاً ذا قيمة وإنما يعملون لغيرهم، ويستغلون لهذا الغير استغلالاً بشعاً وذلك يخلق في نفوسهم كراهية عملهم والتذمر منه.

إن هذه المعاملة التي تحدث هذا الشعور وتدفع إلى هذا الموقف تخلف في المجتمع آثاراً ضارة قد تقوض المجتمع من أساسه.

هذه المعاملة تدفع بأضخم طبقة في الأمة إلى انحلال أخلاقي فظيع، فهذا الفلاح الذي يستغل الحاكم جهده دون أن يعوضه عليه شيئاً يريد أن يعيش، وهو يتوسل إلى غايته هذه بالكذب والغش والتهريب والسرقة، فبدلاً من أن يعيش من أرضه بجهده يضطر إلى العيش من جيوب الآخرين بسلاحه، وينقلب قاطع طريق، مجرماً، عدواً للمجتمع، بعد أن كان المفروض فيه أن يكون لبنة تزيد صرح المجتمع قوة ومناعة.

ومن جملة آثارها أن تنتقل الأيدي الفتية الشابة إلى بلاد أخرى هرباً من

الظلم، وطلباً للقمة العيش. فمن لم يصبر على الظلم أما أن يتحول إلى قاطع طريق وإما أن يهاجر، وهذا يسلب من البلاد زهرة شبابها، فإن الذين يهاجرون هم الأقوياء المغامرون، ذوي المستوى الأخلاقي العالي الذي يمنعهم من الإجرام. وإلام يؤدي هذا؟ أنه يؤدي إلى هبوط الإنتاج فهذه الأيدي الفتية هي التي تدير عمليته، وحين تنقطع عن العمل فلا بد من أن يصاب الإنتاج بالشلل.

ومن جملة آثارها أن تنتقل رؤوس الأموال الكبيرة إلى خارج البلاد، فإن أصحاب الثروات يستغلون أموالهم عن طريق الزراعة في المجتمعات الزراعية، فيعمرون الأرض، ويحيون مواتها، ويصلحون نظام الري، ويوجدون عملاً للكثيرين. ولكن غاية هؤلاء هي الربح، فإذا ما رأوا أن الضرائب والمظالم تذهب بثرواتهم فضلاً عن أرباحهم آثروا تجميد أموالهم أو نقلها إلى بلد آخر يأمنون فيه العدوان، وينجم عن هذا تعطيل شبان كثيرين يتجهون إلى الهجرة أو إلى الإجرام، وتزيد البلاد خراباً. ويزيد الكيان الاقتصادي ضعفاً.

ومن جملة آثارها أن تتحد الأمة على بغض الحكم القائم، ثم لا تلبث أن تثور عليه وتجعله أثراً بعد عين.

هذه الكوارث الاجتماعية تنشأ من عدم التبصر في إمكانات الإنتاج وحالة المنتجين. وقد وضع الإمام (ع) من المبادىء ما يعصم أتباعه من التردي، فبين أن على الحاكم، قبل أن يفكر في وضع الضريبة، أن يلاحظ حالة الأرض فيعمرها ويصلحها، وأن يراعي حالة العامل النفسية والمعيشية، فيضمن له العيش في مستوى لائق لئلا يشعر بالاضطهاد، وعندما يفرغ من ذلك كله يحق له أن يضع الضريبة التي تتناسب مع مستوى الإنتاج ومقدرة المنتجين.

قال (ع):

«وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر».

ولا يكفي هذه وحده في ازدهار هذه الطبقة وتقدمها، فقد يكون الحاكم

محسناً إليها رؤوفاً بها، ومع ذلك ينالها الظلم، ويلحق بها الحيف.

إن هذه الطبقة بحاجة إلى الحماية من طبقة الخاصة والنبلاء، فهؤلاء يظلمون. ولا يتناهون عن منكر فعلوه، ولا يفيئون إلى حق، اعتزازاً بقوتهم وغناهم وصلتهم بالحاكمين، ولذلك فيجب أن تحمى هذه الطبقة منهم بقطعهم عنها، ويكون ذلك بألا يجعل الحاكم لهم سبيلاً عليها ولا صلة بها، فلا يقطعهم الحاكم أرضاً تتصل بأرض من هم دونهم قوة وقدراً لأنهم يستغلون المرافق العامة في سبيل منافعهم الخاصة، ويعتدون على أرض غيرهم فليحقونها بأرضهم، ويعفيهم الجباة من الضرائب مراعاة لمنزلتهم، ويضعون ما رفعوه عنهم على أعناق غيرهم ممن ليس له مثل منزلتهم، وذلك أفدح الظلم وأقبحه.

فإذا ما حدث شيء من ذلك وتعدى أحد هؤلاء على بعض الناس فظلمه بأن وضع عليه خراجه، أو سلبه أرضه، أو حرمه الانتفاع بالمرافق العامة، وجب على الحاكم أن يؤدّبه ويرده إلى العدل كائناً من كان.

قال (ع):

«ثم إن للوالي خاصة وبطانة، فيهم استئثار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع مادة تلك الأحوال. ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحاميتك قطيعة، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم، فيكون مهنأ ذلك لهم دونك وعيبه عليك في الدنيا والآخرة. وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن في ذلك صابراً محتسباً واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فإن مغبة ذلك محمودة».

التجار والصناع

إذا كانت الزراعة هي ينبوع النشاط الاقتصادي في العصور القديمة فإن التجارة هي المظهر الأكمل لهذا النشاط في جميع العصور.

وإذن، فطبقة التجار تشكل وحدة اجتماعية عظيمة القيمة، بعيدة الأثر في الكيان الاجتماعي. ولو أن اضطراباً ألمّ بنشاط هذه الطبقة لاضطرب المجتمع كله، فتحدث المجاعات في بعض الأطراف بينما تتكدس المواد الغذائية في أطراف أخرى، وبينما توجد في بعض المناطق سلع كثيرة للاستهلاك توجد مناطق أخرى تعاني نقصاً في سلع الاستهلاك.

وهؤلاء التجار ـ في كلام الإمام ـ على قسمين: منهم المقيم المستقر بماله وتجارته. ومنهم المتجول المضطرب بماله بين البلدان يرصد حاجة كل بلد فيتجر فيه بالسلعة التي يفتقر إليها.

وأما الصناع فيجب أن ندخلهم في طبقة التجار ونفهمهم على أنهم منها هنا وذلك لأمرين، الأول: أن لكل من هؤلاء الصناع عملاً خاصاً مستقلاً يتَّجر به وحده أو يشاركه فيه غيره فهو يتمتع بنتيجة عمله وليس مستخدماً عند غيره كما هو حال العامل الآن.

الثاني: أن الوجدان الطبقي عند التجار والصناع واحد كما سنرى والميزان في عد طائفتين من الناس طبقة واحدة هو وحدة الوجدان الطبقي فيها.

هناك تلازم وثيق بين الازدهار الاقتصادي وبين التجارة فكلما نشطت حركة التجارة ارتفعت نسبة الإنتاج، وكلما ضعف أمر التجارة هبطت هذه النسبة وتبعتها في الهبوط المكانة الاقتصادية للأمة. ونضرب لهذا مثلاً بحالة المقاطعات الفرنسية في عصر الإقطاع، ثم بحالة هذه المقاطعات بعد ضعف أمر الإقطاع ونشوء البرجوازية.

ففي عهد الإقطاع الذي ساد أوروبا منذ انهيار امبراطورية شرلمان إلى ما بعد الحركة الأولى للحروب الصليبية ضعفت الحركة التجارية في أوروبا ضعفاً عظيماً، فتبعها الإنتاج في الهبوط، واكتفى سكان كل إقطاعية بإنتاج ما يلزمهم ويكفيهم من المواد الغذائية واقتصروا منها على أنواع خاصة تسد حاجتهم ولا تستدعيهم بذل جهد كبير، فلم يكن شيء سوى سد الحاجة مطلباً لهم، نعم

كانت ثمة استثناءات خاصة في السلاح والثياب والأثاث للزعيم، وكانت هذه تنقل من أقاليم بعيدة نسبياً. وهكذا كانت المقاطعات الفرنسية، الأوروبية كلها، تجنح في الاقتصاد نحو سياسة الاكتفاء الذاتي، وعدم إنتاج ما يزيد على الحاجة.

ولكن ما إن التهبت شرارة الحروب الصليبية التي ذهبت بكثير من النبلاء والإقطاعيين، وما أن حدثت تطورات اجتماعية أخرى كالنزوح من الريف إلى المدينة، وتأييد الملك، واختراع المدفع الذي ذهب بقيمة الحصون... ما أن حدث هذا حتى عادت التجارة فنشطت نشاطاً عظيماً، ونشأت طبقة البرجوازيين التجارية التي ينتقل أفرادها بين البلدان، واستتبع ذلك ارتفاع مستوى الإنتاج، فزرع الزارع أنواعاً جديدة لم يكن ليزرعها لولا طلب التجار لها، واشترى أشياء جديدة «ملابس وأسلحة، وآنية، وأدوات زينة» لم يكن ليقدر على شرائها لولا نشاطه الجديد، وتفنن الصانع في صنعه، فلم يعد يصنع ما يسد الحاجة فقط، وإنما أخذ يصنع ما يرضي حاسة الجمال أيضاً. وقامت المشاريع الصناعية الكبرى، فنشأت البرجوازية المالية، والبرجوازية الصناعية. وهكذا ارتفع مستوى الإنتاج بسبب نشاط الحركة التجارية.

وعندما نبحث عن أسباب التدهور التجاري الذي حل بفرنسا وغيرها من دول أوروبا في عصر الإقطاع نجد أسباباً مختلفة: منها عدم وجود الطرق التجارية الصالحة في جميع الأوقات بين مختلف أنحاء البلاد، ومنها قطاع الطرق، وعصابات اللصوص والقتلة التي ترصد القوافل التجارية، ومنها عدم وجود سلطة مركزية تثبت الأمن، وتضرب على أيدي المفسدين في الأرض، لأن السلطة المركزية في عصر الإقطاع كانت واهنة، وكان السلطان الفعلي بأيدي الإقطاعيين، وكان هؤلاء في حالة حرب دائمة، فهم في شغل عن تأمين السبل والضرب على أيدي المفسدين. ومنها الرسوم الكمركية الفاحشة والضرائب الباهظة التي تفرض على البضاعة عند حدود كل مقاطعة وعند كل جسر ومعبر مما يرتفع بثمن السلعة إلى مبلغ كبير لا يقوى عليه الفرد المحدود الدخل.

هذه الأمور أضعفت الحركة التجارية وحصرتها في نطاق شديد الضيق.
ولكن الوضع تغير عندما حدثت التطورات الاجتماعية التي أشرنا إليها. فقد استتبع ضعف شأن الإقطاعيين تحول الشعب إلى تأييد الملك فاشتد ساعد السلطة المركزية، وعند ذلك ضربت هذه السلطة على أيدي اللصوص وقطاع الطرق ومهدت السبل التجارية وأمنتها ووحدت الضرائب فاتسع مجال التجارة ونجم عنها الازدهار الاقتصادي الذي أشرنا إليه.

وما نشك في أن الإمام كان على وعي لهذا كله يوم كتب للأشتر عهده الذي عهد إليه. فقد استوصاه بالتجار خيراً وأمره بأن يوصي بذلك ولاته وعماله، وما هذا الخير الذي أراده لهم إلا تسهيل مهمتهم ليؤدوا خدماتهم للمجتمع على الوجه الأكمل، فلا يجوز أن تكون المكوس والضرائب باهظة تستصفي الربح كله أو تبقي منه شيئاً لا يسد الحاجة، ولا يحمل صاحبه على المخاطرة، لأن ذلك يلجئه إلى أن يجمد ماله فلا ينميه بالتجارة، ويلحق بالمجتمع من ذلك ضرر كبير ينشأ من توقف حركة العرض والطلب التي ينجم عنها هبوط المستوى الاقتصادي.

ويجب أن تكون الطرق التجارية صالحة في جميع الأوقات ليتيسر للتجار التنقل بين أطراف البلاد، وليتمكنوا من تلبية الرغبات في جميع الأنحاء، وليستطيعوا استنزاف الفائض الإنتاجي من منطقة فيسدوا به حاجة منطقة أخرى تعاني نقصاً فيه.

ويجب أن يستتب الأمن، لئلا يمسك الخوف التاجر عن التنقل ويقعد به الفرق من أن يذهب ضحية العدوان.

قال (ع):

«ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجلّابها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك، وسهلك وجبلك. وحيث لا

يلتئم الناس لمواضعها، ولا يجترؤون عليها فإنهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك».

ذهب «سان سيمون» إلى أن الوجدان الطبقي الذي يميز طبقة الصناع والتجار هو الإنتاج، وإنماء الثروة الفردية عن طريق تشكيل المادة على نحو ينتفع به الإنسان، أو عن طريق الاتجار بهذه المادة. وهم، بهذا يخالفون طبقة الحاكمين لأن هؤلاء يجعلون مظهر سلطانهم على الإنسان (كان سيمون يكتب هذا في سنة ١٨١٨) أما التجار والصناع فقد جعلوا سلطانهم على المادة، ولذلك فهم طبقة مسالمة لا يخشى منها شر بخلاف من كان سلطانهم على الإنسان، فإنهم ينزعون إلى الشر والتسلط.

وهو يرى أن البرجوازية الصناعية والتجارية قد حققت انقلاباً هائلاً في نظرة الإنسان إلى وسيلة جمع المال، وبدلت المفاهيم الاقتصادية التي سيطرت على العقل الإنساني آلاف السنين، فبينما كانت هذه المفاهيم تقضي بأن أحسن الوسائل لجمع المال هي السيطرة على طائفة من الناس واستخدامها، نرى هذه الطبقة الناشئة تؤكد أن السبيل الأفضل لذلك هو السيطرة على المادة وتسخيرها لحاجات الإنسان بواسطة قوى العلم.

ويرى سيمون أن من الضروري للتقدم الإنساني أن تتاح لهذه الطبقة جميع فرص النمو لتعم ثورتها المباركة على النطرة التقليدية لوسائل جمع المال[1].

ولا يصعب علينا أن نتبين روح هذه النظرية في عهد الإمام، فقد رأيت أنه قد أوصى الحاكم بالتجار والصناع، وأمره أن يرعى شؤونهم ويتفقد أحوالهم ويفسح لهم في المجالات ليتسنى لهم أن يساهموا مساهمة خصبة في رفع مستوى الإنتاج وإنماء الحياة الاقتصادية.

وتأمل في قوله: «... فإنهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى

---

(١) دكتور محمد ثابت الفندي: الطبقات الاجتماعية ص: ٤٧ـ ٥١.

غائلته» فإنه يؤكد فيه وجوب العناية بهم والرعاية لهم لأنهم لا يخشى منهم شر، فطبيعة عملهم والوجدان الذي يدفعهم إلى هذا العمل فيهما خير المجتمع ورفاهه. وأما قوله: «وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك». بعد أن أمره وأمر عماله برعايتهم فإنه يشبه أن يكون أمراً بإنشاء دائرة خاصة تعنى بشؤون التجار.

قلت: إننا لا يصعب علينا أن نتبين روح هذه النظرية في عهد الإمام ولكن في هذا العهد ملاحظة عميقة واعية غفل عنها سان سيمون وأولتها الأبحاث الاجتماعية الحديثة عناية كبيرة.

وذلك أنه إذا كان من الحق أن نعترف بأن طبقة التجار والصناع طبقة محبة للسلم، طبقة يعود نشاطها على المجتمع بالخير، فإن من الحق أن نعترف أيضاً أنها تصير في بعض الأحيان ذات نشاط عدواني مضر بالمجتمع، فعندما تستحكم «العقلية التجارية» في التاجر والصانع إلى حد أنها تدفع بها إلى التماس الثروة من أقرب الطرق ـ عندما يحدث هذا تجنح هذه الطبقة إلى التسلط والسيطرة على الإنسان بصورة غير مباشرة، ولكنها بالغة الضرر، وذلك بالاحتكار والتوسل به إلى السيطرة على الأسواق والتحكم بالأسعار وبالتطفيف في الموازين وبالغش وبيع الأصناف الرديئة وبكل طريق يضمن ربحاً وفيراً في مقابل رأسمال قليل.

عندما يحدث هذا الانحراف في عمل هذه الطبقة تصير خطراً، وإذن فكما تجب معونتها تجب مراقبتها أيضاً لئلا تنحرف انحرافاً يضر بالشعب، ويحرم الفقير من بلغة عيشه، فحينما ترتفع الأسعار وتبقى الأجور كما هي تحدث أزمة عند من لا تفي أجورهم بالأسعار الجديدة.

هذه الظاهرة، ظاهرة انقلاب هذه الطبقة إلى خطر، لاحظها الإمام وتقدم إلى عامله بأن يلاحظها، وبأن له العلاج. فعندما يحدث الانحراف يتعين على الحاكم بأن يقوم بتدبير زجري يرجع الأمور إلى نصابها، وذلك إما بمنع

المحتكر من الاحتكار وإجباره على البيع بالسعر المعقول، وإمّا بتعميم المادة المحتكرة على تجار عديدين يبيعونها بالسعر العادي، فإذا ما احتكر تاجر بعد النهي عوقب ليرتدع، وأمر عامله أن يجعل الأسعار على مستوى لا يعجز عنه أوساط الناس، ولا يخسر به التاجر. وأمره أن يضبط المكاييل والموازين لئلا يبخس البائع المبتاع.

قال (ع):

«واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة. فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله ﷺ منع منه، وليكن بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حكرة من بعد نهيك إياه فنكّل به وعاقبه من غير إسراف».

العمال ومن لا يستطيعون عملاً

هذه الطبقة، طبقة الفقراء تتألف ممن لا يستطيعون عملاً لعاهة فيهم لا يقدرون معها على العمل، أو لا يستطيعونه لكبر السن وضعف البنية، أو لا يستطيعونه لصغر السن كالأيتام الذين لا كافل لهم، أو يستطيعون ويعملون، ولكن عملهم لا يمدهم بالكفاية، ولا ييسر لهم مستوى لائقاً من العيش.

هذه الطبقة تتألف منه هذه الطوائف، وإذا لم تلاق عناية من المجتمع ينحرف قويها إلى طريق الجريمة، ويموت ضعيفها جوعاً، وهي في الحالين سبة وخطر على المجتمع. وإذن فلا بد من تدبير يحمي المجتمع منها، ويدفع البؤس عن أفرادها، ويحول قويهم إلى خلية إنسانية عاملة وينهض بهم إلى مستوى الحياة الحرة الكريمة.

وقد سن الإمام (ع) قانوناً تعامل به هذه الطبقة استجاب فيه إلى أحكام الإسلام.

وفي كلام الإمام عن هذه الطبقة نرى تشريعاً عمالياً ناضجاً إلى أبعد

الحدود، ومستوعباً تمام الاستيعاب، وهو على نضجه الكامل واستيعابه التام، سابق للتشريعات العمالية الحديثة بأكثر من ألف ومائتي عام.

ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهرت طلائع الثورة الصناعية في إنكلترا، وهي أول بلد أوروبي شهد الانقلاب الصناعي الحديث. وقد تمت للثورة الصناعية عناصرها المكونة حين اخترع البخار كقوة محركة، وعمم في صناعة المحركات. واستتبع ذلك اتساع نطاق الصناعة وتركزها في المدن، وحينئذ حدثت الهجرة من الريف إلى المدينة، فقد باع الفلاحون أرضهم من كبار الملاك، وانتقلوا إلى المصانع الجديدة كعمال، وعند ذلك ظهرت طبقة العمال إلى الوجود على نحو فعال، وانتقلت مراكز الكثافة في المجتمع من الفلاحين إليها. ومن هذا الحين بدأت هذه الطبقة تستشعر الظلم أفدح وأقسى ما يكون، فلم يكن لمطامع أصحاب المصانع حد ولا غاية، وكان العامل يعمل أكثر ساعات نهاره بأجر زهيد، فإذا ما استغنى عنه صاحب العمل، أو حلت به آفة، أو اعتراه وهن أو بلغ سناً لا يقوى فيها على العمل، طرد من عمله.

وبدا كأن هذا الوضع الشائن سيستمر إلى الأبد ـ وبدا كأن الكيان الاقتصادي القائم على هذا الاستغلال سيبقى منيعاً وبدا كأن واقع العمال التعس أمر لا مفر منه ولا معدى عنه. ولكن شيئاً من هذا لم يستمر، فقد نبهت هذه المظالم الوعي العمالي ودفعتهم إلى تحسين مستواهم الاقتصادي عن طريق الصراع. وقد عملوا كثيراً، وقد أخفقوا كثيراً، ولكنهم وفقوا أخيراً إلى تخفيض ساعات العمل، ورفع الأجور، والتعويض عند الصرف من العمل، والضمان الاجتماعي بإعانة مالية تدفع للعامل المتعطل من صندوق الدولة.

ونقدم هنا ملاحظات:

الأولى: أن هذا لم يتم إلا بجهود العمال أنفسهم فلا المجالس التشريعية ولا أصحاب العمال انتبهوا إلى حالة العمال واهتموا بتحسينها، ولم يستجب

أصحاب العمال لمطالب العمال، ولم تسن التشريعات الملائمة إلا بعد صراع دام عقوداً من السنين.

الثانية: أن هذه الإعانة التي تعطى للعامل المتعطل إنما تعطى له بشكل إحسان وصدقة، لا باعتبارها حقاً له.

الثالثة: أن هذه التشريعات لا تشمل بعض الحالات، فمن يعمل ولا يكفيه عمله لا يدخل فيها، ومن يعمل ويحصل على أجر مناسب ولكن عرض له ما جعله مفتقراً إلى المزيد من المال لا يدخل فيها، وكذلك لا يدخل فيها الأيتام، ومن لا كافل لهم ولا يستطيعون العمل لصغر السن أي لا تعتبر الدولة نفسها مسؤولة عنهم.

وإذا رجعنا إلى عهد الإمام لنقارن بينه وبين النتائج التي خرجنا بها، فماذا نجد؟

نلاحظ أولاً: أن التشريعات الكافلة للطبقة العاملة ومطلق من لا يستطيع العمل للمرض أو لكبر السن أو لصغره ـ هذه التشريعات صدرت من فوق، من طبقة الحاكمين، ومغزى أن تكون التشريعات الحامية لطبقة العمال قد صدرت من فوق من دون أن يحدث من هذه الطبقة تحسس يلجىء إلى هذا، كبير القيمة، فهو يدل على أن الإمام كان يفكر في هذه الطبقة ويعمل لخيرها.

وثانياً: أن ما تدفعه الدولة إلى هؤلاء ليس إحساناً منها إليهم، وإنما هو حق لهم عليها، يجب أن تؤديه. وعهد الإمام صريح في هذا كما سترى. ومغزى هذه الملاحظة عظيم، فعندما يأخذ المعوز ما يأخذه على أنه «إحسان» يشعر بالدونية، أما حين يأخذه على أنه «حق» فإنه لا يشعر بشيء من هذا.

وثالثاً: أن التشريع الذي سنه الإسلام وذكره الإمام يشمل كل حالة عجز، فمن لا يستطيعون عملاً لمرض أو هرم أو صغر سن، أو يعملون ولكن أجرهم لا يكفيهم ـ هؤلاء جميعاً تكفلهم الدولة، وتعتبر نفسها مسؤولة عنهم.

وعهد الإمام صريح في أن على الحاكم أن ينشىء لهذه الطبقة دائرة خاصة ترعى شؤونها، فهو يقول: «ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم» وقد جرى (ع) على هذا فيما نقل ابن أبي الحديد إذ قال: «وكان لأمير المؤمنين علي (ع) بيت سماه بيت القصص يلقي فيه الناس رقاعهم».

وإذن، فالبرغم من سبق عهد الإمام على التشريعات العمالية الحديثة بأكثر من ألف ومائتي عام نلاحظ أنه أوعى لحاجات هذه الطبقة وأرعى لشؤونها، وأشمل لطوائفها من هذه التشريعات. نعم تمتاز هذه التشريعات بأنها أكثر تفصيلاً من عهد الإمام، وبأنها تشتمل على ملاحظات لم ترد في هذا العهد، ولكن ذلك لا يكسبها ميزة حقيقية، فالعبرة بروح التشريع وبشموله، ولا شك، بعد ما عرفت، في أن عهد الإمام أشمل.

قال (ع):

«ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين، وأهل البؤسى والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن الذي للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه، ولا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لأحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحتقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه فإن هؤلاء من الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وكل فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه. «وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه. وذلك على الولاة ثقيل، والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العافية، فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم».

ونستطيع أن نتصور عظيم اهتمامه (ع) بهذه الطبقة حين نتأمل قوله: «ثم الله الله. . .» وقوله: «فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم» يأمر واليه بأن يتواضع لهم لئلا يشعروا بالذل من جهة وليضرب لأغنياء رعيته مثلاً من نفسه في معاملته لهذه الطبقة. وقوله: «فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم». وأما قوله: «فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً» وقوله: «وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم» وقوله: «وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن، ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه» فإنها تنطوي على مضمون عظيم القيمة، فهؤلاء الذين يمنعهم الحياء وشرف النفس من إظهار فقرهم ومن نصب أنفسهم للمسألة يموتون جوعاً إذا لم يبحث عنهم الحاكم ويرعى أمورهم ولذلك أمر الإمام واليه بأن يتفقد هؤلاء وأمثالهم، ويوكل بهم من يتفقدهم.

ولا أظن أن حكومة من الحكومات الحديثة بلغ فيها التشريع العمالي، والتأمين الاجتماعي من النضوج والوعي للمسؤولية الاجتماعية إلى حد أن تؤلف هيئة تبحث عن ذوي الحاجة والفاقة فترفع حاجتهم بأموال الدولة، كما نرى ذلك في عهد الإمام.

ولا أظن أن قلوب المشرعين وعقولهم اجتمعت على أن تخرج للدنيا تشريعاً عمالياً فأفلحت في أن تخرجه أنبض من تشريع الإمام بالشعور الإنساني العميق.

المجتمع وحدة عامة

كنا فيما تقدم نتحدث عن آراء الإمام في المجتمع باعتبار تركيبه الداخلي، أعني الطبقات الاجتماعية. والآن نريد أن نتحدث عن رأي الإمام في المجتمع كوحدة عامة، فلا ننظر إليه من داخل كما صنعنا في بحث الطبقات، وإنما ننظر إليه من خارج باعتباره وحدة إنسانية عامة لا تلحظ فيها الفروق. وكنا نتحدث عن آراء الإمام في إصلاح المجتمع عن طريق التأمين الاقتصادي وإصلاح جهاز الحكم. ونتحدث الآن عن آرائه في إصلاح المجتمع عن طريق العوامل النفسية

ذات الأثر في الجماعة الإنسانية. للاجتماع الإنساني مظهران: مظهر حقيقي، ومظهر مزيف.

أما المظهر الحقيقي للاجتماع الإنساني فهو ذلك الذي يبدو الناس فيه وقد شاعت بينهم الألفة، وجمعتهم المحبة، وقاربت ما بينهم وحدة الوسائل والغايات. وهو ذلك الذي يعي فيه الأفراد المسؤولية، ويشعرون أن القانون الذي يجب أن يسود هو قانون: حقي وواجبي. وهو ذلك الذي يعي فيه الأفراد أن الغاية من الاجتماع الإنساني هي التعاون على إيجاد الفرص المناسبة التي تمكن كل فرد من إظهار قدرته، وتحقيق ذاته على نحو فعال مجدٍ، وليس عملاً يراد منه إيجاد الفرص المناسبة لطائفة من الناس على حساب آخرين.

وأما المظهر المزيف للاجتماع الإنساني فهو ذلك الذي يبدو فيه الأفراد «مجتمعين» فحسب، فلا توحد بيهم ألفة، ولا تلم شتاتهم محبة، ولا يلتقون على هدف صحيح. وهو ذلك الذي يسعى فيه كل فرد إلى امتلاك كل ما يستطيع دون وعي لحاجات الآخرين ودون اهتمام لمصائرهم. وهو ذلك الذي يسود فيه قانون الكلمة الواحدة، قانون: حقي، فقط. إن هذا الطراز من الاجتماع أحق بأن يسمى «تجمعاً» ذئبياً من أن يسمى اجتماعاً: إنسانياً.

هذان مظهران للاجتماعي الإنساني ويحسن بنا أن نلتمس الأسباب التي تسوق إلى هذا وذاك.

روح العدوان غريزة أصيلة في نفس الإنسان. وإنما كانت أصيلة فيه لأنها ضرورية لحياته، فلولاها لما كان في الإنسان ما يحفزه إلى حماية نفسه من كواسر السباع وفواتك الهوام، ولما كانت له القدرة على الصيد ولا على أي عمل يتطلب صراعاً مع كائن حي آخر في سبيل حفظ الحياة.

وأوقات الحاجة إلى هذه الغريزة هي حين تتعرض الحياة الإنسانية لخطر فاتك سواء كان من الإنسان أو الحيوان. ولكن لا يمكن أن يودع في النفس الإنسانية جهاز يولد هذه الغريزة في أوقات الخطر ويعدمها في أوقات الأمان.

وحيث لا يكون هذا الجهاز فيجب أن يبقى وجود هذه الغريزة مستمراً في جميع الأوقات.

وهي في أوقات الخطر تعمل عملها الذي يسرت له وأودعت في الإنسان لأجله. وأما في أوقات الأمان فإن وجودها يصبح مشكلة خطيرة قد تمتد بآثارها إلى كافة الخليات الاجتماعية في المجتمع.

ففي المجتمعات التي تدين بحضارة لا تجعل للإنسان هدفاً سامياً في الحياة، ولا تعلمه إلا أن يبالغ في إرواء شهواته ونزعاته، تعبر هذه الغريزة عن نفسها في عدوان بعض الأفراد على بعض، لأنها ـ كغريزة ـ لا بد لها من التعبير عن نفسها، وحيث لا تقدم لها الحضارة موضوعاً للتعبير يصرفها ويحولها عن الأفراد لا بد أن تعبر عن نفسها في هؤلاء الأفراد، وحينئذ ينقلب المجتمع الإنساني إلى مجتمع ذئبي تناحري، ذي غرائز عدوانية ضارية تعبر عن نفسها باستمرار.

هذه هي الأسباب التي تذهب بروح الاجتماع الإنساني وتسبغ عليه مظهراً اجتماعياً مزيفاً.

وجاء الإسلام، والمجتمع الإنساني كله في واقع تعس نشأ من أن الحضارات التي كان يدين بها كانت حضارات لا تتجاوز بالإنسان مدى الحس. وكان المجتمع العربي يعاني الأزمة في أحد مظاهرها، فقد كان يقوم إلى جانب ما يعانيه من جدب روحي، على أساس قبلي. وكان هذان العاملان: الجدب الروحي والروح القبلية يثيران غريزة العدوان أعتى وأضر ما تكون.

وقد عالج الإسلام هذه المشكلة، أولاً، بأن حارب عناصر الفساد والانحلال في الإرث الثقافي المهلهل الذي دعت إليه تلك الحضارات وجاء بلون ثقافي جديد حري بأن يعيد تكوين الإنسان الروحي من جديد، وجعل للحياة الإنسانية هدفاً أعلى من إرواء الحس باللذة، جعل لها الفضيلة هدفاً، وأمر الإنسان بالمسير إليه. وثانياً بأن وجه غريزة المقاتلة إلى موضوعين أحدهما

أعداء الإسلام الذين يكيدون له، ويبغون عليه، ويريدون إطفاء نور الله فيه. والثاني هو الشيطان، هذا الكائن الذي هو أعدى أعداء الإنسان يزين له الظلال، ويحبب إليه الانحراف ويدفعه عن طريق الإغواء والإغراء إلى تشويه شخصية الإنسانية وتلويثها وقد أكد الإسلام عداوة الشيطان للإنسان تأكيداً مطلقاً، وأكد وجوب الاحتراز منه والحذر من مكائده والتحصن من شباكه تأكيداً مطلقاً، وبذلك وجه غريزة القتال والعدوان إلى موضوع يستفيد منه المجتمع أعظم الفائدة، فالإنسان، منذ اليوم، يكافح الشيطان من أجل أن يسو. . . من أجل أن يحقق الإنسان.

وقد أحرز النبي ﷺ نصراً باهراً حين استطاع، عن طريق الإسلام، أن يجمع العرب على رمز يوحد بينهم في الوسائل والغايات، وأن يكوّن من الشراذم العربية أمة عربية. ولكن الظرف الزماني لم يسعفه على استئصال الروح القبلية من نفس العربي فما أن قبضه الله إليه حتى حدث ما بعث هذه الروح من جديد. . . حتى ولي الخلافة عثمان فعبرت عن نفسها بسبب سياسته تعبيرات شديدة، فلما ولي الإمام الحكم جوبه بهذا الواقع، واقع المجتمع العربي المسلم الذي ساقته الروح القبلية إلى مصير وبيل. فنصب نفسه لمحاربة هذه الروح.

وقد كانت طريقته في العلاج فذة رائعة، سنقف في فصل آت على جانب منها يتناول التثقيف الفردي وتعليم أصحابه روح الإسلام، أما هنا فنتحدث عن كفاحه للروح القبلية باعتبارها نزعة هدامة.

ولا بد أنه (ع) تكلم كثيراً في هذا الموضع، لأن واقعه كان يدعوه إلى ذلك، ولئن لم يصل إلينا كل ما قال أو أكثره فإن ما في نهج البلاغة يغني في مقام التعرف على آرائه في هذه المسألة، وثمة خطبة من طوال خطبه خصصها لمحاربة هذه النزعة في مجتمعه، وقد ذكر الشريف مختارات منها، ونحن ذاكرون طرفاً مما اختار نستشهد به على أن الإمام كان يعي العمليات

الاجتماعية، وكان يعي ما وراء هذه العمليات من دوافع نفسية تحمل عليها وتدفع إليها.

وأعظم خطبة تضمنت ذلك، وتجلى فيها غرض الإمام الاجتماعي هي خطبته القاصعة، ففيها صرح الإمام بأن الاجتماع الإنساني الحق لا يمكن أن يجتمع مع النزعة القبلية. وفيها يضرب الأمثال التي تشهد لدعاواه والتي تدل على أن النزعة القبلية، بما لها من آثار سيئة، هي التي محقت المجتمعات القديمة.

قال (ع):

«.. فاطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزغاته ونفثاته، واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فضل جعله الله فيه سوى ما ألحقت العصبية بنفسه من عداوة الحسد».

ثم يضرب لهم الشواهد، ويبصرهم عبر التاريخ. فهذا الواقع الاجتماعي المزري جر أمماً قبلهم إلى الانهيار، وجدير بهم أن يعتبروا بمن قبلهم ممن غفلوا عن عدوهم الكامن في أعماقهم، وصرفوا بإغرائه وإيحاءه عداوتهم إلى إخوانهم في الدين والإنسانية:

«فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته، واتعضوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم واستعيذوا بالله من لواقح الكبر كما تستعيذوه من طوارق الدهر.. واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلاث بسوء الأفعال وذميم الأعمال فتذكروا في الخير والشر أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم، فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم، فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، وزاحت الأعداء له عنهم، ومدت العافية فيه عليهم، وانقادت النعمة

له معهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم، من الاجتناب للفرقة، واللزوم للألفة، والتحاض عليها والتواصي بها. واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم، وأوهن منتهم من تضاغن القلوب وتشاحن الصدور، وتدابر النفوس، وتخاذل الأيدي» ثم يضرب لهم الأمثال بحال بني إسرائيل كيف جمعتهم الدعوة الواحدة ولم شعثهم الهوى الجميع، فعظم أمرهم ثم اختلفوا فذهب ريحهم ووهنوا وذلوا. وضرب لهم الأمثال بحال العرب قبل الإسلام كيف كانوا ثم كيف اتحدوا بالإسلام فأصبحوا يطاعون في بلاد كانوا فيها أذلة ضعفاء ثم ذكر أن أعظم ما أمتن الله به عليهم هو أنه جمعهم وألف بين قلوبهم وجعلهم إخواناً، قال:

«فإن الله سبحانه قد امتن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلها ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة لأنها أرجح من كل ثمن وأجل من كل خطر».

ورؤساء القبائل هم أصحاب المصلحة في استشراء العصبية القبلية والتفكك الاجتماعي، فلو وعى الناس الحياة الاجتماعية وراعوا المصلحة العامة وحدها لما بقيت لهؤلاء الرؤساء قيمة، لأن وجودهم منوط بهذه العصبية، وقد عرف الإمام (ع) ذلك، فوجه إليهم صفعة مدوية حين صرخ بالناس:

«ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة على ربهم، وجاحدوا الله ما صنع بهم مكابرة لقضائه ومغالبة لآلائه، فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء الجاهلية، فاتقوا الله... ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق وإحلاس العقوق، اتخذهم إبليس مطايا ظلال وجنداً بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقاً لعقولكم، ودخولاً في عيونكم، ونفثاً في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، وموطىء قدمه، ومأخذ يده».

وعلى هذا النسق العالي من البيان الشامخ يمضي الإمام (ع) في بيان

أمراض المجتمع. ويكشف عن أسبابها النفسية، ويبرهن بذلك على وعي خارق للعمليات الاجتماعية وأسباب انحرافها وطرق إصلاحها وننصح بالرجوع إلى الخطبة القاصعة وقراءتها بإمعان، فقد لا يعطي ما قدمناه فكرة صحيحة عنها[1].

الحُكام

يشترط في الحكام أن يكون كريم النفس لئلا تدفعه الطماعية وشدة الحرص إلى العدوان على أموال المسلمين. واشترط فيه أن يكون عالماً لأنه قائد المسلمين الأعلى، فيجب أن يهديهم ولو كان جاهلاً لأظلهم. واشترط فيه أن يكون لين العريكة رحب الصدر، واشترط فيه أن يكون عادلاً في إعطاء الأموال، فيسوي بين الناس في العطاء، ولا يفضل قوماً على حساب آخرين استجابة لشهوات نفسه وميول قلبه. واشترط فيه أن يكون نزيهاً في القضاء فلا يرتشي لأن ذلك مؤذن بذهاب العدل في الأحكام. واشترط فيه أن يكون عاملاً بالسنة فيجري الحدود ولو على أقرب الناس إليه، ويعطي الحق من نفسه كما يطلبه من غيره.

قال (ع):

«... وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمام المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيظلم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الخائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة».

قال:

«لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع».

وقال متحدثاً عن الإمام:

«ومن نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن

---

(١) راجع: (القاصعة) في حرف القاف «دائرة المعارف الإسلامية الشيعية».

تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم».

وهذه الكلمات تقوم على فلسفة للحكم عند الإمام (ع) تتلخص في أن الحكم، وهو ضرورة اجتماعية، أقيم لصالح المجتمع، ولا يمكن أن يعمل الحكم لصالح المجتمع إلا إذا كان على رأسه إنسان كامل الصفات، واع لمهمته، أما حين يكون الحاكم إنساناً غير واع للمسؤولية وغير عامل على إصلاح المجتمع ورفع شأنه، فإن الحكم ينقلب إلى وسيلة للظلم. وستتضح لنا الخطوط الكبرى لهذه الفلسفة فيما يأتي.

حقوق الرعية على الحاكم تستمد معناها من طبيعة الحكم الذي يمارسه الحاكم. فهناك حكم يقوم لأجل عائلة من العائلات الكبيرة وحينئذ يعمل الحاكم لأجل هذه العائلة، ويسخر جميع مرافق الدولة لها، ولمن يقوم عليه سلطانها، وهناك حكم يقوم لصالح طبقة من الطبقات، وحينئذ يعمل الحاكم لأجل هذه الطبقة، ولا ينيل الرعية شيئاً إلا إذا كان فيه ما يعود بالخير على هاتيك الطبقة التي يقوم من أجلها الحكم. ومرة يقوم الحكم من أجل الرعية وحدها وحينئذ يعمل الحاكم للرعية وحدها. وفي هذا اللون من الحكم توجد للرعية على الحاكم حقوق يصح أن نتحدث عنها فأي لون من ألوان الحكم بشر به نهج البلاغة ووضع قواعده الإمام؟

إذا رجعنا إلى نهج البلاغة وجدنا أن الحكم الذي كان يمارسه الإمام (ع) والذي كان يحمل عماله على أن يمارسوه هو هذا الحكم الذي يقوم من أجل الرعية وحدها. وقد تقدم منا في حديثنا عن المجتمع والطبقات الاجتماعية في نهج البلاغة أن عرضنا إلى طرف من ذلك، فرأينا كيف أن الإمام في عهده العظيم إلى مالك الأشتر قد وضع الأسس المتينة لإنشاء جهاز حكم يعمل للشعب وللشعب فقط، غير ملقٍ بالاً إلى منافع طبقة خاصة تسعد على حساب الشعب وتنعم بجهوده، وسنعرض في حديثنا هذا طرفاً من الشواهد التي تدل

على أن الحكم الذي مارسه الإمام (ع) ودعا إلى ممارسته هو الحكم من أجل الشعب، وما تقدم في بحث الطبقات الاجتماعية، وما سيمر هنا، يؤلف هيكلاً يكاد أن يكون كاملاً لفلسفة الحكم عند الإمام (ع).

من ضرورات الحكم الصالح المشاركة الوجدانية بين الراعي والرعية، إذ بها يستطيع الحاكم أن يتعرف على آمال المحكومين وآلامهم ومطامحهم وأن يعي حاجاتهم ومخاوفهم، فيعمل لخيرهم ويضع كل شيء مما يصلحهم موضعه. ويشعرهم ذلك برعايته لهم وحياطته لأمورهم وعمله لصالحهم، فيدعمون حكمه بحبهم وإيثارهم له ويؤازرونه في السراء والضراء على السواء. ولا يحصل شيء من هذا إذا ما أغلق الحاكم دونهم قلبه وأغمض عنهم عينه، إنه حينذاك لا يعرف شيئاً من أمورهم ليعمل على الإصلاح، وتكون عاقبة ذلك أن يفقد حبه في قلوبهم ويشعرون بأنه شيء غريب عنهم مفروض عليهم كالحشرة الطفيلية التي تعيش على دماء الحيوان الذي تلتصق به.

قال (ع):

«... وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: أما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه».

ولكي تحصل هذه المشاركة الوجدانية، ولكي تؤتي أكلها، يجب على الوالي أن يخالط الرعية وأن يمكنهم من مخالطته ومطالعته بما يريدون، لأن احتجابه عنهم سبب لجهله بأحوالهم، وسبب لانصراف قلوبهم عنه وتفاقم موجدتهم عليه.

قال (ع):

«... فلا تطولن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية

شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور. والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير، ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل. وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليس على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب».

ولكي يبقى ما بين الوالي ورعيته من وشائج الود، ويبقى ما للوالي في قلوب الرعية من جميل الأثر وحسن الظن، يجب عليه أن يبدد من أذهانهم كل ما يتوهمون فيه الظلم والحيف، فيبين لهم خطته ويشرح لهم نهجه ليؤيدوا سياسته عن قناعة بها وإيمان بصلاحها وجدواها. ويجب عليه ألا يمن على رعيته بما يفعل، فإن منصبه يفرض عليه أن يخدمهم، ولو مَنَّ عليهم لذهب جميل أثره من قلوبهم. وعليه أن يتجنب الكذب فيما يعطي من عهد والتزيد فيما يصف من عمل، فإن الكذب داعية المقت والتزيد أخو الكذب.

قال (ع):

«وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرك، واعدل عنك ظنونهم بأصحارك، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك، ورفقاً برعيتك، وأعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق».

وإياك والمن على رعيتك بإحسانك، أو التزيد فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

والسبيل الأقوم الذي يؤدي إلى تأكيد حب الحكم في نفوس الرعية ويحملها على عضدها والدفاع عنها هو ما أشار إليه (ع) بقوله:

«واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المؤونات عنهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن ويقطع نصباً طويلاً، وأن أحق من

حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وأن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده».

ولم كل هذا؟ لأن الحكم إنما أقيم لصالح الشعب، ولذلك فيجب أن يرعى مصالح الشعب، ويجب أن يستلهم في أعماله حاجات هذا الشعب. أما هذه الطبقة، طبقة الخاصة والنبلاء، التي تحسب أن كل شيء مسخر لها، وما عليها إلا أن تدعو فتجاب، وتأمر فتطاع، هذه الطبقة ليس لها في حكومة الإمام امتيازات، فهي وسائر الناس سواء، وعلى الحاكم، حين تتعدى حدودها وتطلب ما ليس لها، أن يردها إلى قصد السبيل.

قال (ع):

«أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده... وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة. وإنما عماد الدين وجماع المسلمين، والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم، وميلك معهم».

وهكذا حكم الإمام (ع) بأن الحكم إنما أقيم من أجل الشعب فيجب أن يبقى خالصاً للشعب وحده.

وإذا كان الحكم قد أقيم من أجل الشعب فهذه الأموال التي تجبى منه لم تجب لتنفق على إرواء شبهوات طائفة من الناس يومها دهرها وبعينها لذتها، وهي تتمتع بحياة فارغة لاهية، إنما جبي هذا المال منه ليرد عليه في صورة خدمات عامة، ومؤسسات عامة، هذا هو مصرف أموال الدولة. وأمير المؤمنين (ع)

صريح في هذا فقد تكرر منه أمره إلى عماله بصيانة مال الأمة، وصرفه في موارده وعدم التفريط به.

قال (ع):

«. . . فانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة، مصيباً به مواضع الفاقة والخلات، وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا».

وإذا كان الإمام (ع) قد وضع أسس هذه اللون من الحكم ومارسه، ودعا إلى ممارسته، فللحديث عن حقوق الرعية محل في هذا البحث كما أسلفنا. ولم يغفل الإمام الحديث عن هذه الحقوق، بل عرض لها بالذكر في مواطن كثيرة، فما هي حقوق الرعية على الوالي؟

لقد تحدث مرة عن هذه الحقوق فقال:

ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر ويستراح من فاجر».

وقال:

«. . فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلاً تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا».

وقال:

«. . . إنه ليس على الإمام إلا ما حمل من أمر ربه إلا بلاغ في الموعظة، والاجتهاد في النصيحة، والإحياء للسنة، وإقامة الحدود على مستحقيها، وإصدار السهمان على أهلها».

في هذه النصوص أجمل الإمام حقوق الرعية على الراعي في توفير الأمن في الداخل والخارج، وتأمين الحياة الاقتصادية، والتعليم والتوجيه الاجتماعي، وإقامة العدل.

ولا يضرنا إجمال هذه النصوص بعد أن عرفنا أن أطول وثيقة كتبها (ع) وأجمعها لحقوق الرعية هي عهده إلى الأشتر، ففي صدر هذا العهد أجمل هذه الحقوق إجمالاً ثم فصلها بعد ذلك تفصيلاً. أجملها فقال: «هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها».

ثم فصلها بعد ذلك، فأفاض أولاً في بيان وظيفة العسكريين وواجباتهم، والسبيل الذي يحسن بالحاكم أن يتبعه للاستفادة منهم، ثم فصل الكلام في جهاز الحكم: الولاة والوزراء والقضاة، فوضع أسس الحكم العادل التقدمي الواعي. وتكلم بعد ذلك عن الزراع والتجار والصناع والفقراء، فبين حقوقهم على الحكم من توفير المجالات لهم، وإعداد أحسن الفرص لنجاحهم في أعمالهم. ثم تحدث عن حالة البلاد العمرانية فأفاض في الحديث وبين خطورة هذه الناحية في أمن الرعية ورفاهها وإطراد تقدمها.

وفي هذا العهد نظر الإمام (ع) إلى المجتمع كله بما فيه من طوائف وطبقات، وبين فيه حقوق هذا المجتمع كلها، ونرى ما يدعونا إلى تفصيل الكلام في ذلك هنا بعد أن تبين من خلال حديثنا عن الطبقات الاجتماعية، لأنه حينما تحدث عن الطبقات لم يتناولها على نحو تجريدي، وإنما تناولها بالحديث باعتبار مالها من حقوق، وقد قدمنا ملاحظة بين يدي ذلك الحديث قلنا فيها:

«... لم يفرغ آراءه الاجتماعية كلها في قالب علمي مجرد، وإنما قدم بعضها مفرغاً في التجربة العملية التي قام بها، ولا يسلبها قيمتها، كحقيقة موضوعية، أنها مفرغة في قالب تجريبي اجتماعي يسبغ عليها بدل جمود الحقيقة العلمية المجردة، حيوية وحركية تنشآن من حيوية الجماعات وحركيتها».

تحدث الإمام (ع) عن طبيعة الحق فلاحظ أنه لا يمكن أن يكون لأحد حق على غيره إلا ويكون عليه لغيره واجب، وهناك تقابل دائم بين الحق والواجب فحيثما يكون الحق يتبعه الواجب. ولكن الناس ـ غالباً ـ يريدون

استيفاء حقوقهم دون أن يؤدوا ما عليهم من واجبات غير عالمين أنه حينما يتمرد الإنسان على واجبه فلا يأتي به يسقط حقه الذي يدعيه.

قال (ع):

«... فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى عليه ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه جعل حقه على عباده أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه وتوسعاً بما هو المزيد من أهله».

وقال:

«... ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها ويوجب افتراضها بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض».

وننبه هنا إلى أن هذه الحقوق حقوق الإمام، ليست امتيازات على سائر الناس يحصل عليها الإمام بسبب الحكم، وذلك لأن الحكم، عند الإمام، لا يسبب للحاكم أي امتياز شخصي أبداً. وها وهو يخاطب الأشتر، عامله على مصر، بقوله:

«وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة، والتغابي عما تعني به مما قد وضح للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، وينتصف منك للمظلوم».

وقال (ع) مخاطباً أصحابه في صفين:

«... وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر، وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني

أحب الإطراء واستماع الثناء، ولست ـ بحمد الله ـ كذلك، ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء، وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تثنوا علي بجميل بلاء لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من التقية في حقوق لم أفرغ بعد من أدائها، وفرائض لا بد من إمضائها، فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا في بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة».

وإذا لم تكن حقوق الحاكم من هذا الباب فما هي طبيعتها إذن؟ حقوق الحاكم كما يجعلها الإمام في نهج البلاغة هي أمور يعطاها لأنها ضرورية لاستمرار الحكم وصلاحه فهذه الحقوق هي:

«. . . وأما حقي عليكم: فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم».

وهي:

«. . . ولي عليكم حق الطاعة، وألا تنكصوا عن دعوة، ولا تفرطوا في صلاح، وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق».

وهي:

«. . . فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل».

وتكاد ترجع كل هذه الحقوق إلى الوفاء بالبيعة، فإن الإمام يبايع على السمع والطاعة. وإذا لم يسمع المحكومون حين يدعوهم، ولم يطيعوا حين يأمرهم، ولم ينصحوا له ولم يثبتوا على ولائه، لم يستطع الإمام أن يسير أداة الحكم على نحو صالح.

ولا يمكن أن يصلح شيء من أمور الدولة إلا إذا وجد جو صالح للعمل، ويوجد هذا الجو بتحقق الرغبة المشتركة بين الحاكم والمحكومين في إصلاح ما يفتقر إلى الإصلاح وتقويم ما يحتاج إلى التقويم من شؤون الناس وشؤون

البلاد. والذي يعبر عن هذه الرغبة المشتركة هو تعاون الوالي مع الرعية على القيام بذلك كله، ويتحقق التعاون بينهما بأن يقوم كل منهما بما عليه من واجبات بعد أن يتلقى كل منهما ما له من حقوق. فعلى الرعية أن تعطي الوالي ما عليه من حقوق فتطيعه إذا أمر، وتجيبه إذا دعا، وتنصحه إذا كان في حاجة إلى ذلك، وعلى الوالي إذا حصل على ذلك كله أن يستغله في إصلاح شؤون رعيته. أما حين لا تبذل الرعية للوالي طاعتها ولا تمحضه نصيحتها، ولا تلبي دعوته إذا دعا، وأما حين تفعل ذلك كله ولكن الوالي يستغله في رعاية مصالح نفسه ويهمل مصالح رعيته، فإن ذلك مؤذن بشيوع الظلم، وسيطرة الظلمة، وفساد الدولة.

قال (ع):

«. . . وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل فجعلها نظاماً لألفتهم، وعزاً لدينهم، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه وأدى الوالي إليها حقها عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل، وجرت على أذلالها السنن، فصلح ـ بذلك ـ الزمان، وطمح في بقاء الدولة، ويئست مطامح الأعداء. وإذا غلبت الرعية واليها أو أجحف الوالي برعيته، اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور وكثر الإدغال في الدين، وتركت محاج السنن، فعمل بالهوى وعطلت الأحكام، وكثر علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل ولعظيم باطل فعل، فهنالك تذل الأبرار وتعز الأشرار وتعظم تبعات الله عند العباد، فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون فيه».

وقال في التعاون بين الراعي والرعية:

«. . . ولكن من واجب حقوق الله على العباد: النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم، وليس امرؤ ـ وإن عظمت في الحق منزلته

وتقدمت في الدين فضيلته ـ بفوق أن يعاون على ما حمله الله من حقه. ولا امرؤ ـ وإن صغرته النفوس واقتحمته العيون ـ بفوق أن يعين على ذلك أو يعان عليه».

محمد مهدي شمس الدين

علي بن أبي طالب في الشعر

كان علي بن أبي طالب (ع) ملهماً للشعراء على طوال العصور، وكانت سجاياه مصدراً للملاحم الشعرية الأصيلة، التي افتقدها الشعر العربي فلم يجدها إلاّ عند شعراء المدائح العلوية وحدهم، عند الحميري وعند الكعبي وعند الأزري والعشرات من أمثالهم.

وعدا من الملاحم فالقصائد التي تغنت بعلي هي غرة في جبين الشعر العربي في كل عصر...

إن النفوس البريئة التي لم تشوهها العصبيات، ولم تدنسها الأهواء، تتطلع أبداً إلى علي متمثلة فيه أنبل الخصال وأشرف المبادىء وأسمى الأهداف.

إن النفوس البريئة الكريمة تهيم أبداً بعلي فيتدفق الشعر على أسلات شعرائها عذباً سائغاً صادقاً، لا عند العرب وحدهم، بل عند غيرهم من الأمم ففي الشعر الفارسي والتركي والأردوي والسندي والمولتاني والكجراتي والألباني، ما يجمع في أدب كل أمة، دواوين من الشعر الحي الخالد.

ونكتفي هنا بنشر قصيدتين من شعر هذا العصر محيلين من يريد الاستزادة إلى الجزء الثالث من كتاب (أعيان الشيعة).

للسيد حسن محمود الأمين المتوفى سنة ١٩٤٩م:

فرقان مدحك يجلو ظلمة الريب ... وآية الصدق تمحو آية الكذب
تابى علي القوافي إن أردت سوى ... ثناك لكن له ينقاد كل أبي
كالشمس مجدك يدنو وهو مرتفع ... عن المنال لو أن الشمس لم تغب

فما سناك عن النائي بمبتعد ... ولا علاك من الداني بمقترب

ما رام طائر فكر نحوه صعداً ... إلاّ هوى واقعاً عنه إلى صبب

لو جال ما جال فكر المرء مرتقياً ... إليك من سبب عال إلى سبب

وجاء بالشعر دراً واستعان على ... تبيان فضلك بالأنباء والكتب

واستنطق الخرس من أقلامه فأتت ... بالمعجزين بديع النظم والخطب

ورام داني علاك ارتد منقلباً ... نكساً على الرأس أو نكساً على العقب

مناقب لك قد سارت شواردها ... في كل أفق مسير الأنجم الشهب

لم يحرز القوم ما أحرزت من قصب ... ولم ينالوا وإن جدوا سوى النصب

ما القوم كفؤك في علم ولا عمل ... ولا فخار ولا مجد ولا حسب

ولدت في البيت بيت الله فارتفعت ... أركانه بك فوق السبعة الحجب

وتلك منزلة لم يؤتها بشر ... بلى ومرتبة طالت على الرتب

ورحت تدرج في حجري نداً وعلا ... ما بين أكرم أم في الورى وأب

صحبت أحمد قبل الناس كلهم ... ولم تكن عنه في حال بمنقلب

صحبته وهو مغلوب فكنت له ... في كل حادثة كالعين والهدب

كأول الناس بالكرار آخرهم ... فخَراً وبدؤهم بالفخر كالعقب

أضاف مجداً إلى مجد أبوه به ... إضافةَ الذَهب الأبريز للذهب

ولم تزل عين خير الرسل ناظرة ... إليه تكلؤه من أعين النوب

ومذ ترعرع أدناه وقربه ... منه وأنزله بالمنزل الخصب

بحجره ضمه في يوم مسغبة ... مخففاً عن أبيه وطأة السغب

وكان يقطف من أزهار حكمته ... ما شاء من أثر غض ومن أدب

قد طهرته يد الباري فلا دنس ... به يلم ولا ريب من الريب

ما عفرت تربة الأصنام جبهته ... كغيره لا ولم يذبح على النصب

ساوى النبي وواساه بمحنته ... ولم يكن حبله عنه بمنجذب

ما عد من سنه إلاّ كأنمله ... حتى أصاب الذي بالعد لم يصب

ونال أعلى مراقي الفضل وارتفعت ... عليه أعلامه خفاقة العذب

وحينما صدع الهادي بدعوته | للناس لباه قبل الناس للطلب
أعطاه من نفسه ما لم يكن أحد | يعطاه من أحد في سالف الحقب
وراح يكشف عنه كل داجية | من الخطوب ويجلو قسطل الكرب
وقام من دونه بالسيف مصطلياً | نار الوغى غير هياب ولا نكب
ويوم ندب ذوي القربى لنصرته | هل غيره من ذوي القربى بمنتدب
لم يحفلوا بوعيد لا ولا عدة | لشر منقلب أو خير منقلب
شتان بين مجيب للنداء ومن | أصمه الغي لم يسمع ولم يجب
ويوم ضجت ثنايا مكة ودوت | شعابها بصدى الضوضاء والشعب
وبات كل قبيل من قبائلها | يراقب الصبح أن يبصر سنا يثب
وأجمع القوم أن يلقوا نبيهم | عند انبساط السنا في هوة العطب
من في فراش رسول الله بات وقد | مدت إليه يد الرامين عن كثب
رامت قريش به كيداً فكادهم | بالمرتضى وبه إن يرمهم يصب
وقاه بالنفس والأعداء راصدة | تستنهض الموت بين السمر والقضب
فأنزل الله (من يشري) بمدحته | ومن شرى نفسه لله لم يخب
من مثله وبه باهى ملائكه | ومن له مثل ذاك الموقف العجب
كم غمرة خاض يوم الشعب دونهم | وكم أنالهم في الشعب من أرب
وكم له من يد بيضاء أخرجها | من غير سوء ولم تضمم من الرهب
غرماً وجدك من أدى أمانته | ومن تحمل عنه مغرم الطلب
أم من بأظعانه قد سار منفرداً | ولم يكن لسوى الماضي بمصطحب
قد حاطهن بعزم غير منثلم | لدى الكفاح وباس غير منثلب
كفاه فخراً مؤاخاة النبي له | يوم المؤاخاة بين الصحبة النجب
لو لم يكن خيرهم ما كان دونهم | لذلك الشرف الأعلى بمنتخب
على علي رحى الإسلام دائرة | (وهل تدور رحا إلاً على قطب)
كم كربة عن رسول الله فرجها | بمقول ذرب أو صارم ذرب
سائل عتاة قريش يوم نفرهم | للحرب من ردهم بالويل والحرب

خفوا لبدر سراعاً غير أنهم … ناؤوا بثقل المواضي والقنا السلب
مالت بهم خيلاء طالما ظهرت … عليهم في ظهور الخيل والنجب
أغراهم أنهم جم عديدهم … عند التصادم جم المال والأهب
سرعان ما ضربوا فيها قبابهم … حتى هوت نكس الأعماد والطنب
ريعوا بأغلب نظار على شوس … رفت عليه بنود النصر والغلب
تقسموا فغدا للسيف بعضهم … حظاً وبعضهم للأسر والهرب
من آب مهم فبالخسران أوبته … ومن علا هامه الصمصام لم يؤب
لا تعجبن إذا أردى الكمي ولم … يسلبه فالليث لا يلوي على السلب
قد أحصيت عدة القتلى فكان له … نصف ونصف لباقي الذادة الغلب
واسأل بأحد سراياهم وقد نسلت … إلى الكفاح كمن ينحط من حدب
ودار كأس الردى والسمر قد خطرت … والبيض غنت على الأدراع واليلب
وفر من فر عن نصر النبي وقد … ضاق الخناق وشدت عقدة اللبب
من غيره فرق الجيش اللهام ومن … سواه أودى بكبش الفيلق اللجب
قد ضارب القوم حتى عاد صارمه … كضده رافلاً في بردة الشجب
وآب كالأعزل الشاكي فقلده … بمصلت غير ناب الحد خير نبي
لم يدخر لسواه ذو الفقار ولم … تخمد بغير شباه جمرة العرب
تراه عند اشتداد الأمر مبتهجاً … ولم تذهب الحلم منه سورة الغضب
واسأل بعزور والرهط الذين سعوا … من حوله في ظلام الحالك الأشب
راموا على غرة قتل النبي وما … راموا سوى قتل وحي الله والكتب
من حال من دون ما راموا وصدهم … عن قصدهم غير ذاك الباسل الحرب
أذاق (عزور) كأس الحتف مترعة … والجأ النفر الباقين للهرب
وكر ثانية في صحبه فقضى … عليهم بشبا عزم وذي شطب
ألقى على حصنهم والملتجين له … قذائفاً من شظايا الخوف والرعب
آل النضير وإن شيدت حصونهم … ليسوا من النبع إن عدوا ولا الغرب
واسأل به فارس الأحزاب يوم سرا … وحوله عصب تأوي إلى عصب

تقحم الخندق المشهور وهو على ... مطعم يعقد الآذان بالذنب
كالطير مرتقياً والسيل منحدراً ... يعلو على الهضب أو يهوي عن الهضب
ستون عاماً قضاها في الحروب ولم ... توجس حشاشته خوفاً ولم تجب
إن شبَّ عن طوقه عمرو وشاب ولم ... يشب عن طوقه عمرو ولم يشب
قد جال إذ جال والأبطال محجمة ... كأنهم وهم الأشهاد في الغيب
كم قد دعا معلناً في المسلمين إلاَّ ... مبارز منكم يلقى المنية بي
فلم يكن بينهم إلاَّ أبو حسن ... وهم ثلاثة آلاف بمنتدب
هناك قد وقف الإسلام أجمعه ... والكفر أجمعه في موقف عجب
ليثان كرًّا وصالا والعجاج بنى ... عليهما قبباً مسدولة الحجب
والناس من عسكري هذا وذاك رنت ... إليهما وأدارت طرف مرتقب
فلم يكن غير رد الطرف ناظره ... حتى بدت لعلي آية الغلب
أقام عمراً على ساق وأثكله ... باختها فمشى زحفاً على الركب
وافاه عند اللقا كالطود منتصباً ... فخر كالطود لكن غير منتصب
لوقع صارمه في الخافقين صدى ... يمشي مع الدهر من حقب إلى حقب
هبت عليه من «الكرار» عاصفة ... ذرته ذرو سوافي الريح للكثب
بقتله نال دين الله بغيته ... وأحرز السبق واستولى على القصب
واستوثق الأمر للإسلام وانقلبت ... عساكر الشرك عنه أي منقلب

للشيخ عبد المهدي مطر. أنشدها حين أهدي باب ذهبي لضريح أمير المؤمنين في النجف الأشرف سنة ١٣٧٣هـ ١٩٥٣م:

أرصف بباب علي أيها الذهب ... واخطف بأبصارمن سروا ومن غضبوا
وقل لمن كان قد أقصاك عن يده ... عفواً إذا جئت منك اليوم اقترب
لعلَّ بادرة تبدو لحيدرة ... أن ترتضيك لها الأبواب والعتب
فقد عهدناه والصفراء منكرة ... لعينه وسناها عنده لهب
ما قيمة الذهب الوهاج عند يد ... على السواء لديها التبر والترب

ما سرّه أن يرى الدنيا له ذهباً وفي البلاد قلوب شفها السغب

ولا تضجر أكباد مفتتة حتى يذوب عليها قلبه الحدب

أو يسقط الدمع من عيني مولهة أجابها الدمع من عينيه ينسكب

تهفو حشاه لأنات اليتيم بلا أم تناغي ولا يحنو عليه أب

هذي هي السيرة المثلى تموج بها روح الوصي وهذا نهجه اللحب

فاحذر دخول ضريح أن تطوف به إلاّ بإذن علي أيها الذهب

باب به ريشة الفنان قد لعبت فأودعته جمالاً كله عجب

تكاد لا تدرك الأبصار دقته مما تماوج في شرطانه اللهب

كأن لجة أنوار تموج به خلالها صور الرائين تضطرب

سبائك صبها الإبداع فارتسمت روائع الفن فيها الحسن منسكب

يدنو الخيال لها يوماً لينعتها وصفاً فيرجع منكوساً وينقلب

أدلت بها يد فنان منمقة تعنو لروعتها الأجيال والحقب

ملء الجوانح ملء العين رهبتها ومربض الليث غاب ملؤه رهب

* * *

يا قالع الباب والهيجاء شاهدة من بعد ما طفحت كأس بمن هربوا

بابان لم ندر في التبريح أيهما أشهى إليك حديثاً حين يقتضب

باب من التبر أم باب يقومه مساره وجذوع النخل والخشب

هذا يشع عليه التبر ملتهباً وذاك راح بنار الحقد يلتهب

وأي داريك أحرى أن نطوف بها دار تحج بها الدنيا لمجدك أم

هذي تدال بها للحق دولته وأن تجللها الأستار والحجب

حتى إذا جاءت الدنيا مكفرة دار عليك بها العادون قد وثبوا

شادت عليك ضريحاً تستطيل على زهواً وفي تلك فيء الحق يغتصب

وتلك عقبى صراع قد صبرت له عما جنته وجاء الدهر يتهب

هام السماء به الأعلام والقبب وذا فديتك مظلوماً هو الغلب

* * *

بلغ معاوية عني مغلغلة ... وقل له وأخو التبليغ ينتدب
قم وانظر العدل قد شيدت عمارته ... والجور عندك خزي بيته خرب
تبني على الظلم صرحاً رن معوله ... بجانبيه وهدت ركنه النوب
أبت له حكمة الباري بصرختها ... أن لا يخلد مختال ومرتكب
قم وانظر الكعبة العظمى تطوف بها ... حشد الألوف وتجثو عندها الركب
تأتي له من أقاصي الأرض طالبة ... وليس إلاَّ رضا الباري هو الطلب
قل للمعربد حيث الكأس فارغة ... خفض عليك فلا خمر ولا عنب
سموك زوراً أمير المؤمنين وهل ... يرضى بغير (علي) ذلك اللقب
هذا هو الرأس معقود لهامته ... تاج الخلافة فاخسأ أيها الذنب
يا باب (حطة) سمعاً فالحقيقة قد ... تكشفت حيث لا شك ولا ريب
مواهب الله قد وافتك مجزية ... ما كنت تبذل من نفس وما تهب
هذي هي الوقفات الغر كنت بها ... للدين حصناً منيعاً دونه الهضب
هذي هي الضربات الوتر يعرفها ... ضلع بها انقد أو جنب بها يجب
هذي هي اللمعات البيض كان بها ... عن وجه البرايا تكشف الكرب
هذي هي النفس قد روضت جامحها ... فراق للعين منها عيشها الجشب
فلا الخوان لها يوماً ملونة ... منه الطعوم ولا أبرادها قشب
لا تكتسي وفتاة الحي عارية ... ولا تعب ومهضوم الحشا سغب
نفس هي الطهر ما همت بموبقة ... وليس تعرف كيف الذنب يرتكب
هذي التي انقادت الأجيال خاشعة ... لهديها وترامت عندها النجب
تعيفوا وركبنا في سفينته ... فميز اللج من عافوا ومن ركبوا
وساوموا فاشترينا حب «حيدرة» ... ولا نبيع ولو أن الدنا ذهب
يا فرصة كنت للإسلام ضيعها ... حقد النفوس وأبلى جدها اللعب
شجوا برغمك أمراً أنت تعصبه ... في ذمة الله ما شجوا وما شجبوا
فرحت تنفض من هذا الحطام يداً ... إذ شمت فيه يد الأطماع تنتشب
تكالب عنه قد نزهت محتقراً ... له وعندك ما يشفى به الكلب

فاستنزلوك عن العرش الذي ارتفعت ... بك القواعد منه فهو منتصب
لو أنصفوك لفاض العلم منتشراً ... في الخافقين وسارت بالهدى كتب
ولازدهى باسمك الإسلام دوحته ... فينانة وفناه مربع خصب
ولابتنيت عليه من سماء علا ... ما ليس تأفل عن آفاقها الشهب
لله أنت فقد حملت من محن ... مالم يطق صابر في الله محتسب
أمر به ضاقت الدنيا بما رحبت ... ولم يضق عنه يوماً صدرك الرحب

من قصيدة لسفيان بن مصعب العبدي المتوفى حدود سنة ١٢٠ :

ما هز عطفي من شوق إلى وطني ... ولا اعتراني من وجد ومن طرب
مثل اشتياقي من بعد ومنتزح ... عن (الغري) وما فيه من الحسب
أزكى ثرى ضم أزكى العالمين فذا ... خير الرجال وهذي أشرف الترب
إن كان عن ناظري بالغيب محتجباً ... فإنه عن ضميري غير محتجب
مرت عليه ضروع المزن رائحة ... من الجنوب فروته من الحلب
بل جاد ما ضم ذاك الترب من شرف ... مزن المدامع من جار ومنسكب
ولو تكون لي الأيام مسعدة ... لطاب لي عنده بعدي ومقتربي
يا راكباً جسرة تطوي مناسمها ... ملاءة البيد بالتقريب والخبب
بلغ سلامي قبراً بالغري حوى ... أوفى البرية من عجم ومن عرب
واجعل شعارك لله الخشوع به ... وناد خير وصي صنو خير نبي
اسمع أبا حسن أن الأولى عدلوا ... عن حكمك انقلبوا عن خير منقلب
ما بالهم نكبوا نهج النجاة وقد ... أوضحته واقتفوا نهجاً من العطب
ودافعوك عن الأمر الذي اعتلقت ... زمامه من قريش كف مغتصب
ظلت تجاذبها حتى لقد خرمت ... خشاشها[1] تربت من كف مجتذب
وأنت توسعه صبراً على مضض ... والحلم أحسن ما يأتي مع الغضب
وكنت قطب رحى الإسلام دونهم ... ولا تدور رحى إلاّ على قطب

---

(١) الخشاش بالكسر ما يدخل في عظم أنف البعير من الخشب.

من قصيدة لأبي تمام الطائي المتوفى سنة ٢٣١ :

أخـوه إذا عـد الـفـخـار وصـهـره فـلا مـثـلـه أخ ولا مـثـلـه صـهـر

وشـد بـه أزر الـنـبـي مـحـمـد كما شد من موسى بهارونه الأزر

ومـا زال صـبـاراً دياجـيـر غـمـرة يمزقها عن وجهه الفتح والنصر

هو السيف سيف الله في كل مشهد وسيف الرسول لا ددان ولا دِثر[1]

فـأي يـد لـلـذم لـم يـبـر زنـدهـا ووجـه ضـلال لـيـس فـيـه لـه أثـر

ثـوى ولأهـل الـديـن أمـن بـعـده وللواصمين الدين في حده ذعر

يسد به الثغر المخوف من الردى ويعتاص[2] من أرض العدو به الثغر

بـأحـد وبـدر حـيـن مـاج بـرجـلـه وفـرسـانـه أحـد ومـاج بـهـم بـدر

ويـوم حـنـيـن والـنـضـيـر وخـيـبـر وبالخندق الثاوي بعقوته عمرو

سما للمنايا الحمر حتى تكشفت وأسـيـافـه حـمـر وأرمـاحـه حـمـر

مـشـاهـد كـان الله كـاشـف كـربـهـا وفـارجـه والأمـر مـلـتـبـس أمـر

ويوم الغدير استوضح الحق أهله بفيحاء لا فيها حجاب ولا سر

أقـام رسـول الله يـدعـوهـم بـهـا لـيـقـربـهـم عـرف ويـنـآهـم نـكـر

فـكـان لـه جـهـر بـإثـبـات حـقـه وكـان لـهـم في بزهـم حقه جهر

لـكـم ذخـركـم أن الـنـبـي ورهـطـه وجيليهم ذخري إذا التمس الذخر

جـعـلـت هـواي الـفـاطـمـيـين زلـفـة إلى خالقي ما دمت أو دام لي عمر

للحاج هاشم الكعبي المتوفي سنة ١٢٢١هـ من قصيدة:

أخذوا بمسروب السراب وجانبوا عـذبـاً يـمـيـر الـوافـديـن بـرودا

أنـى يـشـق عـبـار شـأوك مـعـشـر كنت الوجود لهم وكنت الجودا

يـجـنـون مـا غـرسـت يـداك قـضـيـة ألقت على شهب العقول خمودا

أنـى هـم والـخـيـل يـنـشـر وقـعـهـا نـقـعـاً تـظـن بـه الـسـمـاء كـديـدا

---

(١) الددان كسحاب من لا غناء عنده والسيف الكهام (والدثر) بالفتح الرجل البطيء الخامل النؤوم.

(٢) يعتاص يقوى ويشتد.

ومواقف لك دون أحمد جاوزت بمقامك التعريف والتحديدا
فعلى الفراش مبيت ليلك والعدى تهدي إليك بوارقاً ورعودا
فرقدت مثلوج الفؤدا كأنما يهدي القراع لسمعك التغريدا
فكفيت ليلته وقمت معارضاً بالنفس لا فشلاً ولا رعديدا
واستصبحوا فرأوا دوين مرادهم جبلاً أشم وفارساً صنديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى أو ما دروا كنز الهدى مرصودا
ما أنصفتك عصابة جهلت إذ جعلت لذاتك في الوجود نديدا
قد خالفت نص النبي عليك في «خم» وهم كانوا عليه شهودا
باعتك وابتاعت بجوهر ذاتك الـ ـعلوي سفلي المبيع رديدا
ضلت أدلتها استبدل بالعمى رشداً وبالعدم المحال وجودا

علي بن أبي طالب في الشعر العالمي الإسلامي وفي القصة والملحمة العربيتين

مؤرخو الأدب العربي المحدثون يقررون جازمين خلو الشعر العربي القديم من الملاحم والقصص، ويعللون ذلك بمختلف التعاليل. يقررون ذلك ويلقونه لقرائهم وطلابهم كحقيقة مسلمة يبتنى عليها الكثير من النتائج.

والحقيقة هي عكس ما قرره هؤلاء المؤرخون، فالشعر العربي القديم لم يخل من الملحمة والقصة، بل إن بعض تلك الملاحم وبعض تلك القصص يبلغ ذروة الإبداع، ويُسلك مع روائع الشعر العربي الأصيل.

ولو وسَّع هؤلاء المؤرخون مطالعاتهم وتغلغلوا قليلاً في بطون بعض المدونات المطبوعة المنتشرة لعدلوا عن رأيهم ورجعوا عن تقريرهم، ولباهوا بما تضمنه الشعر العربي من فن القصة والملحمة.

أما القصة فهي متكاملة جامعة لكل ما يطلب في القصص العالمي من شروط الإبداع والتكامل. وأما الملحمة فليست على هذا المستوى، إذ ينقصها

بعض ما يشترط في هذا النوع من الشعر، ولكنها تظل على كل حال شعراً ملحمياً لا يجوز تجاهله عندما يؤرخ المؤرخون للأدب العربي.

الشعر القصصي والشعر الملحمي موجودان في شعر الشعراء الذي شاقتهم سيرة علي بن أبي طالب، وما تضمنته شخصيته من خصائص تفرد بها فأولعوا بذلك وانبهروا به فترجموا هذا التولع وهذا الانبهار إلى شعر عال، كان الموجز منه قصصاً جميلة عذبة، وكان المطول منه نوعاً من الملاحم التي لا تقل روعة عن أي ملحمة عالمية شهيرة.

وأكثر من ذلك فقد كانت شخصية علي بن أبي طالب مؤثرة لا في الشعر العربي وحده، حيث أوجدت فيه الملحمة والقصة، بل في أشعار كل اللغات الإسلامية، وكانت العامل الأقوى في تحويل بعض تلك اللغات من لغات تخاطب إلى لغات تدوين وكتابة.

فاللغة الأردوية مثلاً، وهي اللغة الرسمية لدولة الباكستان ولغة عشرات الملايين من المسلمين الهنود. إذن هذه اللغة لم تكن في بادىء أمرها إلاَّ لغة تخاطب فقط، ولم تكن لغة شعر وأدب وتدوين، وكان السبب في تحولها إلى كل ذلك هم الذين أخذوا بشخصية علي بن أبي طالب مضافاً إليها شخصية ولده الحسين فكان أن نطقوا بالشعر معبراً عما أُخذوا به، وكان لا بدَّ من تدوين هذا الشعر. فكان ديوان الملك الشاعر محمد قطب شاه (٩٧٣ ـ ١٠٣٠هـ) هو أول ديوان شعري باللغة الأردوية، وشعر هذا الديوان مستوحى من شخصية علي أولاً ثم من شخصية الحسين.

ثم تتابع الشعر الأردوي بعد ذلك فكانت فيه الملاحم العلوية والحسينية كشعر الشاعر (سودا) (١١٢٥ ـ ١١٩٥هـ) وشعر الشاعر (غالب) (١٢١٢ ـ ١٢٨٦هـ) وشعر الشاعر (أنيس) (١٢١٦ ـ ١٢٩١هـ) وشعر الشاعر (دبير) (٢١٨ ـ ٢٩٢هـ) وغيرهم من الشعراء الهنود.

وكذلك القول في غيرها من لغات الباكستان كاللغة الملتانية، فقد كان أول

ما دون فيها مدائح علي بن أبي طالب ومراثي الحسين في شعر ملحمي رائع، فمن ذلك ملحمة (ذو الفقار) في خمسمائة بيت التي نظمها الشاعر (غلام حيدر فدا)، وقصائد الشاعرين الأخوين (فداء حسين جهندير) و(نذير حسين جهندير)، والثاني منهما نظم باللغة الملتانية خطبة زينب في دمشق فجاءت في مئة وعشرين بيتاً.

وهناك أيضاً في اللغة نفسها شعراء غير هؤلاء نذكر منهم غلام علي، والسيد فضل حسين شاه، ميزتهم الأولى مدائح أهل البيت ومراثيهم.

ومن (سركودها) إلى (ديرة اسماعيل خان) إلى ما قبل مدينة (ملتان) بعشرين ميلاً على ضفَّة نهر السند يسكن ما ينوف على المليون نفس، خرج من بينهم كبار شعراء المدائح العلوية والمراثي الحسينية الذي يبلغ المدون من شعرهم ما يقرب من ثلثي شعر اللغة الملتانية، ما عدا غير المدون الذي ينتقل على الأفواه من إنسان إلى آخر.

ومثل هذا يمكن أن يقال في اللغة السندية وبقية اللغات الباكستانية.

وشاعر الأتراك المتفوق (فضولي) الذي يسميه الأتراك رئيس الشعراء ويعدونه أستاذ الكل، والذي لقَّبه الشاعر التركي المشهور عبد الحق حامد: (بالشاعر الأعظم وشيخ الشعراء وأعظم شعراء الشرق)، شاعر الأتراك هذا سار على الطريق نفسه، وقد صرَّح هو في أمدوحة نظمها وهو في جلال السن بأنه مدح علي بن أبي طالب خمسين سنة وليس في الشعراء الأتراك من له شهرة فضولي إذا استثنينا نسيمي ونوائي. وعدا الشاعر فضولي فإن الأدب التركي يزخر بالشعر العلوي والحسيني، ففي القرن الرابع عشر نظم الشاعر نقيب أوغلي قصة الحسن والحسين، وهو معاصر لشلبي عريف المتوفي سنة ٧١٩هـ وفي القرن نفسه هناك قصيدة (دستان مقتل حسين) نظمها شاعر يدعى شادي أو شياد سنة ٧٦٣هـ. بقسطموني، كذلك نظم معاذ أوغلي حسن البك بازاري ما يعرف بالمثنوي في غزوات علي. وفي سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) كان أول ما صنف في

الروملي قصيدة في رثاء السيدة فاطمة الزهراء نظمها خليل إمام مسجد قره بولت من أعمال أدرنة.

وكذلك ظهرت في القرن الرابع عشر تواليف شعبية تصف غزوات النبي ﷺ ومعجزاته بصفة عامة وبطولات علي (ع) بصفة خاصة، وقد صيغت هذه التواليف في قالب المثنويات.

وأما في النثر فقد ظهرت كتب السير التي ألفت في الزهراء والحسن والحسين (ع) وما جرى بكربلاء. وكل الذي ذكرناه يعد من روائع الأدب التركي.

وفي الشعر الألباني بلغت المدائح العلوية والمراثي الحسينية الذروة وفي الطليعة منها ملحمة الشاعر نعيم فراشري التي نظمها ما بين السنة ١٨٩٢ ـ ١٨٩٥ وطبعت لأول مرة سنة ١٨٩٨ والتي بلغ عدد أبياتها عشرة آلاف بيت وسماها (كربلا). وفي اللغة البنغالية، لغة الشاعر طاغور نظم الشاعر محمد خان (مقتل الحسين) سنة ١٦٤٥ والشاعر عبد الحكيم نظم (كربلا) والشاعر حياة محمود نظم (جنك نامه) ١٧٢٣ والشاعر محمد يعقوب نظم (مقتول حسين) سنة ١٦٩٤.

ولسنا الآن بصدد استقصاء الملاحم العلوية في شعر اللغات الإسلامية، وإنما أردنا الإشارة إلى ما تركته شخصية علي بن أبي طالب من أثر في الشعر الإسلامي العالمي، تاركين التفاصيل إلى وقت آخر.

وإذا كانت تلك الشخصية قد أثمرت ما أثمرت من ملاحم في الشعر غير العربي، فقد كان من العجيب أن لا يكون لها مثل هذا الإثمار في الشعر العربي، وهي بهذا الشعر أعلق وإليه أقرب.

وقد كان على مؤرخي الأدب العربي أن تلفتهم هذه الظاهرة فتدفعهم إلى التنقيب والتفتيش، ولو فعلوا لما عانوا مشقة في العثور على ما يبتغون.

في الشعر القصصي يأتي (السيد الحميري) (١٠٥ ـ ١٧٣) بارزاً مجلياً فقد

تقصى قضايا علي بن أبي طالب قضية قضية فنظمها كلها شعراً، حتى لقد وقف ذات يوم في المربد بالبصرة وهو راكب على جواد، ونادى من جاءني بمنقبة لعلي بن أبي طالب لم أنظم فيها شعراً فله جوادي هذا، فذكر له رجل حاضر هناك منقبة وقال له هل نظمت فيها شيئاً من الشعر؟ فقال: لا، ونزل على جواده ودفعه إلى الرجل.

وقبل الحديث عن شعره، القصصي لا بدَّ لنا من كلمة تعريف به: فهو إسماعيل بن محمد، وغلب عليه لقب: (السيد الحميري)، ولد بعُمان ونشأ بالبصرة وتوفي ببغداد أول أيام الرشيد بعد أن أدرك خمسة من ملوك بني العباس: السفاح والمنصور والمهدي والهادي.

وهو في الطليعة من شعراء عصره وتميز عنهم بشعره الملتزم الذي خصَّ به أهل البيت جميعاً وميز منهم علياً فأفرده بروائعه التي تكوَّن بمجموعها الشعر القصصي العربي، وانصرف عن مدح الملوك والأمراء إلاَّ ما ندر واوجبته الضرورة، وابتعد عن التكسب بمالهم، مما حمل شاعراً مثل بشار بن برد أن يقول له: لولا أن الله شغلك بمدح أهل البيت لافتقرنا!. أي أنه لو زاحمهم على مدح أصحاب السلطة لفاقهم في ذلك فيكسد شعرهم ويبور.

وقد عبر عن التزامه بكثير من الشعر مثل قوله:

إلى أهل بيت أذهب الرجس عنهم ... وصفوا من الأدناس طراً وطيبوا
إلى أهل بيت ما لمن كان مؤمناً ... من الناس عنهم في الولاية مذهب
ومن خصيم لامني في هواهم ... وعاذلة هبت بليل تؤنب

ثم يشير إلى تركه مدح المتسلطين وحرمانه نفسه من جوائزهم:

تركت امتداح المفضلين ذوي الندى ... ومن في ابتغاء الخير يسعى ويرغب

ثم يشير إلى توقي الناس له وتباعدهم عنه حتى أقرباؤه لاشتهاره بأنه معارض عنيد:

وفارقت جيراناً وأهل مودة ... ومن أنت منهم حين تدعى وتنسب

فأنت غريب فيهم متباعد كأنك مما يتقونك أجرب

ثم يعلن إصراره على موقفه وعدم التحول عن مبدئه مهما لقي من حرمان وتنكر:

فقلت دعيني لن أحبّر مدحة بغيرهم ما حجَّ لله راكب

وقد ذكر أحد من جمعوا شعره في عصره أنه جمع له ألفين وثلاثمائة قصيدة في أهل البيت وظنَّ أنه قد استوعب شعره حتى جلس إليه يوماً رجل فسمعه ينشد شيئاً من شعره، فإذا بهذا الرجل ينشده ثلاث قصائد لم تكن عند جامع شعره فقال: وعرفت حينئذٍ أن شعره ليس مما يدرك.

وكان له ديوان مجموع في حياته يفهم من بعض الروايات أنه كان معروفاً محفوظاً. ولكن الأيام ذهبت بشعره ولم يبق منه إلاً ما كان في تضاعيف الكتب والمؤلفات. ويقول صاحب الأغاني: كان السيد إذا استنشد شيئاً من شعره لم يبدأ بشيء إلاً بقوله:

أجد بآل فاطمة البكور فدمع العين منهمر غزير

ومن نقمته على المداحين قوله وقد سمع الشاعر بشاراً ينشد الشعر:

أيها المادح العباد ليعطى إن لله ما بأيدي العباد

فاسأل الله ما طلبت إليهم وارج نفع المنزل العواد

لا تقل في الجواد ما ليس فيه وتسمي البخيل باسم الجواد

وبلغ من التزامه الكامل بمبدئه أنه كان لا يطيق الجلوس في مجلس لا يتردد فيه ذكر الذين التزم بهم وخصصهم بمدائحه فقد حضر مجلساً خاض حاضروه في ذكر الزرع والنخل فنهض فقالوا له: ممّ القيام؟ فقال:

إني لأكره أن أطيل بمجلس لا ذكر فيه لفضل آل محمد

لا ذكر فيه لأحمد ووصيه وبنيه ذلك مجلس قصف ردي

إن الذي ينساهم في مجلس حتى يفارقه لغير مسدد

أما أبرز قصائده القصيصة فهي القصيدة التي عرفت باسم (القصيدة

المذهبة)، وقد قال فيها التوزي: لو أن شعراً يستحق أن لا ينشد إلاً في المساجد لحسنه لكان هذا، ولو خطب به خاطب على المنبر في يوم جمعة لأتى حسناً وحاز أجراً، مع أن التوزي هذا لم يكن مع الشاعر على فكر واحد ولا يعتنق جميع مبادئه، ولكن إعجابه بالشعر دعاه إلى هذا القول. وكذلك كان الحال مع الشاعر مروان بن أبي حفصة الذي يتناقض كل التناقض في الاتجاه مع السيد الحميري. ولكن نزعته الشعرية وتقديره للفن تغلبا على ذلك، فعندما تليت القصيدة في حضوره كان يقول عند كل بيت: سبحان الله ما أعجب هذا الكلام.

والقصيدة تروي حياة علي بن أبي طالب رواية قصصية تجمع كل شروط القصة الشعرية، ويمكن أن تعتبر في هذا المجال أعلى نموذج لهذا الضرب من الشعر، ودليلاً واضحاً على أن الأدب العربي لم يخل ـ كما يطيب لمؤرخي هذا الأدب أن يقولوا ـ من الشعر القصصي الرفيع، وهذا نموذج من تلك القصيدة يروي القصة عذبة الرواية، رائقة السرد، جميلة التركيب، تتدفق تدفق السلسال:

ولقد سرى فيما يسير بليلة ... بعد العشاء بكربلا في موكب
حتى أتى متبتلاً في قائم ... ألقى قواعده بقاع مجدب
بانيه ليس بحيث يلقى عامراً ... غير الوحوش وغير أصلع أشيب
في مدمج زلق أشم كأنه ... حلقوم أبيض ضيق مستصعب
فدنا فصاح به فأشرف ماثلاً ... كالنسر فوق شظية من مرقب
هل قرب قائمك الذي بوئته ... ماء يصاب، فقال ما من مشرب
إلا بغاية فرسخين ومن لنا ... بالماء بين نقاً وقيٍّ سبسب
فثنى الأعنة نحو وعث فاجتلى ... ملساء تبرق كاللجين المذهب
قال: اقلبوها إنكم إن تقلبوا ... ترووا ولا تروون إن لم تقلب
فاعصبوصبوا في قلعها فتمنعت ... منهم تمنع صعبة لم تركب
حتى إذا أعيتهم أهوى لها ... كفاً متى ترد المغالب تغلب
فكأنها كرة بكف حزوّر ... عبل الذراع دحا بها في ملعب
فسقاهم من تحتها مستسلسلاً ... عذباً يزيد على الألذ الأعذب

حتى إذا شربوا حميعاً ردهاً ... ومضى فخلت مكانها لم يقرب

أعني ابن فاطمة الوصي ومن يقل ... في فضله وفعاله لم يكذب[1]

ليست ببالغة عشير عشير ما ... قد كان أعطيه مقالة مطنب

ويقص قصة هجرة النبي ﷺ ومبيت علي (ع) في فراشه لتضليل المتربصين بقتله، بهذا الأسلوب الرائق العذب:

وسرى بمكة حين بات مبيته ... ومضى بروعة خائف مترقب

باتوا وبات على الفراش ملفعاً ... فيرون أن محمداً لم يذهب

حتى إذا طلع الشميط كأنه ... في الليل صفحة خد أدهم مغرب

ثاروا لأخذ أخي الفراش فصادفت ... غير الذي طلبت أكف الخيب

فوقاه بادرة الحتوف بنفسه ... حذراً عليه من العدو المجلب

حتى تغيب عنهم في مدخل ... صلى الإلٰه عليه من متغيب

وجزاه خير جزاء مرسل أمة ... أدى رسالته ولم يتهيب

فتراجعوا لما رأوه وعاينوا ... أسد الإلٰه وعصبوا في منهب

قالوا اطلبوه فوجهوا من راكب ... في مبتغاه وطالب لم يركب

حتى إذا قصدوا لباب مغارة ... ألفوا عليه نسيج غزل العنكب

صنع الإلٰه له فقال فريقهم ... ما في المغار لطالب من مطلب

ميلوا وصدهم المليك ومن يرد ... عنه الدفاع مليكه لا يعطب

حتى إذا أمن العيون رمت به ... خوص الركاب إلى مدينة يثرب

فاحتل دار كرامة في معشر ... آووه في سعة المحل الأرحب

ويقص قصة خيبر وفتح علي لحصون اليهود وقتله مرحباً:

وله بخيبر إذ دعاه لراية ... ردت عليه هناك أكرم منقب

فمشى بها قبل اليهود مصمماً ... يرجو الشهادة لا كمشي الأنكب

تهتز في يمنى يدي متعرض ... للموت أروع في الكريهة محرب

---

(١) ابن فاطمة: هو علي، وأمه فاطمة بنت أسد.

في فيلق فيه السوابغ والقنا والبيض تلمع كالحريق الملهب

والمشرفية في الأكف كأنها لمع البروق بعارض متحلب

وذوو البصائر فوق كل مقلص نهد المراكل ذي سبيب سلهب

حتى إذا دنت الأسنة منهم ورموا فنالهم سهام المقنب

شدوا عليه ليرجلوه فردهم عنه بأسمر مستقيم الثعلب

ومضى فأقبل مرحب متذمراً بالسيف يخطر كالهزبر المغضب

فتخالسا مهج النفوس فأقلعا عن جري أحمر سائل من مرحب

فهوى بمختلف القنا متجدلاً ودم الجبين بخده المتترب

أجلى فوارسه وأجلى رجله عن مقعص بدمائه متخضب

ويقص قصة غدير خم:

وبخم إذ قال الإله بعزمه قم يا محمد بالولاية فاخطب

وانصب أبا حسن لقومك إنه هاد وما بلغت إن لم تنصب

فدعاه ثم دعاهم فأقامه لهم فبين مصدق ومكذب

جعل الولاية بعده لمهذب ما كان يجعلها لغير مهذب

وعلى هذا النسق يروي حياة علي بن أبي طالب مرحلة فمرحلة، بمثل هذا الشعر السهل الممتنع، فيتألف من مجموع ذلك قصة متكاملة شيقة تدحض زعم الزاعمين خلو الأدب العربي من الشعر القصصي، وتؤكد مع غيرها من شعر السيد الحميري أن هذا الأدب يستطيع أن يباري آداب الأمم الأخرى بهذا النوع من الشعر.

ويختم السيد الحميري قصته هذه بالإصرار على آرائه مصوراً حاله حين يسمع ذكر الناس الذين أحبهم:

وكأن قلبي حين يذكر أحمداً ووصي أحمد نيط من ذي مخلب

بذرى القوادم من جناح مصعد في الجو أو بذرى جناح مصوب

حتى يكاد من النزاع إليهما يفري الحجاب عن الضلوع الصلب

هـبـة ومـا يـهـب الإلـه لـعـبـده يـزدد ومـهـمـا لا يـهـب لا يـوهـب

الشعر الملحمي

كما قلت فيما تقدم أقول الآن: إنه إذا كانت القصة الشعرية العربية قد جاءت في شعر الشعراء الملتزمين متكاملة جامعة لكل ما في القصص العالمي من شروط الإبداع والتكامل، فإن الملحمة الشعرية العربية عند هؤلاء الشعراء لم تكن على هذا المستوى إذ ينقصها بعض ما يشترط في هذا النوع من الشعر، ولكنها تظل على كل حال شعراً ملحمياً، أو على الأقل نواة الشعر الملحمي العربي التي تمهد لمن يريد أن يسلك هذا السبيل في المستقبل.

ولكن لم يظفر الشعر العربي بعد هذه المحاولات الناجحة بمن ينسج على منوالها، فضلاً عمن يتجاوزها إلى الأكمل، لذلك ظلت وحدها مظهر الملحمة العربية. وقد كانت جديرة بعناية مؤرخي الأدب العربي ودارسيه، ولكن لم تنل هذه العناية وأهملت إهمالاً لأسباب ليس من الضروري تبيانها في هذا المقال.

وأقدم من عرفناه ممن نظموا في هذا الفن (أحمد بن علوية الأصفهاني) المتوفى سنة ٣٢٠ بعد أن تجاوز المئة من سني عمره. فقد نظم ملحمته في ألف بيت من الشعر على روي واحد، سميت بالألفية وبالمحبرة، ومع توالي الأزمان أخذ يضيع بعضها حتى لم يوجد منها في عصر العلامة الحلي المتوفى سنة ٧٢٦ سوى ثمانمائة بيت ونيف وثمانين بيتاً، ثم تتابعت القرون ويتتابع معها ضياع (الألفية) حتى لم يصل منها إلى هذا القرن إلاً مقطوعات متفرقة في أكثر من مكان، فعمل بعض المؤلفين على جمعها وضمها بعضها إلى بعض، فاجتمع لأحدهم ٢٢٤ بيتاً ولآخر ما يقرب منه ٢٥٠ بيتاً. وقد كانت ـ على ما يبدو من روايات المؤرخين ـ متداولة معروفة، فقد جاء في معجم الأدباء إنها عرضت على أبي حاتم السجستاني فأعجب بها وقال: يا أهل البصرة غلبكم أهل أصفهان.

ومن نماذجها وصفه لمواقف علي في معركة بدر:

وله ببدر إن ذكرت بلاءه / يوم يشيب ذوائب الولدان
كم من كمي حل عقدة بأسه / فيه وكان ممنع الأركان
فرأى به هصراً يهاب جنابه / كالضيغم المستبسل الغضبان
إذ من ذوي الرايات جدل عصبة / كانوا كأسد الغاب من خفان
لا سيف إلاَّ ذو الفقار ولا فتى / إلاَّ أبو حسن فتى الفتيان

وعن يوم غدير خم يقول:

وله إذا ذكر الغدير فضيلة / لم ننسها ما دامت الملوان
قام النبي له بشرح ولاية / نزل الكتاب بها من الديان
إذ قال بلغ ما أمرت به وثق / منه بعصمة كالىء حنان
نادى: ألست وليكم؟ قالوا بلى / حقاً، فقال: فذا الولي الثاني

وعلى هذا النسق يمضي فيما وصلنا من ملحمته.

ونترك العصور القديمة لنصل إلى هذه الأخيرة فنرى ملاحم تتابع لشعراء مبدعين نذكر منهم الشيخ كاظم الأزري المولود في بغداد سنة ١١٤٣ والمتوفى سنة ١٢٠١ الذي نظم ملحمة من ألف بيت ذهبت الأيام بنصفها ولم يصلنا منها إلاَّ خمسمائة بيت. وذلك أن الطباعة لم تكن معروفة في عصره، فوضعها صاحبها في دولاب خوفاً عليها، ولما أخرجوها وجدوا أن الأرضة قد أكلت ما أكلته منها، فأخرجوا منها ما هو متداول اليوم والمعروف باسم (الأزرية). وكان العالم الشهير السيد مهدي الطباطبائي إذا أنشدت أمامه لا يسمعها إلاَّ واقفاً. وفيها يقول عن معركة بدر فيما يقول عنها:

فارس المؤمنين في كل حرب / قطب محرابها أمام وغاها
وبه استفتح الهدى يوم بدر / من طغاة أبت سوى طغواها
صب صوب الردى عليهم همام / ليس يخشى عقبى التي سواها

وبعد أن يصف ما جرى يوم بدر ينتقل إلى يوم الخندق ومعركة الأحزاب:

يوم غصت بجيش عمرو بن ود / لهوات الفلا وضاق فضاها

وتـخـطـى إلـى (الـمـديـنـة) فـرداً ... بـسـرايـا عـزائـم سـاراهـا
فـدعـاهـم وهـم ألـوف ولـكـن ... يـنـظـرون الـذي يـشـب لـظـاهـا
أيـن أنـتـم عـن قـسـور عـامـري ... تـتـقـي الأسـد بـأسـه فـي شـراهـا
فابتدى المصطفى يحدث عما ... تـؤجـر الـصـابـرون فـي أخـراهـا
مـن لـعـمـرو وقـد ضـمـنـت عـلـى ... الله لـه مـن جـنـانـه أعـلاهـا
فـالـتـووا عـن جـوابـه كـسـوام ... لا تـراهـا مـجـيـبـة مـن دعـاهـا
وإذا هـم بـفـارس قـرشـي ... ترجف الأرض خشية أن يطاها
قـائـلاً مـا لـهـا سـواي كـفـيـل ... هـذه ذمـة عـلـي وفـاهـا
ومشى يطلب الصفوف كما تمشي ... خـمـاص الـحـشـا إلـى مـرعـاهـا
فـانـتـضـى مـشـرفـيـه فـتـلـقـى ... سـاق عـمـرو بـضـربـة فـبـراهـا

ثم يسترسل في الحديث عن معركة خيبر ثم عن معركة حنين وعن يوم غدير خم بعد أن كان قد تحدث عن معركة أحد.

ثم يأتي هاشم الكعبي الذي يستحق أن نطلق عليه لقب (شاعر الملاحم العربية) لأنه لم يكتف بملحمة واحدة نظم فيها حياة علي، بل تعدى ذلك إلى أكثر من ملحمة في الحسين وأنصاره.

والكعبي توفي سنة ١٢٢١ ونسبته (الكعبي) على اختلاف: أما إلى قبيلة كعب التي تسكن الأهواز نواحيها، أو إلى بلدة من بلاد القطيف تعرف الآن باسم (كُعيِّب) بضم الكاف وتشديد الياء. وتنطق الكاف شيناً فارسية وتكتب بصورة الجيم تحتها ثلاث نقط.

ومن ملحمته العلوية قوله:

ومـواقـف لـك دون أحـمـد جـاوزت ... بـمـقـامـك الـتـعـريـف والـتـحـديـدا
فعلى الفراش مبيت ليلك والعدى ... تـهـدي إلـيـك بـوارقـاً ورعـودا
فـرقـدت مـثـلـوج الـفـؤاد كـأنـمـا ... يـهـدي الـقـراع لـسـمـعـك الـتـغـريـدا
واسـتـصـبـحـوا فـرأوا دويـن مـرادهـم ... جـبـلاً أشـم وفـارسـاً صـنـديـدا

رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى أو ما دروا كنز الهدى مرصودا
وغداة بدر وهي أم وقائع كثرت وما زالت لهن ولودا
قابلتهن فلم تدع لعقودها نظماً ولا لنظامهن عقيدا
فالتاح عتبة ثاوياً بيمين من يمناه أردت شيبة ووليدا
سجدت رؤوسهم لديك وإنما كان الذي ضربت عليه سجودا
وتوحدت بعد ازدواج والذي ندبت إليه لتهتدي التوحيدا
وعشية الأحزاب لما أقبلت كالسيل مفعمة تقود القودا
عدلت عن النهج القويم وأقبلت حلف الضلال كتائباً وجنوداً
فأبحت حرمتها وعدت بكبشها في القاع تطعمه السباع جنيدا
وبني قريضة والنضير وسلحم والواديين وخثعما وزبيدا
مزقت جيب نفاقهم فتركتهم أمماً لعارية السيوف غمودا
وشللت عشراً فاقتنصت رئيسهم وتركت تسعاً للفرار عبيدا

ويأتي في عصرنا هذا الشيخ محمد حسين شمس الدين المولود سنة ١٢٨٠ في قرية (مجدل سلم) بجبل عامل والمتوفى فيها سنة ١٣٤٣ والذي كان شاعر جبل عامل في عصره، وفي الطليعة من شعراء العرب المعاصرين فقد نظم ملحمة سماها (الغديرية) نسبة إلى (غدير خم)، وهي وإن لم تقتصر على الحديث عن يوم (الغدير)، بل كان الحديث عن هذا اليوم بعض ما جاء فيها، فقد سماها بهذا الاسم، لأنه رأى فيه رمزاً لأمجاد علي في حياة النبي ﷺ وفيها يقول عن يوم الغدير فيما يقول عنه:

اليوم أكملت فيه دينكم نزلت ونعمة الله في الإسلام قد كملت
وألسن الشكر آيات الثناء تلت إذ حجة المرتضى بالنص فيه علت
يوم الغدير فأضحى للورى عيدا
يوم به المصطفى من فوق منبره علا وأدنى إليه صنو عنصره
وظل يتلو عليهم طيب مخبره وحياً تنزّل فيه من مطهره
فيا له من مقام كان مشهودا

وعن يوم بدر وأحد وخيبر والخندق يقول:

سل يوم بدر وهل يخفى على أحد وسل ذوي العلم ماذا كان في أحد
وعج على خيبر مستعلماً تجد من المآثر ما يأتي على العدد
وما يشق على الإفهام تحديدا

يوم به فرّ من قد فرَّ من وجل وعادت الراية العظمى على خجل
وقال طه سأعطيها إلى رجل يكر ليس بهياب ولا وكل
قد صيغ صارمه للفتح أقليدا

وكرَّ حيدرة الكرَّار مبتهجا على اليهود يقد الهام والمهجا
فأسرعوا هرباً منه بغير حجى واستوثقوا دون باب الحصن مرتججا
والحصن أمنع إحكاماً وتشييدا

سل ابن ود زعيم الشرك كيف جرى به ففي أمره ما أوضح الخبرا
يوم استفز جيوش العرب مبتدرا إلى المدينة لا يبقى لها أثرا
وجال مقتحماً تلك الأخاديدا

وظلَّ يدعو إليه من يبارزه ولا يرى أحداً مما يحاجزه
والمصطفى يتوخى من يناجزه فقام من بهرت فيه معاجزه
يستلفت المصطفى بالأذن ترديدا

فقال خير الورى للمرتضى علنا هذا ابن ودّ لدى الهيجاء ما وهنا
وكان في قوله للقوم ممتحنا فقال حيدرة الهيجا له: وأنا
أولى به دونهم قتلاً وتشريدا

واستل مرهف عزم دونه القدر ما إن تخلف عنه في الوغى الظفر
وانقض ما مسه جبن ولا خور إلى الوغى والوغى منه لها خطر
عدو الخماسي نحو الماء موردوا

فقال عمرو ومن أنت فانتسب فلا أبارز إلاَّ واضح النسب
فقال صنو المصطفى العربي أنا ابن أكرم أم في الورى وأب
فاستجمع العزم تقريباً وتبعيدا

فقال عمرو أما يخشى ابن عمك إذ دعاك لي فإلى ظل المثقف لذ
وأعطني السلم إشفاقاً عليك وخذ نصيحتي وبسيفي من حمامك عذ
لا يرهب الجذع البزل الجلاعيدا
فقال يا عمرو إني لم أهن جزعا فكن لما أتوخى منك مستمعا
إرجع بجيشك أو كن للهدى تبعا فها أنا والهيجا وأنت معا
فانظر بأمرك تصويباً وتصعيدا
فراغ كل إلى صمصامه غضبا مستجمعاً عزمة منه أحدّ شبا
واستقبل المرتضى عمراً كما طلبا وأوغل السيف في ساقيه منتصبا
فخرَّ منعفراً كالطود مهدودا
فكبَّر القوم بشراً حين جدَّله ضرباً وأكبرت الأحزاب مقتله
فدمر الكفر تاليه وأوله واستأصل البغي أعلاه وأسفله
بضربة تركت أعلامهم سودا

وعلى هذا النسق الملحمي يستمر في الحديث عن مناقب علي ووقائعه وفضائله، ثم يختم ملحمته بثلاثة مقاطع يقول في أحدها ومنه يفهم المقطعان الآخران:

فأنتم عدتي في النشأتين فلا أخاف ضيماً ولا أخشى غدا زللا
وما احتقبت سوى حبي لكم عملا فأنجحوا لي بكم يا سادتي الأملا
حتى أكون من الناجين معدودا

هذه لمحة موجزة كل الإيجاز عن أثر علي بن أبي طالب في الآداب الإسلامية العالمية بعامة وفي الأدب العربي بخاصة، نرجو أن يكون فيها خدمة لهذا الأدب، وأن تكون باباً يلجه الباحثون عن الحقائق فيه، والعاملون على التفوق به.

ولم نشر في هذه الكلمة إلى الشعر الفارسي لأنه أكثر من أن يُشار إليه.

من مراثيه

للشاعر المصري محمد عبد المطلب من قصيدة:

ألا تبت يد بالغدر ثارت تمد إلى أبي حسن حساما

لو إن السيف كان له خيار ... لعرد عنه وانثلم انثلاما
ولكن القضاء جرى برزء ... له انفصمت عرى الصبر انفصاماً
بنفسي غرة يجري عليها ... دم أزكى من المسك اشتماما

وللشاعر اللبناني أمين ناصر الدين من قصيدة:

سالت نفوس زكت إذ سال منك دم ... والكعبة انصدعت واسترجع الحرم
وبالحنيفية البيضاء قد نزلت ... دهياء تنزل بالراسي فينهدم
والمنبر انحطمت أعواده فهوى ... وأوشكت عروة الإيمان تنفصم
وأصبحت رقمات الفضل ذاوية ... والسيف صل أسى واستعبر القلم
ما بعد خطبك خطب يا أبا حسن ... أغشى الورى ظلماً من فوقها ظلم
به أصيبت من العليا مقاتلها ... فلا وفاء ولا حلم ولا كرم
تبت يد بابن عم المصطفى فتكت ... غدراً ولمن ينب فيها الصارم الخذم
ما انفك ناديك للأقيال محتشدا ... حتى أبانك عنه فاجر عرم
مروا به وهو خلو منك فارتمضوا ... واستدمعوا فتلاقى الماء والضرم
لم يبق من هيبة النادي سوى أثر ... على الرتاج لدى ذكراك يرتسم
يا حبذا الكوفة الشماء من بلد ... فيه ضريحك للزوار معتصم
كأنما النور يبدو من جوانبه ... وحوله المكرمات الغر تنتظم

وللحاج محمد رضا الأزري من قصيدة:

مصاب رمى ركن الهدى فتصدعا ... ونادى به ناعي السماء فأسمعا
مصاب على الإسلام ألقى جرانه ... وبرقع بالغي الهدى فتبرقعا
فيا ناشد الإسلام قوض سفره ... وصاح به داعي النفير فجعجعا
وأصبح كالذود الظماء بفقرة ... من الدوّ لم تعهد بها الدهر مربعا
فيا هل درى المختار أن حبيبه ... بسيف عدو الله أمسى مقنعا
وأقسم لو أصغى النعي لقبره ... بكاه أسى في قبره وتفجعا
ومن عجب أن ينزل الموت داره ... وقد كان لا يلقاه إلا مروعاً

ليبك التقى منه منار هداية وتنعى الوغى منه كميا سميذعا

وإن يبكه الإسلام وجدا وحسرة فقد كان للإسلام حصناً ومفزعا

لقد صرع الإسلام ساعة قتله فيا مصرع الإسلام عظمت مصرعا

ويا رب دمع كان صعبا قياده فأصبح منقاداً ليومك طيعا

فاطمة الزهراء

بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين عليها السلام

أمها خديجة بنت خويلد أم المؤمنين وكانت أصغر بنات رسول الله ﷺ وأحبهن إليه وانقطع نسل رسول الله ﷺ إلا من فاطمة ولم يخلف ﷺ من بنيه غيرها، وتتضمن سيرتها الشريفة ذكر مولدها وكنيتها ولقبها ونقش خاتمها وبوابها وصفتها ومناقبها وفضائلها وأخبارها، وتزويجها بعلي عليهما السلام، ومحل بيتها وخبر فدك وسهم ذوي القربى وميراث رسول الله ﷺ، وخطبها بعد وفاة أبيها ﷺ وما جرى لها بعده، وتاريخ وفاتها، ومدة عمرها، وحزنها بعد أبيها، وأوقافها وصدقاتها، ووصيتها ومصحفها، وما أثر عنها من النثر والنظم.

مولدها

ولدت بمكة يوم الجمعة العشرين من جمادى الآخرة بعد المبعث بسنتين، قاله الشيخ الطوسي في مصباح المتهجد قال وفي رواية أخرى سنة خمس من المبعث وقال الكليني و ابن شهراشوب: ولدت بعد المبعث بخمس سنين، وهو المروي عن الباقر (ع) وهو المشهور بين أصحابنا. وفي كشف الغمة عن ابن الخشاب في مواليد ووفيات أهل البيت مرفوعاً عن الباقر (ع) إنها ولدت بعد النبوة بخمس سنين وقريش تبني البيت ولعله اشتباه من الراوي أو سهو من النساخ، فبناء الكعبة كان قبل النبوة لا بعدها ويدل عليه ما في مقاتل الطالبيين

أنها ولدت قبل النبوة وقريش تبني الكعبة. وروى الحاكم في المستدرك وابن عبد البر في الاستيعاب أنها ولدت سنة إحدى وأربعين من مولد النبي ﷺ أي بعد البعثة بسنة. وفي الإصابة ولدت بعد البعثة بسنة. وأكثر علماء أهل السنة تروي أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنين ولعله وقع اشتباه من الرواة بين كلمتي قبل وبعد.

كنيتها ولقبها

كانت تكنى أم أبيها وتلقب بالزهراء وبالبتول، قال الهروي في شرح الغريبين سميت مريم بتولاً لأنها تبتلت عن الرجال وسميت فاطمة بتولاً لأنها تبتلت عن النظير «انتهى».

نقش خاتمها

أَمِنَ المتوكلون.

بوابها

فِضّة أمَتها.

صفتها

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أنس بن مالك وابن شهراشوب في المناقب عنه قال: سألت أمي عن صفة فاطمة (ع) فقالت: كانت كأنها القمر ليلة البدر أو الشمس كفرت غماماً أو خرجت من السحاب، وكانت بيضاء بضة، أشد الناس برسول الله ﷺ شبهاً، وعن عطاء ابن أبي رباح كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تعجن وإن قصبتها[1] تضرب إلى الجفنة. وفي كشف الغمة أن بعض الوعاظ ذكر فاطمة (ع) وما وهبها الله تعالى من المزايا والفضائل واستخفه الطرب فأنشد:

(١) القصبة الخصلة الملتوية من الشعر. ـ المؤلف ـ

خجلاً من نور بهجتها   تتوارى الشمس بالشفق
وحياء من شمائلها   يستغطي الغصن بالورق

فشق كثير من الناس ثيابهم وأوجب وصفها بكاءهم وانتحابهم (وروى) ابن عبد البر في الاستيعاب بأسانيده عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً (وفي رواية) سمتاً وهدياً ودلاً برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها ورحب بها كما كانت تصنع هي به، وفي رواية لأبي داود كان إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكانت إذا دخل عليها قامت إليه فأخذت بيده فقبلته وأجلسته في مجلسها، (وروى) الحاكم في المستدرك بسنده عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة برسول الله ﷺ، وكانت إذا دخلت عليه رحب بها وقام إليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (وبسنده) عن عائشة ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها ورحب بها وأخذ بيدها فأجلسها في مجلسه، وكانت هي إذا دخل عليها قامت إليه مستقبلة وقبلت يده. وقال صحيح على شرط الشيخين (وجاء) في عدة روايات أن فاطمة (ع) أقبلت تمشي ما تخطىء مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئاً (وفي كشف الغمة) عن أم سلمة أم المؤمنين قالت: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ أشبه الناس وجهاً برسول الله ﷺ.

مناقبها وفضائلها قول النبي ﷺ أنها بضعة مني أو شجنة[1] مني

روى البخاري في صحيحه بسنده أن رسول الله ﷺ قال: **«فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»** (وروى) النسائي في الخصائص بسنده عن المسور بن مخرمة أن النبي ﷺ قال: **«فاطمة بضعة مني من أغضبها أغضبني»**.

---

(١) الشجنة الشعبة من كل شيء ـ المؤلف ـ.

وروى مسلم في صحيحه في حديث إنما فاطمة: **«بضعة مني يؤذيني ما آذاها»**. وفي رواية لمسلم: **«إنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها»**. وفي الإصابة عن الصحيحين عن المسور بن مخرمة سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: **«فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها ويريبني ما رابها»**، (وروى) أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده عن المسور بن مخرمة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إنما فاطمة ابنتي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها»** وقال رواه عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن المسور ورواه أيوب السختياني عن ابن أبي مليكة عن عبد الله ابن الزبير نحوه. وعن صحيح الترمذي: **«إنها بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها»** هذا حديث حسن صحيح. وعن صحيح الترمذي: **«إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها وينصبني ما أنصبها»** هذا حديث حسن صحيح. وفي الشفا: **«إنها بضعة مني يغضبني ما يغضبها»**، وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن المسور بن مخرمة قال رسول الله ﷺ: **«إنما فاطمة شجنة مني يبسطني ما يبسطها ويقبضني ما يقبضها»** وقال صحيح (وبسنده) عن المسور أنه بعث إليه حسن بن حسن يخطب ابنته فقال: ما من نسب ولا سبب أحب إلي من نسبكم وسببكم وصهركم ولكن رسول الله ﷺ قال: **«فاطمة بضعة أو مضغة مني يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها وإن الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وسببي وصهري وعندك ابنتها ولو زوجتك لقبضها ذلك»** فانطلق عاذراً له وقال هذا حديث صحيح، وروى أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني أن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط دخل على عمر بن عبد العزيز وهو حدث السن وله وقار وتمكين فرفع عمر مجلسه وأكرمه وقضى حوائجه فسئل عمر عن ذلك فقال: إن الثقة حدثني حتى كأني أسمع من في رسول الله ﷺ أنه قال: **«إنما فاطمة بضعة مني يسرني ما يسرها ويغضبني ما يغضبها»** فعبد الله بضعة من بضعة رسول الله ﷺ.

شدة حب النبي ﷺ فاطمة

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي ثعلبة الخشني: كان

رسول الله ﷺ إذا رجع من غزاة أو سفر أتى المسجد فصلى فيه ركعتين ثم ثنى بفاطمة ثم يأتي أزواجه (وبسنده) عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان إذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة، وإذا قدم من سفر كان أول الناس به عهداً فاطمة. وروى ابن شهراشوب في المناقب بعدة أسانيد عن عائشة أن علياً قال للنبي ﷺ لما جلس بينه وبين فاطمة وهما مضطجعان: أينا أحب إليك أنا أو هي؟ قال: «**هي أحب إلي وأنت أعز علي**». ولا يمكن أن يكون جواب أحسن من هذا عند السؤال عن منزلة علي وفاطمة عند الرسول ﷺ ففاطمة أحب إليه حب حنان وشفقة ورأفة وعلي أعز عليه عزة فضل ومكانة.

أحب النساء إليه ﷺ فاطمة

في الاستيعاب بسنده سئلت عائشة: أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ قالت: فاطمة قلت: فمن الرجال قالت: زوجها إن كان ما علمته صواماً قواماً، ورواه الحاكم في المستدرك بسنده عن جميع بن عمير وصححه دخلت مع عمتي على عائشة فسئلت أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ وذكر مثله، ورواه الترمذي أيضاً.

زهدها عليها السلام

روى الحاكم في المستدرك بسنده أن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة وقد أخذت من عنقها بسلسلة من ذهب فقالت: هذه أهداها إلي أبو حسن فقال رسول الله ﷺ: «**يا فاطمة أيسرك أن يقول الناس فاطمة بنت محمد وفي يدك سلسلة من نار**» ثم خرج ولم يقعد فعمدت فاطمة إلى السلسلة فاشترت غلاماً فأعتقته فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار**» قال صحيح على شرط الشيخين. وروى أحمد بن حنبل في مسنده عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة، وأول من يدخل عليه إذ قدم فاطمة، فقدم من غزاة فأتاها فإذا بمسح على بابها «وهو كساء معروف» ورأى على الحسن والحسين قُلْبين (أي سوارين)

من فضة فرجع ولم يدخل عليها فظنت أنه من أجل ما رأى فهتكت الستر ونزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما فبكى الصبيان فقسمته بينهما فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان فأخذه منهما وقال: **«يا ثوبان اذهب بهذا إلى بني فلان واشتر لفاطمة قلادة من عصب»** «وهو سن دابة بحرية» **«وسوارين من عاج فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»**. (قال): وعن جعفر بن محمد عن أبيه: قدم على رسول الله ﷺ قوم عراة بالروم فدخل على فاطمة وقد سترت ستراً قال: **«أيسرك أن يسترك الله يوم القيامة فأعطينيه»** فأعطته فخرج به فشقه لكل إنسان ذراعين في ذراع.

صدق لهجتها

في الاستيعاب بسنده عن عائشة ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذي ولدها ﷺ. وروى أبو نعيم في الحلية بسنده عن عائشة ما رأيت أحداً قط أصدق من فاطمة غير أبيها.

مناقب أهل البيت آية التطهير وحديث الكساء

قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

نزلت في علي وفاطمة وابنيهما. روى الواحدي في أسباب النزول بسنده عن أبي سعيد قال: نزلت في خمسة في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وفي الإصابة قالت أم سلمة: في بيتي نزلت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال: هؤلاء أهل بيتي «الحديث» أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم «اه» أقول: الذي في المستدرك وتلخيصه صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وفي الدر المنثور: أخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت في بيتي نزلت:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم ﷺ بكساء كان عليه ثم قال: **«هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»**. وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي إنما يريد الله الآية وفي البيت سبعة جبريل ومكائيل وعلي وفاطمة والحسن والحسين وأنا على باب البيت قلت: يا رسول الله ألست من أهل البيت قال: **«إنك إلى خير إنك من أزواج النبي ﷺ»** وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان ببيتها على منامة له عليه كساء خيبري فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة فقال رسول الله ﷺ: **«ادعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً»** فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فأخذ النبي ﷺ بفضلة إزاره فغشاهم إياه ثم أخرج يده من الكساء وأومأ إلى السماء ثم قال: **«اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»** قالها ثلاث مرات قالت أم سلمة: فأدخلت رأسي في الستر فقلت: يا رسول الله وأنا معكم؟ فقال: إنك إلى خير مرتين. ورواه في أسد الغابة بسنده عن أم سلمة نحوه. وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن واثلة بن الأسقع: أتيت علياً (ع) فلم أجده، فقالت لي فاطمة: انطلق إلى رسول الله ﷺ يدعوه فجاء مع رسول الله ﷺ فدخلا ودخلت معهما فدعا رسول الله ﷺ الحسن والحسين فأقعد كل واحد منهما على فخذيه وأدنى فاطمة من حجره وزوجها ثم لف عليهم ثوباً وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، ثم قال: **«هؤلاء أهل بيتي اللهم أهل بيتي أحق»**. هذا حديث صحيح على شرط الشيخين (وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن عامر ابن سعد عن سعد: نزل على رسول الله ﷺ الوحي فأدخل علياً وفاطمة وابنيهما تحت ثوبه ثم قال: **«اللهم هؤلاء أهلي أهل بيتي»** (وبسنده) عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: لما نظر رسول الله ﷺ إلى الرحمة هابطة قال: **«ادعوا لي ادعوا لي»** فقالت صفية: من يا رسول الله قال:

«أهل بيتي علي وفاطمة والحسن والحسين» فجيء بهم فألقى عليهم النبي ﷺ كساءه ثم رفع يديه ثم قال: **«اللهم هؤلاء آلي فصل على محمد وعلى آل محمد»**. وأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال: هذا حديث صحيح الإسناد وقد صحت الرواية على شرط الشيخين أنه علمهم الصلاة على أهل بيته كما علمهم الصلاة على آله. وفي الدر المنثور: أخرج الطبراني عن أم سلمة قالت: جاءت فاطمة إلى أبيها بثريدة لها تحملها في طبق لها حتى وضعتها بين يديه فقال لها: أين ابن عمك قالت: هو في البيت قال: اذهبي فادعيه وابنيك فجاءت تقود ابنيها كل واحد منهما في يد وعلي يمشي في أثرهما حتى دخلوا على رسول الله ﷺ فأجلسهما في حجره وجلس علي عن يمينه وجلست فاطمة عن يساره قالت أم سلمة: فأخذت من تحتي كساء كان بساطنا على المنامة في البيت (أقول) هكذا في النسخة ولعل الصواب فأخذ ولم تذكر ما صنع بالكساء والظاهر أنه جللهم به وقال ما تقدم وترك ذكر ذلك إحالة على ما مر. قال: وأخرج الطبراني عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: **«ائتيني بزوجك وابنيك»** فجاءت بهم فألقى رسول الله ﷺ كساء فدكياً ثم وضع يده عليهم ثم قال: **«اللهم إن هؤلاء أهل محمد وفي لفظ آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد قالت أم سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي وقال: إنك على خير. وأخرج ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: كان يوم أم سلمة أم المؤمنين فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه الآية إنما يريد الله الآية فدعا رسول الله ﷺ بحسن وحسين وفاطمة وعلي فضمهم إليه ونشر عليهم الثوب، والحجاب على أم سلمة مضروب ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»** قالت أم سلمة: فأنا معهم يا نبي الله فقال: أنت على مكانك وإنك على خير. وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم «وقال صحيح على شرط الشيخين» عن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ غداة

وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معهما ثم جاء علي فأدخله معهم ثم قال: «**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**» وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه عن سعد قال: نزل على رسول الله ﷺ الوحي فأدخل علياً وفاطمة وابنيهما تحت ثوبه ثم قال: «**اللهم هؤلاء أهلي وأهل بيتي**» وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن واثلة بن الأسقع قال: جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة ومعه حسن وحسين وعلي حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة فأجلسهما بين يديه وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد على فخذه ثم لف عليهم ثوبه وأنا مستدبرهم ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾. وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: «**الصلاة يا أهل البيت الصلاة إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس**». وروى الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر يقول: «**الصلاة يا أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**» وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري: لما دخل علي بفاطمة جاء النبي ﷺ أربعين صباحاً إلى بابها يقول: «**السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، الصلاة رحمكم الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس، أنا حرب لمن حاربكم أنا سلم لمن سالمتم**» وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء: حفظت من رسول الله ﷺ ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلا أتى إلى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال: الصلاة الصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ «الآية». وأورده ابن خالويه في كتاب الآل عن نافع بن أبي الحمراء نحوه. وفي الدر المنثور: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب

عند وقت كل صلاة فيقول: «**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا، الصلاة رحمكم الله**» كل يوم خمس مرات. وأخرج الطبراني عن أبي الحمراء رأيت رسول الله ﷺ يأتي باب علي وفاطمة ستة أشهر فيقول: إنما يريد الله «الآية». وفي كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي: أسند يحيى عن أبي الحمراء شهدت رسول الله ﷺ أربعين صباحاً يجيء إلى باب علي وفاطمة وحسن وحسين حتى يأخذ بعضادتي الباب ويقول: السلام عليكم أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ «الآية». قال وفي رواية له رابطت بالمدينة سبعة أشهر كيوم واحد وكان رسول الله ﷺ يأتي باب علي كل يوم وفي رواية عند صلاة الصبح فيقول: «**الصلاة الصلاة**» ثلاث مرات ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ «الآية». وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: «**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**» قال: هم أهل بيت طهرهم الله من السوء واختصهم برحمته. قال: وحدث الضحاك بن مزاحم أن نبي الله كان يقول: «**نحن أهل بيت طهرهم الله من شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وبيت الرحمة ومعدن العلم**» «اهـ» الدر المنثور. قال علي القاري في شرح الشفا للقاضي عياض بعد ذكر الآية: أراد بأهل البيت نساء النبي ﷺ لأنهن في بيته وروي ذلك عن ابن عباس، قال وعن أبي سعيد الخدري وجماعة من التابعين أنهم علي وفاطمة والحسن والحسين قال: ولا منع من الجمع وأما تخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما لما ورد أنه عليه الصلاة والسلام خرج غداة يوم وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله فيه ثم الحسين فأدخله ثم فاطمة فأدخلها ثم علي فأدخله ثم قال: «**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**» واحتجاجهم على عصمتهم وكون إجماعهم حجة فمردود بأن تخصيصهم بكونهم أهل البيت يكذبه ما قبل الآية وما بعدها والحديث إنما هو مؤذن بأنهم من أهله لا أن غيرهم ليس بأهله «اهـ».

أقول: الجمع الذي أشار إليه بقوله: ولا منع من الجمع يرده صريح ما

حكاه عكرمة عن ابن عباس من أنها نزلت في نساء النبي خاصة وقوله: إنما هو نساء النبي بصيغة الحصر فالجمع بما ذكر غير ممكن على أن قوله: **«هؤلاء أهل بيتي»** كالنص في انحصار أهل البيت فيهم فإنه بمنزلة الجمع المضاف المفيد للعموم كقولنا: هؤلاء علماء البلد ولو أراد ما ذكر لقال: هؤلاء من أهل بيتي وإرادة البعض بهذا اللفظ سمج مستهجن فهو بمنزلة التفسير للآية وكذا ما في رواية الخدري من أنها نزلت في خمسة فإن مفهوم العدد الوارد في مقام البيان يمنع من إرادة الأزيد ولو لم نقل به في غيره على أن قول أم سلمة: ألست من أهل البيت أو أنا معكم أو معهم وقوله ﷺ لها: **«إنك إلى خير إنك من أزواج النبي ﷺ أو أنت على مكانك وإنك إلى خير»** ورفعها الكساء لتدخل معهم وجذبه من يدها وقوله: **«إنك على خير»** نص صريح في خروج النساء من أهل البيت فبطل قول القاري أن الحديث إنما هو مؤذن بأنهم من أهله لا أن غيرهم ليس بأهله وحيث ظهر أنه لا يمكن الجمع فإما أن نقول إن المراد النساء خاصة كما قاله عكرمة وعروة أو الخمسة خاصة كما في باقي الروايات والأول باطل لانفرادهما به فلا يعارض الروايات الكثيرة المستفيضة التي رواها مشاهير علماء الإسلام ورواتهم وأودعوها كتبهم المشهورة المعتمدة كما سمعت على أن عكرمة حكي عنه أنه كان يرى رأي الخوارج وعروة منحرف عن علي (ع) وأهل بيته مع أن الظاهر أن ذلك رأي رأياه ولعلهما أخذاه من كون الآيات قبلها وبعدها في نساء النبي فلا يعارض الروايات المروية عن النبي ﷺ مع أن اختصاصها بالأزواج كما يقولان ينافيه تذكير الضمير وأما كون ما قبل الآية وبعدها في الأزواج فلا يضر لوجوب رفع اليد عن هذا الظهور لو فرض بتذكير الضمير وما دل من الروايات على خروج النساء كما عرفت إذ النص مقدم على الظاهر ومراعاة السوق في القرآن الكريم غير لازمة وكون ترتيبه على ترتيب نزوله غير معلوم لو لم يكن معلوم العدم ويدل على خروج الأزواج من أهل البيت مضافاً إلى ذلك أحاديث الثقلين الآتية في الجزء الثالث في أدلة إمامة أمير المؤمنين (ع) فإن فيها أنه سئل زيد بن أرقم فقيل له: أليس نساؤه من أهل بيته فأجاب منكراً

ذلك: نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. وفي رواية أخرى فقلنا من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا لأن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده وقد بينا ذلك مفصلاً في كتاب إقناع اللائم على إقامة المآتم.

حديث الثقلين

روى الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين بسنده عن زيد بن أرقم قال رسول الله ﷺ: **«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»** وسيأتي الكلام على أحاديث الثقلين بأبسط من هذا في سيرة أمير المؤمنين (ع) في الجزء الثاني.

ومن مناقب أهل البيت عليهم السلام

ما رواه الحاكم في المستدرك وقال حسن صحيح على شرط مسلم بسنده عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: **«يا بني عبد المطلب إني سألت الله لكم ثلاثاً أن يثبت قائمكم وأن يهدي ضالتكم وأن يعلم جاهلكم وسألت الله أن يجعلكم جوداء نجداء رحماء فلو أن رجلاً صفن بين الركن والمقام فصلى وصام ثم لقي الله وهو مبغض لأهل بيت محمد دخل النار»**. وبسنده من رواية أحمد بن حنبل عن أبي هريرة: نظر النبي ﷺ إلى علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال: **«أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم»**.

وبسنده عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ أنه قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام: **«أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم»**.

وبسنده عن ابن عباس وصححه قال رسول الله ﷺ **«أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي»**.

وبسنده عن أبي سعيد الخدري وصححه على شرط مسلم قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار»** (وفي رواية) إلا أكبه الله في النار.

وبسنده عن عمر بن سعيد الأبح عن سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة عن أنس قال رسول الله ﷺ: **«وعدني ربي في أهل بيتي من أقر منهم بالتوحيد ولي بالبلاغ أن لا يعذبهم»**. قال الحاكم: قال عمر بن سعيد الأبح ومات سعيد ابن أبي عروبة يوم الخميس وكان حدث بهذا الحديث يوم الجمعة مات بعده بسبعة أيام في المسجد فقال قوم لا جزاك الله خيراً صاحب رفض وبلاء وقال قوم جزاك الله خيراً صاحب سنة وجماعة أديت ما سمعت. هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وبسنده عن عامر بن سعد عن أبيه وقال صحيح على شرط الشيخين لما نزلت هذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: **«اللهم هؤلاء أهلي»**.

وبسنده عن حنش الكناني سمعت أبا ذر يقول وهو آخذ بباب الكعبة من عرفني فأنا من عرفني ومن أنكرني فأنا أبو ذر سمعت النبي ﷺ يقول: **«ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من قومه من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق أو هلك»**.

وفي وفاء الوفا عن علي (ع): زارنا النبي ﷺ فبات عندنا والحسن والحسين نائمان واستسقى الحسن فقام النبي ﷺ إلى قربة لنا فجعل يعصرها في القدح ثم جعل يعبعبه فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن فقالت له فاطمة يا رسول الله كأنه أحب إليك قال: **«إنما استسقى أولاً»** ثم قال رسول الله ﷺ: **«إني وإياك وهذان وهذا الراقد يعني علياً يوم القيامة في مكان واحد»**. قال وعن أبي سعيد الخدري مثله.

وروى الكليني في الكافي بسنده عن الصادق (ع) قال لما جاءت فاطمة تشكو إلى رسول الله ﷺ بعض أمرها أعطاها كَرِبَة (وهي أصل السعفة العريض الغليظ كانوا يكتبون عليه) فقال: **«تعلمي ما فيها فإذا فيها من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت»**.

أخبارها

من أخبارها بمكة ما مر في السيرة النبوية عند ذكر استجابة دعائه عليه السلام أنه لما ألقت قريش سلا الجزور على ظهره وهو ساجد جاءت فاطمة فطرحته عنه. وهاجرت إلى المدينة بعد هجرة أبيها بلا فصل حين بعث عليه السلام إلى علي أن يهاجر بها والفواطم وأراده صاحبه على دخول المدينة فقال: «**ما أنا بداخلها حتى يأتي أخي وابنتي**». ومن أخبارها بالمدينة أنه لما جرح النبي ﷺ يوم أحد جعل علي ينقل له الماء في درقته من المهراس ويغسله فلم ينقطع الدم فأتت فاطمة وجعلت تعانقه وتبكي وأحرقت حصيراً وجعلت على الجرح من رماده فانقطع الدم «وفي رواية» أنه عليه السلام لما انصرف إلى المدينة استقبلته فاطمة ومعها إناء فيه ماء فغسل وجهه وأنه عليه السلام دفع إليها سيفه وقال: «**اغسلي عن هذا دمه يا بنية**» وأن علياً ناولها سيفه وقال وهذا فاغسلي عنه فوالله لقد صدقني اليوم وأن الرسول ﷺ قال لها: «**خذيه يا فاطمة فقد أدى بعلك ما عليه**» كما مر في وقعة أحد واختصها النبي ﷺ بذلك ولم يعط سيفه بعض أزواجه وهن كثيرات ومدح علياً عليه السلام بالشجاعة أمامها لتسر بشجاعة بعلها.

ومن أخبارها يوم مؤتة لما قتل ابن عمها جعفر أن النبي ﷺ دخل عليها وهي تقول: واعماه فقال: «**على مثل جعفر فلتبك الباكية أو البواكي**». وخرجت مع أبيها وبعلها يوم فتح مكة وضربت للنبي ﷺ قبة بأعلى الوادي وجلس فيها يغتسل وفاطمة تستره وذهب علي إلى بيت أخته أم هاني حين بلغه أنها آوت أناساً من بني مخزوم أقرباء زوجها فلم تعرفه أم هانىء لأنه مقنع بالحديد وقالت له يا عبد الله أنا أم هانىء ابنة عم رسول الله وأخت علي بن أبي طالب انصرف عن داري فقال أخرجوا من آويتم فقالت والله لأشكونك إلى رسول الله فنزع المغفر فعرفته وقالت فديتك حلفت لأشكونك إلى رسول الله فقال اذهبي فبري قسمك فجاءت فأخبرته فقال قد أجرت من أجرت فقالت فاطمة منتصرة لبعلها: إنما جئت يا أم هانيء تشكين علياً في أنه أخاف أعداء الله وأعداء رسوله فقال

رسول الله ﷺ: **«لقد شكر الله لعلي سعيه»** وأجرت من أجارت أم هانيء لمكانها من علي فجمع ﷺ بمكارم أخلاقه بين حفظ شأن علي وإكرام أم هانيء لأجله. وقد مر من أخبارها ما جرى لها في مرض أبيها الذي توفي فيه وما قالته في ندبه وغير ذلك.

تزويج الزهراء بعلي عليهما السلام

في كشف الغمة روي عن أبي عبد الله (ع) أنه قال لولا أن الله تبارك وتعالى خلق أمير المؤمنين لفاطمة ما كان لها كفؤ على وجه الأرض (قال) وروى صاحب كتاب الفردوس عن النبي ﷺ: **«لولا علي لم يكن لفاطمة كفوء»** وفي مناقب ابن شهراشوب قد اشتهر في الصحاح بالأسانيد عن أمير المؤمنين وابن عباس وابن مسعود وجابر الأنصاري وأنس بن مالك والبراء بن عازب وأم سلمة بألفاظ مختلفة ومعان متفقة أن أبا بكر وعمر خطبا إلى النبي ﷺ فاطمة مرة بعد أخرى فردهما. وروى أحمد في الفضائل عن بريدة أن أبا بكر وعمر خطبا إلى النبي ﷺ فاطمة فقال إنها صغيرة. وروى محمد بن سعد كاتب الواقدي في الجزء الثامن من الطبقات الكبير بسنده أن أبا بكر خطب فاطمة إلى النبي ﷺ فقال: **«انتظر بها القضاء»** فذكر ذلك لعمر فقال له ردك ثم أن أبا بكر قال لعمر إخطب فاطمة إلى النبي ﷺ فخطبها فقال له مثل ما قال لأبي بكر انتظر بها القضاء فأخبر أبا بكر فقال له ردك (الحديث) (وبسنده) عن بريدة أنه قال نفر من الأنصار لعلي عندك فاطمة فأتى رسول الله ﷺ فسلم عليه فقال ما حاجة ابن أبي طالب قال ذكرت فاطمة بنت رسول الله ﷺ قال مرحباً وأهلاً لم يزده عليهما فخرج على أولئك الرهط وهم ينتظرونه قالوا ما وراءك قال ما أدري غير أنه قال لي مرحباً وأهلاً قالوا يكفيك من رسول الله إحداهما أعطاك الأهل أعطاك المرحب «الحديث». (وروى) ابن سعد بسنده خطب علي فاطمة فقال لها رسول الله ﷺ: **«إن علياً يذكرك فسكتت فزوجها»** (وفي البحار) عن الضحاك أن النبي ﷺ قال لفاطمة: **«إن علي بن أبي طالب ممن قد عرفت قرابته وفضله**

في الإسلام وإني سألت ربي أن يزوجك خير خلقه وأحبهم إليه وقد ذكر من أمرك شيئاً فما ترين» فسكتت فخرج وهو يقول: **«الله أكبر سكوتها إقرارها»**.

خطبة النبي ﷺ عند تزويجه فاطمة من علي عليهما السلام

في مناقب ابن شهراشوب خطب رسول الله ﷺ على المنبر في تزويج فاطمة خطبة رواها يحيى بن معين في أماليه وابن بطة في الإنابة بإسنادهما عن أنس بن مالك مرفوعاً قال ورويناها عن الرضا (ع) (أقول) هي في رواية المناقب أخصر فنذكرها برواية كشف الغمة وهي:

«الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته المطاع بسلطانه المرهوب من عذابه المرغوب إليه فيما عنده النافذ أمره في أرضه وسمائه الذي خلق الخلق بقدرته وميزهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ ثم إن الله جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وأمراً مفترضاً وشج بها الأرحام وألزمها الأنام فقال تبارك اسمه وتعالى جده ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾ وكان ربك قديراً فأمر الله يجري إلى قضائه وقضاؤه يجري إلى قدره فلكل قضاء قدر ولكل قدر أجل ولكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. ثم إني أشهد أني قد زوجت فاطمة من علي» «وفي رواية المناقب» **«ثم إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من علي وقد زوجتها إياه على أربعمائة مثقال فضة أرضيت قال رضيت يا رسول الله ثم خر لله ساجداً فقال النبي ﷺ: جعل الله فيكما الكثير الطيب وبارك فيكما»**. قال أنس: بارك الله عليكما وأسعد جدكما وجمع بينكما وأخرج منكما الكثير الطيب. قال أنس: والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب.

خطبة علي عند تزويجه بفاطمة عليهما السلام

عن ابن مردويه أن النبي ﷺ قال لعلي تكلم خطيباً لنفسك فقال: الحمد لله الذي قرب من حامديه ودنا من سائليه ووعد الجنة من يتقيه وأنذر بالنار من يعصيه، نحمده على قديم إحسانه وأياديه حمد من يعلم أنه خالقه وباريه ومميته ومحييه وسائله عن مساويه ونستعينه ونستهديه ونؤمن به ونستكفيه، ونشهد أن لا

إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبلغه وترضيه وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ صلاة تزلفه وتحظيه وترفعه وتصفيه، وهذا رسول الله ﷺ زوجني ابنته فاطمة على خمسمائة درهم فاسألوه واشهدوا قال رسول الله ﷺ: «**قد زوجتك ابنتي فاطمة على ما زوجك الرحمن وقد رضيت بما رضي الله فنعم الختن**[1] **أنت ونعم الصاحب أنت وكفاك برضى الله رضى**» ثم أمر النبي ﷺ بطبق بُسر[2] أو تمر وأمر بنهبه، والروايات مختلفة في قدر مهر الزهراء (ع) وجنسه والصواب أنه كان خمسمائة درهم اثنتي عشرة أوقية ونصف الأوقية أربعون درهماً لأنه مهر السنة كما ثبت من طريق أهل البيت عليهم السلام، وما كان رسول الله ﷺ ليعدوه في تزويج علي بفاطمة، وتدل عليه روايات كثيرة. وفي رواية ابن سعد في الطبقات كان صداق بنات رسول الله ﷺ ونسائه خمسمائة درهم اثنتي عشرة أوقية ونصفاً أما ما دل على أنه أربعمائة مثقال كالخطبة السابقة فهو يقتضي أن يكون أكثر من خمسمائة درهم لأن كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم فالخمسمائة درهم تبلغ ثلاثمائة وخمسين مثقالاً لا أربعمائة إلا أن يكون للمثقال أو الدرهم وزناً آخر غير المشهور، (وقيل) إنه كان أربعمائة وثمانين درهماً حكاه في الاستيعاب ويدل عليه قول الحسين (ع) في خبر خطبة مروان أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ليزيد ابن معاوية: لو أردنا ذلك ما عدونا سنة رسول الله ﷺ في بناته ونسائه وأهل بيته وهو اثنتا عشرة أوقية يكون أربعمائة وثمانين درهماً، وقوله قد زوجتها من ابن عمها القاسم على أربعمائة وثمانين درهماً، (وفي رواية) أن علياً (ع) باع بعيراً له بذلك المقدار، وفي رواية أن المهر كان درع حديد وهي التي تسمى الحطمية[3] فباعها بهذا المقدار، «وفي رواية» أنه كان درع حديد وبرداً خلقاً. وتدل بعض الأخبار على أن الدرع والبرد لم يكونا مهراً

---

(١) الختن بفتحتين زوج البنت وهذه الرواية تنفي ما قاله أهل اللغة من أنه عند العرب كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ وأنه عند العامة زوج البنت.

(٢) البسر بالضم ثمر النخيل قبل أن يصير رطباً. ـ المؤلف ـ

(٣) منسوبة إلى حطم بضم الحاء وفتح الطاء ابن محارب وكان يعمل الدروع.

بل بيعا لذلك. (وروى) الصدوق في عيون أخبار الرضا بسنده عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن آبائه عليهم السلام عن علي (ع) قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا علي لقد عاتبني أرجال من قريش في أمر فاطمة وقالوا خطبناها إليك فمنعتنا وزوجت علياً فقلت لهم ما أنا منعتكم وزوجته بل الله منعكم وزوجه**» (الحديث). قال ابن عبد البر في الاستيعاب إن رسول الله ﷺ قال لها: «**زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة وأنه لأول أصحابي إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً**» ذكر ذلك في ترجمة علي (ع).

ثم إن علياً (ع) أتى بالدراهم فصبها بين يدي رسول الله ﷺ فقبض منها قبضة فأعطاها بلالاً وقال ابتع لفاطمة طيباً، وفي الاستيعاب أمر ﷺ أن يجعل ثلثها في الطيب، وفي رواية لابن سعد ثلثين في الطيب وثلثاً في الثياب ثم قبض منها بكلتا يديه فأعطاه أبا بكر وقال ابتع لفاطمة ما يصلحها من ثياب وأثاث البيت وأردفه بعمار وعدة من أصحابه فكانوا يعرضون الشيء على أبي بكر فإن استصلحه اشتروه وقبض قبضة كانت ثلاثة وستين أو ستة وستين فأعطاها أم أيمن لمتاع البيت ودفع الباقي إلى أم سلمة فقال أبقيه عندك فكان مما اشتروه:

جهاز الزهراء (ع) عند زفافها

قميص بسبعة دراهم وخمار بأربعة دراهم وقطيفة[1] سوداء خيبرية وسرير مزمل[2] بشريط[3] وفراشان من خيش[4] مصر حشو أحدهما ليف وحشو الآخر من صوف الغنم وأربع مرافق[5] من أدم[6] الطائف حشوها أذخر[7] وستر رقيق

(١) القطيفة دثار له حمل.
(٢) ملفوف.
(٣) الشريط خوص مفتول يشرط به السرير ونحوه.
(٤) الخيش ثياب في نيجها رقة وخيوطها غلاظ من مشاقة الكتان.
(٥) جمع مرفقة وهي ما يتكأ عليها وتوضع تحت المرفق.
(٦) بفتحتين أو ضمتين جمع أديم وهو الجلد.
(٧) نبات طيب الرائحة.

من صوف وحصير هجري[1] ورحى لليد ومخضب[2] من نحاس وهو إناء تغسل فيه الثياب وسقاء[3] من أدم وقعب[4] للبن وشن[5] للماء ومطهرة[6] مزفتة وجرة خضراء وكيزان خزف ونطع[7] من أدم وعباءة قطوانية[8] وقربة ماء.

فلما عرض ذلك على رسول الله ﷺ جعل يقلبه بيده ويقول بارك الله لأهل البيت، وفي رواية أنه لما وضع بين يديه بكى ثم رفع رأسه إلى السماء وقال اللهم بارك لقوم جل آنيتهم الخزف.

تجهيز علي (ع) عند زفاف فاطمة (ع) إليه

وكان من تجهيز علي داره انتشار رمل لين ونصب خشبة من حائط إلى حائط للثياب وبسط أهاب كبش ومخدة ليف، وفي رواية ابن سعد عن بعض من حضر إهداء فاطمة من النساء قالت فدخلنا بيت علي فإذا أهاب شاة على دكان (مصطبة) ووسادة فيها ليف وقربة ومنخل ومنشفة وقدح فلما كان بعد شهر أو تسعة وعشرين يوماً قال جعفر[9] وعقيل أو عقيل وحده لعلي ألا تسأل رسول الله ﷺ أن يدخل عليك أهلك قال الحياء يمنعني قال أقسمت عليك إلا قمت معي فقاما فلقيا أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ فذكرا لها ذلك فدخلت إلى أم سلمة فأعلمتها وأعلمت نساء النبي ﷺ فاجتمعن عند رسول الله ﷺ وقلن

---

(١) منسوب إلى هجر بلدة بالبحرين وفي رواية قطري منسوب إلى قطر قرية بالبحرين.
(٢) كمنبر ويقال له مركن وإجانة.
(٣) السقاء جلد السخل يكون للماء واللبن.
(٤) قدح من خشب.
(٥) الشن بالفتح السقاء الخلق وهو أشد تبريداً للماء من الجديد.
(٦) إناء يتطهر به ولعلها كانت من ورق النخل وطليت بالزفت.
(٧) بساط من جلد.
(٨) بالتحريك وهي عباءة بيضاء قصيرة الخمل نسبة إلى قطران موضع بالكوفة.
(٩) هكذا في رواية ابن مردويه وسيأتي أيضاً أن جعفراً رضوان الله عليه كان في جملة الذين زفوا فاطمة إلى علي عليهما السلام كما يأتي أن أسماء بنت عميس حضرت زفاف فاطمة عليها السلام ولا يصح ذلك لأن جعفراً كان في ذلك الوقت بالحبشة ومعه زوجته أسماء بنت عميس في زفاف فاطمة اشتباه والصواب أسماء بنت يزيد بن السكن كما سيأتي. ـ المؤلف ـ

فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله إنا قد اجتمعنا لأمر لو كانت خديجة في الأحياء لقرت عينها، قالت أم سلمة فلما ذكرنا خديجة بكى رسول الله ﷺ فقال: **«خديجة وأين مثل خديجة صدقتني حين كذبني الناس ووازرتني على دين الله وأعانتني عليه بمالها إن الله عز وجل أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب الزمرد لا صخب فيه ولا نصب»** قالت أم سلمة فديناك بآبائنا وأمهاتنا إنك لم تذكر من خديجة أمراً إلا وقد كانت كذلك غير أنها قد مضت إلى ربها فهنأها الله بذلك وجمع بيننا وبينها في جنته يا رسول الله هذا أخوك وابن عمك في النسب علي بن أبي طالب يحب أن تدخل عليه زوجته قال حباً وكرامة فدعا بعلي فدخل وهو مطرق حياء وقمن أزواجه فدخلن البيت فقال أتحب أن أدخل عليك زوجتك فقال وهو مطرق أجل فداك أبي وأمي، فقال أدخلها عليك إن شاء الله، ثم التفت إلى النساء فقال من ها هنا فقالت أم سلمة، أنا أم سلمة وهذه زينب وهذه فلانة وفلانة. فأمرهن أن يزين فاطمة ويطيبنها ويصلحن من شأنها في حجرة أم سلمة وأن يفرشن لها بيتاً كان قد هيأه علي (ع) بالأجرة وكان بعيداً عن بيت النبي ﷺ قليلاً فلما بنى بها حوله النبي ﷺ إلى بيت قريب منه، ففعلن النسوة ما أمرهن. وفي رواية كشف اليقين فعلقن عليها من حليهن وطيبنها. وفي مناقب ابن شهراشوب عن أبي بكر بن مردويه فأتى الصحابة بالهدايا فأمر بطحن البر وخبزه وأمر علياً بذبح البقر والغنم، فلما فرغوا من الطبخ أمر النبي ﷺ أن ينادى على رأس داره أجيبوا رسول الله ﷺ، فبسط النطوع في المسجد وصدر الناس وهم أكثر من أربعة آلاف رجل وسائر نساء المدينة ورفعوا ما أرادوا، ثم دعا رسول الله ﷺ بالصحاف فملئت ووجه إلى منازل أزواجه ثم أخذ صحفة فقال: **«هذه لفاطمة وبعلها»**.

فلما كانت ليلة الزفاف أتى النبي ﷺ ببغلته الشهباء أو بناقته وثنى عليها قطيفة وقال لفاطمة اركبي فأركبها وأمر سلمان أن يقود بها ومشى ﷺ خلفها ومعه حمزة وعقيل وبنو هاشم مشهرين سيوفهم ونساء النبي ﷺ قدامها يرجزن، وأمر بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة

وأن يفرحن ويرجزن ويكبرن ويحمدن ولا يقلن ما لا يرضي الله، ونساء النبي ﷺ قدامها يرجزن فأنشأت أم سلمة ترجز وتقول:

سرن بعون الله جاراتي ... واشكرنه في كل حالات
واذكرن ما أنعم رب العلى ... من كشف مكروه وآفات
فقد هدانا بعد كفر وقد ... أنعشنا رب السماوات
وسرن مع خير نساء الورى ... تفدى بعمات وخالات
يا بنت من فضله ذو العلى ... بالوحي منه والرسالات

ثم قالت عائشة:

يا نسوة استرن بالمعاجر ... واذكرن ما يحسن في المحاضر
واذكرن رب الناس إذ يخصنا ... بدينه مع كل عبد شاكر
والحمد لله على أفضاله ... والشكر لله العزيز القادر
سرن بها فالله أعلى ذكرها ... وخصها منه بطهر طاهر

ثم قالت حفصة:

فاطمة خير نساء البشر ... ومن لها وجه كوجه القمر
فضلك الله على كل الورى ... بفضل من خُص بآي الزمر
زوجك الله فتى فاضلاً ... أعني علياً خير من في الحضر
فسرن جاراتي بها فإنها ... كريمة عند عظيم الخطر

ثم قالت معاذة أم سعد بن معاذ:

أقول قولاً فيه ما فيه ... وأذكر الخير وأبديه
محمد خير بني آدم ... ما فيه من كبر ولا تيه
بفضله عرفنا رشدنا ... فالله بالخير يجازيه
ونحن مع بنت نبي الهدى ... ذي شرف قد مكنت فيه
في ذروة شامخة أصلها[1] ... فما أرى شيئاً يدانيه

---

(١) أصلها مبتدأ وجملة فما أرى خبره والفاء زائدة في الخبر ـ المؤلف ـ.

وكانت النسوة يرجعن أول بيت من كل رجز ثم يكبرن ودخلن الدار ثم أنفذ رسول الله ﷺ إلى علي فدعاه وأخذ بيد فاطمة فوضعها في يده وقال بارك الله لك في ابنة رسول الله ﷺ.

وفي طبقات ابن سعد: جاء رسول الله ﷺ فاستفتح (أي على علي ليلة زفافه) فخرجت إليه أم أيمن فقال: **«أثم أخي»** فقالت: وكيف يكون أخاك وقد أنكحته ابنتك، قال: فإنه كذلك ثم قال أأسماء بنت عميس قالت نعم قال: **«جئت تكرمين بنت رسول الله»** قالت: نعم. فقال لها خيراً ودعا لها. (وروي) أنه قال: **«اللهم إنهما أحب إلي فأحبهما وبارك في ذريتهما واجعل عليهما منك حافظاً وإني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم»** ودعا لفاطمة فقال: **«أذهب الله عنك الرجس وطهرك تطهيرا»** (وروي) أنه قال: **«مرحباً ببحرين يلتقيان ونجمين يقترنان»** (وفي رواية) أنه قال: قال: **«اللهم هذه ابنتي وأحب الخلق إليّ اللهم وهذا أخي وأحب الخلق إليّ اجعله لك ولياً وبك حفياً وبارك له في أهله. ثم قال: يا علي أدخل بأهلك بارك الله تعالى لك ورحمة الله وبركاته عليكم إنه حميد مجيد»** ثم خرج من عندهما فأخذ بعضادتي الباب فقال: **«طهركما الله وطهر نسلكما أنا سلم لمن سالمكما وحرب لمن حاربكما أستودعكما الله وأستخلفه عليكما»** ثم أغلق عليهما الباب بيده.

«وفي رواية» أنه قال: **«إذهبا إلى بيتكما جمع الله بينكما وأصلح بالكما ولا تهيجا شيئاً حتى آتيكما»**. فامتثلا حتى جلسا مجلسهما وعندهما أمهات المؤمنين وبينهن وبين علي حجاب وفاطمة عليها السلام مع النساء (ثم) أقبل النبي ﷺ فدخل وخرج النساء مسرعات سوى أسماء بنت عميس[1] وكانت قد حضرت

---

(١) عن كفاية الطالب تأليف محمد بن يوسف الكنجي الشافعي أن ذكر أسماء بنت عميس في حديث تزويج فاطمة عليها السلام غير صحيح لأن أسماء هذه إمرأة جعفر بن أبي طالب تزوجها بعده أبو بكر فولدت له محمداً فلما مات أبو بكر تزوجها علي بن أبي طالب وإن أسماء التي حضرت في عرس فاطمة إنما هي بنت يزيد ابن السكن الأنصاري ولها أحاديث عن النبي ﷺ وأسماء بنت عميس كانت مع زوجها جعفر بالحبشة وقدم بها يوم فتح خيبر سنة سبع وكان زواج فاطمة بعد بدر بأيام يسيرة انتهى (أقول) إشتباه أسماء بنت عميس بأسماء بنت يزيد ممكن بأن =

وفاة خديجة عليها السلام فبكت خديجة عند وفاتها فقالت لها أسماء أتبكين وأنت سيدة نساء العالمين وأنت زوجة النبي ﷺ ومبشرة على لسانه بالجنة فقالت ما لهذا بكيت ولكن المرأة ليلة زفافها لا بد لها من امرأة تفضي إليها بسرها وتستعين بها على حوائجها وفاطمة حديثة عهد بصبا وأخاف أن لا يكون لها من يتولى أمرها حينئذ قالت أسماء بنت عميس فقلت لها يا سيدتي لك عهد الله علي إن بقيت إلى ذلك الوقت أن أقوم مقامك في هذا الأمر فلما كانت الليلة وأمر النبي ﷺ النساء بالخروج فخرجن وبقيت فلما أراد الخروج رأى سوادي فقال من أنت فقلت أسماء بنت عميس قال ألم آمرك أن تخرجي فقلت بلى يا رسول الله وما قصدت خلافك، ولكن أعطيت خديجة عهداً فحدثته فبكى وقال: **«فأسأل الله أن يحرسك من فوقك ومن تحتك ومن بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك من الشيطان الرجيم»**. ولم يزل ﷺ يدعو لهما حتى توارى في حجرته ولم يشرك أحداً معهما في الدعاء. وروى ابن سعد في الطبقات عن بعض من حضر إهداء فاطمة من النساء قالت أهديت في بردين من برود الأول عليها دملوجان من فضة مصفران بزعفران. واختلف في قدر عمر الزهراء يوم تزوج بها أمير المؤمنين عليهما السلام بناء على الاختلاف في تاريخ مولدهما كما مر، فعلى قول أكثر أصحابنا أنها ولدت بعد النبوة بخمس سنين يكون عمرها حين تزوجها تسع سنين أو عشر سنين أو إحدى عشرة سنة لأنها تزوجت بعلي عليهما السلام بعد الهجرة بسنة وقيل بسنتين وقيل بثلاث سنين قال ابن شهراشوب في المناقب ولدت بعد النبوة بخمس سنين وأقامت مع أبيها بمكة ثمان سنين ثم هاجرت إلى المدينة فزوجها من علي بعد مقدمها المدينة بسنتين بعد بدر وعلى

= يكون الراوي ذكر أسماء فتبادر إلى الأذهان بنت عميس لأنها أعرف لكن ينافي ذلك آخر الحديث وهو أنها حضرت وفاة خديجة وأسماء بنت يزيد أنصارية من أهل المدينة لم تكن بمكة حتى تحضر وفاة خديجة مع أنه مر ذكر جعفر بن أبي طالب زوج أسماء الذي كان يومئذ مهاجراً بالحبشة فإذا كان وقع الاشتباه في أسماء فكيف وقع في جعفر واحتمل في كشف الغمة أن تكون التي شهدت الزفاف سلمى بنت عميس زوجة حمزة وأن بعض الرواة اشتبه بأسماء لشهرتها وتبعه الباقون. ولكن هذا إن رفع الإشكال في أسماء لا يرفعه في جعفر ـ المؤلف ـ.

قول بعضهم أنها ولدت بعد النبوة بسنتين يكون عمرها يوم تزويجها اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة بناء على الخلاف في أن تزويجها كان بعد الهجرة بسنة أو سنتين أو ثلاث ولم يرو أصحابنا في مبلغ عمرها يوم تزويجها أزيد من ذلك. وفي الاستيعاب كان سنها يوم تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصفاً وكانت سن علي إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وعلى القول بأنها ولدت قبل النبوة بخمس سنين يكون عمرها يوم تزويجها عشرين سنة وقال أبو الفرج الأصبهاني ورواه ابن حجر في الإصابة وابن سعد في الطبقات كان لها يوم تزويجها ثماني عشر سنة. وروى ابن سعد في الطبقات أن تزويجها بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بخمسة أشهر وبنى بها مرجعه من بدر قال وفاطمة يوم بنى بها علي بنت ثماني عشرة سنة «اهـ» ولعله وقع اشتباه بين تاريخ تزويجها ووفاتها لما ستعرف من أن ذلك سنها يوم وفاتها كما احتملنا وقوع الاشتباه في ولادتها بين كونها بعد النبوة بخمس سنين أو قبلها.

وكذلك اختلفت الروايات في يوم وشهر تزويجها قال ابن شهراشوب في المناقب تزوجها علي عليهما السلام أول يوم من ذي الحجة ودخل بها يوم الثلاثاء لست خلون من ذي الحجة قال وروي أن تزويجها كان يوم السادس «اهـ» ولعله وقع اشتباه بين يوم التزويج والبناء. وقال أبو الفرج كان تزويجها في صفر وفي رواية دخل بها لأيام خلت من شوال وفي رواية تزوجها في شهر رمضان وبنى بها في ذي الحجة وعن المفيد وابن طاوس ناسبين له إلى أكثر علمائنا أن زفافها كان ليلة إحدى وعشرين من المحرم ليلة الخميس.

بيت فاطمة

كان النبي ﷺ قد بنى بيتاً شرقي المسجد ملاصقاً له سكنه مع ابنته فاطمة وبنى هناك أيضاً بيوتاً أسكنها أزواجه وبنى لعلي (ع) بيتاً بجنب البيت الذي تسكنه عائشة وهو الذي دفن فيه النبي ﷺ فلما تزوج علي بفاطمة وأدخلت عليه عرس بها في بيت استأجره كما مر ثم عاد إلى ذلك البيت وسكنته فاطمة معه

حتى توفيت وفيه ولد الحسن والحسين وسائر أولاد علي من فاطمة عليهم جميعاً السلام وبقيت الصخرة التي ولدت عليها الحسنين ظاهرة بعد إلحاق بيتها بالمسجد يعرفها أهل البيت. وفي كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: أسند يحيى عن عيسى بن عبد الله عن أبيه أن بيت فاطمة في الزور الذي في القبر بينه وبين بيت النبي خوخة. (والزور الموضع المزور شبه المثلث في جهة الشام) قال وأسند عن عمر بن علي بن عمر بن علي ابن الحسين أن بيت فاطمة في موضع الزور مخرج النبي ﷺ وكانت فيه كوة إلى بيت عائشة فكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى المخرج اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم، فدخلت عائشة المخرج في جوف الليل فأبصرت المصباح عندهم، وذكر كلاماً وقع بينهما، فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي ﷺ أن يسد الكوة فسدها (إلى أن قال): ويشهد لذلك (أي كون موضع بيت فاطمة في الزور) ما أسنده يحيى عن مسلم عن أبي مريم: أن عرض بيت فاطمة إلى الأسطوانة التي خلف الأسطوانة المواجهة للزور وكان بابه في المربعة التي في القبر قال: وقد أسند أبو غسان عن مسلم بن سالم قال عرس علي بفاطمة إلى الأسطوانة التي خلف الأسطوانة المواجهة الزور وكانت داره في المربعة التي في القبر قال سليمان وقال مسلم: لا تنسَ حظك من الصلاة إليها فإنه باب فاطمة التي كان علي يدخل إليها منه وقد رأيت حسن بن زيد يصلي إليها. وقوله عرس بها الخ يخالف ما مر من أنه بنى بها في دار استأجرها. ثم حكى عن ابن شبة أن علياً (ع) اتخذ بالمدينة دارين (أحدهما) دخلت في مسجد رسول الله ﷺ (والأخرى) دار علي التي بالبقيع. ثم حكي عن رزين أنه لما كان زمن الوليد بن عبد الملك وعمر ابن عبد العزيز عامله على المدينة ومكة بعث الوليد إليه بمال وقال له من باعك فأعطه ثمنه ومن أبى فاهدم عليه وأعطه المال فإن أبى أن يأخذه فاصرفه إلى الفقراء. ثم ذكر عدة روايات أنه بينما الوليد بن عبد الملك يخطب على منبر رسول الله ﷺ إذ انكشفت الكلة عن بيت فاطمة عليها السلام وإذا حسن بن حسن يسرح لحيته، فلما نزل أمر بهدم بيت فاطمة - أخذه الغضب لكونه لم يسمع خطبته بل جلس

في بيته يسرح لحيته فأمر بهدمه ـ فأبى حسن بن حسن وفاطمة بنت الحسين وهي زوجته زوجه إياها عمه الحسين عليه السلام أن يخرجوا منه، فأمر بهدمه عليهم وهما فيه وولدهما فنزع أساس البيت وهم فيه فلما نزع أساس البيت قالوا لهم: إن لم تخرجوا قوضناه عليكم فخرجوا منه. وفي رواية أخرى أن الوليد كان يبعث كل عام رجلاً إلى المدينة فيأتيه بأخبارها فقال له مرة: لقد رأيت أمراً لا والله ما لك معه سلطان كنت في مسجد النبي ﷺ فإذا منزل عليه كلة فلما أقيمت الصلاة رفعت الكلة وصلى صاحبه فيه بصلاة الإمام وهو ومن معه ثم أرخيت الكلة وأتي بالغداء فتغدوا وإذا هو يأخذ المرآة والكحل فسألت فقيل: إن هذا حسن بن حسن قال: ويحك فما أصنع هو بيته وبيت أمه فما الحيلة؟ قال: تزيد في المسجد وتشتري هذا المنزل فكتب إلى عمر بن عبد العزيز بذلك فأبوا وقال حسن: والله لا نأكل له ثمناً أبداً. وأعطاهم به سبعة آلاف أو ثمانية آلاف دينار، فكتب إلى الوليد بذلك فأمره بهدمه وإدخاله وطرح الثمن في بيت المال ففعل وانتقلت منه فاطمة بنت الحسين بن علي «اهـ».

خبر فدك وميراث رسول الله

في معجم البلدان فدك بالتحريك وآخره كاف قرية بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة فيها عين فوارة ونخل كثير أفاءها الله على رسوله ﷺ في سنة سبع صلحاً «اهـ». والأرض التي تفتح صلحاً منها ما يسلم أهلها وتكون أرضهم لهم، ومنها ما يصالحون على أن تكون الأرض أو بعضها للنبي ﷺ فهذا ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فيكون خالصاً للنبي ﷺ. وفدك مر ذكرها في هذا الجزء في موضعين (أحدهما) بعد غزاة خيبر (وثانيهما) بعد سرية ذات السلاسل فإن النبي ﷺ أرسل إلى فدك سرية مع علي عليه السلام لما علم أن أهلها يريدون معاونة أهل خيبر عليه وذلك قبل فتح خيبر فهرب أهل فدك وغنم علي من نعمهم وأموالهم ولكنها لم تفتح يومئذ وإنما كان أثر هذه السرية أنهم خافوا وأحجموا عن مساعدة أهل خيبر ثم لما فتحت خيبر خاف أهل فدك وأرسلوا إلى النبي ﷺ وصالحوه.

وقد روى المحدثون وأهل السير والآثار منهم محمد بن إسحق صاحب المغازي أن رسول الله ﷺ لما فرغ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك فبعثوا إلى رسول الله ﷺ فصالحوه على النصف من فدك. قال: وكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة له لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب وأبقاهم فيها فكان يزارعهم ويساقيهم على النصف فلما توفي النبي ﷺ طلبت فاطمة ميراثها من رسول الله فروى أبو بكر عن النبي ﷺ أنه قال: **«نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»** وبه احتج الأصوليون من أهل السنة على أن خبر الواحد حجة قالوا رواه أبو بكر وقبله الصحابة فكان إجماعاً ثم إن فاطمة طلبت نحلتها من رسول الله ﷺ وقالت إنه نحلها فدكا فطلب منها البينة فشهد لها علي وأم أيمن فقال قد علمت يا بنت رسول الله أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين.

(قال) ابن أبي الحديد: وسألت علي بن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدكاً وهي عنده صادقة؟ فتبسم ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسناً مع ناموسه وحرمته وقلة دعابته قال: لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وادعت لزوجها الخلافة وزحزحته من مقامه ولم يمكنه الاعتذار والمدافعة بشيء لأنه يكون قد سجل على نفسه بأنها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بينة. قال وهذا كلام صحيح وإن كان أخرجه مخرج الدعابة والهزل (اهـ) ولم تذعن فاطمة لرواية أبي بكر وبقيت مصرة على طلبها الميراث والنحلة. (روى) البخاري في صحيحه في باب فرض الخمس عن عائشة أم المؤمنين «رض» أن فاطمة عليها السلام ابنة رسول الله ﷺ سألت أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ أن يقسم لها ميراثها ما ترك رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه، فقال لها إن رسول الله ﷺ قال: **«لا نورث، ما تركناه صدقة»** فغضبت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فهجرت أبا بكر فلم تزل مهاجرته حتى توفيت وعاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر، قالت وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله ﷺ من خيبر وفدك وصدقته بالمدينة فأبى عليها ذلك

«الحديث» (ورواه) البخاري في صحيحه أيضاً في كتاب المغازي في غزوة خيبر مثله إلى أن قال: فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها «الحديث» (وروى) ابن سعد في الطبقات بسنده عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن فاطمة بنت رسول الله سألت أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه فقال لها أبو بكر إن رسول الله ﷺ قال: **«لا نورث ما تركناه صدقة»** فغضبت فاطمة وعاشت بعد وفاة رسول الله ﷺ ستة أشهر (وروى) البخاري في باب قول رسول الله ﷺ: **«لا نورث ما تركناه صدقة»** بإسناده عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك وسهمه من خيبر فقال لهما سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا نورث ما تركناه صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال»** قال فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت، وهكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرزاق عن معمر ثم رواه أحمد عن يعقوب بن إبراهيم عن أبيه عن صالح بن كيسان عن الزهري عن عروة عن عائشة أن فاطمة سألت أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ ميراثها مما ترك مما أفاء الله عليه فقال لها: إن رسول الله ﷺ قال: **«لا نورث ما تركناه صدقة»** فغضبت فاطمة وهجرت أبا بكر فلم تزل مهاجرته حتى توفيت، قال: وعاشت فاطمة بعد وفاة رسول الله ﷺ ستة أشهر وذكر تمام الحديث هكذا قال الإمام أحمد نقله ابن كثير في تاريخه، كذلك علي قد ظهر منه عدم الإذعان لهذه الرواية فإنه قال في بعض خطبه بلى: كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين ونعم الحكم الله.

خطبة الزهراء (ع) بعد وفاة أبيها ﷺ بمحضر المهاجرين والأنصار

ثم إن فاطمة (ع) لما منعت فدكاً خطبت خطبة طويلة عظيمة جليلة غاية في الفصاحة والبلاغة والمتانة وقوة الحجة بمحضر من المهاجرين والأنصار.

وفي كشف الغمة إنها من محاسن الخطب وبدائعها عليها مسحة من نور النبوة وفيها عبقة من أرج الرسالة وقد أوردها المؤالف والمخالف قال: ونقلتها من كتاب السقيفة لأبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري من نسخة قديمة مقروءة على مؤلفها قرئت عليه في ربيع الآخر سنة ٣٢٢ رواها عن رجاله من عدة طرق «اهـ» وأبو بكر الجوهري هذا من علماء أهل السنة قال ابن أبي الحديد في شرح النهج إنه عالم محدث كثير الأدب ثقة ورع أثنى عليه المحدثون ورووا عنه مصنفاته وغير مصنفاته. ورواها المرتضى في الشافي الذي هو رد على المغني في الإمامة لقاضي القضاة عبد الجبار المعتزلي. قال المرتضى: فأما قوله: إن فاطمة لما سمعت ذلك (أي حديث نحن معاشر الأنبياء لا نورث) كفت عن الطلب ـ فأصابت أولاً وأصابت آخراً ـ فلعمري إنها كفت عن الطلب الذي هو المنازعة والمشاحنة لكنها انصرفت مغضبة متظلمة متألمة والأمر في غضبها وسخطها أظهر من أن يخفى على منصف، فقد روى أكثر الرواة الذين لا يتهمون بتشيع ولا عصبية فيه من كلامها في تلك الحال وبعد انصرافها عن مقام المنازعة والمطالبة ما يدل على ما ذكرناه من سخطها وغضبها، ونحن نذكر من ذلك ما يستدل به على صحة قولنا: أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني حدثني محمد بن أحمد الكاتب حدثنا أحمد بن عبيد بن ناصح النحوي حدثنا الزيادي حدثنا الشرفي عن القطامي عن محمد بن إسحاق قال: حدثنا صالح بن كيسان عن عروة عن عائشة قال المرزباني: وحدثنا أبو بكر أحمد بن محمد المكي حدثنا أبو العيناء محمد بن القاسم اليمامي حدثنا ابن عائشة قال: لما قبض رسول الله ﷺ أقبلت فاطمة في لمة من حفدتها إلى أبي بكر وفي الرواية الأولى قالت عائشة: لما سمعت فاطمة إجماع أبي بكر على منعها فدكاً لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها وأقبلت في لمة من حفدتها ثم اجتمعت الروايتان من ها هنا إلى آخر ما يأتي وأورد الخطبة ثم قال المرتضى بعد إيرادها: أخبرنا أبو عبيد الله المرزباني حدثني علي بن هارون أخبرني عبد الله بن أبي طاهر عن أبيه قال: ذكرت لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن

أبي طالب كلام فاطمة عند منع أبي بكر إياها فدكاً وقلت له: إن هؤلاء يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبي العيناء لأن الكلام منسوق البلاغة فقال لي: رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أولادهم وقد حدثني به أبي عن جدي يبلغ به فاطمة على هذه الحكاية وقد رواه مشايخ الشيعة وتدارسوه قبل أن يوجد جد أبي العيناء. وقد حدث الحسين بن علوان عن عطية العوفي أنه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر عن أبيه هذا الكلام. ثم قال أبو الحسين زيد: وكيف ينكرون هذا من كلام فاطمة وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة ويحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ثم ذكر الحديث بطوله على نسقه. ثم قال المرتضى: وقد روي هذا الكلام على هذا الوجه من طرق مختلفة ووجوه كثيرة فمن أرادها أخذها من مواضعها فقد طولنا بذكر ما ذكرناه لحاجة مست إليه «اهـ». وقال صاحب كتاب بلاغات النساء أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر المولود ببغداد سنة ٢٠٤ والمتوفى سنة ٢٨٠هـ في الكتاب المذكور ما لفظه: حدثني جعفر بن محمد رجل من أهل ديار مضر لقيته بالرفقة حدثني أبي أخبرنا موسى بن عيسى أخبرنا عبد الله بن يونس أخبرنا جعفر الأحمر عن زيد بن علي رحمة الله عليه عن عمته زينب بنت الحسين عليهما السلام قال: لما بلغ فاطمة (ع) إجماع أبي بكر على منعها فدكاً لاثت خمارها وخرجت في حشدة من نسائها ولمة من قومها «إلى آخره». وذكر صاحب بلاغات النساء قبل هذا ما صورته: كلام فاطمة بنت رسول الله ﷺ. قال أبو الفضل «يعني صاحب الكتاب» ذكرت لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة (ع) عند منع أبي بكر إياها فدكاً وقلت له: إن هؤلاء يزعمون إلى آخر ما تقدم في رواية المرتضى عن المرزباني إلى قوله: ثم ذكر الحديث ثم قال: قال لما أجمع أبو بكر رحمه الله على منع فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعليها فدكاً وبلغ فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت في لمة من حفدتها الخ ثم قال صاحب بلاغات النساء وقد ذكر قوم: أن أبا العيناء ادعى هذا الكلام وقد رواه قوم وصححوه. وأقول

الباعث على دعوى أنه لأبي العيناء هو الباعث على دعوى أن نهج البلاغة للشريف الرضي وكلاهما باطل لا يلتفت إليه بعد رواية الثقات له وتصحيحهم إياه ثم لا يخفى أنه وقع سقط في النسخة المطبوعة من بلاغات النساء في هذا الموضع فإنه افتتح الكلام بقوله: ذكرت لأبي الحسين زيد الخ وصاحب البلاغات لم يدرك زيداً فلا بد أن يكون حصل هنا سقط والذي قال: ذكرت لأبي الحسين زيد هو عبد الله بن أبي طاهر كما مر في رواية المرتضى فيكون صاحب البلاغات قد ساق السند إلى عبد الله وسقط من النسخة المطبوعة وسبب الاشتباه وجود كلمة أبي طاهر في كليهما. وممن ذكر هذه الخطبة الطبرسي في الاحتجاج ونحن نوردها بلفظه قال: روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام أنه لما أجمع أبو بكر على منع فاطمة فدكاً وبلغها ذلك لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله ﷺ شيئاً فدخلت عليه وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم فنيطت دونها مُلاءة فجلست ثم أنت أنّة أجهش القوم لها بالبكاء فارتج المجلس ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله أبيها ﷺ فعاد القوم في بكائهم فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت:

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما أقدم، من عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام نعم والاها، جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها. وثنى بالندب إلى أمثالها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكير معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كونها بقدرته، وذرأها بمشيئته. من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على

طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريته، وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادة لعباده عن نقمته، وحياشة لهم إلى جنته، وأشهد أن أبي محمداً ﷺ عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله تعالى بمآل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع المقدور، ابتعثه الله تعالى إماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله تعالى بأبي محمد ﷺ ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم، ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد ﷺ عن تعب هذه الدار في راحة قد حف بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيه، وأمينه على وحيه وصفيه، وخيرته من الخلق ورضيه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته (ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت): أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد إلى الرضوان أتباعه، مؤد إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المَندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للإسلام، وذلاً لأهل الكفر

والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام مسنأة في العمر، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ ثم قالت عليها السلام: أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد ﷺ أقول عوداً وبدءاً ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم وأخ ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزي إليه فبلغ الرسالة، صادعاً بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً ثبجهم آخذاً بكظمهم داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام، وينكث الهام حتى انهزم الجمع وولوا الدبر حتى تفرى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح[1] وشيظ[2] النفاق وانحلت عقدة الكفر والشقاق وفهتم بكلمة الإخلاص، في نفر من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونُهزة الطامع، وقُبسة العجلان، وموطىء الأقدام تشربون الطّرق، وتقتاتون القد أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد ﷺ بعد اللتيا والتي وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ أو نجم قرن للشياطين أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله قريباً من رسول الله ﷺ، سيداً في أولياء الله مشمراً ناطحاً،

---

(١) طاح هلك

(٢) الوشيظ بمعجمتين الرذل والسفلة من الناس. ـ المؤلف ـ

مجداً كادحاً، وأنتم في بلهنية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال، فلما اختار الله لنبيه ﷺ دار أنبيائه ومأوى أصفيائه ظهرت فيكم حسيكة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الأقلين وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم وأوردتم غير شربكم هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر ابتداراً زعمتم خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فهيهات منكم وكيف بكم وأنى تؤفكون، وهذا كتاب الله بين أظهركم أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، قد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تدبرون، أم بغيره تحكمون ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ثم لم تلبثوا إلا ريثما تسكن نفرتها، ويساس قيادها، ثم أخذتم تورون وقدتها، وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء نور الدين الجلي، وإهماد سنن النبي الصفي، تسرون حسواً في ارتغاء[١] وتمشون لأهله وولده في الخمر[٢] والضراء[٣] ونصبر منكم على مثل حز المدى ووخز السنان في الحشى، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته أيها وفي رواية ويها[٤] أيها

---

(١) الحسو الشراب شيئاً بعد شيء والارتغاء شرب الرغوة مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره أصله الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة فيشربها وهو في ذلك ينال اللبن.

(٢) الخمر بالتحريك ما واراك من شجر وغيره.

(٣) الضراء بالضاد المعجمة المفتوحة والراء المهملة المخففة الشجر الملتف في الوادي.

(٤) أيها بفتح الهمزة لغة في هيهات وبكسر الهمزة والتنوين أمر بالسكوت وويها للإغراء وإيه بكسر الهمزة وفتح الهاء استزادة واستنطاق ولا يخفى أن المناسب ويها أو إيه إما أيها فلا مناسبة لها وبذلك يظهر أن رواية ويها هي الصواب.

المسلمون أأغلب على إرثي؟ يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ وقال فيما اختص من خبر يحيى بن زكريا عليهما السلام إذ يقول: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ «**ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب**» وقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي ﷺ؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان، أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

ثم رنت بطرفها نحو الأنصار «فقالت»: يا معشر الفتية وأعضاد الملة وحصنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقي، والسنة عن ظلامتي، أما كان رسول الله ﷺ أبي يقول: «**المرء يحفظ في ولده**» سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة[1] ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون مات محمد فخطب جليل، استوسع وهنه واستنهر فتقه وانفتق رتقه واظلمت الأرض لغيبته، واكتأبت خيرة الله لمصيبته، وكسفت الشمس والقمر وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم وأزيلت الحرمة عند مماته. فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى التي لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وألحاناً[2]، ولقبله ما حلت بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ

---

(١) مثل يضرب لمن يخبر بكينونة الشيء قبل وقته والمشهور سرعان ذا إهالة والإهالة بكسر الهمزة الدسم أصله أن رجلاً كانت له نعجة عجفاء وكان مخاطها يسيل فقيل له ما هذا فقال ودكها أي دسمها فقال السائل سرعان ذا إهالة وذا إشارة إلى الودك وإهالة حال أو تمييز.

(٢) بكسر الهمزة أي إفهاماً أو فتحها جمع لحن بمعنى الغناء.

﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ﴾ أيها[1] بني قيلة[2] أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع ومنتدى ومجمع؟ تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة وأنتم ذوو العدد والعدة والأداة والقوة وعندكم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم وكافحتم البهم[3] فلا نبرح وتبرحون، نأمركم فتأتمرون حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام[4] ودر حلب الأيام وخضعت نعرة الشرك وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر وهدأت دعوة الهرج واستوسق نظام الدين، فأنى حرتم بعد البيان وأسررتم بعد الإعلان ونكصتم بعد الإقدام وأشركتم بعد الإيمان ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وركنتم إلى الدعة ونجوتم من الضيق بالسعة، فمججتم ما وعيتم ودسعتم[5] الذي تسوغتم ﴿إِن تَكْفُرُوٓا أَنتُمْ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾. ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس وبثة الصدر ونفثة الغيظ وتقدمة الحجة، فدونكموها فاستقبوها دَبِرة الظهر نقبة الخف باقية العار، موسومة بغضب الله وشنار الأبد موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ * وَانتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

---

(١) مر أن المناسب ويها أو إيه.

(٢) هم الأنصار من الأوس والخزرج وقيل اسم أم قديمة لهم.

(٣) جمع بهمة وهو الشجاع كغرف وغرفة.

(٤) كناية عن انتظام أمره.

(٥) ودسعتم تقيأتم.

فأجابها أبو بكر عبد اللّه بن عثمان فقال:

يا ابنة رسول الله لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً رؤوفاً رحيماً وعلى الكافرين عذاباً أليماً وعقاباً عظيماً فإن عزوناه وجدناه أباك دون النساء وأخا إلفك دون الأخلاء آثره على كل حميم وساعده في كل أمر جسيم لا يحبكم إلا كل سعيد ولا يبغضكم إلا كل شقي فأنتم عترة رسول الله ﷺ الطيبون والخيرة المنتخبون على الخير أدلتنا وإلى الجنة مسالكنا وأنت يا خيرة النساء وابنة خير الأنبياء ،صادقة في قولك سابقة في وفور عقلك غير مردودة عن حقك ولا مصدودة عن صدقك والله ما عدوت رأي رسول الله ﷺ ولا عملت إلا بإذنه وإن الرائد لا يكذب أهله[1] فإني أشهد الله وكفى به شهيداً أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: نحن معشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا داراً ولا عقاراً وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة وما لنا من طعمة فلولي الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح يقاتل بها المسلمون ويجاهدون الكفار ويجادلون المردة الفجار وذلك بإجماع من المسلمين لم انفرد به وحدي ولم أستبد بما كان الرأي فيه عندي وهذه حالي ومالي هي لك وبين يديك لا تزوى عنك ولا تدخر دونك وأنت سيدة أمة أبيك والشجرة الطيبة لبنيك لا يدفع مالك من فضلك ولا يوضع من فرعك وأصلك وحكمك نافذ فيما ملكت يداي فهل ترين أني أخالف في ذلك أباك ﷺ؟ فقالت عليها السلام:

سبحان الله ما كان أبي رسول الله ﷺ عن كتاب الله صادفاً ولا لأحكامه مخالفاً، بل كان يتبع أثره ويقتفي سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغي له من الغوائل في حياته، هذا كتاب الله حكماً عدلاً وناطقاً فصلاً، يقول: «**يرثني ويرث من آل يعقوب**» ويقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ فبين عز وجل فيما وزع من الأقساط وشرع من الفرائض والميراث

---

(١) الرائد من يتقدم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث وهذا مثل استشهد به لصدقه فيما أخبر به.

وأباح من حظ الذكران والإناث، ما أزاح علة المبطلين وأزال التظني والشبهات في الغابرين، كلا ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. فقال أبو بكر:

صدق الله وصدق رسوله وصدقت ابنته أنت معدن الحكمة وموطن الهدى والرحمة وركن الدين لا أبعد صوابك ولا أنكر خطابك هؤلاء المسلمون بيني وبينك قلدوني ما تقلدت وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر ولا مستبد ولا مستأثر وهم بذلك شهود. فالتفتت فاطمة عليها السلام إلى الناس وقالت:

معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم فأخذ بسمعكم وأبصاركم لبئس ما تأولتم وساء ما به أشرتم وشر ما منه اعتضتم لتجدُن والله محمله ثقيلاً وغبّه وبيلاً إذا كشف لكم الغطاء وبان ما وراء الضراء وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون وخسر هنالك المبطلون. ثم عطفت على قبر النبي ﷺ وقالت:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها واختل قومك فاشهدهم ولا تغب[1]

---

(١) في البيت الأخير إقواء وهو كثير في كلام العرب ويوجد في بعض الكتب (فقد نكبوا) بدل (ولا تغب) وفي بعضها (لما غبت وانقلبوا) وهو إصلاح من النساخ وأصل الرواية كما ذكرناه كما في النهاية الأثيرية وتاج العروس وغيرهما. قال المرتضى في الشافي وروى جرمي بن أبي العلاء مع هذين البيتين بيتاً ثالثاً وهو:

فليت قبلك كان الموت صادفناه لما قضيت وحالت دونك الكثب

وأورد الأبيات في العقد الفريد هكذا:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب

وفي كشف الغمة ثم التفتت إلى قبر أبيها متمثلة بقول هند ابنة أثاثه:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها واختل قومك لما غبت وانقلبوا

وأورد بعضهم بعد البيتين الأولين: =

قال صاحب بلاغات النساء: فما رأينا يوماً كان أكثر باكياً ولا باكية من ذلك اليوم. قال السيد المرتضى والشيخ الطوسي في روايتهما وغيرهما ثم انكفأت وأمير المؤمنين عليه السلام يتوقع رجوعها إليه ويتطلع طلوعها عليه فلما استقرت بها الدار قالت لأمير المؤمنين عليه السلام: يا ابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين وقعدت حجرة الظنين نقضت قادمة الأجدل فخانك ريش الأعزل هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحيلة أبي وبلغة (وبليغة خ ل) ابني لقد أجهد في خصامي وألفيته ألد في كلامي حتى حبستني قيلة نصرها والمهاجرة وصلها وغضت الجماعة دوني طرفها فلا دافع ولا مانع ولا ناصر ولا شافع، خرجت كاظمة وعدت راغمة، أضرعت خدك يوم أضعت جدك، افترست الذئاب وافترشت التراب ما كففت قائلاً ولا أغنيت طائلاً ولا خيار لي، ليتني مت قبل منيتي ودون ذلتي، عذيري الله منك عادياً وفيك حامياً، ويلاي في كل شارق ويلاي في كل غارب، مات العمد ووهت العضد، وشكواي إلى أبي وعدواي إلى ربي، اللهم إنك أشد قوة وحولاً وأحد بأساً وتنكيلاً «فقال» لها أمير المؤمنين عليه السلام: لا ويل لك بل الويل لشانئك نهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة وبقية النبوة فما ونيت عن ديني ولا أخطأت مقدوري فإن كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون وكفيلك مأمون وما أعدلك أفضل مما قطع عنك فاحتسبي الله «فقالت»: حسبي الله وأمسكت (وهذا) اللوم والتأنيب من الزهراء لأمير المؤمنين عليهما السلام لا ينافي عصمته وعصمتها وعلو مقامهما، فما هو إلا مبالغة في إنكار المنكر وإظهار لما لحقها من شدة الغيظ كما فعل موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه غضبان أسفاً وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه وشريكه

= أبدى رجال لنا نجوى صدورهم ... لما مضيت وحالت دونك الترب
تجهمتنا أناس واستخف بنا ... لما فقدت وكل الإرث مغتصب
وكنت بدراً ونوراً يستضاء به ... عليك تنزل من ذي العزة الكتب
وكان جبريل بالآيات يؤنسنا ... فقد فقدت وكل الخير محتجب
فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما مضيت وحالت دونك الكثب
إنا رزئنا بما لم يرز ذو شجن ... من البرية لا عجم ولا عرب

في الرسالة يجره إليه. وفي السيرة الحلبية: في كلام سبط ابن الجوزي أن أبا بكر كتب لفاطمة بفدك ودخل عليه عمر فقال: ما هذا قال: كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها فقال: فماذا تنفق على المسلمين وقد حاربتك العرب كما ترى ثم أخذ الكتاب فشقه. وقال ابن قتيبة في الإمامة والسياسة قال عمر لأبي بكر (رض): انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما فأتيا علياً فكلماه فأدخلهما عليها فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام فتكلم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول الله والله إن قرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي وإنك لأحب إليّ من عائشة ابنتي ولوددت يوم مات أبوك أني مت ولا أبقى بعده أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ﷺ إلا أني سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول: لا نورث ما تركناه فهو صدقة فقالت: أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعلان به قالا: نعم فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول: «**رضى فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي فمن أحب فاطمة ابنتي أحبني ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن أسخط فاطمة فقط أسخطني**» قالا: نعم سمعناه من رسول الله ﷺ قالت: فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ولئن لقيت النبي ﷺ لأشكونكما إليه فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة ثم انتحب يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق وهي تقول: والله لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها ثم خرج باكياً (إلى أن قال) فلم يبايع علي حتى ماتت فاطمة ولم تمكث بعد أبيها إلا خمساً وسبعين ليلة «اهـ» وبقيت فدك في يد الخليفة الأول ثم في يد الخليفة الثاني ثم في يد الخليفة الثالث ثم أقطعها الخليفة الثالث مروان بن الحكم فوهبها مروان لولديه عبد الملك وعبد العزيز وقيل: إن الذي أقطعها مروان هو معاوية. وفي كتاب وفاء الوفا ما لفظه: قال الحافظ ابن حجر إنما أقطع عثمان فدك لمروان لأنه تأول أن الذي يختص بالنبي ﷺ يكون للخليفة بعده فاستغنى عثمان عنها بأمواله فوصل بها بعض قرابته «اهـ» ولما

ولي علي الخلافة لم يأخذها وهو أعلم بوجه الحكمة في عدم أخذها. فلما ولي عمر بن عبد العزيز ردها إلى ولد فاطمة، فلما مات وولي يزيدابن عبد الملك أخذها منهم فلم تزل في يد بني مروان إلى أن ولي السفاح فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن علي ليفرقها في ولد فاطمة، فلما ولي المنصور وخرج عليه بنو الحسن قبضها منهم، فلما ولي ابنه المهدي أعادها عليهم، فلما ولي موسى الهادي قبضها منهم وبقيت في يد ملوك بني العباس حتى ولي المأمون فردها عليهم وكتب السجل بها وقرىء على المأمون فقام دعبل وأنشد:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا   برد مأمون هاشم فدكا

فلما ولي المتوكل أخذها منهم ولله در دعبل حيث يقول:

أرى فيئهم في غيرهم متقسما   وأيديهم من فيئتهم صفرات

وفي مجلة الرسالة المصرية في العدد ٥١٨ من السنة ١١ ص ٤٥٧ كلام للأستاذ محمود أبو رية من أهل المنصورة، هذا لفظه: بقي أمر لا بد من أن نقول فيه كلمة صريحة، ذلك هو موقف أبي بكر من فاطمة بنت الرسول رضي الله عنها وما فعل معها في ميراث أبيها لأننا إذا سلمنا بأن خبر الآحاد الظني يخصص الكتاب القطعي وأنه قد ثبت أن النبي قد قال: إنه لا يورث وأنه لا تخصيص في عموم هذا الخبر، فإن أبا بكر كان يسعه أن يعطي فاطمة رضي الله عنها بعض تركة أبيها كأن يخصها بفدك وهذا من حقه الذي لا يعارضه فيه أحد إذ يجوز للخليفة أن يخص من شاء بما شاء، وقد خص هو نفسه الزبير بن العوام ومحمد بن مسلمة وغيرهما ببعض متروكات النبي، على أن فدك التي منعها أبو بكر من فاطمة لم تلبث أن أقطعها الخليفة عثمان لمروان «اه». وفي معجم البلدان أنه أدى اجتهاد عمر بن الخطاب لما ولي الخلافة وفتحت الفتوح على المسلمين أن يردها إلى ورثة رسول الله ﷺ فكان علي بن أبي طالب والعباس يتنازعان فيها فعلي يقول: إن النبي ﷺ جعلها في حياته لفاطمة والعباس يأبى ذلك ويقول: هي ملك رسول الله ﷺ وأنا وارثه ويتخاصمان إلى عمر فيأبى أن يحكم بينهما ويقول: أنتما أعرف بشأنكما أما أنا فقد سلمتها

إليكما فاقتصدا فما يؤتى واحد منكما من قلة معرفة «اهـ» وهذا الكلام مع انفراده بنقله لا يكاد يصح فإذا كان النبي لا يورث كما رواه أبو بكر وسمعه منه العباس فكيف يقول العباس وأنا وارثه ثم قوله: وأنا وارثه ظاهره انحصار الإرث فيه مع أن وارثه فاطمة إن بطل التعصيب وهي مع العباس إن صح التعصيب.

وفاة الزهراء عليها السلام

توفيت في الثالث من جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة من الهجرة على المشهور بين أصحابنا وهو المروي عن الصادق (ع). وروي أنها توفيت لعشر بقين من جمادى الآخرة. وقيل لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر ليلة الأحد. وعن ابن عباس في الحادي والعشرين من رجب، وقال المدائني والواقدي وابن عبد البر في الاستيعاب: توفيت ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان. وروى الحاكم في المستدرك أنها توفيت لثلاث خلون من شهر رمضان.

واختلف في مدة بقائها بعد أبيها ﷺ فقيل: أربعون يوماً ويمكن كونه اشتباهاً بمدة مرضها وقيل: خمسة وأربعون يوماً وقيل: شهران رواه الحاكم في المستدرك بسنده عن عائشة وعن جابر. وقيل: سبعون يوماً حكاه ابن عبد البر في الاستيعاب عن ابن بريدة. وقيل: اثنان وسبعون يوماً. وقيل ونصف يوم. وقيل: خمسة وسبعون حكاه ابن عبد البر في الاستيعاب. وقيل: خمسة وثمانون. وقيل: ثلاثة أشهر وهو الذي اعتمده أبو الفرج الأصبهاني ورواه مسنداً عن الباقر (ع) وعزاه في الاستيعاب إلى إحدى الروايتين عن الباقر (ع) وقال الحاكم في المستدرك أنه روي عن أبي جعفر محمد بن علي «اهـ» وهو الذي يقتضيه الجمع بين ما روي عن الباقر (ع) أن بدء مرضها بعد خمسين ليلة من وفاة النبي ﷺ وما يفهم من بعض الأخبار أنها بقيت مريضة أربعين يوماً وقيل خمسة وتسعون يوماً وهو الذي اعتمده الدولابي في الذرية الطاهرة ويقتضيه الجمع بين ما هو المشهور من أن وفاته ﷺ في الثامن والعشرين من صفر ووفاتها في الثالث

من جمادى الآخرة. وقيل: مائة يوم حكاه ابن عبد البر في الاستيعاب وهو الذي اعتمده الشهيد في الدروس. أو نحو من مائة يوم أو أربعة أشهر. أو ستة أشهر رواه الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية بسنديهما عن عائشة. وفي الاستيعاب توفيت بعد رسول الله ﷺ بيسير قال محمد بن علي أبو جعفر: بستة أشهر وهو الثابت عندنا، وروي عن ابن شهاب مثله «اهـ» وقيل: ستة أشهر إلا ليلتين حكاه ابن عبد البر في الاستيعاب وقيل: ثمانية أشهر حكاه ابن عبد البر عن عمرو بن دينار ورواه الحاكم في المستدرك عن عبد اللّه بن الحارث. ويدل كلام الاستيعاب ومقاتل الطالبيين على أنه لم يقل أحد بأكثر من ثمانية أشهر ولا بأقل من أربعين يوماً والمروي صحيحاً من طرق أهل البيت عليهم السلام أنها بقيت بعده ﷺ خمسة وسبعين يوماً وتدل عليه أكثر الروايات. ويشكل الجمع بين ذلك وبين المشهور عند أصحابنا من أن وفاة النبي ﷺ في الثامن والعشرين من صفر إذ تكون وفاتها على هذا في الثالث عشر من جمادى الأولى لا في الثالث من جمادى الآخرة فالجمع بين المشهور في وفاة النبي ﷺ والمشهور في وفاتها ومدلول الرواية الصحيحة غير ممكن ولا يبعد أن يكون الصواب خمسة وتسعين يوماً فصحف تسعين بسبعين لتقارب حروفهما وعدم النقط غالباً في الخطوط القديمة فيرتفع التنافي وهي يومان من صفر وثلاثة من جمادى الآخرة فهذه خمسة والربيعان وجمادى الأولى تسعون يوماً فهذه خمسة وتسعون يوماً وربما يعضده رواية الثلاثة الأشهر فإن الخمسة أيام يتسامح فيها.

وأما مدة مرضها فقال ابن شهراشوب في المناقب: روي أنها ما زالت بعد أبيها معصبة الرأس (إلى أن قال): ثم مرضت ومكثت أربعين ليلة ثم قضت نحبها. وظاهره أنها مكثت أربعين ليلة مريضة إلا أنها مكثت بعد أبيها أربعين ليلة. وعن الباقر عليه السلام: أنها مكثت في مرضها خمسة عشر يوماً وتوفيت.

وكان عمرها صلوات الله عليها وعلى أبيها عند وفاتها ثماني عشرة سنة وقيل: ثماني عشرة سنة وشهرين وقيل: وسبعة أشهر هذا على القول بأنها ولدت بعد المبعث بخمس سنين وعلى القول بأنها ولدت بعده بسنتين يكون عمرها

إحدى وعشرين سنة وهو الذي رواه الحاكم في المستدرك بسنده عن أم الحسن بنت أبي جعفر محمد بن علي عن أخيها جعفر بن محمد قال: ماتت فاطمة وهي ابنة إحدى وعشرين وولدت على رأس إحدى وأربعين من مولد النبي ﷺ وعلى قول الاستيعاب في مولدها أنه بعد البعثة بسنة يكون عمرها اثنتين وعشرين سنة وعلى القول بأنها ولدت قبل المبعث بخمس سنين كما هو قول أكثر علماء أهل السنة يكون عمرها ثماني وعشرين سنة. وعن المدائني ماتت ولها تسع وعشرون سنة وعن الزبير بن بكار عن عبد الله بن الحسن ثلاثون سنة «اهـ» وكل ذلك ناشىء عن الخلاف في تاريخ مولدها: كما أن الاختلاف في تاريخ وفاتها وسنها يوم تزويجها الظاهر أنه ناشىء عن ذلك والله أعلم.

حزنها بعد أبيها ﷺ

روى الكليني بسنده عن الصادق عليه السلام قال: عاشت فاطمة بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يوماً لم تر كاشرة ولا ضاحكة تأتي قبور الشهداء في كل جمعة مرتين الاثنين والخميس فتقول: ها هنا كان رسول الله ﷺ وها هنا كان المشركون (وفي رواية) عن الصادق عليه السلام أنها كانت تصلي هناك وتدعو حتى ماتت (وروى) ابن شهراشوب في المناقب عن الباقر عليه السلام قال: ما رأيت فاطمة ضاحكة قط منذ قبض رسول الله ﷺ حتى قبضت، وفي السيرة النبوية لأحمد ابن زيني دحلان عاشت فاطمة بعد أبيها ﷺ ستة أشهر فما ضحكت تلك المدة. وروى أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده عن أبي جعفر «هو الباقر عليه السلام» قالت: ما رأيت فاطمة ضاحكة بعد رسول الله ﷺ إلا يوماً افترت بطرف نابها قال: ومكثت بعده ستة أشهر قال ابن شهراشوب في المناقب روي أنها ما زالت بعد أبيها معصبة الرأس ناحلة الجسم منهدة الركن باكية العين محترقة القلب يغشى عليها ساعة بعد ساعة وتقول لولديها: أين أبوكما الذي كان يكرمكما ويحملكما مرة بعد مرة؟ أين أبوكما الذي كان أشد الناس شفقة عليكما فلا يدعكما تمشيان على الأرض ولا أراه يفتح هذا الباب أبداً ولا يحملكما على

عاتقه كما لم يزل يفعل بكما (وروي) أنه لما قبض النبي ﷺ امتنع بلال من الأذان وقال: لا أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ وأن فاطمة قالت ذات يوم: أشتهي أن أسمع صوت مؤذن أبي بأذان فبلغ ذلك بلالاً فأخذ في الأذان فلما قال: الله أكبر الله أكبر ذكرت أباها وأيامه فلم تتمالك من البكاء فلما بلغ إلى قوله: أشهد أن محمداً رسول الله شهقت فاطمة وسقطت لوجهها وغشي عليها فقال الناس لبلال: أمسك فقد فارقت ابنة رسول الله الدنيا وظنوا أنها قد ماتت فلم يتم الأذان فأفاقت فسألته إتمامه فلم يفعل وقال لها: يا سيدة النسوان إني أخشى عليك مما تنزلينه بنفسك إذا سمعت صوتي بالأذان فأعفته من ذلك «وعن» علي عليه السلام قال: غسلت النبي ﷺ في قميصه فكانت فاطمة تقول: أرني القميص فإذا شمته غشي عليها فلما رأيت ذلك غيبته.

خطبة الزهراء عليها السلام في مرضها بمحضر نساء المهاجرين والأنصار

في احتجاج الطبرسي مرسلاً عن سويد بن غفلة وفي معاني الأخيار وشرح النهج لابن أبي الحديد بالإسناد عن عبد اللّه بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عليهم السلام وفي أمالي الشيخ بسنده عن ابن عباس وفي كشف الغمة عن صاحب كتاب السقيفة أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري عن رجاله عن عبد اللّه بن حسن عن أمه فاطمة بنت الحسين أنها لما مرضت فاطمة الزهراء عليها السلام المرضة التي توفيت فيها واشتدت علتها اجتمعت إليها نساء المهاجرين و الأنصار ليعدنها فسلمن عليها وقلن لها: كيف أصبحت من علتك «من ليلتك خ ل» يا بنت رسول الله ﷺ فحمدت الله تعالى وصلت على أبيها ثم قالت: أصبحت والله عائفة لدنياكن قالية لرجالكن لفظتهم بعد أن عجمتهم وشنأتهم بعد أن سبرتهم فقبحاً لفلول الحد واللعب بعد الجد وقرع الصفاة[1] وصدع القناة وخطل الآراء وزلل الأهواء ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ

(١) كناية عن النيل بسوء.

﴿عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لا جرم والله لقد قلدتهم ربقتها وحملتهم أوقتها[1] وشننت عليهم غارتها فجدعا وعقرا وبعدا للقوم الظالمين. ويحهم أنى زعزعوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة والدلالة ومهبط الروح الأمين والطبيين[2] بأمور الدنيا والدين ألا ذلك هو الخسران المبين. وما الذي نقموا من أبي الحسن نقموا منه والله نكير سيفه وقلة مبالاته بحتفه وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله عز وجل. وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة وزالوا عن قبول الحجة الواضحة لردهم إليها وحملهم عليها وتالله لو تكافوا عن زمام نبذه إليه رسول الله ﷺ لاعتلقه ولسار بهم سُجُحاً لا يكلم خشاشه[3] ولا يكل سائره ولا يمل راكبه ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً رويا فضفاضاً تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطاناً ونصح لهم سراً وإعلاناً. ولم يكن يتحلى من الغنى بطائل ولا يحظى من الدنيا بنائل غير ري الناهل وشبعة الكافل. ولبان لهم الزاهد من الراغب والصادق من الكاذب ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ألا هلم فاستمع وما عشت أراك الدهر عجباً ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ ليت شعري إلى أي لجأ لجأوا وإلى أي سناد استندوا وعلى أي عماد اعتمدوا وبأي عروة تمسكوا وعلى أي ذرية قدموا واحتنكوا ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ استبدلوا والله الذنابى بالقوادم والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ويحهم ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أما لعمري لقد لَقِحت فنظرة ريثما تنتج ثم احتلبوا ملء العقب دماً عبيطاً وذِعافاً واطمئنوا للفتنة جأشاً وأبشروا بسيف

---

(١) ثقلها.

(٢) الفطن الحاذق.

(٣) الخشاش بكسر الخاء المعجمة ما يجعل في أنف البعير من خشب ويشد به الزمام ليكون أسرع لانقياده ـ المؤلف ـ.

صارم وسطوة معتد غاشم وبهرج دائم شامل واستبداد من الظالمين يدع فيأكم زهيداً وجمعكم حصيداً فيا حسرة لكم وإني بكم وقد عميت عليكم ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

قال سويد بن غفلة: فأعادت النساء قولها على رجالهن فجاء إليها قوم من المهاجرين والأنصار معتذرين وقالوا: يا سيدة النساء لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر من قبل أن يبرم العهد ويحكم العقد لما عدلنا عنه إلى غيْره «فقالت (ع)»: إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم ولا أمر بعد تقصيركم.

أوقافها وصدقاتها

كان لها سبعة بساتين وقفتها على بني هاشم وبني المطلب وجعلت النظر فيها والولاية لعلي (ع) مدة حياته وبعده للحسن وبعده للحسين وبعده للأكبر من ولدها. روى الكليني في الكافي بسنده عن الصادق (ع) أن فاطمة (ع) جعلت صدقتها لبني هاشم وبني المطلب وبسنده عن الباقر (ع) أنه أخرج حقاً أو سفطاً فأخرج منه كتاباً فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصت به فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ: أوصت بحوائطها السبعة العواف والدلال. والبرقة، والمبيت، والحسني، والصافية، وما لأم إبراهيم، إلى علي بن أبي طالب فإن مضى علي فإلى الحسن فإن مضى الحسن فإلى الحسين فإن مضى الحسين فإلى الأكبر من ولدي شهد الله على ذلك والمقداد بن الأسود والزبير ابن العوام وكتب علي بن أبي طالب. بسنده عن الصادق (ع) نحوه إلا أنه قال إلى الأكبر من ولدي: دون ولدك وبسنده عن أبي الحسن الثاني (ع) أنه سئل عن الحيطان السبعة التي كانت ميراث رسول الله ﷺ لفاطمة فقال: إنما كانت وقفاً فكان رسول الله ﷺ يأخذ إليه منها ما ينفق على أضيافه والتابعة تلزمه فيها فلما قبض جاء العباس يخاصم فاطمة فيها فشهد علي وغيره أنها وقف على فاطمة وعدها كما تقدم (وفي رواية) عن الصادق (ع) أن المبيت هو الذي كاتب عليه سلمان فأفاءه الله على رسوله فهو في صدقتها (أقول) ربما يتوهم التنافي بين هذه الأخبار فبعضها يدل على أنها تصدقت بها على بني هاشم وبني المطلب أي وقفتها

عليهم ولازم ذلك أنها كانت ملكاً لها إذ لا وقف إلا في ملك وبعضها دال على أن النبي ﷺ كان قد وقفها عليها وحينئذ فكيف تقفها على بني هاشم وبني المطلب فإن الوقف لا يوقف ويمكن الجمع بأن النبي ﷺ وقفها عليها في حياتها وبعدها على بني هاشم وبني المطلب وجعل النظر فيها على الترتيب الذي جعلته. أو أنه وقفها عليها ثم على من تختاره بعدها فهي بوصيتها حاكية لا منشئة.

وصيتها

لما مرضت فاطمة الزهراء (ع) مرضها الذي توفيت فيه جعلت توصي علياً (ع) وتعهد إليه عهودها (فمما) جاء في وصيتها ما روي أن علياً (ع) وجده عند رأسها بعدما توفيت وهي رقعة فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصت به فاطمة بنت رسول الله ﷺ أوصت وهي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن الجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، يا علي حنطني وغسلني وكفني وصلِ علي وادفني بالليل ولا تعلم أحداً وأستودعك الله وأقرأ على ولدي السلام إلى يوم القيامة.

وذكر جماعة أنها لما مرضت دعت أم أيمن وأسماء بنت عميس وعلياً عليه السلام وأوصت إلى علي بثلاث (**الأولى**) أن يتزوج بأمامة بنت أختها زينب لحبها أولادها وقالت إنها تكون لولدي مثلي (وفي رواية) قالت بنت أختي وتحني على ولدي. وأمامة هذه هي بنت أبي العاصِ بن الربيع وهي التي روي أن رسول الله ﷺ كان يحملها في الصلاة وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ فلما توفيت الزهراء عليها السلام تزوج أمير المؤمنين عليه السلام أمامة كما أوصته ومن أجل ذلك قال: أربعة ليس إلى فراقهن سبيل وعد منهن أمامة قال أوصت بها فاطمة (**الثانية**) أن يتخذ لها نعشاً ووصفته له (وفي رواية) أن أسماء بنت

عميس قالت لها إني إذ كنت بأرض الحبشة رأيتهم يصنعون شيئاً فإن أعجبك أصنعه لك فدعت بسرير فأكبته لوجهه ثم دعت بجرائد فشدتها على قوائمه وجعلت عليه نعشاً ثم جللته ثوباً فقالت فاطمة عليها السلام: اصنعي لي مثله، استريني سترك الله من النار. وفي الاستيعاب بسنده أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت لأسماء بنت عميس إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء أنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها فقالت أسماء: يا بنت رسول الله ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة. فدعت بجرائد رطبة فحنتها ثم طرحت عليها ثوباً فقالت فاطمة ما أحسن هذا وأجمله لا تعرف به المرأة من الرجل ثم قال: فاطمة أول من غطي نعشها في الإسلام على الصفة المذكورة ثم بعدها زينب بنت جحش «اهـ» وكانت الزهراء عليها السلام لشدة محافظتها على الستر والعفاف حتى أنها لما قال لها أبوها ﷺ ما خير للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل. مهتمة كثيراً لأمر وضعها على السرير وحملها ظاهرة وشكت ذلك إلى أسماء بنت عميس فوصفت لها النعش فتبسمت فرحاً بذلك بعد أن لم تُر ضاحكة ولا متبسمة بعد وفاة أبيها إلى ذلك الحين. وبذلك يعرف قدر اهتمامها بهذا الأمر. روى الحاكم في المستدرك بسنده عن علي ابن الحسين عن ابن عباس قال: مرضت فاطمة مرضاً شديداً فقالت لأسماء بنت عميس: ألا ترين إلى ما بلغت أحمل على السرير ظاهراً فقالت أسماء: لا لعمري ولكن أصنع لك نعشاً كما رأيت يصنع بأرض الحبشة قالت: فأرينيه فأرسلت أسماء إلى جرائد رطبة وجعلت على السرير نعشاً وهو أول ما كان النعش قالت أسماء: فتبسمت فاطمة وما رأيتها مبتسمة بعد أبيها إلا يومئذ. الحديث (وبضدها تتميز الأشياء) **(الثالثة)** أن لا يُشهد أحداً جنازتها ممن كانت غاضبة عليهم وأن لا يترك أن يصلي عليها أحد منهم وأن يدفنها ليلاً إذا هدأت العيون ونامت الأبصار ويعفي قبرها «وكان» مما أوصت به علياً عليه السلام أن تحنط بفاضل حنوط رسول الله ﷺ وكان أربعين درهماً فقسمه رسول الله ﷺ أثلاثاً ثلثاً لنفسه وثلثاً لعلي وثلثاً لفاطمة وأن يغسلها في قميصها ولا يكشفه عنها لأنها كانت قد اغتسلت قبل وفاتها بيسير وتنظفت ولبست ثيابها الجدد ومن ذلك توهم بعضهم

أن المراد أن تدفن بذلك الغسل وهو غير صحيح كما يأتي «وفي رواية» أنها أوصت لأزواج النبي ﷺ لكل واحدة منهن باثنتي عشرة أوقية والأوقية أربعون درهماً ولنساء بني هاشم مثل ذلك وأوصت لأمامة بنت أختها زينب بشيء. وروى ابن عبد البر في الاستيعاب أن فاطمة عليها السلام قالت لأسماء بنت عميس: إذا أنا مت فاغسليني أنت وعلي ولا تدخلي علي أحداً. ومثله روى أبو نعيم في الحلية ثم قال فلما توفيت غسلها علي وأسماء (وروى) ابن سعد في الطبقات بسنده عن أبي رافع عن سلمى وفي الإصابة أخرج ابن سعد وأحمد بن حنبل من حديث أم رافع قالت: مرضت فاطمة فلما كان اليوم الذي توفيت فيه خرج علي فقالت لي: يا أمه اسكبي لي غسلاً، فسكبت لها فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ثم قالت: ائتيني بثيابي الجدد، فأتيتها بها فلبستها ثم قالت: اجعلي فراشي وسط البيت فجعلته فاضطجعت عليه واستقبلت القبلة ثم قالت لي: يا أمه إني مقبوضة الساعة وقد اغتسلت فلا يكشفن لي أحد كتفاً فماتت «اهـ». وروى أبو نعيم في الحلية أنها لما حضرتها الوفاة أمرت علياً فوضع لها غسلاً فاغتسلت وتطهرت ودعت بثياب أكفانها فأتيت بثياب غلاظ خشن فلبستها ومست من الحنوط ثم أمرت علياً أن لا تكشف إذا قبضت وأن تدرج كما هي في ثيابها «اهـ» والظاهر أن هذا الغسل الذي اغتسلته صلوات الله عليها كان لأجل التنظيف والتطهر لتغسل بعد وفاتها في ثيابها طاهرة نظيفة ولا تكشف لأنه أبلغ في الستر وأقل كلفة على من يغسلها لا أنه كان غسل الأموات لعدم جواز تقديمه على الموت في مثل المقام وتوهم بعضهم أنه غسل الأموات وليس بصواب. فلما توفيت صاح أهل المدينة صيحة واحدة، واجتمعت نساء بني هاشم في دارها فصرخن صرخة واحدة كادت المدينة تتزعزع من صراخهن وهن يقلن: يا سيدتاه يا بنت رسول الله. وأقبل الناس مثل عرف الفرس إلى علي (ع) وهو جالس والحسن والحسين عليهما السلام بين يديه يبكيان فبكى الناس لبكائهما وخرجت أم كلثوم وعليها برقعها تجر ذيلها متجللة برداء وهي تبكي وتقول يا أبتاه يا رسول الله الآن حقاً فقدناك فقداً لا لقاء بعده أبداً، واجتمع الناس فجلسوا وهم

يرجون وينتظرون أن تخرج الجنازة فيصلوا عليها، فخرج أبو ذر وقال انصرفوا فإن ابنة رسول الله قد أخر إخراجها. هذه العشية، فقام الناس وانصرفوا. وفي كتاب روضة الواعظين: إن فاطمة عليها السلام لم تزل بعد وفاة أبيها ﷺ مهمومة مغمومة محزونة مكروبة كئيبة باكية ثم مرضت مرضاً شديداً ومكثت أربعين ليلة في مرضها إلى أن توفيت صلوات الله عليها فلما نعيت إليها نفسها دعت أم أيمن وأسماء بنت عميس ووجهت خلف علي فأحضرته فقالت يا ابن عم إنه قد نعيت إلي نفسي وإنني لا أرى ما بي إلا أنني لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة وأنا أوصيك بأشياء في قلبي. قال لها علي (ع) أوصيني بما أحببت يا بنت رسول الله، فجلس عند رأسها وأخرج من كان في البيت ثم قالت: يا ابن عم ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتني فقال عليه السلام: معاذ الله أنت أعلم بالله وأبر وأتقى وأكرم وأشد خوفاً من الله من أن أوبخك بمخالفتي وقد عز علي مفارقتك وفقدك إلا أنه أمر لا بد منه والله لقد جددت علي مصيبة رسول الله ﷺ وقد عظمت وفاتك وفقدك فإنا لله وإنا إليه راجعون من مصيبة ما أفجعها وآلمها وأمضها وأحزنها هذه والله مصيبة لا عزاء عنها ورزية لا خلف لها. ثم بكيا جميعاً ساعة وأخذ علي رأسها وضمها إلى صدره ثم قال: أوصيني بما شئت فإنك تجديني وفياً أمضي كل ما أمرتني به وأختار أمرك على أمري. قالت: جزاك الله عني خير الجزاء يا ابن عم. ثم أوصته بما أرادت فقام أمير المؤمنين (ع) بجميع ما وصته به فغسلها في قميصها وأعانته على غسلها أسماء بنت عميس. قال ابن عبد البر في الاستيعاب: غسلها علي بن أبي طالب مع أسماء بنت عميس. وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن أسماء بنت عميس قالت: غسلت أنا وعلي فاطمة بنت رسول الله ﷺ «اه» وكان علي هو الذي يباشر غسلها وأسماء تعينه على ذلك وبهذا يرتفع استبعاد بعضهم أن تغسلها أسماء مع علي وهي أجنبية عنه لأنها كانت يومئذ زوجة أبي بكر وفي بعض الأخبار أنه أمر الحسن والحسين عليهما السلام يدخلان الماء ولم يحضرها غيره وغير الحسنين وزينب وأم كلثوم وفضة جاريتها وأسماء بنت

عميس: قال ابن عبد البر في الاستيعاب: فلما توفيت جاءت عائشة تدخل، فقالت أسماء: لا تدخلي. فشكت إلى أبي بكر فقالت: إن هذه الخثعمية تحول بيننا وبين بنت رسول الله ﷺ وقد جعلت لها مثل هودج العروس. فجاء فوقف على الباب فقال: يا أسماء ما حملك على أن منعت أزواج النبي ﷺ أن يدخلن على بنت رسول الله ﷺ وجعلت لها مثل هودج العروس؟ فقالت: أمرتني أن لا يدخل عليها أحد وأريتها هذا الذي صنعت وهي حية فأمرتني أن أصنع ذلك لها قال أبو بكر: فاصنعي ما أمرتك ثم انصرف «اهـ» وكفنها علي (ع) في سبعة أثواب وحنطها بفاضل حنوط رسول الله ﷺ ثم صلى عليها وكبر خمساً ودفنها في جوف الليل وعفى قبرها ولم يحضر دفنها والصلاة عليها إلا علي والحسنان عليهم السلام وعمار والمقداد وعقيل والزبير وأبو ذر وسلمان وبريدة ونفر من بني هاشم وخواص علي (ع). واختلف في موضع دفنها فقيل دفنت في بيتها وهو الأصح الذي يقتضيه الاعتبار وقيل دفنت في البقيع وسوى علي (ع) حول قبرها قبوراً مزورة حتى لا يعرف أحد موضعه. وروى ابن سعد في الطبقات أنه نزل في حفرة فاطمة العباس وعلي والفضل. وروى عدة روايات بعدة أسانيد أن علياً (ع) هو الذي صلى عليها. وروى ابن سعد أيضاً روايات كثيرة بعدة أسانيد عن الزهري أن علياً (ع) دفن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلاً. وبسندهِ عن جابر عن الباقر (ع) قال دفنت فاطمة ليلاً. وروى أيضاً عدة روايات عن موسى بن علي عن بعض أصحابه وعن عائشة وعن يحيى بن سعيد أن فاطمة دفنت ليلاً بسنده عن علي بن الحسين قال: سألت ابن عباس: متى دفنتم فاطمة؟ فقال: دفناها بليل بعد هدأة. قلت: فمن صلى عليها؟ قال: علي. (وروى) الحاكم بسنده عن عائشة قالت: دفنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلاً ولم يشعر بها أبو بكر حتى دفنت وصلى عليها علي بن أبي طالب. وقال ابن عبد البر في الاستيعاب صلى عليها علي بن أبي طالب وهو الذي غسلها مع أسماء بنت عميس وكانت أشارت عليه أن يدفنها ليلاً. وأورد السمهودي في وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى عدة روايات دالة على أنها دفنت ليلاً ومنها ما حكاه عن

البيهقي أنه قال: وقد ثبت أن أبا بكر لما يعلم بوفاة فاطمة عليها السلام لما ثبت في الصحيح أن علياً دفنها ليلاً ولم يعلم أبا بكر. وعن الطبري في دلائل الإمامة عن محمد بن همام أن علياً (ع) دفنها بالروضة وعمى موضع قبرها قال وأصبح البقيع ليلة دفنت وفيه أربعون قبراً جدد. «وروي» أن أمير المؤمنين قام بعد دفنها عليها السلام فحول وجهه إلى قبر رسول الله ﷺ ثم قال: السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك وزائرتك النازلة في جوارك والبائتة في الثرى ببقعتك والمختار الله لها سرعة اللحاق بك قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ورق عنها تجلّدي إلا أن في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز فلقد وسدتك في ملحود قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك بلى وفي كتاب الله لي نعم القبول إنا لله وإنا إليه راجعون قد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة واختلست الزهراء فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله. أما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم، كمد مقيح وهم مهيج سرعان ما فرق بيننا وإلى الله أشكو وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فاحفها السؤال واستخبرها الحال فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثه سبيلاً وستقول ويحكم الله وهو خير الحاكمين والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم فإن أنصرف فلا عن ملالة وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين واها واها والصبر أيمن وأجمل ولولا غلبة المستولين لجعلت المقام واللبث لزاماً معكوفاً ولأعولت إعوال الثكلى على جليل الرزية فبعين الله تدفن ابنتك سراً وتهضم حقها وتمنع إرثها ولم يطل العهد ولم يخلق منك الذكر، إلى الله يا رسول الله المشتكى وفيك يا رسول الله أحسن العزاء صلى الله عليك وعليها السلام والرضوان. ولما دفنها علي (ع) قام على شفير القبر فأنشأ يقول: وقال الحاكم في المستدرك لما ماتت فاطمة قال علي بن أبي طالب:

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكل الذي دون الفراق قليل

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد ... دليل على أن لا يدوم خليل

وعن الطبري في دلائل الإمامة عن محمد بن همام أن المسلمين لما علموا

وفاتها جاؤوا إلى البقيع فوجدوا فيه أربعين قبراً فأشكل عليهم موضع قبرها من سائر القبور فضج الناس ولام بعضهم بعضاً وقالوا لم يخلف نبيكم فيكم إلا بنتاً واحدة تموت وتدفن ولم تحضروا وفاتها والصلاة عليها ولا تعرفوا قبرها. ثم قال ولاة الأمر منهم: هاتوا من نساء المسلمين من ينبش هذه القبور حتى نجدها فنصلي عليها ونزور قبرها. فبلغ ذلك أمير المؤمنين (ع) فخرج مغضباً قد احمرت عيناه ودرت أوداجه وعليه قباؤه الأصفر الذي كان يلبسه في كل كريهة وهو متكىء على سيفه ذي الفقار حتى ورد البقيع فسار إلى الناس النذير وقالوا هذا علي بن أبي طالب قد أقبل كما ترونه يقسم بالله لئن حول من هذه القبور حجر ليضعن السيف على غابر الآخر، فتلقاه بعضهم فقال له: مالك يا أبا الحسن والله لننبشن قبرها ولنصلين عليها. فضرب علي (ع) بيده إلى جوامع ثوبه فهزه ثم ضرب به الأرض وقال: أما حقي فقد تركته مخافة أن يرتد الناس، وأما قبر فاطمة فوالله الذي نفس علي بيده لأن رمت وأصحابك شيئاً من ذلك لأسقين الأرض من دمائكم فإن شئت فاعرض، فتلقاه آخر فقال: يا أبا الحسن بحق رسول الله وبحق من فوق العرش ألا خليت عنه فإنا غير فاعلين شيئاً تكرهه، فخلى عنه وتفرق الناس ولم يعودوا إلى ذلك.

ما أثر عنها من الحكم

روى ابن شهراشوب في المناقب عن الحسن البصري أن النبي ﷺ قال لفاطمة (ع) أي شيء خير للمرأة قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل. فضمها إليه وقال ذرية بعضها من بعض. وروى أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء بسنده عن أنس قال رسول الله ﷺ: «**ما خير للنساء**» فلم ندر ما نقول فسار علي إلى فاطمة فأخبرها فقالت فهلا قلت له: خير لهن أن لا يرين الرجال ولا يرونهن. فرجع بذلك فقال له: من علمك هذا قال: فاطمة. قال: «**إنها بضعة مني**». قال ورواه سعيد بن المسيب عن علي نحوه: ثم روى بسنده عن سعيد بن المسيب عن علي أنه قال لفاطمة: ما خير للنساء قالت: لا يرين الرجال ولا يرونهن فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**إنما فاطمة بضعة مني**».

ما أثر عنها من الدعاء

دعاء رواه عنها في مهج الدعوات:

اللهم قنعني بما رزقتني واسترني وعافني أبداً ما أبقيتني واغفر لي وارحمني إذا توفيتني اللهم لا تعنني في طلب ما لم تقدر لي وما قدرته علي فاجعله ميسراً سهلاً. اللهم كاف عني والدي وكل من له نعمة علي خير مكافاتك. اللهم فرغني لما خلقتني له ولا تشغلني بما تكفلت لي به، ولا تعذبني وأنا أستغفرك، ولا تحرمني وأنا أسألك. اللهم ذلل نفسي في نفسي، وعظم شأنك في نفسي، وألهمني طاعتك والعمل بما يرضيك والتجنب لما يسخطك يا أرحم الراحمين.

دعاء علمها إياه النبي ﷺ

رواه في مهج الدعوات: اللهم ربنا ورب كل شيء منزل التوراة والإنجيل والفرقان فالق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء صل على محمد وعلى أهل بيته وعليهم السلام واقض عني الدين واغنني من الفقر ويسر لي كل أمر يا أرحم الراحمين.

ما أثر عنها عليها السلام من الشعر

منه ما يأتي في سيرة الحسن (ع) من قولها وهي ترقص الحسنين عليهما السلام. وقولها (ع) ترثي أباها ﷺ بعدما أخذت من تراب القبر الشريف ووضعته على عينيها وأنشأت تقول رواه غير واحد:

ماذا على من شم تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت علي مصائب لو أنها ... صبت على الأيام عدن لياليا

وقولها (ع) ترثيه ﷺ كما في مناقب ابن شهراشوب وفيها البيتان المذكوران:

قل للمغيب تحت أطباق الثرى إن كنت تسمع صرختي وندائيا
صبت علي مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا
قد كنت ذات حمى بظل محمد لا أختشي ضيما وكان جماليا
فاليوم أخشع للذليل وأتقي ضيمي وأدفع ظالمي بردائيا
فإذا بكت قمرية في ليلها شجنا على غصن بكيت صباحيا
فلأجعلن الحزن بعدك مؤنسي ولأجعلن الدمع فيك وشاحيا
ماذا على من شم تربة أحمد أن لا يشم مدى الزمان غواليا

وقولها (ع) ترثيه ﷺ أورده أحمد بن زيني دحلان في السيرة النبوية:

إغبرَّ آفاق السماء وكورت شمس النهار وأظلم العصران
والأرض من بعد النبي كئيبة أسفاً عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها وليبكه مضر وكل يماني

وقولها (ع) ترثيه ﷺ كما في مناقب ابن شهراشوب وفي السيرة النبوية لأحمد بن زيني دحلان أنها لحسان بن ثابت:

كنت السواد لناظري فعليك يبكي الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب (ع)

ثاني أئمة أهل البيت الطاهر وأول السبطين سيدي شباب أهل الجنة ريحانتي المصطفى وأحد الخمسة أصحاب العبا. أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين.

مولده الشريف

ولد بالمدينة ليلة النصف من شهر رمضان على الصحيح المشهور بين الخاصة والعامة «وقيل» في شعبان ولعله اشتباه بمولد أخيه الحسين عليهما السلام سنة ثلاث أو اثنتين من الهجرة وقيل غير ذلك ولكن المشهور الأثبت أحد هذين. وهو أول أولاد علي وفاطمة (ع) روى الكليني في الكافي عن الصادق (ع) إنه كان بين الحسن والحسين (ع) طهر واحد وكان بينهما في الميلاد ستة أشهر وعشر فالعشر هي أقل الطهر والستة الأشهر مدة الحمل، وذكر علي بن إبراهيم في تفسيره إنه كان بينهما طهر واحد وأن الحسين (ع) كان في بطن أمه ستة أشهر ولكن ينافي ذلك ما ذكروه في تاريخ ولادتهما من أن الحسن (ع) ولد منتصف شهر رمضان سنة ثلاث أو اثنتين والحسين (ع) لخمس خلون من شعبان سنة أربع أو ثلاث فيكون بين ميلاديهما عشرة أشهر وعشرون يوماً وهو الذي اعتمده ابن شهراشوب في المناقب. وإذا كان ميلاد

الحسن (ع) سنة اثنتين والحسين (ع) سنة أربع يكون بين ميلاديهما سنة وعشرة أشهر وعشرون يوماً وهو قريب مما حكي عن قتادة من أن بين ولادتيهما سنة وعشرة أشهر فالظاهر أنه وقع اشتباه في نسبة الولادة لستة أشهر إلى الحسين (ع) وإنما هي للحسن (ع) فالراوي سمع أن بين ولادة الحسن والحمل بالحسين طهر واحد وأن الحسن ولد لستة أشهر فنسي ونسبه إلى الحسين أو وقع الاشتباه من الرواة بين الإسمين لتقارب الحروف خصوصاً في الخط القديم الذي هو بغير نقط فرتب على هذا الاشتباه أن بينهما في الميلاد ستة أشهر وعشراً ونسب ذلك إلى الصادق (ع) ملفقاً من روايتين إحداهما أن بين الحمل والولادة طهر واحد هي صواب والثانية أن الحسين ولد لستة أشهر وهو اشتباه وإنما هو للحسن والله أعلم. وعن الواقدي أن بين ولادة الحسن والحمل بالحسين خمسين ليلة.

فلما ولد الحسن قالت فاطمة لعلي: سمه فقال: ما كنت لأسبق باسمه رسول الله ﷺ فجاء النبي ﷺ فأخرج إليه فقال: اللهم إني أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم وأذن في إذنه اليمنى و أقام في اليسرى. وفي أسد الغابة عن أبي أحمد العسكري سماه النبي ﷺ حسناً ولم يكن يعرف هذا الاسم في الجاهلية. وروى الكليني بسنده عن الصادق (ع) قال: عق رسول الله ﷺ عن الحسن بيده وقال بسم الله عقيقة عن الحسن وقال: اللهم عظمها بعظمه ولحمها بلحمه ودمها بدمه وشعرها بشعره اللهم اجعلها وقاء لمحمد وآله (وفي رواية) عق عنه بكبشين أملحين. ولعل الرواية أنه عق عن الحسن والحسين بكبشين أملحين كما في طبقات ابن سعد من أنه عق عنهما بكبشين فوقع اشتباه في النقل، وأعطى القابلة فخذاً وديناراً وحلق رأسه وأمر أن يتصدق بزنة شعره فضة فكان وزنه درهماً وشيئاً وقيل بل أمر أمه أن تفعل ذلك قال ابن الصباغ: فصارت العقيقة والتصدق بوزن الشعر سنة مستمرة عند العلماء بما فعله النبي ﷺ في حق الحسن وطلى رأسه بالخلوق وقال الدم فعل الجاهلية، وفي أسد الغابة بسنده عن أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب أنها قالت: يا رسول الله رأيت كأن عضواً

من أعضائك في بيتي قال: خيراً رأيت تلد فاطمة غلاماً فترضعينه بلبن قثم فولدت الحسن فأرضعته بلبن قثم.

كنيته

أبو محمد لا غير كناه به النبي ﷺ كما في أسد الغابة عن أبي أحمد العسكري.

لقبه

أشهر ألقابه: التقي والزكي والسبط.

نقش خاتمه

في الفصول المهمة: (العزة لله وحده) وفي الوافي وغيره عن الرضا عليه السلام (العزة لله) وفي عنوان المعارف للصاحب بن عباد (الله أكبر وبه أستعين) وفي الوافي وغيره عن الصادق عليه السلام أن نقش خاتم الحسن والحسين عليهما السلام (حسبي الله).

بوابه

سفينة مولى رسول الله ﷺ.

أولاده

كان له خمسة عشر ولداً ما بين ذكر وأنثى وهم: زيد، أم الحسن، أم الحسين، أمهم أم بشير بنت أبي مسعود الخزرجية. الحسن، أمه خولة بنت منضور الفزارية. عمر. القاسم، عبد الله، أمهم أم أولد. عبد الرحمن، أمه أم ولد. الحسين الملقب بالأثرم. طلحة، فاطمة أمهم أم إسحق بنت طلحة بن عبيد الله التميمي. أم عبد الله، فاطمة. أم سلمة. رقية، لأمهات شتى ولم يعقب منهم غير الحسن وزيد.

صفته عليه السلام في خلقه وحليته

عن الغزالي في الإحياء والمكي في قوت القلوب أن النبي ﷺ قال للحسن (ع) أشبهت خلقتي وخلقي. وقال المفيد في الإرشاد كان الحسن (ع) أشبه الناس برسول الله ﷺ خلقاً وهيئة وهدياً وسؤدداً. وفي أسد الغابة بسنده عن أنس بن مالك لم يكن أحد أشبه برسول الله ﷺ من الحسن بن علي وروى البغوي الحسين بن مسعود في كتابه مصابيح السنة عن أنس بن مالك مثله وزاد: وقال في الحسين (ع) أيضاً كان أشبههم برسول الله ﷺ (أقول) قال ذلك أنس لما رأى رأس الحسين (ع) بين يدي ابن زياد. والجمع بين الحديثين يقتضي أن يكون الحسن أشبه الناس به ما عدا الحسين، والحسين أشبه به ما عدا الحسن وحاصله أنه لم يكن أحد أشبه برسول الله ﷺ منهما عليهما السلام وقد يجمع بينهما بما رواه أحمد بن حنبل في مسنده بسنده عن علي (ع) أنه قال الحسن أشبه برسول الله ﷺ ما بين الصدر إلى الرأس والحسين أشبه ما أسفل من ذلك «اهـ» ويمكن أن يجمع بينهما بأن الحسن كان في حياته أشبه برسول الله ﷺ من أخيه الحسين ومن جميع الناس وبعد وفاة الحسن (ع) صار الحسين (ع) أشبه بجده من بقية الناس وحاصله أن الحسين أشبه به ﷺ بعد الحسن ولكن قد ينافي ذلك ما حكي عن الزهراء عليها السلام أنها كانت ترقص الحسن عليه السلام وتقول:

أشبه أباك يا حسن ... واخلع عن الحق الرسن

واعبد الهاً ذا منن ... ولا توال ذا الأحن

وقالت للحسين عليه السلام:

أنت شبيه بأبي ... لست شبيهاً بعلي

مع إمكان الجمع أيضاً بإرادة الشبه من بعض الجهات دون بعض لا عموم الشبه من جميع الوجوه والله أعلم. وكيفما كان فمما جاء في صفته (ع) ما رواه غير واحد من العلماء منهم ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة مرفوعاً إلى

أحمد بن محمد بن أيوب المقبري وغيره قالوا: كان الحسن (ع) أبيض اللون مشرباً بحمرة أدعج[١] العينين سهل الخدين[٢] دقيق المسربة[٣] كث اللحية[٤] ذا وفرة[٥] كأن عنقه بريق فضة[٦] عظيم الكراديس[٧] بعيد ما بين المنكبين ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير مليحاً من أحسن الناس وجهاً وكان يخضب بالسواد وكان جعد الشعر[٨] حسن البدن وقال ابن سعد: كان الحسن والحسين يخضبان بالسواد «اهـ».

صفته في أخلاقه وأطواره

ذكر غير واحد من العلماء أن الحسن (ع) كان من أوسع الناس صدراً وأسجحهم خلقاً. وقال المدائني: كان الحسن (ع) أكبر ولد علي وكان سيداً سخياً حليماً وكان رسول الله ﷺ يحبه.

وروى الصدوق في الأمالي بإسناده عن الصادق عن أبيه عن جده عليهم السلام أن الحسن بن علي بن أبي طالب كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم وكان إذا حج حج ماشياً وربما مشى حافياً، ولا يمر في شيء من أحواله إلا ذكر الله سبحانه وكان أصدق الناس لهجة وأفصحهم منطقاً وكان إذا بلغ باب المسجد رفع رأسه ويقول إلٰهي ضيفك ببابك يا محسن قد أتاك المسيء فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم. وعن الزبير بن بكار في كتاب أنساب قريش. روت زينب بنت أبي رافع قالت أتت فاطمة (ع) بابنيها إلى رسول الله ﷺ في شكواه التي توفي فيها فقالت يا رسول الله هذان ابناك فورثهما

---

(١) الدعج شدة سواد العين مع سعتها.
(٢) صلتهما أي سائل الخدين غير مرتفع الوجنتين.
(٣) بفتح الميم وضم الراء الشعر المستدق الذي يأخذ من الصدر إلى السرة.
(٤) كثير شعرها.
(٥) الوفرة الشعر إلى شحمة الأذن.
(٦) أي سيف فضة في البريق واللمعان وكذلك كانت صفة النبي ﷺ وأمير المؤمنين (ع).
(٧) كل عظمين التقيا في مفصل فهو كردوس مثل المنكبين والركبتين.
(٨) الجعد ضد السبط.

شيئاً. فقال: أما حسن فإن له هيبتي وسؤددي وأما حسين فإن له جرأتي وجودي «اه». قال الطبرسي في أعلام الورى: ويصدق هذا الخبر ما رواه محمد بن إسحق قال: ما بلغ أحد من الشرف بعد رسول الله ﷺ ما بلغ الحسن بن علي كان يبسط له على باب داره فإذا خرج وجلس انقطع الطريق فما يمر أحد من خلق الله إجلالاً له فإذا علم قام ودخل بيته فيمر الناس. قال الراوي: ولقد رأيته في طريق مكة نزل عن راحلته فمشى فما من خلق الله أحد إلا نزل ومشى حتى رأيت سعد بن أبي وقاص قد نزل ومشى إلى جنبه. وعن واصل بن عطاء: كان الحسن بن علي عليهما السلام عليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك. قال المفيد في الإرشاد: كان الحسن بن علي وصي أبيه أمير المؤمنين عليهما السلام ووصاه بالنظر في وقوفه وصدقاته وكتب إليه عهداً مشهوراً ووصية ظاهرة في معالم الدين وعيون الحكمة والآداب وقد نقل هذه الوصية جمهور العلماء واستبصر بها في دينه ودنياه كثير من الفقهاء.

فضائل الحسن والحسين (ع)

(أما شرف النسب) فكفاهما أن جدهما محمد المصطفى سيد ولد آدم ﷺ وأبوهما علي المرتضى سيد الأوصياء وأمهما فاطمة البضعة الزهراء سيدة النساء. وجدتهما خديجة بنت خويلد أول نساء هذه الأمة إسلاماً وأول امرأة بذلت أموالها في سبيل الله وأعانت رسول الله ﷺ جهدها على تبليغ رسالته وخففت من آلامه لأذى قومه.

وعمهما جعفر وعم أبيهما حمزة أسد الله وأسد رسول الله وسيد الشهداء وجدهما أبو طالب ناصر رسول الله ﷺ والمدافع عنه والمتحمل الأذى في سبيله. وجد أبيهما عبد المطلب شيبة الحمد وسيد البطحاء. وجد جدهما هاشم مطعم الحجيج وهاشم الثريد وسيد قريش.

شرف تورث كابراً عن كابر ... كالرمح أنبوباً على أنبوب

* * *

خير الفروع فروعهم وأصولهم خير الأصول

وقال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى جعل ذرية كل نبي من صلبه خاصة وجعل ذريتي من صلب علي بن أبي طالب (اهـ) فكانت ذريته ﷺ منحصرة في الحسن والحسين وأبنائهما.

وروى النسائي في الخصائص وابن عبد البر في الاستيعاب بالإسناد عن أبي سعيد الخدري في حديث قال رسول الله ﷺ الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

وروى النسائي بسنده عن أنس بن مالك قال: دخلت أو ربما دخلت على رسول الله ﷺ والحسن والحسين ينقلبان على بطنه ويقول: ريحانتاي من هذه الأمة.

وفي أسد الغابة بإسناده عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ في بيت أم سلمة فدعا النبي ﷺ فاطمة وحسناً وحسيناً فجللهم بكساء وعلي خلف ظهره ثم قال اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت أم سلمة وأنا معهم يا رسول الله، قال أنت على مكانك أنت إلى خير.

وبإسناده عن زيد بن أرقم: قال رسول الله ﷺ إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما (اهـ).

شدة حب النبي ﷺ لهما ووجوب محبتهما على كل واحد وأن حبهما حب رسول الله ﷺ وأن بغضهما بغضه

قال المفيد في الإرشاد: وكانا حبيبي رسول الله ﷺ بين جميع أهله. (وروى) الترمذي في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك سئل رسول الله ﷺ أي

أهل بيتك أحب إليك قال الحسن والحسين وكان يقول لفاطمة ادعي لي ابني فيشمهما ويضمهما إليه.

(وروى) النسائي في الخصائص بسنده عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال في الحسن والحسين (ع) وهما على وركيه: «**هذان ابناي وابنا ابنتي اللهم إنك تعلم أني أحبهما فأحبهما**» (ورواه) في أسد الغابة بسنده عن النبي ﷺ مثله. وفي الاستيعاب. روي عن النبي ﷺ من وجوه أنه قال في الحسن والحسين: «**اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما**» «وفي الإصابة» وعند أحمد من طريق عبد الرحمن بن مسعود عن أبي هريرة خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين هذا على عاتقه وهذا على عاتقه وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة حتى انتهى إلينا فقال: «**من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني**» وقال ﷺ: «**من أحب الحسن والحسين أحببته ومن أحببته أحبه الله ومن أحبه الله أدخله الجنة ومن أبغضهما أبغضته ومن أبغضته أبغضه الله ومن أبغضه الله أدخله النار**»«وروى» أبو عمرو الزاهد في كتاب اليواقيت عن زيد بن أرقم كنت عند النبي ﷺ في مسجده فمرت فاطمة صلوات الله عليها خارجة من بيتها إلى حجرة رسول الله ﷺ ومعها الحسن والحسين عليهما السلام ثم تبعها علي (ع) فرفع رسول الله ﷺ رأسه إلي فقال: «**من أحب هؤلاء فقد أحبني ومن أبغض هؤلاء فقد أبغضني**». وعن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين: «**أنا سلم لمن سالمتم وحرب لمن حاربتم**» (وعن أسلم) رأيت الحسن والحسين على عاتق رسول الله ﷺ فقلت: نعم الفرس لكما، فقال رسول الله ﷺ: ونعم الفارسان هما.

وروى الترمذي والنسائي في صحيحيهما بالإسناد إلى بريدة كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال: صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما.

جوامع مناقبهما

روي أن الحسن والحسين (ع) مرا على شيخ يتوضأ ولا يحسن الوضوء فأظهرا تنازعاً يقول كل منهما للآخر أنت لا تحسن الوضوء وقالا: أيها الشيخ كن حكماً بيننا، فتوضآ وقالا: أينا يحسن الوضوء؟ فقال الشيخ: كلاكما تحسنان الوضوء ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يحسن وقد تعلم الآن منكم وتاب على يديكما ببركتكما وشفقتكما على أمة جدكما.

وقال مدرك بن زياد لابن عباس وقد أمسك للحسن ثم للحسين بالركاب وسوى عليهما ثيابهما: أنت أسن منهما تمسك لهما بالركاب؟ فقال: وما تدري من هذان؟ هذان ابنا رسول الله ﷺ أو ليس مما أنعم الله علي به أن أمسك لهما وأسوي عليهما. وفي تذكرة الخواص في أفراد البخاري عن ابن عباس: كان رسول الله يعوذ الحسن والحسين فيقول: «**أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة**» ويقول: «**إن أباكما إبراهيم كان يعوذ بها إسماعيل وإسحق**».

مناقب الحسن (ع) شدة محبة النبي ﷺ له

في تذكرة الخواص روى أحمد بن حنبل في المسند بسنده عن البراء بن عازب: رأيت رسول الله ﷺ واضعاً الحسن على عاتقه وهو يقول: «**اللهم إني أحبه فأحبه**» ـ متفق عليه. وفي رواية فأحب من يحبه. ورواه أبو نعيم في الحلية بسنده عن البراء إلا أنه قال: «**من أحبني فليحبه**». وروى أحمد بن حنبل بسنده عن أبي هريرة في حديث فجاء النبي ﷺ فجلس بفناء بيت فاطمة (ع). إلى أن قال فجاء الحسن يشتد حتى عانقه وقبله وقال: «**اللهم أحبه وأحب من يحبه**» ـ متفق عليه. وعن كتاب بشارة المصطفى عن يعلى بن مرة قال: خرجنا مع النبي ﷺ وقد دعي إلى طعام فإذا الحسن (ع) يلعب في الطريق، فأسرع النبي ﷺ أمام القوم ثم بسط يده فجعل يمر مرة ها هنا ومرة ها هنا يضاحكه حتى أخذه فجعل إحدى يديه في رقبته والأخرى على رأسه ثم اعتنقه فقبله ثم قال: «**حسن مني وأنا منه أحب الله من أحبه**» (اهـ).

سخاء الحسن (ع)

روى أبو نعيم في الحلية أن الحسن بن علي (ع) قاسم الله ماله نصفين (وبسنده) خرج الحسن بن علي من ماله مرتين وقاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات حتى أن كان ليعطي نعلاً ويمسك نعلاً ويعطي خفاً ويمسك خفاً. وذكر مثله محمد بن حبيب في أماليه. وذكر ابن سعد في الطبقات أنه قاسم الله ماله ثلاث مرات حتى كان يعطي نعلاً ويمسك نعلاً وخرج من ماله لله تعالى مرتين. وفي شرح النهج روى أبو جعفر محمد بن حبيب في أماليه أن الحسن (ع) أعطى شاعراً فقال له رجل من جلسائه: سبحان الله أتعطي شاعراً يعصى الرحمٰن ويقول البهتان؟ فقال: يا عبد الله إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك وأن من ابتغاء الخير اتقاء الشر. وروى ابن شهراشوب في المناقب أن رجلاً سأله فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار وقال ائت بحمال يحمل لك فأتىٰ بحمال فأعطاه طيلسانه وقال هذا كرى الحمال. وجاءه بعض الأعراب فقال أعطوه ما في الخزانة فوجد فيها عشرون ألف درهم فدفعها إليه فقال الأعرابي: يا مولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي وأنشر مدحتي فأنشأ الحسن (ع) يقول: نحن أناس نوالنا خضل. «الأبيات الآتية». وروى المدائني قال: خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجاً ففاتتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا فرأو عجوزاً في خباء فاستسقوها فقالت: هذه الشويهة احلبوها وامتذقوا لبنها ففعلوا، واستطعموها فقالت: ليس إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم فذبحها أحدهم وكشطها ثم شوت لهم من لحمها فأكلوا وقالوا عندها فلما نهضوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فإذا عدنا فألمي بنا فإنا صانعون بك خيراً ثم رحلوا فلما جاء زوجها أخبرته فقال: ويحك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش؟ ثم مضت الأيام فأضرت بها الحال فرحلت حتى اجتازت بالمدينة فرآها الحسن (ع) فعرفها فقال لها: أتعرفينني؟ قالت: لا. قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا. فأمر لها بألف شاة وألف دينار وبعث معها رسولاً إلى الحسين (ع) فأعطاها مثل ذلك ثم بعثها إلى عبد الله بن جعفر فأعطاها مثل ذلك.

تواضعه عليه السلام

حكى ابن شهراشوب في المناقب عن كتاب الفنون وكتاب نزهة الأبصار أن الحسن (ع) مر على فقراء وقد وضعوا كسيرات على الأرض وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها فقالوا له: هلم يا ابن بنت رسول الله إلى الغداء. فنزل وقال فإن الله لا يحب المتكبرين وجعل يأكل معهم ثم دعاهم إلى ضيافته وأطعمهم وكساهم.

أخباره إرسال علي ابنه الحسن (ع) إلى الكوفة قبل حرب الجمل

لما خرج أمير المؤمنين (ع) إلى العراق في أثر أصحاب الجمل ووصل إلى الربذة بعث عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر إلى أبي موسى الأشعري إلى الكوفة لما بلغه أن أبا موسى يخذل أهلها عن اللحاق به وكان والياً عليها من قبل عثمان فأقره علي فأبطأ عليه الرجلان، قال أبو مخنف فلما أبطأ ابن عباس وابن أبي بكر عن علي ولم يدر ما صنعا رحل عن الربذة إلى ذي قار فنزلها وبعث إلى الكوفة الحسن ابنه وعمار بن ياسر وزيد بن صوحان وقيس بن سعد بن عبادة ومعهم كتاب إلى أهل الكوفة فأقبلوا حتى كانوا بالقادسية فتلقاهم الناس فلما دخلوا الكوفة قرأوا كتاب علي (ع).

خطبة الحسن (ع) بالكوفة

قال أبو مخنف: لما دخل الحسن وعمار الكوفة اجتمع إليهما الناس فقام الحسن فاستنفر الناس فحمد الله وصلى على رسوله ثم قال:

أيها الناس إنا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله وإلى أفقه من تفقه من المسلمين وأعدل من تعدلون وأفضل من تفضلون وأوفى من تبايعون، من لم يعيه القرآن ولم تجهله السنة ولم تقعد به السابقة، إلى من قربه الله تعالى ورسوله قرابتين قرابة الدين وقرابة الرحم، إلى من سبق الناس إلى كل مأثرة، إلى من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون، فقرب منه وهم متباعدون، وصلى

معه وهم مشركون، وقاتل معه وهم منهزمون، وبارز معه وهم محجمون، وصدقه وهم يكذبون، إلى من لم ترد له ولا تكافأ له سابقة، وهو يسألكم النصر ويدعوكم إلى الحق ويأمركم بالمسير إليه لتؤازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ومثلوا بعماله وانتهبوا بيت ماله، فأشخصوا إليه رحمكم الله فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واحضروا بما يحضر به الصالحون.

قال أبو مخنف: ولما فرغ الحسن بن علي من خطبته قام بعده عمار فخطب خطبة حث فيها الناس على الخروج إلى أمير المؤمنين (ع) فلما سمع أبو موسى خطبة الحسن وعمار قام فصعد المنبر وخطب خطبة طويلة خذل فيها الناس عن علي وبالغ في ذلك، فرد عليه عمار ثم جذبه فنزل عن المنبر (اهـ) وقال الطبري في تاريخه أن علياً (ع) أرسل ابن عباس من ذي قار إلى الكوفة فلقي أبا موسى واجتمع الرؤساء فخطبهم أبو موسى وخذلهم، فرجع ابن عباس إلى علي (ع) فأخبره، فدعا الحسن ابنه وعمار بن ياسر وأرسلهما إلى الكوفة فلما قدماها خرج أبو موسى فلقي الحسن (ع) فضمه إليه وقال لعمار: يا أبا اليقظان أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين وأحللت نفسك مع الفجار قال لم أفعل ولم يسؤني فقطع عليهما الحسن الكلام وقال: يا أبا موسى لم تثبط الناس عنا؟ فوالله ما أردنا إلا الاصلاح وما مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء. قال أبو موسى: صدقت بأبي وأمي ولكن المستشار مؤتمن، فغضب عمار ورد عليه فقام رجل من بني تميم ورد على عمار وثار زيد بن صوحان وطبقته فانتصروا لعمار، وصعد أبو موسى المنبر فقام شبث بن ربعي ورد على زيد، وقام الحسن بن علي فقال: أيها الناس أجيبوا دعوة إمامكم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينصره والله لأن يليه أولو النهي أمثل في العاجلة وخير في العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على أمرنا أصلحكم الله.

وأتت الأخبار علياً (ع) باختلاف الناس بالكوفة فقال للأشتر أنت شفعت في أبي موسى أن أقره على الكوفة فاذهب فأصلح ما أفسدت. فأقبل الأشتر حتى

دخل الكوفة ووصل القصر فاقتحمه وأبو موسى يخطب الناس على المنبر ويثبطهم وعمار يخاطبه والحسن يقول له: اعتزل عملنا وتنح عن منبرنا لا أم لك. إذ دخل غلمان أبي موسى يقولون: هذا الأشتر قد جاء فدخل القصر فضربنا وأخرجنا فنزل أبو موسى من المنبر.

أخباره في حرب صفين

حضر الحسن والحسين عليهما السلام مع أبيهما حرب الجمل وصفين والنهروان ولم يكن يأذن لهما في مباشرة القتال. في نهج البلاغة: من كلام له (ع) في بعض أيام صفين وقد رأى الحسن ابنه (ع) يتسرع إلى الحرب: املكوا عني هذا الغلام لا يهدني فإني أنفس بهذين يعني الحسن والحسين (ع) على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله ﷺ (اه) وفي هذا دلالة على أن الحسنين عليهما السلام نسل رسول الله ﷺ وولداه وابناه مع ما دلت عليه آية المباهلة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ وإنما عنى الحسن والحسين وسمى الله تعالى عيسى ذرية إبراهيم (ع) في قوله ومن ذريته داود وسليمان إلى أن قال ويحيى وعيسى فأما قوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم فإنما عنى به زيد بن حارثة لأنهم كانوا يقولون إنه ابن محمد ومن أخباره يوم صفين ما ذكره نصر بن مزاحم في كتاب صفين. قال: أرسل عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن علي (ع) إن لي إليك حاجة فالقني فلقيه الحسن (ع) فقال له عبيد الله إن أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً وقد شنئه الناس فهل لك في خلعه وأن تتولى أنت هذا الأمر. فقال: كلا والله لا يكون ذلك. ثم قال: يا ابن الخطاب والله لكأني أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك أما إن الشيطان قد زين لك وخدعك حتى أخرجك مخلقاً بالخلوق تري نساء أهل الشام موقفك وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلاً. قال نصر: فوالله ما كان إلا بياض ذلك اليوم حتى قتل عبيد الله. فمر الحسن (ع) فإذا رجل متوسد رجل قتيل قد ركز رمحه في عينه وربط فرسه برجله فقال الحسن (ع) لمن معه انظروا من هذا فإذا رجل من همدان وإذا القتيل

عبيد الله بن عمر بن الخطاب قد قتله الهمداني في أول الليل وبات عليه حتى أصبح (اهـ) وقول عبيد الله هذا للحسن (ع) خداع ما كان لينطلي على الحسن.

جعل علي (ع) الولاية في أوقافه للحسن ثم للحسين (ع)

جعل أمير المؤمنين علي الولاية في أوقافه لابنه الحسن وبعده لأخيه الحسين عليهما السلام. فقال في كتاب الوقف الذي رواه السيد الرضي في نهج البلاغة: هذا ما أمر به عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين في ماله ابتغاء وجه الله فإنه يقوم بذلك الحسن بن علي يأكل منه بالمعروف وينفق منه بالمعروف فإن حدث بحسن حدث وحسين حي قام بالأمر بعده وأصدر مصدره وأن لبني فاطمة من صدقة علي مثل الذي لبني علي وأني إنما جعلت القيام بذلك إلى ابني فاطمة ابتغاء وجه الله وقربة إلى رسول الله ﷺ وتكريماً لحرمته وتشريفاً لوصلته.

وصايا علي لولده الحسن عليهما السلام

كتب أمير المؤمنين لولده الحسن وصية جليلة عظيمة طويلة بعد منصرفه من صفين مذكورة في نهج البلاغة ووصاياه لابنه الحسن وله وللحسين عليهم السلام في نهج البلاغة كثيرة.

وصية علي لولده الحسن عليهما السلام عند وفاته

كان الحسن عليه السلام وصي أبيه أوصى إليه لما ضربه ابن ملجم بالوصية التي ذكرها أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين فقال فيها أوصيك يا حسن وجميع ولدي الخ.

ما فعله الحسن قبيل مقتل أبيه عليهما السلام إلى ما بعد دفنه

روى الطبري بإسناده عن أبي عبد الرحمٰن السلمي قال: قال لي الحسن بن علي عليهما السلام: خرجت وأبي يصلي في المسجد فقال لي: يا بني إني بت الليلة أوقظ أهلي لأنها ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من شهر

رمضان «إلى أن قال» قال الحسن عليه السلام: وجاء ابن أبي الهياج فأذنه بالصلاة فخرج وخرجت خلفه فاعتوره الرجلان فأما أحدهم فوقعت ضربته في الطاق وأما الآخر فأثبتها في رأسه (اهـ) والحسن هو الذي تولى غسل أبيه والصلاة عليه وقتل عبد الرحمٰن بن ملجم.

وروى أبو الفرج الأصفهاني بسنده أن أمير المؤمنين عليه السلام لما توفي ولي غسله ابنه الحسن وعبد الله بن عباس وصلى عليه ابنه الحسن فكبر عليه خمس تكبيرات. قال أبو الفرج فأما ابن ملجم فإن الحسن بن علي بعد دفنه أمير المؤمنين دعا به وأمر بضرب عنقه فقال له: إن رأيت أن تأخذ علي العهود أن أرجع إليك حتى أضع يدي في يدك بعد أن أمضي إلى الشام فانظر ما صنع صاحبي بمعاوية فإن كان قتله وإلا قتلته ثم عدت إليك حتى تحكم في حكمك فقال هيهات والله لا تشرب الماء البارد حتى تلحق روحك بالنار ثم ضرب عنقه واستوهبت أم الهيثم بنت الأسود النخعية جيفته منه فوهبها لها فحرقتها بالنار.

خطبته بعد وفاة أبيه عليهما السلام

وهذه الخطبة رواها الأبشيهي في كتاب المستطرف وأبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين ورواها الحاكم في المستدرك بسند كل من فيه سادة أشراف وبين رواياتهم تفاوت.

خطبته عليه السلام برواية الأبشيهي

قال إن الحسن صعد المنبر بعد وفاة أبيه فأراد الكلام فخنقته العبرة ثم نطق فقال فيما قاله:

الحمد لله ما أحببنا وكرهنا وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وإني أحتسب عند الله عز وجل مصابي بأفضل الآباء رسول الله القائل من أصيب بمصيبة فليتسل بمصيبته في فإنها أعظم المصائب، والله الذي لا إلٰه إلا هو الذي أنزل على عبده الفرقان لقد قبض في

هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول الله ﷺ ولا يدركه الآخرون فعند الله نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد ﷺ فوالله لا أقول اليوم إلا حقاً (إلى أن قال) وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله إلا أن أمور الله تعالى تجري على أحوالها فما أحسنها من أمر الله وما أسوأها من أنفسكم إلا أن قريشاً أعطت أزمتها شياطينها فقادتها باعنتها إلى النار فمنهم من قاتل رسول الله ﷺ حتى أظهره الله تعالى عليه ومنهم من أسر الضغينة حتى وجد على النفاق أعواناً رفع الكتاب وجف القلم وأمور تقضي في كتاب قد خلا.

بيعته بالخلافة

فقام عبد الله بن العباس بين يديه فقال: معاشر الناس هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه فاستجاب الناس فقالوا ما أحبه إلينا وأوجب حقه علينا وأحقه بالخلافة وبادروا إلى البيعة له بالخلافة. قال المفيد في الإرشاد: كانت بيعته يوم الجمعة ٢١ رمضان سنة ٤٠ قال أبو الفرج: ثم نزل من المنبر فرتب العمال وأمر الأمراء ونظر في الأمور وأنفذ عبد الله بن العباس إلى البصرة قال: وكان أول شيء أحدثه الحسن بن علي عليهما السلام أنه زاد المقاتلة مائة مائة وقد كان علي (ع) أبوه فعل ذلك يوم الجمل والحسن (ع) فعله على حال الاستخلاف فتبعه الخلفاء من بعد ذلك.

قال المفيد: فلما بلغ معاوية وفاة أمير المؤمنين (ع) وبيعة الناس ابنه الحسن (ع) دس رجلاً من حمير الكوفة ورجلاً من بني القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الحسن الأمور فعرف ذلك الحسن فأمر باستخراج الحميري من عند لحام بالكوفة فأخرج وأمر بضرب عنقه وكتب إلى البصرة باستخراج القيني من بني سليم فأخرج وضربت عنقه.

المكاتبة بين الحسن وابن عباس ومعاوية

وكتب الحسن إلى معاوية (أما بعد) فإنك دسست إلي الرجال كأنك تحب

اللقاء لا أشك في ذلك فتوقعه إن شاء الله وبلغني أنك شمت بما لم يشمت به ذو الحجى وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول:

فإنا ومن قد مات منا لكالذي ... يروح فيمسي في المبيت ليغتدي
فقل للذي يبقى خلاف الذي مضى ... تجهز لأخرى مثلها فكأن قد

فأجابه معاوية: أما بعد فقد وصل كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن ولم أشمت ولم آس وأن علياً أباك لكما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

وأنت الجواد وأنت الذي ... إذا ما القلوب ملأن الصدورا
جدير بطعنة يوم اللقاء ... يضرب منها النساء النحورا
وما مزيد من خليخ البحار ... يعلو الآكام ويعلو الجسورا
بأجود منه بما عنده ... يعطي الألوف ويعطي البدورا

(قال أبو الفرج) وكتب عبد الله بن العباس من البصرة إلى معاوية: (أما بعد) فإنك ودسك أخا بني القين إلى البصرة تلتمس من غفلات قريش بمثل ما ظفرت به من يمانيتك لكما قال أمية يعني ابن الأشكر:

لعمرك إني والخزاعي طارقاً ... كنعجة غار حتفها تتحفر
أثارت عليها شفرة بكراعها ... فظلت بها من آخر الليل تنحر
شمت بقوم من صديقك هلكوا ... أصابهم يوم من الدهر أصفر

فأجابه معاوية: أما بعد فإن الحسن كتب إلي بنحو ما كتبت به وإنك لم تصب مثلكم ومثلي ولكن مثلنا ما قاله طارق الخزاعي يجيب أمية عن هذا الشعر:

فوالله ما أدري وإني لصادق ... إلى أي من يضطنني أتعذر
أعنف إن كانت زنيبة أهلكت ... ونال بني لحيان شر ونفروا

وروى المدائني أن ابن عباس كتب إلى الحسن: أما بعد فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد علي (ع) فشمر للحرب وجاهد عدوك وقارب أصحابك (وهو

كتاب طويل) وهذا وكتابه السابق إلى معاوية يدل على وجوده بالبصرة، كما أن ما تقدم في خبر البيعة للحسن (ع) يدل على أنه كان حين وفاة أمير المؤمنين (ع) في الكوفة وكل ذلك ينافي ما روي أنه حمل مالِ البصرة وذهب إلى مكة وخالف علياً (ع) وباعده فإما أن خبر مفارقته غير صحيح وإما أنه رجع إلى أمير المؤمنين (ع).

قال أبو الفرج: وكتب الحسن بن علي إلى معاوية بن أبي سفيان مع جندب بن عبد الله الأزدي. وقال المدائني أنه أرسل معه أيضاً الحارث بن سويد التيمي تيم الرباب: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله الحسن بن علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إلٰه إلا هو أما بعد فإن الله جل وعز بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين فبلغ رسالات الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا وأن حتى أظهر الله به الحق ومحق الشرك وأعز به العرب عامة وشرف به قريشاً خاصة فقال تعالى وأنه لذكر لك ولقومك فلما توفي ﷺ تنازعت سلطانه العرب فقالت قريش نحن قبيلته وأسرته فرأت العرب أن القول كما قالت قريش ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاجت به العرب فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها، فلما صرنا أهل بيت محمد ﷺ وأولياءه إلى محاجتهم وطلب النصف منهم باعدونا واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا فأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمزاً يتلمسونه به واليوم فليعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله لا بفضل في الدين معروف ولا أثر في الإسلام محمود وأنت ابن حزب من الأحزاب وابن أعدى قريش لرسول الله ﷺ وسترد فتعلم لمن عقبى الدار، إن علياً رضوان الله عليه لما مضى لسبيله رحمة الله عليه يوم قبض ويوم منّ الله عليه بالإسلام ويوم يبعث حياً ولاّني المسلمون الأمر بعده وإنما حملني على هذا الكتاب الإعذار فيما بيني وبين الله في أمرك ولك في ذلك إن فعلت الحظ الجسيم وللمسلمين فيه صلاح فدع التمادي في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند

كل أواب حفيظ ودع البغي واحقن دماء المسلمين وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيك نهدت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال المدائني فقدما على معاوية فدعواه إلى بيعة الحسن فلم يجب إلى ذلك.

قال أبو الفرج: فكتب إليه معاوية: من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسن بن علي سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به رسول الله ﷺ من الفضل وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله وذكرت تنازع المسلمين الأمر من بعده فرأيتك صرحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الأمين وحواري رسول الله ﷺ وصلحاء المهاجرين والأنصار فكرهت ذلك لك فإنك امروء عندنا وعند الناس غير ضنين وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل. إن هذه الأمة لما اختلفت بعد نبيها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ولا قرابتكم من نبيكم ولا مكانكم من الإسلام فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها ورأى صلحاء الناس أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاماً وأعلمها بالله وأقواها على أمر الله فاختاروا أبا بكر فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة ولو رأى المسلمون فيكم من يغني غناءه ما عدلوا إلى غيره وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها وأبو بكر بعد النبي ﷺ ولو علمت أنك أضبط مني للرعية وأقوى على جمع الأموال وأكيد للعدو لأجبتك إلى ما دعوتني إليه ولكن قد علمت أني أطول منك ولاية وأقدم تجربة وأكثر سياسة وأكبر سناً فادخل في طاعتي ولك الأمر من بعدي ولك ما في بيت مال العراق وخراج أي كور العراق شئت يجبيها أمينك ويحملها إليك في كل سنة ولك أن لا يستولى عليك بالاشاءة ولا تقضى دونك الأمور ولا تعصى في أمر أردت به طاعة الله.

قال المدائني: إن معاوية كتب في آخر كتابه إلى الحسن (ع) فإن أباك سعى على عثمان حتى قتل مظلوماً وطالب الله بدمه ومن يطلبه الله فلن يفوته ثم ابتز الأمة أمرها وفرق جماعتها فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدم

في الإسلام وادعى أنهم نكثوا بيعته فقاتلهم فسفكت الدماء واستحلت الحرم ثم أقبل إلينا لا يدعي علينا بيعة ولكنه يريد أن يملكنا اعتزازاً فحاربناه وحاربنا ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلاً واخترنا رجلاً ليحكما بما تصلح عليه الأمة وتعود به الجماعة والألفة وأخذنا بذلك عليهما ميثاقاً وعليه وعلينا مثله على الرضى بما حكما فأمضى الحكمان عليه الحكم بما علمت وخلعاه فوالله ما رضي بالحكم ولا صبر لأمر الله فكيف تدعوني إلى أمر إنما تطلبه بحق أبيك وقد خرج عنه فانظر لنفسك ولدينك والسلام. ثم قال للحارث وجندب: ارجعا فليس بيني وبينكم إلا السيف. فرجعا وأقبل إلى العراق في ستين ألفاً واستخلف على الشام الضحاك بن قيس الفهري.

قال جندب: فلما أتيت الحسن (ع) بكتاب معاوية قلت إن الرجل سائر إليك فابدأ بالمسير إليه حتى تقابله في أرضه وبلاده وعمله فإما أن تقدر أنه ينقاد لك فلا والله حتى يرى يوماً أعظم من يوم صفين، فقال افعل.

وكتب معاوية إلى الحسن (ع): أما بعد فإن الله عز وجل يفعل في عباده ما يشاء لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب فاحذر أن تكون منيتك على أيدي رعاع من الناس وآيس من أن تجد فينا غميزة وإن أنت أعرضت عما أنت فيه وبايعتني وفيت لك بما وعدت ثم الخلافة لك من بعدي فأنت أولى الناس بها والسلام.

فأجابه الحسن (ع): أما بعد فقد وصل إلي كتابك فتركت جوابك خشية البغي عليك فاتبع الحق تعلم أني من أهله والسلام. فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية كتب إلى عماله على النواحي نسخة واحدة: أما بعد فالحمد لله الذي كفاكم مؤونة عدوكم وقتلة خليفتكم إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعلي بن أبي طالب رجلاً من عباده فاغتاله فقتله فترك أصحابه متفرقين مختلفين وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم فاقبلوا إلي حين يأتيكم كتابي هذا بجدكم وجهدكم وحسن عدتكم فقد أصبتم بحمد الله الثأر وبلغتم الأمل وأهلك الله أهل البغي والعدوان والسلام.

فاجتمعت العساكر إلى معاوية وسار قاصداً إلى العراق وبلغ الحسن خبر مسيره وأنه قد بلغ جسر منبج فتحرك لذلك وبعث حجر بن عدي يأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير ونادى المنادي الصلاة جامعة فأقبل الناس يتوثبون ويجتمعون فقال الحسن عليه السلام إذا رضيت جماعة الناس فاعلمني، وجاء سعيد بن قيس الهمداني فقال اخرج، فخرج الحسن (ع) فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين اصبروا إن الله مع الصابرين فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلّا بالصبر على ما تكرهون إنه بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك فاخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة (وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له) فسكتوا فما تكلم منهم أحد ولا أجابه بحرف، فلما رأى ذلك عدي بن حاتم قام فقال: انا ابن حاتم، سبحان الله ما أقبح هذا المقام ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم؟ أين خطباء مضر (المصر) الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب أما تخافون مقت الله؟ ولا عيبها وعارها. ثم استقبل الحسن بوجهه فقال أصاب الله بك المراشد وجنبك المكاره ووفقك لما تحمد ورده وصدره قد سمعنا مقالتك وانتهينا إلى أمرك لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت وهذا وجهي إلى معسكري فمن أحب أن يوافيني فليواف. ثم مضى لوجهه فخرج عن المسجد ودابته بالباب فركبها ومضى إلى النخيلة وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه وكان عدي بن حاتم أول الناس عسكراً. وقام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ومعقل بن قيس الرياحي وزياد بن صعصعة التيمي فأنبوا الناس ولاموهم وحرضوهم وكلموا الحسن بمثل كلام عدي بن حاتم في الإجابة والقبول فقال لهم الحسن (ع): صدقتم رحمكم الله ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة فجزاكم الله خيراً. ثم نزل وخرج الناس فعسكروا ونشطوا للخروج وخرج الحسن (ع) إلى المعسكر واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وأمره باستحثاث الناس وإشخاصهم إليه فجعل يستحثهم ويخرجهم حتى يلتئم العسكر وسار الحسن (ع) في عسكر عظيم وعدة حسنة حتى أتى دير

عبد الرحمٰن فأقام به ثلاثاً حتى اجتمع الناس ثم دعا عبيد الله بن عباس فقال له: يا ابن عم إني باعث معك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقراء المصر الرجل منهم يرد الكتيبة فسر بهم وألن لهم جانبك وابسط وجهك وافرش لهم جناحك وادنهم من مجلسك فإنهم بقية ثقة أمير المؤمنين وسر بهم على شط الفرات حتى تقطع بهم الفرات ثم تصير بمسكن ثم امض حتى تستقبل معاوية فإن أنت لقيته فاحبسه حتى نأتيك في أثرك وشيكاً وليكن خبرك عندي كل يوم وشاور هذين يعني قيس بن سعد وسعيد بن قيس فإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك وإن فعل فقاتله فإن أصبت فقيس على الناس وإن أصيب قيس فسعيد بن قيس على الناس. فسار عبيد الله حتى انتهى إلى شينور حتى خرج إلى شاهي ثم لزم الفرات وقرى الفلوجة حتى أتى مسكن (قال المفيد) استنفر الحسن (ع) الناس للجهاد فتثاقلوا عنه ثم خفوا ومعه أخلاط من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه وبعضهم محكمة (أي خوارج) يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم وبعضهم شكاك وأصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين فسار حتى أتى حمام عمر ثم أخذ إلى دير كعب ثم بكر ونزل ساباط دون القنطرة وبات هناك فلما أصبح أراد أن يمتحن أصحابه ويستبرىء أحوالهم في الطاعة ليتميز بذلك أولياؤه من أعدائه ويكون على بصيرة من لقاء معاوية وأهل الشام فأمر أن ينادى بالصلاة جامعة فاجتمعوا وصعد المنبر فخطبهم فقال:

الحمد لله كلما حمده حامد وأشهد أن لا إلٰه إلا الله كلما شهد له شاهد وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق وائتمنه على الوحي ﷺ أما بعد فوالله إني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه وأنا أنصح خلق الله لخلقه وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ولا مريداً له سوءاً ولا غائلة إلا وأن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة إلا وأني ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمري ولا تردوا علي رأيي غفر الله لي ولكم وأرشدكم لما فيه المحبة والرضا.

فنظر الناس بعضهم إلى بعض وقالوا: ما ترونه يريد بما قال؟ قالوا: نظنه والله يريد أن يصالح معاوية ويسلم الأمر إليه. فقالوا: كفر والله الرجل «وهذا يدل على أنهم كانوا خوارج» ثم شدوا على فسطاطه وانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ثم شد عليه عبد الرحمٰن بن عبد الله بن جعال الأزدي فنزع مطرفه عن عاتقه فبقي جالساً متقلداً السيف بغير رداء ثم دعا بفرسه فركبه وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ومنعوا منه من أراده فقال ادعوا لي ربيعة وهمدان فدعوا له فأطافوا به ودفعوا الناس عنه ومعهم شوب من غيرهما فلما مر في مظلم ساباط بدر إليه رجل من بني أسد يقال له الجراح بن سنان أو سنان بن الجراح وكان قد تقدمه إلى مظلم ساباط فوقف به فلما حاذاه أخذ بلجام فرسه أو بغلته وبيده مغول «وهو سيف دقيق يكون غمده كالسوط» فقال: الله أكبر يا حسن أشركت كما أشرك أبوك من قبل «وهذا يدل على أنه كان خارجياً» ثم طعنه فوقعت الطعنة في فخذه فشقه حتى بلغ أربيته (وهي أصل الفخذ أو ما بين أعلاه وأسفل البطن) وفي رواية حتى بلغ العظم وضرب الحسن (ع) الذي طعنه بسيف كان بيده واعتنقه فخرا جميعاً إلى الأرض، وفي رواية أنه غشي عليه فوثب إليه رجل من شيعة الحسن يقال له عبد الله بن خطل الطائي فنزع المغول من يده فخضخضه به وأكب ظبيان بن عمارة على الجراح فقطع أنفه ثم أخذا الآجر[1] فشدخوا وجهه ورأسه حتى قتلوه، وحمل الحسن عليه السلام على سرير إلى المدائن فأنزل بها على سعيد بن مسعود الثقفي وكان عامل أمير المؤمنين (ع) بها فأقره الحسن (ع) على ذلك واشتغل الحسن بنفسه يعالج جرحه جاءه سعد بن مسعود بطبيب فقام عليه حتى برىء، هكذا ذكر المفيد وأبو الفرج. والذي ذكره الطبري وابن الأثير وسبط بن الجوزي ناقلاً له عن الشعبي أنه لما نزل الحسن (ع) المدائن نادى مناد في العسكر إلا إن قيس بن سعد قد قتل

---

(١) من غريب ما وقع من التصحيف في هذا المقام أنه صحف الآجر بالجيم بالآخر بالخاء المعجمة حتى أن المفيد في الإرشاد قال وأخذ آخر كان معه فقتل ولفظ الآجر وقع في الرواية معرفاً بأل فلو كان بالخاء المعجمة لزم أن يكون له ذكر متقدم مع أنه لم يتقدم ذكره ولقد تبعنا في هذا التوهم المفيد في كتابنا المجالس السنية ثم وجدناه في شرح النهج الآجر بالجيم كما ذكرناه.

فانفروا فنفروا إلى سرادق الحسن فنهبوا متاعه حتى نازعوه بساطاً كان تحته فازداد لهم بغضاً ومنهم ذعراً (أقول) من كانت هذه حالتهم كيف يمكن الركون إليهم والانتصار بهم (قال المفيد) وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالسمع والطاعة في السر واستحثوه على المسير نحوهم وضمنوا له تسليم الحسن إليه عند دنوهم من عسكره وبلغ الحسن ذلك (وروى) الصدوق في العلل أن معاوية دس إلى عمرو بن حريث والأشعث بن قيس وحجار بن أبجر وشبث بن ربعي دسيساً أفرد كل واحد منهم بعين من عيونه إنك إذا قتلت الحسن فلك مائة ألف درهم وجند من أجناد الشام وبنت من بناتي فبلغ الحسن عليه السلام ذلك فاستلأم ولبس درعاً وسترها وكان يحترز ولا يتقدم للصلاة إلا كذلك فرماه أحدهم في الصلاة بسهم فلم يثبت فيه لما عليه من اللامة وفي (الخرائج) إن الحسن (ع) بعث إلى معاوية قائداً من كندة في أربعة آلاف فلما نزل الأنبار بعث إليه معاوية بخمسمائة ألف درهم ووعده بولاءة بعض كور الشام والجزيرة فصار إليه في مائتين من خاصته ثم بعث رجلاً من مراد ففعل كالأول بعدما حلف بالإيمان التي لا تقوم لها الجبال أنه لا يفعل وأخبرهم الحسن (ع) أنه سيفعل كصاحبه.

(قال أبو الفرج): ثم إن معاوية وافى حتى نزل قرية يقال لها الحبوبية بمسكن فأقبل عبيد الله بن العباس حتى نزل بأزائه فلما كان الغد بعث معاوية إلى عبيد الله أن الحسن قد راسلني في الصلح وهو مسلم الأمر إلي فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً وإلا دخلت وأنت تابع ولك إن جئتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم يعجل لك في هذا الوقت النصف وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر فانسل عبيد الله ليلاً فدخل عسكر معاوية فوفى له بما وعده فأصبح الناس ينتظرون أن يخرج فيصلي بهم فلم يخرج وطلبوه فلم يجدوه وصلى بهم قيس بن سعد ثم خطبهم فقال: أيها الناس لا يهولنكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل الوله الورغ أي الجبان إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خير قط إن أباه عم رسول الله ﷺ خرج يقاتله ببدر فأسره أبو اليسر

كعب بن عمرو الأنصاري فأتى به رسول الله ﷺ فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين وأن أخاه ولاه علي (ع) على البصرة فسرق مال الله ومال المسلمين فاشترى به الجواري وزعم أن ذلك له حلال وأن هذا ولاه أيضاً على اليمن فهرب من بسر بن أرطاة وترك ولده حتى قتلوا وصنع الآن هذا الذي صنع فنادى الناس الحمد لله الذي أخرجه من بيننا امض بنا إلى عدونا.

قال المفيد: وورد على الحسن (ع) كتاب قيس بن سعد يخبره بما صنع عبيد الله بن العباس فازدادت بصيرته بخذلان القوم له وفساد نيات المحكمة فيه بما أظهروا له من السب والتكفير واستحلال دمه ونهب أمواله ولم يبق معه من يأمن غوائله إلا خاصته من شيعته وشيعة أبيه وهم جماعة لا تقوم لأجناد الشام فكتب إليه معاوية في الهدنة والصلح وأنفذ إليه بكتب أصحابه الذين ضمنوا له فيها الفتك به أو تسليمه إليه فاشترط على نفسه في إجابته إلى صلحه شروطاً كثيرة وعقد له عقوداً كان في الوفاء بها مصالح شاملة فلم يثق به الحسن (ع) وعلم باحتياله بذلك واغتياله غير أنه لم يجد بداً من إجابته إلى ما التمس من ترك الحرب وإنفاذ الهدنة لما كان عليه أصحابه مما وصفناه من ضعف البصائر في حقه والفساد عليه والخلف منهم له وما انطوى عليه كثير منهم في استحلال دمه وتسليمه إلى خصمه وما كان من خذلان ابن عمه له ومصيره إلى عدوه وميل الجمهور منهم إلى العاجلة وزهدهم في الآجلة فتعلق (ع) لنفسه من معاوية بتوكيد الحجة عليه والإعذار فيما بينه وبينه عند الله تعالى وعند كافة المسلمين فأجابه معاوية إلى ذلك. وأما قيس بن سعد بن عبادة فقال أبو الفرج أنه نهض بمن معه لقتال معاوية وخرج إليهم بسر بن أرطاة في عشرين ألفاً فصاحوا بهم هذا أميركم قد بايع وهذا الحسن قد صالح فعلام تقتلون أنفسكم فقال قيس لأصحابه: اختاروا أحد اثنين أما القتال مع غير إمام أو تبايعون بيعة ضلال فقالوا بل نقاتل بلا إمام فخرجوا وضربوا أهل الشام حتى ردوهم إلى مصافهم وكتب معاوية إلى قيس يدعوه ويمنيه فكتب إليه قيس: لا والله لا تلقاني أبداً إلا وبيني وبينك السيف والرمح وجرت بينهما مكاتبات أغلظ كل منهما فيها لصاحبه فقال

عمرو بن العاص لمعاوية: مهلاً إن كاتبته أجابك بأشد من هذا وإن تركته دخل فيما يدخل فيه الناس فأمسك عنه (أقول): شتان بين عبيد الله بن العباس وقيس بن سعد فهذا يسالم معاوية بعد ما ذبح بسر بن أرطاة أولاده الصغار على درج صنعاء حين أرسله معاوية ويبيع شرفه بالمال ويرضى بالذل والعار وقيس بن سعد يحلف أن لا يلقى معاوية إلا وبينه وبينه الرمح أو السيف بعدما بلغه أن الحسن (ع) قد صالح.

ابت الحمية أن تفارق أهلها وأبى العزيز بأن يعيش ذليلا

ثم انصرف قيس بمن معه إلى الكوفة وانصرف الحسن (ع). (أقول) ومما تقدم يعلم أن الحسن (ع) لم يفرط في أمر السياسة وأخذ بالحزم والتدبير فعلم بالجاسوسين اللذين أرسلهما معاوية بعد وفاة أمير المؤمنين (ع) وقتلهما واستحث أهل العراق وسار بمن اتبعه منهم لقتال معاوية وأرسل اثني عشر ألفاً مقدمة له وأمر عليهم ابن عمه عبيد الله بن العباس وأمره بمشاورة قيس وسعيد لما يعلم من نصحهما وأن إمارات الخذلان كانت بادية على أهل العراق بتثاقلهم أول الأمر حين دعاهم وأنهم لم يخرجوا إلا بعد التأنيب والتوبيخ ممن عرفت وأن المخلصين منهم له كانوا أقل قليل وأكثرهم خوارج وأهل عصبية خرجوا تبعاً لرؤسائهم وطمعاً في النهب وأنه كان يتخوف خذلان أصحابه من أول الأمر وأن خطبته بالمدائن لم تكن إلا لاختبارهم وإظهار أسرارهم وأنه لم يكن من الرأي أن يسير بهم على تلك الحال إذ لا يؤمن أن يسلموه إلى معاوية فلما ظهر له فساد نيات الخوارج فيه بما أظهروه له من السب والتكفير واستحلال دمه ونهب أمواله مع ما كان من فعل عبيد الله بن عباس والقائدين المرسلين بعده وما علمه من مكاتبة أصحابه معاوية وما ضمنوه له من الفتك به أو تسليمه إليه وعلم أنه لو لم يصالح لسلموه إلى معاوية ولكانت المفسدة أعظم أجاب إلى الصلح مكرهاً مرغماً واختار أقل الضررين وأهون المفسدتين وأن صلحه هذا لا بجعل لمعاوية عذراً ولا يرفع عنه وزراً بل يزيده ذماً واثماً. ومما يدل على ما ذكرناه ما ذكره ابن الأثير في الكامل قال لما راسل معاوية الحسن في تسليم الأمر

إليه خطب فقال: إنا والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلام والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم إلا وقد أصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره فأما الباكي فخاذل وأما الطالب فثائر إلا أن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة فإن أردتم الموت رددناه عليه وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى فناداه الناس من كل جانب: البقي البقية. وما حكاه سبط بن الجوزي عن السدي أنه قال لم يصالح الحسن معاوية رغبة في الدنيا وإنما صالحه لما رأى أهل العراق يريدون الغدر به وفعلوا معه ما فعلوا فخاف منهم أن يسلموه إلى معاوية والدليل على أنه خطب بالنخيلة قبل الصلح فقال أيها الناس إن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إنما هو حق اتركه إرادة لإصلاح الأمة وحقناً لدمائها وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين. وقال ابن الأثير لما تم الصلح قال الحسن: يا أهل العراق إنه سخي بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي وطعنكم إياي وانتهابكم متاعي.

وقال عليه السلام في جملة كلام له رواه الطبرسي في الاحتجاج: والله ما سلمت الأمر إلى معاوية إلا لأني لم أجد أنصاراً ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه.

ومن مجموع ما مر يعلم الوجه في صلحه (ع) وأنه كان هو الرأي والصواب وسيأتي في سيرة أخيه الحسين عليهما السلام وجه الفرق بين حالتيهما.

شروط الصلح

حكى الصدوق عن كتاب الفروق بين الأباطيل والحقوق تأليف محمد بن بحر الشيباني عن أبي بكر محمد بن الحسن بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري ثني أبو طالب زيد بن أجزم ثني أبو داود القاسم بن فضيل ثني يوسف بن مازن

الراسبي قال: بايع الحسن بن علي معاوية على أن لا يسميه أمير المؤمنين ولا يقيم عنده شهادة وأن لا يتعقب على شيعة علي شيئاً ويؤمنهم ولا يتعرض لأحد منهم بسوء ويوصل إلى كل ذي حق منهم حقه وأن يفرق في أولاد من قتل مع أبيه يوم الجمل وصفين ألف ألف درهم وأن يجعل ذلك من خراج دارابجرد من بلاد فارس «اهـ» وكان فيما شرطه أن يترك سب أمير المؤمنين والقنوت عليه في الصلاة. وقال ابن الأثير إنه لم يجبه إلى الكف عن شتم علي فطلب أن لا يشتم وهو يسمع فأجابه إلى ذلك ثم لم يف له به أيضاً «اهـ» وعاهد معاوية الحسن على ما تم بينهما من الشروط وحلف له بالوفاء وكتب بينه وبينه بذلك كتاباً ثم لم يف له بشيء مما عاهده عليه.

صورة كتاب الصلح بين الحسن ومعاوية

ذكره ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة. بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما صالح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب معاوية بن أبي سفيان صالحه على أن يسلم إليه ولاية المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً على أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله تعالى في شامهم ويمنهم وعراقهم وحجازهم وعلى أن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا وعلى معاوية بذلك عهد الله وميثاقه وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من بيت رسول الله ﷺ غائلة سوء سراً وجهراً ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق شهد عليه بذلك فلان وفلان وكفى بالله شهيداً.

قال المفيد: فلما تم الصلح سار معاوية حتى نزل النخيلة «وهي معسكر الكوفة» وكان ذلك يوم جمعة فصلى بالناس وخطبهم وقال أبو الفرج إنه جمع الناس بالنخيلة فخطبهم قبل أن يدخل الكوفة خطبة طويلة لم ينقلها أحد من الرواة تامة وجاءت مقطعة فنذكر ما انتهى إلينا منها فقال: ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها (ثم انتبه فاستدرك وقال) إلا هذه الأمة فإنها وإنها. قال المفيد وأبو الفرج وقال في خطبته: إني والله ما قاتلتكم لتصلوا

ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا إنكم لتفعلون ذلك ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون ألا وإني كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها. وفي رواية أبي الفرج أنه قال إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به قال أبو الفرج قال شريك في حديثه هذا هو التهتك. وقال المدائني: خطب معاوية أهل الكوفة فقال: أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون إن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة لمطلول وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين «قال أبو الفرج»: لما بويع معاوية خطب فذكر علياً (ع) فنال منه ونال من الحسن (ع) فقام الحسين (ع) ليرد عليه فأخذ الحسن بيده فأجلسه ثم قام فقال أيها الذاكر علياً أنا الحسن وأبي علي وأنت معاوية وأبوك صخر وأمي فاطمة وأمك هند وجدي رسول الله ﷺ وجدك حرب وجدتي خديجة وجدتك قتيلة فلعن الله أخملنا ذكراً والأمنا حسباً وشرنا قديماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً. فقال طوائف من أهل المسجد: آمين قال يحيى بن معين ونحن نقول آمين قال أبو عبيد ونحن أيضاً نقول آمين قال أبو الفرج وأنا أقول آمين قال المؤلف وأنا أقول آمين.

وأقام معاوية ومن بعده من ملوك بني أمية على سب أمير المؤمنين (ع) إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز وأخاف معاوية شيعة أمير المؤمنين وقتلهم وشردهم وهدم كثيراً من دورهم فقتل عمرو بن الحمق وحبس زوجته آمنة بنت الشريد سنتين في سجن دمشق وقتل حجر بن عدي وأصحابه بمرج عذراء وحمل عبد الله بن هاشم المرقال إليه مكبلاً بالحديد من العراق إلى الشام وأما خراج دارابجرد فقال ابن الأثير إن أهل البصرة منعوا الحسن منه وقالوا فيئنا لا نعطيه أحداً قال وكان منعهم بأمر معاوية، وقال المدائني كان الحضين بن المنذر الرقاشي يقول: والله ما وفى معاوية للحسن بشيء مما أعطاه: قتل حجراً وأصحاب حجر وبايع لابنه يزيد وسم الحسن.

قال ابن عبد البر في الاستيعاب سلم الأمر الحسن إلى معاوية في النصف من جمادى الأولى من سنة ٤١ وكل من قال إنه كان سنة أربعين فقد وهم «اهـ». وفي المستدرك للحاكم كان ذلك في جمادي الأولى سنة ٤١ «اهـ».

وقيل كان ذلك لخمس بقين من ربيع الأول وقيل في ربيع الآخر فعلى الأول تكون مدة خلافته الظاهرة سبعة أشهر وأربعة وعشرين يوماً لأن بيعته كانت في الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٠ وعلى الثاني تكون خلافته ستة أشهر وأربعة أيام وقيل: ثلاثة أيام وقيل خمسة أيام وذلك بناء على الخلاف في تاريخ وفاة أمير المؤمنين (ع) وعلى الثالث تكون أكثر من ذلك بأيام.

معاتبة أصحاب الحسن عليه السلام له على الصلح واعتذاره إليهم

قال أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبيين اجتمع إلى الحسن (ع) وجوه الشيعة وأكابر أصحاب أمير المؤمنين (ع) يلومونه ويبكون إليه جزعاً مما فعله.

وقال المدائني إن معاوية لما خطب الناس بالكوفة وقال في جملة خطبته كل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين قال المسيب بن نجبة للحسن (ع): ما ينقضي عجبي منك بايعت معاوية ومعك أربعون ألفاً ولم تأخذ لنفسك وثيقة وعقداً ظاهراً أعطاك أمراً فيما بينك وبينه ثم قال: ما قد سمعت والله ما أراد بها غيرك قال: فما ترى قال: أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه فقد نقض ما كان بينه وبينك فقال: يا مسيب إني لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ولا أثبت عند الحرب مني ولكني أردت صلاحكم وكف بعضكم عن بعض فارضوا بقدر الله وقضائه حتى يستريح بر ويستراح من فاجر.

قال المدائني ودخل عبيد بن عمرو الكندي على الحسن (ع) وكان ضرب على وجهه مع قيس بن سعد بن عبادة فقال: ما الذي أرى بوجهك قال: أصابني مع قيس فالتفت حجر بن عدي إلى الحسن وقال كلاماً لا يخلو من سوء أدب حمله عليه شدة الحب ثم قال: إنا رجعنا راغمين بما كرهنا ورجعوا مسرورين بما أحبوا فتغير وجه الحسن وغمز الحسين حجراً فسكت فقال

الحسن (ع): يا حجر ليس كل الناس يحب ما تحب ولا رأيه رأيك وما فعلت ما فعلت إلا أبقاء عليك والله كل يوم في شأن.

بعض أخبار الحسن عليه السلام

قال المدائني روى أبو الطفيل أن الحسن (ع) قال لمولى له: أتعرف معاوية بن خديج قال: نعم قال: إذا رأيته فأعلمني فرآه خارجاً من دار عمرو بن حريث فقال: هو هذا. فدعاه فقال له: أنت الشاتم علياً عند ابن آكلة الأكباد؟ أما والله لئن وردت الحوض ولا ترده لترينه مشمراً عن ساقيه حاسراً عن ذراعيه يذود عنه المنافقين.

قال المدائني وحدثنا سليمان بن أيوب عن الأسود بن قيس العبدي أن الحسن (ع) لقي يوماً حبيب بن مسلمة فقال له: يا حبيب رب مسير لك في غير طاعة الله قال: أما مسيري إلى أبيك فليس من ذلك قال: بلى والله ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة فلئن قام بك في دنياك لقد قعد بك في آخرتك ولو كنت إذ فعلت شراً قلت خيراً كان ذلك كما قال الله عز وجل خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ولكنك كما قال الله سبحانه كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

ما جرى بين الحسن عليه السلام وزياد ابن أبيه

ولنقدم قبل ذلك الكلام على نسب زياد واستلحاق معاوية إياه: كانت سمية أم زياد أمة للحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج الثقفي طبيب العرب وكانت تحت عبيد عبد من عبيد ثقيف فقدم أبو سفيان إلى الطائف فنزل على رجل خمار يقال له: أبو مريم فطلب منه بغياً فأتى له بسمية وهي متزوجة بعبيد فبات معها فولدت زياداً على فراش عبيد فكان يقال له زياد بن عبيد ثم إن أبا سفيان ادعاه في خلافة عمر لكنه لم يجسر على المجاهرة بذلك خوفاً من عمر ومن المسلمين لمخالفة ذلك لقوله ﷺ الولد للفراش وللعاهر الحجر وحيث أن زياداً ولد على فراش عبيد فهو ابنه شرعاً وزنا أبي سفيان بأمه لا يسوغ إلحاقه به.

روى غير واحد من المؤرخين أن زياداً تكلم كلاماً وهو غلام حدث بمحضر عمر في خلافته أعجب الحاضرين وأبو سفيان حاضر وعلي بن أبي طالب (ع) وعمرو بن العاص فقال عمرو لله أبو هذا الغلام لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه فقال أبو سفيان: إنه لقرشي وإني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه فقال علي: ومن هو قال: أنا فقال: مهلاً يا أبا سفيان فقال عمرو: هلا تستلحقه قال: أخاف هذا الجالس يعني عمر أن يخرق علي إهابي قال المدائني: فلما كان زمن علي (ع) ولى زياداً فارس أو بعض أعمالها فضبطها ضبطاً صالحاً وجبى خراجها وكتب إليه معاوية كتاباً يتهدده فيه وكتب في أسفل الكتاب شعراً يعرض له فيه بأنه أخوه من جملته:

تنسى أباك وقد شالت نعامته إذ يخطب الناس والوالي لهم عمر

فلما ورد الكتاب على زياد خطب الناس فقال: العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق يهددني وبيني وبينه ابن عم رسول الله ﷺ وزوج سيدة نساء العالمين وأبو السبطين وصاحب الولاية والمنزلة والإخاء في مائة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان أما والله لو تخطى هؤلاء أجمعين إلي لوجدني ضراباً بالسيف. ثم كتب إلى علي (ع) وبعث بكتاب معاوية في كتابه فكتب إليه علي (ع): أما بعد فإني قد وليتك ما وليتك. وأنا أراك لذلك أهلاً وإنه قد كانت من أبي سفيان فلتة في أيام عمر من أماني التيه وكذب النفس لم تستوجب بها ميراثاً ولم تستحق بها نسباً وإن معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فأحذره ثم أحذره ثم أحذره والسلام. فلما قرأ زياد الكتاب قال: شهد بها ورب الكعبة ولم تزل في نفسه حتى ادعاه معاوية فلما قتل علي (ع) بقي زياد في عمله وخاف معاوية جانبه فكتب إليه كتاباً يتهدده فيه من جملته: من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن عبيد أما بعد فإنك عبد قد كفرت النعمة واستدعيت النقمة إنك لا أم لك بل لا أب لك ظننت إنك تخرج من قبضتي ولا ينالك سلطاني أمس عبد واليوم أمير خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية إذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس

بالطاعة والبيعة فإنك أن تفعل فدمك حقنت وإلا اختطفتك بأضعف ريش ونلتك بأهون سعي والسلام. فلما ورد الكتاب على زياد غضب غضباً شديداً وجمع الناس وصعد المنبر وقال: ابن آكلة الأكباد وقاتلة أسد الله ومظهر الخلاف ومسر النفاق ورئيس الأحزاب ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله كتب إلي يرعد ويبرق عن سحابة جفل لا ماء فيها وعما قليل تصيرها الرياح قزعاً كيف أرهبه وبيني وبينه ابن بنت رسول الله ﷺ وابن ابن عمه في مائة ألف من المهاجرين والأنصار والله لو أذن لي فيه لأريته الكواكب نهاراً. وكتب إلى معاوية أما بعد فقد وصل إلي كتابك فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع طمعاً في الحياة. إنما يكفر النعم ويستدعي النقم من حاد الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً فأما سبك لي فلولا حلم ينهاني عنك وخوفي أن أُدعى سفيهاً لأثرت لك مخازي لا يغسلها الماء وأما تعييرك لي بسمية فإن كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة وأما زعمك إنك تختطفني بأضعف ريش وتتناولني بأهون سعي فهل رأيت بازياً يفزعه صفير القنابر أم هل سمعت بذئب أكله خروف والسلام، فلما ورد كتاب زياد على معاوية غمه وأحزنه وبعث إلى المغيرة بن شعبة فخلا به وقال: إني أريد مشاورتك في أمر أهمني فانصحني فيه وكن لي أكن لك فقد خصصتك بسري وآثرتك على ولدي قال المغيرة: والله لتجدني في طاعتك أمضى من الماء في الحدور قال: إن زياداً قد أقام بفارس يكش لنا كشيش الأفاعي وهو رجل ثاقب الرأي ماضي العزيمة جوال الفكر مصيب إذا رمى وقد خفت منه الآن ما كنت آمنه إذ كان صاحبه حياً وأخشى ممالأته حسناً قال المغيرة: أنا له إن لم أمت، إن زياداً رجل يحب الشرف وصعود المنابر فلو لاطفته المسألة وألنت له الكتاب لكان إليك أميل وبك أوثق فاكتب إليه وأنا الرسول فكتب إليه معاوية كتاباً يظهر له فيه إنه أخوه ويعده بالإمرة من جملته: من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان إنك قاطع الرحم واصل العدو حملك سوء ظنك بي وبغضك لي على أن عققت قرابتي وقطعت رحمي حتى كأنك لست أخي وليس صخر بن حرب أباك

وأبي وشتان ما بيني وبينك أطلب بدم ابن أبي العاص وأنت تقاتلني فكنت:

كتاركة بيضها بالعراء   وملحفة بيض أخرى جناحا

وقد رأيت أن أعطف عليك ولا أؤاخذك بسوء سعيك وأن أصل رحمك وأبتغي الثواب في أمرك فاعلم أبا المغيرة إنك لو خضت في طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنه لما ازددت منهم إلا بعداً فإن بني عبد شمس أبغض إلى بني هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبح فأرجع رحمك الله إلى أصلك واتصل بقومك فإن أحببت جانبي ووثقت بي فأمرة بأمرة وإلا ففعل جميل لا علي ولا لي والسلام. فقدم المغيرة بالكتاب على زياد فجعل يتأمله ويضحك فقال له المغيرة: دع عنك اللجاج وارجع إلى قومك وصل أخاك ثم جمع زياد الناس بعد يومين أو ثلاثة فخطبهم وقال: أيها الناس ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان فوجدتهم كالأضاحي في كل عيد يذبحون ولقد أفنى هذان اليومان الجمل وصفين ما ينيف على مائة ألف كلهم يزعم أنه طالب حق فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة كلا ليس كذلك ولكن أشكل الأمر والتبس على القوم وإني لخائف أن يرجع الأمر كما بدأ فكيف لامرىء بسلامة دينه وقد نظرت في أمر الناس فوجدت أحمد العاقبتين العافية وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله ثم نزل وكتب جواب الكتاب: أما بعد فقد وصل كتابك يا معاوية مع المغيرة بن شعبة وفهمت ما فيه فالحمد لله الذي عرفك الحق وردك إلى الصلة ولست ممن يجهل معروفاً ولقد قمت يوم قرأت كتابك مقاماً يعيا به الخطيب المدره فتركت من حضر لا أهل ورد ولا صدر كالمتحيرين بمهمه ضل بهم الدليل وأنا على أمثالها قدير. فأعطاه معاوية جميع ما سأله وكتب إليه بخط يده ما وثق به وقدم عليه الشام، قال المدائني: فلما أراد معاوية استلحاقه صعد المنبر وأصعد زياداً معه فأجلسه بين يديه على المرقاة التي تحت مرقاته ثم قال: أيها الناس إني قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد فمن كان عنده شهادة فليقم بها فقام ناس فشهدوا أنه ابن أبي سفيان وإنهم

سمعوا ما أقر به قبل موته. فقام أبو مريم السلولي وكان خماراً في الجاهلية فقال: أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً فلما أكل قال أصب لي بغياً فأتيت سمية فقلت لها: إن أبا سفيان أمرني أن أصيب له بغياً فهل لك قالت نعم يجيء الآن عبيد بغنمه وكان راعياً فإذا تعشى ونام أتيته فلم تلبث أن جاءت تجر ذيلها فدخلت معه حتى أصبحت فقلت له: كيف رأيت صاحبتك قال: خير صاحبة لولا ذفر في إبطيها. فقال له زياد من فوق المنبر: يا أبا مريم لا تشتم أمهات الرجال فتشتم أمك. واستلحقه معاوية فصار يسمى زياد بن أبي سفيان بعد ما كان يسمى زياد بن عبيد وزوج معاوية ابنته من محمد بن زياد ليؤكد بذلك صحة الاستلحاق وذلك سنة ٤٤ ذكره في الاستيعاب. واستعظم ذلك المسلمون وتحرجوا من أن يسموه زياد بن أبي سفيان وخافوا أن يسموه زياد بن عبيد فكانوا يقولون زياد بن أبيه أو ابن أمه أو ابن سمية أو زياد بدون نسبة ولكن في عصر معاوية سماه أكثر الناس زياد بن أبي سفيان لأن الناس مع الملوك رهبة أو رغبة وليس اتباع الدين فيهم إلا كالقطرة من البحر المحيط وكتبت عائشة إلى زياد كتاباً فلم تدر ما تكتب عنوانه إن كتبت زياد بن عبيد أو ابن أبيه أغضبته وإن كتبت زياد بن أبي سفيان أثمت فكتبت: من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد فلما قرأه ضحك وقال: لقد لقيت أم المؤمنين من هذا العنوان نصباً. وقال الجاحظ: إن زياداً مر وهو والي البصرة بأبي العريان العدوي وكان شيخاً مكفوفاً ذا لسن وعارضة شديدة فقال أبو العريان العدوي ما هذه الجلبة قالوا: زياد بن أبي سفيان فقال: ما ترك أبو سفيان إلا فلاناً وفلاناً من أين جاء زياد فبلغ ذلك زياداً فأرسل إليه مائتي دينار فقال له الرسول: ابن عمك زياد الأمير أرسل إليك هذه قال: وصلته رحم أي والله ابن عمي حقاً ثم مر به زياد من الغد في موكبه فسلم عليه فبكى أبو العريان فقيل له: ما يبكيك قال: عرفت صوت أبي سفيان في صوت زياد فبلغ ذلك معاوية فكتب إلى أبي العريان:

ما لبثتك الدنانير التي بعثت ... إن لونتك أبا العريان ألوانا

أمسى إليك زياد في أرومته نكراً فأصبح ما أنكرت عرفانا
لله در زياد لو تعجلها كانت له دون ما تخشاه قربانا

فقال أبو العريان اكتب جوابه يا غلام:

أحدث لنا صلة تحيا النفوس بها قد كدت يا ابن أبي سفيان تنسانا
أما زياد فقد صحت مناسبه عندي فلا أبتغي في الحق بهتانا
من يسد خيراً يصبه حين يفعله أو يسد شراً يصبه حيثما كانا

وقال في ذلك عبد الرحمٰن بن الحكم أخو مروان:

ألا أبلغ معاوية بن حرب لقد ضاقت بما تأتي اليدان
أتغضب أنْ يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زاني
فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد إنها حملت زياداً وصخر من سمية غير داني

فبلغ ذلك معاوية فغضب على عبد الرحمٰن وقال: لا أرضى عنه حتى يأتي زياداً فيترضاه ويعتذر إليه فأتاه فأنشده من أبيات:

إليك أبا المغيرة تبت مما جرى بالشام من خطل اللسان
عرفت الحق بعد ضلال رأيي وبعد الغي من زيغ الجنان
زياد من أبي سفيان غصن تهادى ناظراً بين الجنان
وإن زيادة في آل حرب أحب إلي من وسطى بناني
ألا أبلغ معاوية بن حرب لقد ظفرت بما تأتي اليدان

فقال معاوية لحا الله زياداً لم يتنبه لقوله وإن زيادة في آل حرب.

وقال يزيد بن مفرغ الحميري في زياد:

شهدت بأن أمك لم تباشر أبا سفيان واضعة القناع
ولكن كان أمر فيه لبس على حذر شديد وارتياع

وقال أيضاً:

إن زياداً ونافعاً وأبا بكرة عندي من أعجب العجب

هم رجال رجال ثلاثة خلقوا ... في رحم أنثى وكلهم لأب
ذا قرشي كما تقول وذا ... مولى وهذا ابن عمه عربي

وقال أيضاً:

فكر ففي ذاك إن فكرت معتبر ... هل نلت مكرمة إلا بتأمير
عاشت سمية ما عاشت وما علمت ... إن ابنها من قريش في الجماهير

وكما استلحق معاوية زياداً استلحق زياد عبيد الله بن مرجانة قاتل الحسين (ع) فقد قال الحسين (ع) فيه ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين" السلة والذلة، وروى ابن الكلبي أن عباداً استلحقه زياد كما استلحق معاوية زياداً كلاهما لدعوة. قال: لما أذن لزياد في الحج فبينا هو يتجهز وأصحاب القرب يعرضون عليه قربهم إذ تقدم عباد وكان خرازاً فقال له زياد: من أنت؟ قال: ابنك! وقعت على أمي فلانة فولدتني وكانت أمة لبني قيس بن ثعلبة فأنا مملوك لهم، فقال: صدقت إني لأعرف ما تقول، فبعث فاشتراه واستلحقه، وولى معاوية عباداً سجستان بعد موت زياد وولى عبيد الله البصرة، وفيهما يقول يزيد بن المفرغ الحميري:

أعباد ما للؤم عنك محول ... ولا لك أم من قريش ولا أب
فقل لعبيد الله ما لك والد ... بحق ولا يدري امرؤ كيف تنسب

واستأذن زياد معاوية في الحج فأذن له فبلغ ذلك أبا بكرة أخاه وأمهما جميعاً سمية وكان قد حلف أن لا يكلمه لما لجلج في الشهادة على المغيرة بن شعبة في الزنا أيام عمر فجلد أبا بكرة وباقي الشهود، فلما استلحقه معاوية زاد غيظ أبي بكرة منه فلما بلغه أنه يريد الحج جاء إليه وجعل يكلم ولداً له فقال: يا غلام إن أباك ركب في الإسلام عظيماً زنى أمه وانتفى من أبيه ثم يريد أن يركب ما هو أعظم يوافي الموسم غداً ويوافي أم حبيبة بنت أبي سفيان وهي من أمهات المؤمنين فإن أذنت له فأعظم بها فرية على رسول الله ﷺ وإن منعته فأعظم بها فضيحة على أبيك فامتنع زياد عن الحج، ذكره الجاحظ، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أن زياداً حج مع معاوية فأراد الدخول على أم حبيبة فذكر قول أبي

بكرة فلم يفعل وقيل: إنها حجبته ولم تأذن له، وقيل: حج ولم يزر المدينة من أجل ذلك.

قال ابن أبي الحديد قال الحسن البصري: ثلاث كن في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة منهن لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها واستلحاقه زياداً مراغمة لقول رسول الله ﷺ الولد للفراش وللعاهر الحجر وقتله حجر بن عدي، فيا ويله من حجر وأصحاب حجر. وقال أيضاً: روى الشرقي بن القطامي قال: كان سعيد بن سرح مولى حبيب بن عبد شمس شيعة لعلي بن أبي طالب (ع) فلما قدم زياد الكوفة طلبه وأخافه فأتى الحسن بن علي (ع) مستجيراً به فوثب زياد على أخيه وولده وامرأته فحبسهم وأخذ ماله ونقض داره فكتب الحسن (ع): من الحسن بن علي إلى زياد أما بعد فإنك عمدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم فهدمت داره وأخذت ماله وحبست أهله وعياله فإذا أتاك كتابي هذا فابن له داره واردد عليه عياله وشفعني فيه فقد أجرته والسلام. فكتب إليه زياد: من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة أما بعد فقد أتاني كتابك تبدأ فيه بنفسك قبلي وأنت طالب حاجة وأنا سلطان وأنت سوقة تأمرني فيه بأمر المطاع المسلط على رعيته كتبت إلي في فاسق آويته إقامة منك على سوء الرأي وأيم الله لا تسبقني به ولو كان بين جلدك ولحمك غير رفيق بك ولا مرع عليك فإن أحب لحم إلي أن آكله اللحم الذي أنت منه فسلمه بجريرته إلى من هو أولى به منك فإن عفوت عنه لم أكن شفعتك فيه وإن قتلته لم أقتله إلا لحبه أباك والسلام.

فلما ورد الكتاب على الحسن (ع) قرأه وتبسم، وكتب جواب كتاب زياد كلمتين لا ثالثة لهما: من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سمية أما بعد فإن رسول الله ﷺ قال: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر والسلام**».

وحكى ابن أبي الحديد في ترجمة الحسن (ع) عن المدائني أن زياداً طلب رجلاً من أصحاب الحسن (ع) ممن كان في كتاب الأمان فكتب فيه الحسن:

من الحسن بن علي إلى زياد أما بعد فقد علمت ما كنا أخذنا من الأمان لأصحابنا وقد ذكر لي فلان إنك تعرضت له فأحب أن لا تعرض له إلا بخير والسلام. فغضب زياد حيث لم ينسبه إلى أبي سفيان فكتب إليه: من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن وذكر نحواً مما مر في خبر سعيد بن سرح، فالظاهر أنها واقعة واحدة ويحتمل التعدد، وكيف كان فيظهر أن الحسن (ع) لم ينسبه في قصة ابن سرح إلى أبي سفيان فلذلك غضب ونسب الحسن (ع) إلى أمه. وهذا ثمرة ما فعلته الأمة إلى أهل البيت عليهم السلام فغصبتهم حقهم ودفعتهم عن مقامهم ولم ترع فيهم وصية جدهم ﷺ وحكمت فيهم الطلقاء وأبناء الطلقاء والأدعياء وأبناء الأدعياء حتى أصبح نغل سمية يخاطب الحسن (ع) بهذا الخطاب ويتكلم في أمير المؤمنين (ع) بهذا الكلام:

لا أضحك اللّه سن الدهر إن ضحكت ... وآل أحمد مظلومون قد قهروا

مناظرة الحسن عليه السلام ومفاخرته معاوية وأصحابه

أوردها سبط ابن الجوزي الحنفي يوسف قزأو علي في تذكرة الخواص بصورة مختصرة. وأوردها الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات كما في شرح النهج لابن أبي الحديد بصورة مطولة، ومع ذلك بين الروايتين بعض التفاوت ونحن نذكرها مقتبسة من مجموعهما، قال أهل السير: لما سلم الحسن الأمر إلى معاوية اجتمع إلى معاوية رهط من شيعته وهم عمرو بن العاص والوليد بن عقبة بن أبي معيط وعتبة بن أبي سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة وقد كان بلغهم عن الحسن بن علي (ع) قوارص وبلغه عنهم مثل ذلك فقالوا لمعاوية: إن الحسن قد أحيا أباه وذكره قال: فصدق وأمر فأطيع وخفقت له النعال وإن ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوؤنا فأبعث إليه فليحضر لنسبه ونسب أباه ونعيره ونوبخه ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرره بذلك قال معاوية: إني لا أرى ذلك ولا أفعله فعزموا عليه فقال: لا تفعلوا فوالله ما رأيته قط جالساً عندي إلا خفت مقامه وعيبه لي وقال إنه ألسن بني هاشم، قالوا: أبعث إليه على كل حال، قال: إن بعثت إليه لأنصفنه منكم، فقال

عمرو بن العاص: أتخشى أن يأتي باطله على حقنا، قال معاوية: أما إني إن بعثت إليه لآمرنه أن يتكلم بلسانه كله واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيبهم العائب ولا يلصق بهم العار ولكن اقذفوه بحجره تقولون له إن أباك قتل عثمان وكره خلافة الخلفاء قبله، فجاءه الرسول فقال: يا جارية أبغيني ثيابي اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأدرأ بك في نحورهم وأستعين بك عليهم فاكفنيهم كيف شئت وأنى شئت بحول منك وقوة يا أرحم الراحمين، ثم قام فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه وأجلسه إلى جانبه وقد ارتاد القوم وخطروا خطران الفحول بغياً في أنفسهم وعلواً، ثم قال: يا أبا محمد إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني، فقال الحسن: سبحان الله الدار دارك والإذن فيها إليك إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم إني لأستحيي لك من الفحش، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحيي لك من الضعف، أما إني لو علمت بمكانهم جئت بمثلهم من بني عبد المطلب وما لي أن أكون مستوحشاً منك ولا منهم وإن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، فقال معاوية: إني كرهت أن أدعوك ولكن هؤلاء حملوني على ذلك وإن لك منهم النصف ومني وإنما دعوناك لنقررك إن عثمان قتل مظلوماً وإن أباك قتله فأجبهم ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك، فتكلم عمرو بن العاص فذكر علياً (ع) فلم يدع شيئاً يعيبه به إلا قاله وقال: إنه شتم أبا بكر وكره خلافته وبايعه مكرهاً وشنرك في دم عمر وقتل عثمان وادعى من الخلافة ما ليس له، ثم ذكر الفتنة يعيده بها ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء واستحلالكم ما حرم الله من الدماء وحرصكم على الملك وإتيانكم ما لا يحل، ثم إنك يا حسن تحدث نفسك إن الخلافة صائرة إليك وليس عندك عقل ذلك ولا لبه وإنما دعوناك لنسبك وأباك فأما أبوك فقد تفرد الله به وكفانا أمره وأما أنت فلو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ولا عيب من الناس. وقال الوليد بن عقبة يا بني هاشم كنتم أخوال عثمان فنعم الولد كان لكم فعرف حقكم وكنتم أصهاره فنعم الصهر كان لكم فكنتم أول من حسده فقتله أبوك ظلماً فكيف ترون الله طلب بدمه والله إن

بني أمية خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية وقال عتبة بن أبي سفيان: يا حسن كان أبوك شر قريش لقريش أسفكه لدمائها وأقطعه لأرحامها طويل السيف واللسان يقتل الحي ويعيب الميت وأما رجاؤك الخلافة فلست في زندها قادحاً ولا في ميزانها راجحاً وإنكم يا بني هاشم قتلتم عثمان وأن في الحق أن نقتلك وأخاك به فأما أبوك فقد كفانا الله أمره. وتكلم المغيرة بن شعبة فشتم علياً وقال: والله ما أعيبه في قضية بخون ولا في حكم بميل ولكنه قتل عثمان. ثم سكتوا. فتكلم الحسن بن علي عليهما السلام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ ثم قال: أما بعد يا معاوية فما هؤلاء شتموني ولكنك شتمتني فحشاً ألفته وسوء رأي عرفت به وخلقاً سيئاً ثبت عليه وبغياً علينا عداوة منك لمحمد وأهله ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا فلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم: أنشدكم الله هل تعلمون أن الذي شتمتموه صلى القبلتين وأنت يا معاوية بهما كافر وبايع البيعتين بيعة الفتح وبيعة الرضوان وأنت بإحداهما كافر وبالأخرى ناكث وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً وإنك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم تسرون الكفر وتظهرون الإسلام وتستمالون بالأموال وإنه كان صاحب راية رسول الله ﷺ يوم بدر وإن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله ﷺ ومعك ومع أبيك راية الشرك وفي كل ذلك يفتح الله له ويفلج حجته وينصر دعوته ويصدق حديثه ورسول الله ﷺ في تلك المواطن كلها عنه راضٍ وعليك وعلى أبيك ساخط وبات يحرس رسول الله ﷺ من المشركين وفداه بنفسه ليلة الهجرة حتى أنزل الله فيه: ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله. وأنزل فيه: إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون وقال له رسول الله ﷺ: **«أنت مني بمنزلة هارون من موسى وأنت أخي في الدنيا والآخرة»** وجاء أبوك على جمل أحمر يوم الأحزاب يحرض الناس وأنت تسوقه وأخوك عتبة هذا يقوده فرآكم رسول الله ﷺ فلعن الراكب والقائد والسائق أتنسى يا معاوية الشعر الذي كتبته إلى أبيك لما هم أن يسلم تنهاه عن الإسلام:

يا صخر لا تسلمن يوماً فتفضحنا	بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا
خالي وعمي وعم الأم ثالثهم	وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركنن إلى أمر تقلدنا	والراقصات بنعمان به الخرقا
فالموت أهون من قول العداة لقد	حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا

والله لما أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت وأنشدكم الله أتعلمون أن علياً حرم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله ﷺ فأنزل فيه: يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم وأنت يا معاوية دعا عليك رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني خزيمة فبعث إليك فنهمك إلى يوم القيامة فقال: اللهم لا تشبعه. وإن رسول الله ﷺ بعث أكابر أصحابه إلى بني قريظة فنزلوا من حصنهم فهزموا فبعث علياً بالراية فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله وفعل في خيبر مثلها. وأنتم أيها الرهط نشدتكم الله ألا تعلمون أن رسول الله ﷺ لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردها، **أولها**: يوم لقي رسول الله ﷺ خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو ثقيفاً إلى الدين فوقع به وسبه وسفهه وشتمه وكذبه وتوعده وهم أن يبطش به، **والثانية**: يوم العير، **والثالثة**: يوم أحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله ﷺ في أعلاه وهو ينادي أعل هبل، **والرابعة**: يوم الأحزاب، **والخامسة**: يوم الحديبية ولعن القادة والأتباع فقيل: يا رسول الله أفما يرجى الإسلام لأحد منهم فقال: لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع يسلم وأما القادة فلا يفلح منهم أحد، **والسادسة**: يوم الجمل الأحمر، **والسابعة**: يوم وقفوا لرسول الله ﷺ في العقبة ليستنفروا ناقته وكانوا اثني عشر رجلاً منهم أبو سفيان. فهذا لك يا معاوية، وأما أنت يا ابن النابغة فادعاك خمسة من قريش غلب عليك ألأمهم حسباً وأخبثهم منصباً وولدت على فراش مشترك ثم قام أبوك فقال: إنا شانىء محمد الأبتر فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ وقاتلت رسول الله ﷺ في جميع المشاهد وهجوته وآذيته بمكة وكدته وكنت من أشد الناس له تكذيباً وعداوة ثم خرجت تريد النجاشي لتأتي بجعفر وأصحابه فلما أخطأك ما رجوت ورجعك الله خائباً وأكذبك واشياً جعلت حدك على صاحبك

عمارة بن الوليد فوشيت به إلى النجاشي ففضحك الله وفضح صاحبك فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام وهجوت رسول الله ﷺ بسبعين بيتاً من الشعر فقال: اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة. وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سعرت عليه الدنيا ناراً ثم لحقت بفلسطين فلما أتاك قتله قلت: أنا أبو عبد الله إذا نكأت قرحة أدميتها ثم حبست نفسك إلى معاوية وبعت دينك بدنياه فلسنا نلومك على بغض ولا نعاتبك على ود وبالله ما نصرت عثمان حياً ولا غضبت له مقتولاً ويحك يا ابن العاص ألست القائل لما خرجت إلى النجاشي:

تقول ابنتي أين هذا الرحيل ... وما السير مني بمستنكر
فقلت ذريني فإني امرؤ ... أريد النجاشي في جعفر
لأكويه عنده كية ... أقيم بها نخوة الأصعر
وشأني أحمد من بينهم ... وأقولهم فيه بالمنكر
وأجري إلى عيبه جاهدا ... ولو كان كالذهب الأحمر
ولا أنثني عن بني هاشم ... بما أسطعت في الغيب والمحضر
فإن قبل العيب مني له ... وإلا لويت له مشفري

وأما أنت يا وليد فوالله ما ألومك على بغض علي وقد قتل أباك بين يدي رسول الله ﷺ صبراً وجلدك ثمانين في الخمر لما صليت بالمسلمين الفجر سكران وفيك يقول الحطيئة:

شهد الحطيئة حين يلقى ربه ... إن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم ... أأزيدكم سكراً وما يدري
ليزيدهم أخرى ولو قبلوا ... لأتت صلاتهم على العشر
فأبوا أبا وهب ولو قبلوا ... لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك إذ جريت ولو ... تركوا عنانك لم تزل تجري

وسماك الله في كتابه فاسقاً وسمى أمير المؤمنين مؤمناً حيث تفاخرتما فقلت له: اسكت يا علي فأنا أشجع منك جناناً وأطول منك لساناً. فقال لك

علي: اسكت يا وليد فأنا مؤمن وأنت فاسق فأنزل الله تعالى في موافقة قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ ثم أنزل فيك على موافقة قوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ ومهما نسيت فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه:

أنـزل الـلّـه والـكـتـاب عـزيـز ... فـي عـلـي وفـي الـولـيـد قـرانـا
فـتـبـوأ الـولـيـد إذ ذاك فـسـقـا ... وعـلـي مـبـوأ إيـمـانـا
ليس من كان مؤمناً عمرك اللّه ... كـمـن كـان فـاسـقـاً خـوانـا
سوف يدعى الوليد بعد قليل ... وعـلـي إلـى الـحـسـاب عـيـانـا
فـعـلـي يـجـزي بـذاك جـنـانـا ... ولـيـد يـجـزى بـذاك هـوانـا
رب جـد لـعـقـبـة بـن أبـان ... لابـس فـي بـلادنـا تـبـانـا

وما أنت وقريش إنما أنت علج من أهل صفورية وأقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد وأسن ممن تدعى إليه وأما أنت يا عتبة فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك وما عندك خير يرجى ولا شر يتقى وما عقلك وعقل أمتك إلا سواء وما يضر علياً لو سببته على رؤوس الأشهاد وأما وعيدك إياي بالقتل فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك فقال فيك نصر بن حجاج:

يـا لـلـرجـال وحـادث الأزمـان ... ولـسـبـة تـخـزي أبـا سـفـيـان
نـبـئـت عـتـبـة خـانـه فـي عـرسـه ... جـبـس لـئـيـم الأصـل فـي لـحـيـان

وكيف ألومك على بغض علي وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر وشرك حمزة في قتل جدك عتبة وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد.

وأما أنت يا مغيرة فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه إنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة استمسكي فإني طائرة عنك فقالت النخلة: هل علمت بك واقعة علي فاعلم بك طائرة عني وإن حد الله عليك في الزنا لثابت ولقد درأ عمر عنك حقاً الله سائله عنه ولقد سألت رسول الله ﷺ هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها فقال: لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا لعلمه بأنك زان. وأما فخركم علينا بالإمارة فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا

﴿مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾. ثم قام الحسن فنفض ثوبه وانصرف فتعلق عمرو بثوبه وقال: يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله في وأنا مطالب له بحد القذف فقال معاوية: خل عنه لا جزاك الله خيراً فتركه فقال معاوية: قد أنبأتكم أنه ممن لا تطاق عارضته ونهيتكم إن تسبوه فعصيتموني والله ما قام حتى أظلم علي البيت قوموا عني فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزم وعدولكم عن رأي الناصح المشفق وقال:

أمرتكم أمراً فلم تسمعوا له	وقلت لكم لا تبعثن إلى الحسن
فجاء ورب الراقصات عشية	بركبانها يهوين من سرة اليمن
أخاف عليكم منه طول لسانه	وبعد مداه حين إجراره الرسن
فلما أبيتم كنت فيكم كبعضكم	وكان خطابي فيه غبناً من الغبن
فحسبكم ما قال مما علمتم	وحسبي بما ألقاه في القبر والكفن

رجوعه إلى المدينة

قال المدائني: أقام الحسن (ع) بالكوفة أياماً ثم تجهز للشخوص إلى المدينة فدخل عليه المسيب بن نجبة الفزاري وظبيان بن عمارة التميمي ليودعاه فقال الحسن (ع): الحمد لله الغالب على أمره لو جمع الناس جميعاً على أن لا يكون ما هو كائن ما استطاعوا (إلى أن قال) فعرض له المسيب وظبيان بالرجوع فقال: ليس إلى ذلك سبيل فلما كان الغد خرج وتوجه إلى المدينة هو وأخوه الحسين عليهما السلام وأهل بيته وحشمهم وجعل الناس يبكون عند مسيرهم من الكوفة فلما صار بدير هند نظر إلى الكوفة وقال:

ولا عن قلى فارقت دار معاشري	هم المانعون حوزتي وذماري

قال المفيد: خرج الحسن (ع) إلى المدينة فأقام بها كاظماً غيظه لازماً منزله منتظراً لأمر ربه.

وفاة الحسن عليه السلام

روى الزبير بن بكار في كتاب أنساب قريش عن محمد بن حبيب في

أماليه عن ابن عباس أنه قال: أول ذل دخل على العرب موت الحسن (ع). وفي مقاتل الطالبيين قيل لأبي إسحاق: متى ذل الناس قال: حيث مات الحسن وادعي زياد وقتل حجر بن عدي وكان الحسن (ع) شرط على معاوية في شروط الصلح أن لا يعهد إلى أحد بالخلافة بعده وأن تكون الخلافة له من بعده، قال أبو الفرج وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص فدس إليهما سماً فماتا منه أرسل إلى ابنة الأشعث أني مزوجك بيزيد ابني على أن تسمي الحسن وبعث إليها بمائة ألف درهم فسوغها المال ولم يزوجها منه فخلف عليها رجل من آل طلحة فأولدها فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيروهم وقالوا: يا بني مسمة الأزواج وكان ذلك بعدما مضى من إمارة معاوية عشر سنين، وقال ابن عبد البر في الاستيعاب قال قتادة وأبو بكر بن حفص: سم الحسن بن علي سمته امرأته بنت الأشعث بن قيس الكندي وقالت طائفة: كان ذلك منها بتدسيس معاوية إليها وما بذل لها في ذلك (اهـ)، وقال المدائني دس إليه معاوية سماً على يد جعدة بنت الأشعث بن قيس زوجة الحسن وقال لها: إن قتلته بالسم فلك مائة ألف وأزوجك يزيد ابني فمرض أربعين يوماً فلما مات وفى لها بالمال ولم يزوجها من يزيد وقال: أخشى أن تصنعي بابني ما صنعت بابن رسول الله ﷺ، وقال المفيد: لما تم لمعاوية عشر سنين من إمارته وعزم على البيعة لابنه يزيد دس إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس وكانت زوجة الحسن (ع) من حملها على سمه وضمن لها أن يزوجها بابنه يزيد فأرسل إليها مائة ألف درهم فسقته جعدة السم فبقي أربعين يوماً ومضى لسبيله، وفي تذكرة الخواص لسبط بن الجوزي قال علماء السير منهم ابن عبد البر سمته زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي وقال الشعبي دس إليها معاوية فقال: سمي الحسن وأزوجك يزيد وأعطيك مائة ألف درهم فلما مات الحسن بعث إليها بالمال ولم يزوجها بيزيد قال: وحكى جدي في كتاب الصفوة قال: ذكر يعقوب بن سفيان في تاريخه أن جعدة هي التي سمته وقال الشاعر في ذلك:

تعز فكم لك من سلوة تفرج عنك غليل الحزن

بموت النبي وقتل الوصي وقتل الحسين وسم الحسن

وقال الصادق (ع) إن الأشعث شرك في دم أمير المؤمنين (ع) وابنته جعدة سمت الحسن (ع) وابنه محمد شرك في دم الحسين (ع).

وصية الحسن بن علي إلى أخيه الحسين (ع)

رواها الشيخ الطوسي في أماليه عن ابن عباس: هذا ما أوصى به الحسن بن علي إلى أخيه الحسين، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنه يعبده حق عبادته لا شريك له في الملك ولا ولي له من الذل وأنه خلق كل شيء فقدره تقديراً وأنه أولى من عبد وأحق من حمد، من أطاعه رشد ومن عصاه غوى ومن تاب إليه اهتدى، فإني أوصيك يا حسين بمن خلفت من أهلي وولدي وأهل بيتك أن تصفح عن مسيئهم وتقبل من محسنهم وتكون لهم خلفاً ووالداً وأن تدفنني مع رسول الله ﷺ فإني أحق به وببيته فإن أبوا عليك فأنشدك الله بالقرابة التي قرب الله عز وجل منك والرحم الماسة من رسول الله ﷺ أن لا تهريق في أمري محجمة من دم حتى نلقى رسول الله ﷺ فنختصم إليه ونخبره بما كان من الناس إلينا.

وروى الحاكم في المستدرك أنه لما توفي أقام نساء بني هاشم النوح عليه شهراً، وعن أبي جعفر قال: مكث الناس يبكون على الحسن بن علي وعطلت الأسواق، قال الشيخ الطوسي في الأمالي: فلما توفي دعا الحسين ابن عباس وعبد الرحمٰن بن جعفر وعلي بن عبد اللّه بن عباس فأعانوه على غسله وحنطوه وألبسوه أكفانه وخرجوا به إلى المسجد فصلوا عليه وقال المفيد: لما مضى لسبيله غسله الحسين (ع) وكفنه وحمله على سريره ولم يشك مروان ومن معه من بني أمية أنهم سيدفنونه عند رسول الله ﷺ فتجمعوا لذلك ولبسوا السلاح فلما توجه به الحسين (ع) إلى قبر جده رسول الله ﷺ ليجدد به عهداً أقبلوا إليهم في جمعهم ولحقتهم عائشة على بغل وهي تقول: ما لي ولكم

تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحب وجعل مروان يقول: يا رب هيجا هي خير من دعة. أيدفن عثمان في أقصى المدينة ويدفن الحسن مع النبي لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف، وكادت الفتنة أن تقع بين بني هاشم وبني أمية، وقال سبط بن الجوزي: قال ابن سعد عن الواقدي لما احتضر الحسن قال: ادفنوني عند أبي يعني رسول الله ﷺ فأراد الحسين (ع) أن يدفنه في حجرة رسول الله ﷺ فقامت بنو أمية ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكان والياً على المدينة فمنعوه وقامت بنو هاشم لتقاتلهم فقال أبو هريرة: أرأيتم لو مات ابن لموسى أما كان يدفن مع أبيه قال ابن سعد ومنهم أيضاً عائشة وقالت: لا يدفن مع رسول الله ﷺ أحد. وقال أبو الفرج الأصبهاني: قال يحيى بن الحسن: سمعت علي بن طاهر بن زيد يقول: لما أرادوا دفنه ركبت عائشة بغلاً واستعونت بني أمية ومروان ومن كان هناك منهم ومن حشمهم وهو قول القائل: (فيوماً على بغل ويوماً علىَ جمل). قال المفيد في تتمة الخبر السابق: فبادر ابن عباس إلى مروان فقال له: ارجع يا مروان من حيث جئت ما نريد دفن صاحبنا عند رسول الله ﷺ لكنا نريد أن نجدد به عهداً بزيارته ثم نرده إلى جدته فاطمة بنت أسد فندفنه عندها بوصيته بذلك (إلى آخر كلامه) وقال الحسين (ع): والله لولا عهد الحسن بحقن الدماء وأن لا إهريق في أمره محجمة دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا. ومضوا بالحسن فدفنوه بالبقيع عند جدته فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

ولما بلغ معاوية موت الحسن (ع) سجد وسجد من حوله وكبر وكبروا معه، ذكره الزمخشري في ربيع الأبرار وابن عبد البر في الاستيعاب وغيرهما فقال بعض الشعراء:

أصبح اليوم ابن هند شامتا ... ظاهر النخوة إذ مات الحسن
يا ابن هند إن تذق كأس الردى ... تك في الدهر كشيء لم يكن
لست بالباقي فلا تشمت به ... كل حي للمنايا مرتهن

ولما أتى نعيه إلى البصرة وذلك في أمارة زياد بن سمية بكى الناس فسمع الضجة أبو بكرة أخو زياد وكان مريضاً فقال: ما هذا فقالت له زوجته وكانت ثقفية: مات الحسن بن علي والحمد لله الذي أراح الناس منه فقال: اسكتي ويحك فقد أراحه الله من شر كثير وفقد الناس بموته خيراً كثيراً يرحم الله حسناً. ذكره المدائني.

وكانت وفاته (ع) بالمدينة يوم الخميس لليلتين بقيتا من صفر وقيل في السابع منه وقيل: لخمس بقين من ربيع الأول وفي رواية الحاكم لخمس خلون منه سنة خمسين من الهجرة أو خمس وأربعين أو تسع وأربعين أو إحدى وخمسين أو أربع وأربعين أو سبع وأربعين أو ثمان وخمسين وله سبع وأربعون سنة أو ست وأربعون وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً وقيل غير ذلك ووقع هنا اشتباهات من أعاظم العلماء مثل الكليني والمفيد والطبرسي بيناها في الجزء الخامس من المجالس السنية، وقبض رسول الله ﷺ وله سبع سنين وستة أشهر وقيل ثمان سنين وقام بالأمر بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة وأقام إلى أن صالح معاوية ستة أشهر وخمسة أيام أو ثلاثة أيام على الخلاف في وفاة أمير المؤمنين (ع) إنها ليلة إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين من شهر رمضان وقيل غير ذلك كما تقدم وبقي بعد الصلح تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشرة يوماً وقيل غير ذلك والله أعلم.

كتابة العلم

عن السيوطي في تدريب الراوي أنه كان بين السلف من الصحابة والتابعين اختلاف كثير في كتابة العلم فكرهها كثير منهم وأباحها طائفة وفعلوها منهم علي وابنه الحسن (اهـ) ولا شك في أنه لولا كتابة العلم لضاع العلم فهي منقبة لعلي وولده عليهما السلام.

كلام له عليه السلام في التوحيد

روى الصدوق في كتاب التوحيد أنه جاء رجل إلى الحسن (ع) فقال له: يا ابن رسول الله صف لي ربك كأني أنظر إليه. فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال:

الحمد لله الذي لم يكن له أول معلوم ولا آخر متناه ولا قبل مدرك ولا بعد محدود ولا أمد بحتي ولا شخص فيتجزى ولا اختلاف صفة فيتناهى ولا تدرك العقول وأوهامها ولا الفكر وخطراتها ولا الألباب وأذهانها صفته فتقول: متى ولا بدىء مما ولا ظاهر على ما ولا باطن فيما ولا تارك فهلا خلق الخلق فكان بدياً بديئاً ابتدأ ما ابتدع وابتدع ما ابتدأ وفعل ما أراد وأراد ما استزاد ذلكم الله رب العالمين.

المأثور عنه عليه السلام في الحكم والآداب والمواعظ ونحوها

قال له جنادة بن أبي أمية في مرضه الذي توفي فيه: عظني يا ابن رسول الله قال: نعم استعد لسفرك وحصل زادك قبل حلول أجلك وأعلم أنك تطلب الدنيا والموت يطلبك ولا تحمل هم يومك الذي لم يأت على يومك الذي أنت فيه وأعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلا كنت فيه خازناً لغيرك واعلم أن الدنيا في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وفي الشبهات عتاب فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة خذ منها ما يكفيك فإن كان حلالاً كنت قد زهدت فيها وإن كان حراماً لم يكن في وزر فأخذت منه كما أخذت من الميتة وإن كان العتاب فالعتاب يسير واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً وإذا أردت عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فاخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعة الله عز وجل وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا صحبته زانك وإذا خدمته صانك وإذا أردت معونة أعانك وإن قلت صدق قولك وإن صلت شد صولك وإن مددت يدك بفضل مدها وإن بدت منك ثلمة سدها وإن رأى منك حسنة عدها وإن سألته أعطاك وإن سكت عنه ابتداك وإن نزلت بك إحدى الملمات واساك من لا تأتيك منه البوائق ولا تختلف عليك منه الطرائف ولا يخذلك عند الحقائق وإن تنازعتما منقسماً آثرك.

شيء من حكمه القصيرة منقول من تحف العقول

قال (ع): ما تشاور قوم إلا هدوا إلى رشدهم، اللؤم أن لا تشكر النعمة، وقال لبعض ولده: يا بني لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، القريب

من قربته المودة وإن بعد نسبه والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه، الخير الذي لا شر فيه الشكر مع النعمة والصبر على النازلة، العار أهون من النار، وقال في وصف أخ صالح كان له: كان من أعظم الناس في عيني وكان رأس ما عظم به في عيني صغر الدنيا في عينه، كان لا يشتكي ولا يسخط ولا يتبرم، كان أكثر دهره صامتاً فإذا قال بذ القائلين كان إذا جالس العلماء على أن يستمع أحرص منه على أن يقول، كان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت، كان لا يقول ما لا يفعل ويفعل ما لا يقول، كان إذا عرض له أمران لا يدري أيهما أقرب إلى ربه نظر أقربهما من هواه فخالفه، كان لا يلوم أحداً على ما قد يقع العذر في مثله، وقيل له فيك عظمة فقال بل في عزة الله تعالى: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، وسئل عن المروءة فقال: شح الرجل على دينه وإصلاحه ماله وقيامه بالحقوق. وسأله رجل أن يجالسه فقال: إياك أن تمدحني فأنا أعلم بنفسي منك أو تكذبني فإنه لا رأي لمكذوب أو تغتاب عندي أحداً. فقال له الرجل: ائذن لي في الانصراف قال: نعم إذا شئت، ومر (ع) في يوم فطر بقوم يلعبون ويضحكون فوقف على رؤوسهم فقال: إن الله جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته فسبق قوم ففازوا وقصر آخرون فخابوا فالعجب كل العجب من ضاحك لاعب في اليوم الذي يثاب فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون وأيم الله لو كشف الغطاء لعلموا أن المحسن مشغول بإحسانه والمسيء مشغول بإساءته ثم مضى، ومن الفصول المهمة: هلاك المرء في ثلاث: الكبر والحرص والحسد فالكبر هلاك الدين وبه لعن إبليس، والحرص عدو النفس وبه خرج آدم من الجنة، والحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل. ومن كشف الغمة: لا أدب لمن لا عقل له ولا مروءة لمن لا همة له ولا حياء لمن لا دين له، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل، وبالعقل تدرك الداران جميعاً، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً. لا تأت رجلاً إلا أن ترجو نواله أو تخاف يده أو تستفيد من علمه أو ترجو بركة دعائه أو تصل رحماً بينك وبينه. ما رأيت ظالماً بمظلوم من حاسد. وقال (ع): يا ابن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً وارض بما قسم الله تكن غنياً وأحسن جوار من جاورك

تكن مسلماً وصاحب الناس بمثل ما تعحب أن يصاحبوك به تكن عدلاً، أنه كان بين أيديكم أقوام يجمعون كثيراً ويبنون مشيداً ويأملون بعيداً أصبح جمعهم بوراً وعملهم غروراً ومساكنهم قبوراً، يا ابن آدم لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فخذ مما في يديك لما بين يديك فإن المؤمن يتزود والكافر يتمتع، وقال (ع): ما فتح الله عز وجل على أحد باب مسألة فخزن عنه باب الإجابة ولا فتح على رجل باب عمل فخزن عنه باب القبول ولا فتح لعبد باب شكر فخزن عنه باب المزيد، وقال (ع): المعروف ما لم يتقدمه مطل ولا يتبعه منّ، والإعطاء قبل السؤال من أكبر السؤدد، وسئل عن البخل فقال: هو أن يرى الرجل ما أنفقه تلفاً وما أمسكه شرفاً، وقال (ع): لا تعاجل الذنب بالعقوبة واجعل بينهما للاعتذار طريقاً، المزاح يأكل الهيبة وقد أكثر من الهيبة الصامت، المسؤول حر حتى يعد ومسترق حتى ينجز، الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود، تجهل النعم ما أقامت فإذا ولت عرفت.

المأثور عن الحسن (ع) من الشعر

فمنه ما أورده ابن شهراشوب في المناقب وهو قوله (ع):

ذري كدر الأيام إن صفاءها	تولي بأيام السرور الذواهب
وكيف يغر الدهر من كان بينه	وبين الليالي محكمات التجارب

وقوله (ع):

قل للمقيم بغير دار إقامة	حان الرحيل فودع الأحبابا
إن الذين لقيتهم وصحبتهم	صاروا جميعاً في القبور ترابا

وقوله (ع):

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها	إن المقام بظل زائل حمق

وقوله (ع):

لكسرة من خسيس الخبز تشبعني	وشربة من قراح الماء تكفيني
وطمرة من رقيق الثوب تسترني	حياً وإن مت تكفيني لتكفيني

وقال وقد جاءه أعرابي فقال: أعطوه ما في الخزانة فكان عشرين ألف درهم فقال: يا مولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي وأنشر مدحتي فأنشأ الحسن (ع) يقول:

نحن أناس نوالنا خضل ... يرتع فيه الرجاء والأمل

تجود قبل السؤال أنفسنا ... خوفاً على ماء وجه من يسل

لو علم البحر فضل نائلنا ... لغاض من بعد فيضه خجل[1]

وفي كتاب العمدة لابن رشيق: وهو - أي الحسن (ع) - القائل وقد خرج على أصحابه مختضباً رواه البرد:

نسود أعلاها وتأبى أصولها ... فليت الذي يسود منها هو الأصل

بنو الحسن[*]

يعنينا من ذكر هؤلاء الطالبيين حسنيين وحسينيين، إنهم ممن سنوا للعرب وللناس كافة، سنة الأنفة والإباء، وعلموهم معنى الصبر والنجدة واختيار الموت على الحياة الدنية، وتقبل مذاهب الأجداد في إباء الضيم والعزوف عن الذل، فمنهم القائل: «ذلٌ من أحب الحياة» ومنهم من قال: «لا أعطيكم إعطاء الذليل» كرهوا الدنية وفضلوا عليها المنية، إلى غير ذلك من محاسن الشيم والأخلاق.

يعرف كثير من العلويين - في الكتب المؤلفة في أنسابهم خاصة - بألقاب لا تعرف في كتب التأريخ العامة، ومن ذلك عبد الله بن الحسن أبو الأخوين محمد النفس الزكية وإبراهيم قتيل باخمري، فهو في كتب الأنساب «عبد الله المحض» وفي كتب التأريخ عبد الله بن الحسن، ويعرف أبوه الحسن «بالحسن المثنى»[2] في كتب الأنساب لمطابقة اسمه لاسم أبيه، ويعرف أخوه الحسن بن الحسن «بالحسن المثلث» في كتب الأنساب ولا يعرف بذلك في كتب التأريخ،

---

(١) أي وهو خجل أو فيه أقواء.

(*) بقلم الشيخ محمد رضا الشبيبي.

(٢) له ترجمة مفصلة في تأريخ دمشق لابن عساكر (٤/ ١٦٢ - ١٦٦) وترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب (٢/ ٢٦٣) شهد مع عمه كربلاء ولم يقتل لأسباب ذكرها المؤرخون، وله ذكر في مقاتل الطالبيين وعمدة الطالب وغاية الاختصار وكتب أخرى.

ومن ألقابهم «موتم الأشبال» و«ذو الدمعة» و«الأطروش» و«الغمر» و«الجون» و«الديباج» و«الأعرج» و«الأفطح» وهي ألقاب لا تعرف في كتب التأريخ الكبرى حيث تجد أسماءهم مجردة من هذه الألقاب، أما في كتب الأنساب فإنها ألقاب معروفة مقرونة بذكر أسبابها.

أعيان بني الحسن وأشهر مشاهيرهم في صدر الدولة العباسية ـ عبد اللّه المحض وأبناؤه وإخوته وأبناؤهم ـ كانوا على جانب كبير من الوجاهة والرياسة ونفاذ الكلمة، بويع بعضهم بالخلافة.

امتاز هذا الفرع من العلويين بمناوءة العباسيين وخروج من خرج منهم واحداً بعد آخر في الدولة العباسية طلباً للخلافة، ويلاحظ أن أوائلهم كانوا أقل تبرماً بحكم الأمويين منهم بحكم العباسيين، فقد عوملوا في الدولة الأموية معاملة خاصة تختلف عن معاملة غيرهم من العلويين والطالبيين وخصوصاً سلالة أبي عبد اللّه الحسين فهي سلالة موتورة بمقتل من قتل في واقعة الطف وبمقتل من قتل في واقعة الكناسة في عصر هشام بن عبد الملك، وسنرى في الكلام عن عبد اللّه بن الحسن ما يؤيد ذلك.

كابد بنو الحسن ما كابدوا في سبيل تضامنهم إزاء العباسيين وبقاء رابطة العشيرة قائمة وثيقة فيهم مهما تحملوا في سبيلها، فقد كانوا مثلاً في التضامن إذا استثنينا بعض من شذ منهم[1] ومالأ المنصور على بني عمه، ومن أجل ذلك حاول رجال المنصور في المدينة التفريق بين العلويين من حسنيين وحسينيين، وميزوا بعضهم على بعض في المعاملات[2]، ومن أجل ذلك نكل المنصور بهم ذلك التنكيل الشديد حتى مات كثير منهم في السجون وقتل باقيهم بعد خروج محمد بالمدينة[3].

---

(١) هو الحسن بن زيد بن الحسن، الكامل (٥/ ٢٤٣) وتهذيب التهذيب لابن حجر (٢/ ٢٧٩) وغاية الاختصار (٣٩ ـ ٤٠) وعمدة الطالب (٥٥) ومهذب تأريخ دمشق (٥/ ٤٥٩ ـ ٤٦٤).

(٢) تأريخ الطبري (٩/ ١٩٢) والآداب السلطانية (١١٩) والكامل لابن الأثير (٥/ ٢٤٧).

(٣) تأريخ الطبري (٩/ ١٩٩).

كان ولاة المدينة من قبل العباسيين يتهيبون بني الحسن في الحجاز ويخشون بأسهم ويلاحظون منزلتهم وفي مقدمتهم عميدهم عبد اللّه بن الحسن فيعجزون عن ملاحقة أولاده، وهم يعدون العدة للخلاف والخروج على المنصور، بل كان محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم يترددان على المدينة بدون حرج وعلى مرأى ومسمع من الولاة المذكورين إذ كان لوجاهة أبيهم ونفاذ كلمته شأن يذكر في دفع غوائل السلطان عنهم في المدينة وقد أحفظ ذلك المنصور وراح يحرق الإرم عليه، ومما زاد في الطين بلة وأزعج المنصور جداً تحزب جمهور كبير من أهل المدينة لبني حسن عليه وكثرة المؤامرات فيها ومحاولة الفتك به في بعض مواسم الحج حتى لم يعرج على هذا البلد في موسم سنة ١٤٤ وهو الموسم الذي كان التنكيل ببني الحسن إحدى الغايات من شهوده، ومما يؤكد كون المدينة موالية لمحمد بن عبد اللّه بن الحسن معادية للمنصور دخول محمد لها من حين آلى آخر ـ كما مر ذلك آنفاً ـ واجتماعه بأصحابه وأنصاره وذويه فيها مع شدة الطلب والملاحقة له(١).

نشأت من بني الحسن دويلات في الشرق والغرب، ولهم في إفريقية ومصر وبعض بلاد الروم والفرنج فتوح يحتاج شرحها إلى تأريخ منفرد(٢)، نشأ منهم أئمة الزيدية في بعض الأقطار العربية والإسلامية كالأدارسة مؤسسي الدولة المشهورة في مراكش والمغرب الأقصى وأئمة الزيدية في اليمن وبلاد الديلم والأقطار الفارسية.

هذا ويحسن بنا إيراد فذلكة عن أشهر مشاهير بني الحسن على الصورة الآتية:

---

(١) تأريخ الطبري (٩/ ٢٠٢)، وانظر عن مجاملة ولاة المدينة لمحمد بن عبد اللّه وعن أسباب عزل المنصور لولاته عليها الكامل لابن الأثير (٥/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥).

(٢) راجع عن ذلك رسالة أوردها ابن أبي الحديد في شرح النهج (٣/ ٤٩٢).

يعرف في كتب الأنساب بعبد الله المحض ـ كما مر ـ وأنه أول من اجتمعت له ولادة السبطين ومن هذا لقب «المحض»، وكان المقدم بين بني الحسن علماً وسخاء ومن المنعوتين بأوصاف حسنة منها العلم والبيان والخطابة، ومما يشهد بذلك أنه أحد الثلاثة الذين حاول أبو سلمة عقد الأمر لهم من العلويين، وقد استجاب عبد الله بن الحسن لدعوة أبي سلمة ولم يلتفت إلى تحذير جعفر بن محمد إذ أعلمه أن أهل خراسان ليسوا من أنصاره وأن أبا سلمة مخدوع مقتول، والقصة مشهورة[1]، قبل عبد الله بن الحسن بعض الألطاف والكتب التي كتبها إليه بعض جواسيس المنصور على لسان أنصاره فكانت حجة للمنصور عليه وأمر بحبسه، وخلاصة القول وقع في فخ نصبه له المنصور وقامت عليه حجة حسب روايات بعض المؤرخين[2]. وقد روى عنه فريق من الأعلام منهم أبناؤه، ويقول أبو الفرج الأصفهاني أن مالك بن أنس احتج برأي عبد الله بن الحسن في بعض المسائل الفقهية[3]، ويعده الجاحظ من خطباء بني هاشم وقد روى له كلمة بليغة[4] وسيرته وأخباره في عصور الأمويين والعباسيين معروفة في كتب التأريخ والأنساب[5] ومن أشهرها وفوده على عمر بن

---

(١) يرجع إليها في كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري (٨٦)، وعمدة الطالب لابن عنبة (٨٨) ط النجف.

(٢) انظر عن جواسيس المنصور علي عبد الله بن الحسن وأبنائه تأريخ الطبري (٩/ ١٨١)، والكامل (٥/ ٢٤٤ ـ ٢٥١).

(٣) هي مسألة «السدل» في الصلاة يرجع في ذلك إلى المقاتل لأبي الفرج (١٣١)، ويكثر ورود السدل في كتب الحديث. راجع هذه المادة في النهاية لابن الأثير وفي مجمع البحرين للطريحي.

(٤) البيان والتبيين (١/ ١٢٧).

(٥) قف على بعض أخباره في الأغاني (١٨/ ٢٠٣ ـ ٢٠٩)، والإصابة (٥/ ١٣٣)، والمعارف (٩٣)، وطبقات ابن سعد (٥/ ٢٣٥)، وله ترجمة في تأريخ الخطيب (٩/ ٤٣٣)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٧/ ٣٥٤ ـ ٣٦٣)، ومقاتل الطالبيين لأبي الفرج، وعمدة الطالب لابن عنبة، والكامل لابن الأثير (٥/ ٢٤٦ ـ ٢٥١)، وشرح النهج لابن أبي الحديد (٣/ ٤٧٣ ـ ٤٨٨).

عبد العزيز وهشام بن الحكم في الدولة الأموية، ثم وفادته على أبي العباس السفاح في الهاشمية بعد بيعته، وقد صحبه في وفوده على السفاح أخوه الحسن المثلث، وهو ممن مات في سجن المنصور بعد ذلك، وكانت حفاوة السفاح بهما بالغة وإن لم تخل من العتاب والسؤال والجواب بسبب تغيب محمد وإبراهيم، وقد اعتذر الحسن المثلث عن ولدي أخيه بما يدل على علو منزلته، قال صاحب غاية الاختصار: «كان الحسن المثلث جليلاً نبيلاً ولو لم يستدل على شرفه إلا بالجواب الذي قاله لأبي العباس السفاح في قصة محمد وإبراهيم ابني أخيه لكفى»[1].

كان لهذا الزعيم الحسني ـ أعني عبد الله بن الحسن ـ رأيه الخاص في الخطة التي رسمها العباسيون لإبادة بني أمية واستئصالهم أينما وجدوا في عصر أبي العباس السفاح، وهو ـ أي عبد الله ـ القائل لداود بن علي عم السفاح ـ وقد أمعن في قتل الأمويين في الحجاز ـ: «يا ابن عمي إذا فرطت في قتل أكفائك فمن تباهي بسلطانك؟، أو ما يكفيك منهم أن يروك غادياً رائحاً فيما يسرك ويسوؤهم»[2]، وهو في هذا القول يرى رأي سياسي بعيد الغور.

قلما عانى أحد من وجوه بني الحسن ما عاناه عبد الله هذا من الخليفة أبي جعفر المنصور فإنه حبسه حبساً شديداً في المدينة ثم حمله وأفراد أسرته إلى العراق على حالة يرثى لها، وحبسهم في الهاشمية حتى الموت، وقد أذاقهم من الأذى في حبوسهم ما تقشعر له الأبدان مما نعلم منه مبلغ حقد أبي جعفر المنصور على عبد الله بن الحسن وأبنائه[3].

---

(١) للاطلاع على تفصيل القصة يرجع إلى غاية الاختصار (٣٤ ـ ٣٥) والحديث منقول في كثير من كتب الأخبار والتأريخ.

(٢) شرح النهج (٢/٢١٣)، وانظر هذا الموضع من الكتاب عن أشهر أمراء بني العباس في النكاية بالأمويين وفي مقدمتهم داود وسليمان وعبد الله أبناء علي بن عبد الله بن عباس، وهم أعمام السفاح، وراجع الآداب السلطانية لابن الطقطقي (١٠٨ ـ ١٠٩).

(٣) للاطلاع على سوء معاملة هؤلاء المساجين من العلويين والتنكيل بهم داخل السجون يرجع=

لم يفعل المنصور ما فعله من هذا القبيل ولم يرتكب ما ارتكبه إلا بعد أن لمس في عبد اللّه بن الحسن لدداً في الخصومة وصلابة في العقيدة وتصميماً على المعارضة، فقد أخفق المنصور في حمله على تسليم أبنائه أو الإيماء إلى الجهات التي يقيمون فيها، وطالما طلب إليه إحضار ابنيه بالتهديد والوعيد وطالما جرى بينهما كلام غليظ فما أجدى ذلك كله وحاول أن يقتله قبل حبسه ثم عدل عن ذلك[1].

كان تخلف محمد وإبراهيم ولدي عبد اللّه بن الحسن عن القدوم على أبي جعفر المنصور ـ بعد مبايعته بالخلافة في الكوفة وتشجيع عبد اللّه لابنيه المذكورين على الخلاف والثورة حتى قال لهما فيما قال: «إن منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين»[2] ـ في أولى البوادر التي أثارت شك المنصور وريبته في نيات بني الحسن، ثم توالت عليه أخبار وأنباء بعث بها إليه عيونه وأرصاده أكدت له خلاف بني الحسن وأن محمد بن عبد اللّه عازم على الثورة[3]، وكان بعض بني الحسن أنفسهم ـ وهو الحسن بن زيد بن الحسن ـ يؤكد لأبي جعفر المنصور أن بني الحسن ثائرون عليه لا محالة فأيقظ الحسن منه عيناً لا تنام، وفي الحسن هذا يقول موسى بن عبد اللّه بن الحسن ـ ثالث الأخوين محمد وإبراهيم ـ: «اللهم أطلب حسن بن زيد بدمائنا»[4]. ولا شك أنه كان عيناً للمنصو يرفع إليه أخبار بني الحسن[5]، وللحسن هذا ابن مشهور اسمه القاسم ورث عنه هذه الخصومة لأبناء عمه وهو الذي حمل البشارة بمقتل النفس الزكية إلى المنصور[6].

= إلى مروج الذهب للمسعودي (٢/ ١٧١ ـ ١٧٢)، وانظر المقاتل لأبي الفرج (١٤٨ ـ ١٥٥) ط النجف، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (٢/ ٤)، والآداب السلطانية (١١٨ ـ ١١٩).

(١) عقد أبو الفرج في مقاتله فصلاً عنوانه: «ذكر السبب في أخذ عبد اللّه بن الحسن» (١٤٢ ـ ١٥٩).

(٢) مقاتل الطالبيين (١٥٥).

(٣) المصدر نفسه (١٤٦ ـ ١٤٧).

(٤) الكامل (٥/ ٢٤٣ ـ ٢٦١).

(٥) تأريخ الطبري (٩/ ١٤٤).

(٦) الكامل (٥/ ٢٦٠)، وراجع عن القاسم هذا كتب الأنساب، ومن ذلك عمدة الطالب (٥٥)=

والواقع أن للحسن بن زيد أولاداً آخرين لم يتبعوا طريقة والدهم في مجافاة بني الحسن بل إنهم التحقوا بثوار المدينة وكانت لهم صلة وثيقة بالنفس الزكية[1]، والحق أن المنصور كان بالغ القسوة شديد العقوبة والمؤاخذة لا يستطيع ضبط نفسه إذا رأى زعيماً من زعماء بني الحسن وخصوصاً أبا محمد هذا، بل كان لا يتردد من ضربهم وإهانتهم وتعذيبهم وزجهم في السجون المطبقة في الحجاز والعراق، وقد عبر عما يكن من حنق وحقد غالب عليه بقوله ـ والسياط تنهال بأمره على أحد بني الحسن في الربذة ـ: «هذا فيض فاض مني فأفرغت منه سجلاً لم أستطع رده»[2].

النفس الزكية:

أنجب عبد اللّه بن الحسن هذه السلالة التي قادت الجيوش وكانت شجى في حلق الطبقة الأولى من بني العباس، ولا شك أن المنصور قمع ثورة غير واحد من بني الحسن ـ وفي مقدمتهم النفس الزكية «قتيل أحجار الزيت»، وأخوه إبراهيم قتيل «باخمري» ـ إلا أنه قد استطاع غير واحد منهم أن ينشئ ملكاً عريضاً في غير ناحية من نواحي العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، فكانت لبعضهم دولة في المشرق وكانت لآخرين منهم دولة أخرى تعرف بدولة الأدارسة في المغرب، وكان لبعضهم ملك كبير في جهات أخرى.

لا شك أن أبعد بني عبد اللّه شهرة وأبقاهم ذكراً هو محمد المعروف بالنفس الزكية الذي ناضل نضال الأبطال ـ حتى مات ـ في طلب الإمامة.

ولدت مع مولد بن عبد اللّه هذا فكرة الدعوة بالإمامة وقدر أهله ـ وفي مقدمتهم أبوه عبد اللّه الذي كان يطوف به على الأحياء ـ إنه المهدي الموعود،

= ط النجف وانظر عن جهود القاسم بن زيد بن الحسن هذا في جانب العباسيين وذلك في واقعة المدينة تأريخ الطبري (٩/ ٢٢٢ ـ ٢٢٩).

(١) تأريخ الطبري (٩/ ٢٣٢)، وانظر عن شدة أبيهم الحسن على أبناء عمه المصدر نفسه (٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) تأريخ الطبري (٩/ ٢٢٦).

وتقبل كثير من الحجازيين وأهل المدينة خاصة هذه الدعوة ووقعت من نفوسهم موقعاً حسناً وصادفت هوى من قلوب المدنيين.

لقن محمد هذا وهو ناشىء أنه المهدي وألقي في روعه وهو حدث إلى أن شب وترعرع أنه الذي تحدثت بظهوره الروايات فلا سبيل إلى مناقشته في هذا الأمر، بل كان من السهل وصم من يشك في إمامته بالمروق عند كثير من أهل الحجاز والمدينة، ومن شأن كل ناشىء على هذا النمط من التربية والتلقين أن يكون راسخ العقيدة شديد الإيمان بحقه، وهكذا كان محمد بن عبد اللّه بن الحسن. نشأ وهو واثق أنه خليفة زمانه لم يتطرق إليه شك في ذلك وفي أن له حقاً مغصوباً وأن غاصبه هو المنصور، فلا مناص له من الخروج في سبيل الحق، أضف إلى ذلك أنه كان في الواقع على قسط لا يستهان به من العلم والنسك والدين، ومن ذلك لقبه النفس الزكية، وحسبك أن تتصفح الرسائل القيمة المتبادلة بينه وبين أبي جعفر المنصور قبل خروجه لتجزم بأنه غزير العلم قوي الحجة بصير بالأخبار والأنساب[1]، لذلك مال الهاشميون المؤتمرون في الحجاز في ذيل الدولة الأموية إلى ترشيحه للخلافة وبايعه من بايعه منهم، وفي مقدمتهم أبو جعفر المنصور نفسه.

كان محمد بن عبد اللّه موقناً بأن بيعة المنصور له لا يمكن نقضها شأنه في ذلك شأن ذوي العقائد أو المبادىء الراسخة والمثل العالية وأنها عقد لا يصح إبطاله وأن الخلافة أصبحت حقاً له لا ينازع فيه، والحق فوق القوة، وكان المنصور على نقيض ذلك من الزعماء أو الساسة الواقعيين الذين يرون أن الحق للقوة وأن العهود والمواثيق لا تعدو قصاصة ورق من السهل تمزيقها، وهكذا كان، فما أبعد الفرق بين المزاجين والخلقين!

من ذلك عني أبو جعفر بملاحقة عبد اللّه بن الحسن وأبنائه أشد العناية

---

(١) تجد هذه الرسائل في تأريخ الطبري.

ـ على ما رأيت ـ. وكان بينه وبين سلفه أبي العباس السفاح بون بعيد في هذا الشأن.

بنو الحسن في خلافة السفاح:

كان أبو العباس لين العريكة إذا قورن بأبي جعفر المنصور لم يسرف كأخيه في سفك الدماء ـ إذا استثنينا وقايعهم مع الأمويين ـ، والحق إن المنصور يختلف عن سلفه اختلافاً ظاهراً من هذه الناحية ونحن نرى السفاح لا يعمل بكثير من آراء أخيه المنصور ولا يوافقه على صرامته وشدته، أراده المنصور على قتل أبي مسلم الخراساني فنهاه عن ذلك قائلاً: «يمنعني عن قتله سابقته في الدعوة وجهاده في قيام الدولة»، ولم ينزل أبو العباس السفاح كذلك على رأي أخيه في قتل وزيره أبي سلمة الخلال ـ وهو الذي حاول نقل البيعة إلى العلويين ـ على أن السفاح لم يكن مصراً على ذلك ولهذا تولى قتله بعض العباسيين غيلة ـ بعد استشارة أبي مسلم الخراساني ـ في الكوفة[1]، ولا شك أن المنصور حاول الفتك بمن لقيه من بني الحسن في ولاية عهده للسفاح ولكن كان يحسب لغضب أخيه حسابه.

لما استخلف أبو العباس السفاح وفدت عليه ـ وهو في الأنبار قاعدة ملكه الجديدة ـ وفود العرب من كل فج وكان في طليعتها وفد كبير من الطالبيين والعلويين، وكلهم من أهل المدينة يتقدمهم عميد بني الحسن عبد الله بن الحسن وأخوه الحسن، ويلاحظ أن الوفد اقتصر على فريق من مشيخة الطالبيين وآل الحسن ـ أما معظم الشبان وفي مقدمتهم أبناء عبد الله وأبناء أخيه فإنهم تخلفوا عن المجيء إلى العراق ـ وإن السفاح احتفى بالوفد المذكور حفاوة بالغة وكان يتفضل أمام عبد الله بن الحسن ويستقبله بمباذله محاولاً إزالة الجفاء والوحشة بين البيتين، ومن ذلك أنه احتمل أثناء هذه الحفاوة بضيوفه في الأنبار

---

(١) انظر عن مشاركة أبي مسلم في مقتل أبي سلمة كتاب الإمامة والسياسة (٢/ ١٣١) والكامل (٥/ ٢٠٨).

أقوالاً لا معنى لصدورها منهم إلا التعريض بالدولة العباسية، وقد أسمعه الضيفان الكبيران ما يوهم نزول العباسيين عن ملكهم إلى غيرهم في مستقبل الأيام[1]، ويلاحظ أيضاً أن الحديث على تشعبه بين هؤلاء الهاشميين في مدينة الأنبار لم يتناول موضوع «البيعة» وأن المؤرخين الذين عنوا برواية أخبار عبد الله بن الحسن وأخبار من معه من الطالبيين في وفادتهم هذه لم يشيروا إلى البيعة، ولا شيء أهم من الدخول فيها إذ ذاك، ومن رأينا أن هؤلاء العلويين والطالبيين اشترطوا في هذه الوفادة عدم التعرض للبيعة، كما أن السفاح لم يكن ملحاً عليهم في ذلك، ولذلك اعتبرت هذه الزيارة «أخوية بحتة» أو «شخصية»، ولو كان المنصور مكان السفاح في ذلك الحين لأصر على الدخول في البيعة ولضرب أعناق القوم ـ لو امتنعوا ـ فوراً أو ألقاهم في السجون المطبقة والمطامير ليموتوا فيها أبشع ميتة كما قام بعد استخلافه بذلك.

كان زعماء العرب لا يرون في وفادتهم على أقرانهم وأندادهم وقبول الرفد والهدايا منهم شيئاً من الغضاضة، لذلك نرى أبا العباس السفاح رضخ للوفد بمبالغ طائلة من المال[2]، ومن أهم العوامل في هذا السخاء أن المال كان ينفق في الحجاز وهو بلد قاحل جل سكانه من ذوي الفقر والخصاصة ولكنه مهبط الوحي ومبعث الرسالة.

هذا ولا بد لنا من القول: إن السفاح أظهر قلقاً ووجلاً عظيمين من تخلف المتخلفين من شباب بني الحسن وفي مقدمتهم الأخوان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله فألحف في الاستفسار عنهما وعن أسباب تخلفهما، ومن حق السفاح أن يساوره القلق فإنهما تخلفا لأمر عظيم إذ كان محمد بن عبد الله مشغولاً ببث الدعوة لنفسه في الحجاز والعراق وفي الأهواز وفارس وفي أقطار أخرى ـ وكان له ولأنصاره نشاط ملحوظ في هذه الأقطار يجري أكثره في الخفاء وإن لم يخف

---

(١) من المراجع في هذا الباب تأريخ بغداد للخطيب (٧/ ٢٩٣) ومقاتل الطالبيين لأبي الفرج وغاية الاختصار في أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار (٢٨).

(٢) غاية الاختصار (٢٨ ـ٢٩).

على عيون بني العباس[1] ـ كما كان معنياً بإعداد عدته للخروج، ولم يكن الغرض من ذلك الإلحاف تفقداً أو حباً وإنما هو الاطمئنان والوقوف على مذهب الأخوين أو نيتهما في طلب الخلافة، وفي وسعك أن تحكم على سياسة السفاح ومبلغ مجاملته لبني الحسن من تظاهره بقبول المعاذير عن الأخوين الغائبين على مضض فإن الحسن المثلث أفهم السفاح بأن محاولاته في الوقوف على أمرهما من العبث[2]، ولذلك أراح السفاح نفسه باليأس من الظفر بالأخوين بعد الحديث المذكور مع أضيافه فأعرض عن طلبهم إلى أن فرق بينهم الموت، وتعزى مجاملته لبني الحسن إلى خبرته بدخائل بني عمه الهاشميين وإلمامه بما يخالج نفوسهم من الشعور بالأنفة، ولذلك نرى كثيراً من هؤلاء الطالبيين والهاشميين يخاطبون خلفاء بني العباس مخاطبة النظراء الأكفاء أو مخاطبة الأنداد، وقد يرون في آل عباس أتباعاً لا متبوعين ومرؤسين لا رؤساء فيما مضى من خلافة الإمام علي وبعض الأئمة من أبنائه، فمن أشق الأمور على وجوه العلويين أو الطالبيين أن يروا أنفسهم تابعين مرؤسين للعباسيين بعد ذلك، وقد تعزى المجاملة المذكورة فيما تعزى إليه إلى تأثير عبد الله بن الحسن نفسه فقد اشتهر ـ كما مر بك أن لحديثه تأثيراً كتأثير السحر في النفوس حتى كان الأمويون والعباسيون يحسبون لبلاغته وعارضته وملاحة أحاديثه حساباً[3].

---

(١) الكامل (٥/ ٢٤٥).

(٢) انظر في ذلك تأريخ الطبري (٩/ ١٨٤، ٤٣٣) وتأريخ بغداد للخطيب (٧/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤) والمقاتل لأبي الفرج (١٣٣، ١٧١) قال أبو الفرج: «خافه الأخوان وتواريا عنه وكانت بينهما ـ أي بين السفاح وعبد الله بن الحسن ـ مخاطبات».

(٣) من المراجع في هذا الباب تأريخ الطبري (٩/ ١٨٤، ١٩٣) وشرح النهج لابن أبي الحديد (٣/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥) قال شارح النهج شكا إلى عمر بن عبد العزيز رجل من رهطه دينا فاعتل عليه فقال الرجل فهلا اعتللت على عبد الله بن الحسن قال عمر: ومتى شاورتك في أمري، وهل أعطيته إلا بعض حقه؟ قال الرجل: ولم تأخرت عن كله، فأمر بإخراجه وما زال محروماً منه حتى مات، قالوا: وأعطى هشام بن عبد الملك عبد الله هذا أربعة آلاف دينار وإنما اشترى بها ملكه وحصن بها عن نفسه إلى غير ذلك.

بنو الحسن في عصر المنصور:

كان استخلاف المنصور بعد أخيه السفاح إيذاناً بالانتقال إلى عصر جديد يمتاز بشدته المتناهية واجتناب سياسة اللين والتهدئة وتفضيل الحلول الحاسمة على أنصاف الحلول، والواقع أن المنصور واجه في مستهل خلافته أخطاراً شتى منها القريب ومنها البعيد عني بدفعها عن الدولة، فهذا عمه الأمير الظافر عميد العباسيين بعد السفاح وقائد جيشهم وقاتل مروان الجعدي يمتنع من بيعة المنصور ويزحف على العراق مدعياً أن السافح عهد بولاية العهد لمن يظفر بالأمويين وهو الظافر بهم غير مدافع ولذلك فهو أولى العباسيين بهذه الولاية، وهؤلاء بنو الحسن وأنصارهم في كل مكان لا يرون في بني العباس أهلاً للبيعة بل يرون فيهم غاصبين ناكثين بالعهود والمواثيق ولا بد لهم من وثبة على هؤلاء الناكثين الغاصبين، ثم هذه الفتن الناجمة والخوارج الخارجون في شتى الأقاليم.

لا شك أن المنصور واجه هذه الأحداث والفتوق في مستهل خلافته بجأش رابط وعزيمة ماضية فتغلب على عمه بأبي مسلم الخراساني ثم ثنى بأبي مسلم ففتك به وبأنصاره ثم قمع فتناً شتى في الشرق والغرب تفرغ بعدها لمناجزة بني الحسن وقد كونت حركتهم خطراً من أعظم الأخطار على الدولة، وكان هذا الخليفة في كل هذه الأحداث ثابت الجنان يعتمد على القوة ولا محل عنده للعفو والرحمة[1].

من رأي أبي جعفر المنصور أن الأساس الذي قامت عليه دولة بني العباس وأخذت بموجبه البيعة لخلفائهم لم يزل مهدداً بالانهيار إذا أصر بنو الحسن على

(١) قف على ما رواه الطبري في تأريخه (٩/ ٢٥٥) من وصف بليغ لأخلاق المنصور، وراجع ما نقله الوطواط في غرره (٢٥٩) وهذا نصه: كان المنصور قلما يظفر بأحد إلا قتله، وهذا ما كان في أول خلافته وهو القائل لعبد الصمد بن علي ـ وقد لامه على إسرافه في القتل والعقوبة حتى كأنه لم يسمع بالعفو ـ «إن بني أمية لم تبل رممهم وإن آل أبي طالب لم تغمد سيوفهم ونحن قوم رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء ولا تتمهد الهيبة في صدورهم إلا باطراح العفو واستعمال العقوبة».

المطالبة بحقهم في البيعة ـ وإنهم لمضرون فعلاً ـ طبقاً لذلك الميثاق الذي اتخذه الهاشميون في أيام بني أمية وإلى هذا الميثاق يستند بنو الحسن ومحمد بن عبد الله في طلب البيعة وأنها لبيعة يعرفها العرب والهاشميون بأسرهم في ذلك الحين، وأول من عقدها للنفس الزكية هو السفاح، ويقال إن المنصور بايعه مرتين إحداهما بمكة في المسجد الحرام فلما خرج أمسك له بالركاب ثم قال: «أما إنه إن أفضى إليك أمر نسيت لي هذا الموقف»[1]، ومن هذا نعلم أن مناط السياسة ومحورها الذي تدور عليه في مذهب المنصور هو المصلحة لا غير، فهو يساوم ويماكس ولا يقيم وزناً لغير هذا النوع من السياسة، سياسة المنفعة لا سياسة العاطفة.

كان خبر هذه البيعة ـ بيعة المنصور للنفس الزكية ـ من جملة الأخبار المشهورة المتعالمة في ذلك العصر، ومن الأدلة على ذلك حديث عثمان بن محمد بن الزبير مع أبي جعفر المنصور، وهو حديث يدل على ثبات نادر وجرأة بالغة، كان عثمان هذا من وجوه أصحاب محمد وولي الشرطة له وله ذكر في بعض كتب الأخبار[2]، وقد هرب إلى البصرة بعد مقتل صاحبه فحمل منها إلى المنصور فقال له «هيه يا عثمان، أنت الخارج علي مع محمد؟» قال: «بايعته أنا وأنت بمكة فوفيت ببيعتي وغدرت ببيعتك» وقال: يا ابن اللخناء، قال: ذلك من قامت عنه الإماء ـ يعني المنصور ـ فأمر به فقتل، وهذا الحديث يدل على أثر العقيدة في هذا الضرب من أصحاب محمد بن عبد الله وعلى تفانيهم في ولائه والإخلاص له[3].

أضف إلى ما تقدم ما تناهى إلى علم المنصور من أن للعلويين أو لبني

---

(١) مقاتل الطالبيين (٢٠٩).

(٢) المصدر نفسه (١٩٥).

(٣) قف على هذا الحديث في تأريخ الطبري (٩/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥) والكامل (٥/ ٢٦١)، والمقاتل (٩٧)، ولاحظ الاختلاف في سرد النصوص، وفي رواية صاحب المقاتل تفصيل لا يوجد في غيره من كتب التأريخ.

الحسن في كثير من الأقطار أنصاراً يدينون لهم بالولاء ويبعثون لهم بزكاة الأموال وبمختلف الألطاف[1] ويعنون كثيراً بأخبارهم ويتحدثون بأحاديثهم، ومن هؤلاء من يرى رأي الزيدية في الخروج، ومنهم من يرى موالاة هؤلاء العلويين على كل حال، وكانت للقوم هيبة ومكانة في صدور الناس[2]، وإلى تلك المكانة الرفيعة والبيعة القائمة لبني الحسن في أعناق الأول من بني العباس مردُّ هذا الحرص من المنصور على الظفر بمحمد وبأخيه إبراهيم ليطمئن على ملكه الجديد ويقيمه على الأساس الذي يريد، وقد تذرع إلى تحقيق بغيته بشتى الوسائل ونصب مختلف الحبائل[3].

يدهش المتأمل في سيرة المنصور لعنائه البالغ بعد استخلافه ـ وقبل ذلك أيضاً ـ بالتضييق على وجوه بني الحسن، كان ذلك شغله الشاغل أينما حل، ملأ الجزيرة بالعيون والأرصاد وبذل الأموال الطائلة وفرق الأعراب يفتشون عنهم في البوادي، وكان أولئك العيون والأرصاد يتلقون تعاليم دقيقة من المنصور[4].

والحقيقة أن بني الحسن من ناحيتهم ـ وقد عقدوا النية وصمموا على الخروج ـ أذكوا لهم عيوناً وجواسيس يوافونهم بأخبار المنصور بل كان إبراهيم بن عبد الله نفسه يتغلغل في مملكة المنصور وفي قواعده العسكرية في الشام والعراق، ويروى أنه تناول الطعام على مائدة المنصور مرة وحضر مجلسه متنكراً، وقد بلغ المنصور بذلك إلا أنه عجز عن الظفر به، ويلاحظ أن عامة الناس في العراق كانوا يساعدون إبراهيم على الإفلات والنجاة[5]، وكان المنصور يقول: «غمض علي أمر إبراهيم لما اشتملت عليه طفوف البصرة»[6].

---

(١) انظر ص (٢٩٩ ـ ٣٠٠) من هذا الكتاب.

(٢) مقاتل الطالبيين (٢٠٩).

(٣) تأريخ الطبري (٩/ ١٩١).

(٤) انظر عن جواسيس المنصور على بني الحسن تأريخ الطبري (٩/ ١٨١)، والكامل (٥/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤، ٢٥١).

(٥) من المراجع المفيدة في هذا الباب تأريخ الطبري (٩/ ٢٤٤ ـ ٢٥٥).

(٦) تأريخ الطبري (٩/ ٢٤٦).

عزل المنصور ولاة المدينة واحداً بعد آخر لفتورهم في طلب القوم ونسب هؤلاء الولاة إلى الغش والمداهنة، والواقع أنهم دهشوا وأخذتهم الحيرة من هذا الولاء البالغ الذي ينعم به هؤلاء العلويون في الحجاز وتفضيل القوم لهم على العباسيين فلم يجد الحكام مساغاً لإراقة الدماء نزولاً على هوى المنصور، والغالب أن لعبد اللّه بن الحسن والد الأخوين المتواريين دخلاً قوياً في ضعف هؤلاء الولاة عن الاهتداء إلى مكان أبنائه وعجز المنصور عن الظفر بهما، ومرد ذلك إلى منزلة عبد اللّه هذا وحرمته الكبيرة في المدينة ولدهاء وعقل فيه، فكان الولاة المذكورون يسمعون عنه ويطيعون[1].

المنصور يلح:

ما زال المنصور يلح وعبد اللّه يدافع، وقد نجح المنصور أو كاد في إشاعة الاضطراب والارتباك في نفوس بعض بني الحسن، وكانت بين عبد اللّه بن الحسن وسليمان بن علي ـ عم المنصور وعامله على البصرة ـ قرابة قريبة ومصاهرة فاستشاره في إظهار ابنيه على شرط أن يعفى عنهما فقال سليمان: لو كان المنصور من أهل العفو لعفى عن عمه عبد اللّه بن علي[2] ـ وهو أخو سليمان هذا ـ فلم يسع عبد اللّه بن الحسن إلا قبول هذا الرأي الذي ارتآه صهره وقريبه سليمان، ومن ثم أمعن في تشجيع أولاده على الثبات والمضي في الخلاف وهان عليه السجن في هذا السبيل وطال لبثه فيه على وجه أثار إشفاق أولاده ورثاءهم لحالته، وكان محمد ابنه يزوره في سجنه بالمدينة، وخطر له أن يسلم نفسه للمنصور ليخلص والده، ولكن الوالد الجلد الصابر ظل وهو رهين السجن يحث أولاده على الثبات والمقاومة حتى الموت، وقد اشتهر له في هذا الشأن كلمته التي خاطب بها ابنيه قائلاً: «إن منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين»[3]. وكان عبد اللّه أول من بث

(١) الكامل (٥/ ٢٤٦ ـ ٢٤٨) وتأريخ الطبري (٩/ ١٨٧).
(٢) يراجع في هذا الباب المقاتل لأبي الفرج (١٤٦) والكامل (٥/ ٢٤٣)
(٣) المقاتل (١٥٥).

الدعوة لابنه وبايعه، ولذلك كان المنصور يكنيه «أبا قحافة، تشبيهاً له بعثمان بن عامر التيمي لأن أبا بكر ابنه بويع وهو حي كما بويع النفس الزكية وأبوه على قيد الحياة[1].

طلائع الثورة:

أجمع المؤرخون على أن طلائع الثورة الحسنية على الدولة العباسية بدأت بتضييق أبي جعفر المنصور على عبد اللّه بن الحسن وأهله وزجهم في سجونه، الأول بالمدينة ـ بعد استخلافه بهم سبع سنين ـ متهماً إياهم بتهم مختلفة ناسباً إليهم أنهم يكيدون للدولة العباسية ويبغونها الغوائل، ولم يأمر المنصور بسجن عبد اللّه ـ بعد أن حاول قتله[2] ـ إلا بعد أن أجبره على إحضار ابنيه وهدده وطالما تكاشفا وتغالظا في الكلام[3]، وقد أراد المنصور بالتضييق عليه في سجن المدينة أن يضطره إلى تسليم ابنيه ولما امتنع أشد امتناع أمر بإشخاص بني الحسن إلى العراق وأشرف بنفسه على وضع الأغلال في أعناقهم والقيود في أيديهم وسامهم في الطريق من الحجاز إلى العراق ألواناً من العذاب والتنكيل والقتل إلى أن أودع من بقي على قيد الحياة منهم سجنه في قصر ابن هبيرة أو الهاشيمة[4]، وكان ذلك سنة ١٤٤هـ.

بقي عبد اللّه بن الحسن في سجن المنصور ثلاث سنين، وكان ينتحل لغياب ابنيه شتى الأعذار، مرة يقول: إنهما منهومان بالصيد وطلبه وإنهما هجرا لذلك الأهل والديار، وتارة يقول: إنه لا يعلم من أمرهما شيئاً، وطوراً يدعي أن خوف المنصور أكرههما على الغياب وعلى الخروج إلى اليمن وإلى السند وإلى العراق وإلى أقطار أخرى.

---

(١) غاية الاختصار (٢٥ ـ ٢٦).
(٢) تأريخ الطبري (٩/ ١٨٣).
(٣) تأريخ الطبري (٩/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) والمقاتل (١٤٨ ـ ١٥٠) والغرر للوطواط (٢٥٩) والكامل (٥/ ٢٤٧) وغاية الاختصار (٢٩).
(٤) الكامل (٥/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩).

كان محمد خبيراً بالتنكر والاختفاء جوابة للبوادي ورواداً على المياه الأواجن وقد تزيا بشتى الأزياء[1]، تزيا بزي الأعراب والعمال وغيرهم ولم يزل يتنقل من موضع إلى موضع إلى حين خروجه بالمدينة.

ظهور محمد بالمدينة:

ألح أمير المدينة في طلب محمد وضيق عليه وأرهقه الطلب طبقاً للأوامر التي تلقاها من أبي جعفر المنصور بعد قفوله إلى العراق بمن حملهم من بني الحسن، فلم يسع محمداً إلا الخروج والثورة بعد أن بعث بأخيه إبراهيم يجوس خلال مملكة المنصور في العراق، وهي الثورة التي قمعت على يد الأمير عيسى بن موسى ـ بعد ثلاثة أشهر ـ طبقاً لما توقعه الإمام جعفر بن محمد ـ وقد مر شرح ذلك ـ[2].

تتضارب أقوال المؤرخين في أسباب نجاح المنصور في قمع ثورة بني الحسن بمثل هذه السرعة فيقال: إن محمداً خرج قبل وقته الذي واعد أخاه إبراهيم على الخروج فيه وقيل خرج بميعاده وكان التأخير من أخيه[3]، ويبدو لنا أن أهل المدينة برموا من القلق والاضطراب وسئموا من الانتظار على وجه اضطر معه محمد إلى الخروج[4]، ويقال أيضاً إن أهل المدينة لم يكونوا أهل حرب كأهل العراق وكانت ذخائرهم ومؤنهم قليلة، وقد اتصل ذلك ببني العباس من جواسيسهم في الحجاز[5]، ومن أجل ذلك هان على المنصور إخماد الثورة فيها، وفي كتب التأريخ روايات تدل على أن المنصور كان بارعاً في نصب المكايد والخدع للثائرين فكانوا يتلقون رسائل مذيلة بتوقيع قواد الجيش العباسي

---

(١) انظر عن تنكر محمد بن عبد الله في مختلف الأزياء وعن مختلف الجبال والأودية التي تنقل بينها تأريخ الطبري (٩/ ١٨٣، ١٩٠ ـ ١٩١، ١٩٤، ٢٠٣).

(٢) لاحظ الصفحات التالية من هذا الكتاب (٦٠، ٦١، ٦٣، ٧١، ٧٢، ٧٤، ٨٠).

(٣) الكامل (٢٥٠).

(٤) راجع المصدر نفسه (٢٤٤).

(٥) المصدر نفسه (٢٥٣).

وأمرائه يحثون فيها بني الحسن على الظهور ويخبرونهم أنهم من أنصارهم، إلى ذلك ونحوه مما جعل محمد بن عبد اللّه يعتقد بانحياز قادة الجيش العباسي إلى جانبه إذا ثار[١]، وما كتبت تلك الكتب والرسائل إليه إلا بأمر أبي جعفر المنصور.

عني المنصور باستشارة أصحابه في كيفية التغلب على محمد بن عبد اللّه فكانت لهم آراؤهم في هذا الشأن، وكثير منهم هون على المنصور أمر الثورة قائلين أن أهل المدينة ليس معهم آلة الحرب ولا قدرة لهم على الزحف، وقد يستطيعون الدفاع مدة قليلة[٢]، ومما يدل على ذلك أن عالماً كثيراً من سكان المدينة تركوها إلى البادية والجبال لما دنا منها جيش المنصور يقوده ابن أخيه الأمير عيسى بن موسى، ولم يبق مع محمد بن عبد اللّه عدد يؤبه له، وتفرّق عنه جل أصحابه في أحرج لحظة[٣]، أضف إلى ذلك أن أصحاب محمد اختلفوا في كيفية إدارة رحى الحرب داخل أسوار المدينة[٤] بيد أن محمداً مع ذلك كله ثبت ثبات المؤمن بحقه وقاتل قتال الأبطال حتى قتل وقتل معه من أهل المدينة قوم لم يسع المنصور إلا الاعتراف ببسالتهم ونجدتهم البالغة[٥].

بعض مميزات الثورة:

امتازت ثورة النفس الزكية ببعض المميزات الخطيرة وفي مقدمتها مشاركة عدد غير قليل من وجوه الدولة العباسية بالدعوة والبيعة له في الشرق والعراق والحجاز ومنهم عدد من أحفاد الصحابة والتابعين وعدد من النساك والقراء والفقهاء ونقلة الحديث والأثر، وكان أعيان معتزلة البصرة من واصل بن عطاء

---

(١) تأريخ الطبري (٩/ ٢٠٥) والكامل (٥/ ٢٥١).

(٢) قف على آراء رجال الدولة الذين عنى المنصور باستشارتهم في قمع الثورة في الكامل (٥/ ٢٥٢).

(٣) الكامل (٥/ ٢٥٨) ـ ٢٥٩).

(٤) المصدر المذكور (٢٥٥ ـ ٢٥٨).

(٥) المصدر ذاته (٢٦٠).

وعمرو بن عبيد من دعاته وأنصاره، ويقول بعض المؤرخين: بايعه الأئمة من أهل عصره كمالك وأبي حنيفة ومن في طبقتهما[1].

خرج مع محمد جماعة من آل أبي طالب من أبناء الإمام علي ومن أولاد جعفر الطيار وخرج معه اثنان من أولاد زيد بن علي عيسى وحسين وخرج معه جماعة آخرون اعتقدوا إمامته وقتلوا على ذلك، ومنهم بعض من آل الزبير كعثمان بن محمد بن خالد بن الزبير المتقدم ذكره، وقد خرج أكثر من خرج معه إلى أنه المهدي الموعود.

ومن السهل تعليل هذا التأييد الذي لقيه محمد بن عبد الله من العلويين والطالبيين وغيرهم وكذلك الانحراف الذي منى به المنصور والعباسيون فإن مردهما إلى الاعتقاد أو إلى القول بالإمامة فإننا نعرف عن أولئك الفقهاء ونقلة الأثر والحديث في ذلك العصر وأمثال هؤلاء ـ ممن اعتزل الحكم وتجرد للتفقه والنسك والعبادة ـ أنهم يرون أن مناصب السياسة أهون من أن تراق في سبيلها ملء محجمة من الدم، ولما كان الأمويون ومن بعدهم العباسيون على النقيض من ذلك في عدم التحرج من سفك الدماء في سبيل الملك والسلطان لم يسع أولئك إلا المجاهرة بالخلاف والخصومة العنيفة، وعقد غير واحد من المؤرخين فصولاً خاصة سموا فيها من أجاب دعوة محمد بن عبد الله أو خرج معه من أعيان ذلك العصر وأئمته في عدة من الأقطار[2]، وهي فصول تصلح للاحتجاج على متانة مركز بني الحسن من الناحية المعنوية في العصر المذكور وإن

---

(١) خلاصة الكلام في أمراء البيت الحرام لابن دحلان ط القاهرة سنة ١٣٠٥.

(٢) يرجع في ذلك إلى تأريخ الطبري (٩/ ٢٣٢ ـ ٢٣٥)، وقد سمى ابن سعد في طبقاته من خرج مع محمد من أهل المدينة (٣/ ١٧٣) ط ليدن، وفي مقاتل الطالبيين (١٩٢ ـ ٢٠٦) ط النجف فصل عنوانه «ذكر من عرف ممن خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن من أهل العلم ونقلة الآثار ومن رأى الخروج معه وأفتى الناس»، وعقد ابن الأثير في الكامل (٥/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) فصلاً عنوانه «ذكر بعض المشهورين من كان معه»، وانظر الصفحات التالية من تأريخ الطبري (٩/ ٢٠٣، ٢٠٥ ـ ٢٠٦. ٢٢٩)، وانظر ميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ٥٧).

اضطربت آراء فريق من وجوه الطالبيين في خروجه وامتنع من امتنع منهم عن تأييده[1].

عمال محمد بن عبد الله:

أرسل محمد قبل ثورته وبعدها عماله ودعاته إلى مكة وإلى الشام واليمن والعراق، ومن أشهر هؤلاء العمال والدعاة أخواه إبراهيم بن عبد الله وجه به إلى العراق قبيل ثورته وموسى ويعرف «بموسى الجون» في كتب الأنساب، وقد استعمله على الشام، ومنهم محمد بن الحسن بن معاوية من أحفاد جعفر بن أبي طالب استعمله على مكة، ويظهر من قوائم المؤرخين التي وردت فيها أسماء عماله أنه اختارهم من ذوي قرباه[2] ولم يكتب لأكثر هؤلاء العمال نجاح يذكر في الأقطار المذكورة، فهذا عامله على مكة لم يقم إلا يسيراً فيها حتى استدعاه محمد لما خرج إليه عيسى بن موسى ولكن محمداً قتل وعامله هذا في طريقه إلى المدينة فهرب إلى العراق ولحق بإبراهيم بن عبد الله وأقام عنده حتى قتل[3]، وقد مني موسى أخو محمد وعامله على الشام بالفشل أكثر من غيره، تجهمه أهل الشام واستقبلوه استقبالاً ردياً وكان أثر الرعب والوجوم بادياً على القوم منذ زوال الدولة الأموية واستئصال أمرائها وإبادتهم. تدلنا على ذلك رسالته التي بعث بها إلى أخيه من دمشق وقد جاء فيها: «أخبرك أني لقيت الشام وأهله فكان أحسنهم قولاً الذي قال: والله لقد مللنا البلاء وضعفنا حتى ما فينا لهذا الأمر موضع ولا لنا به حاجة، ومنهم طائفة تحلف لئن أصبحنا من ليلتنا وأمسينا من غد ليرفعن أمرنا، فكتبت إليك وقد غيبت وجهي وخفت على نفسي»[4] وقد ترك موسى الشام بعد رسالته هذه إلى المدينة وقيل إلى البصرة ـ وهو الأصح فيما نرى ـ والمرجح أنه ترك الشام بعد أن حوصر أخوه في

(١) انظر عن أسماء هؤلاء المعارضين تأريخ الكامل (٥/ ٢٥١).
(٢) الكامل (٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧) وشفاء الغرام في أخبار البيت الحرام للفاسي ط لا يبسك (١٨٠ ـ ١٨٣).
(٣) الكامل (٥/ ٢٥٦).
(٤) الكامل (٢٥٦).

المدينة وذهب رأساً إلى البصرة ملتجئاً إلى قريبه محمد بن سليمان العباسي في البصرة ولكن هذا وبخه توبيخاً شديداً وجبهه بكلمات نابية تدل على اضطراب ورعب من المنصور، وقد أشار المؤرخون إلى مصير موسى بعد وصوله إلى العراق وسجنه في أيام المنصور والإفراج عنه في عصر ابنه المهدي وذكروا أنه عاش إلى أيام هارون الرشيد وله معه أحاديث لطيفة(١) هذا ولم يغفل المؤرخون أسماء ولاة محمد بن عبد اللّه وقضاته على المدينة ووزرائه في إدارة الشؤون الحربية والمالية والقضائية(٢).

إبراهيم يثأر لأخيه في العراق:

هرب عدد من أقرب المقربين إلى محمد بن عبد اللّه ـ بعد مقتله سنة ١٤٥ـ وعدد من ولاته وعماله إلى البصرة، وقد اشتملت باديتها على كثير من أنصار بني الحسن عقدوا البيعة لأخيه إبراهيم بن عبد اللّه ونادوا بإمامته وأعلنوا الخلاف على الدولة العباسية.

يعد إبراهيم بن عبد اللّه ـ أخو النفس الزكية ـ من أشهر رجال بني الحسن علماً وفقهاً لم يملأ عين المنصور بعد أبيه وأخيه غيره من بني الحسن(٣)، وله ضلع في الأدب ويروى له شعر، ومن رأي بعض المؤلفين في الأدب والتأريخ إن «المفضليات» من جمع إبراهيم بن عبد اللّه جمعها من دواوين العرب لما كان مختفياً في منزل «المفضل الضبي» فلما قتل إبراهيم نسبت المفضليات إلى المفضل المذكور، وكان المفضل زيدياً ومن رواة حديثه وشعره كما كان إبراهيم يكثر من الإقامة عنده(٤).

---

(١) انظر عن موسى الجون هذا تأريخ الطبري (٩/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤) وعمدة الطالب (٩٨ ـ ٩٩) ط النجف، وغاية الاختصار (٢٢ ـ ٢٥).

(٢) الكامل (٥/ ٢٥١) وانظر عن ولاة بني الحسن على المدينة خلاصة الكلام في أمراء البيت الحرام لابن دخلان ط القاهرة سنة ١٣٠٥.

(٣) المقاتل لأبي الفرج (٢٢٧).

(٤) المصدر نفسه (٢٢٩، ٢٥٢ ـ ٢٥٥) وراجع عن أدب إبراهيم عمدة الطالب (٩٥).

كثر المادحون من الشعراء لإبراهيم، ومن مداحه بشار بن برد، وحسبنا من شعره في إبراهيم قصيدته السائرة التي تعد من عيون الشعر العربي وفيها يقول:

أقول لبسام عليه جلالة غدا أريحيا عاشقاً للمكارم
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى سراج لعين أو سرور لعادم[1]

أتى إبراهيم نعى أخيه فخرج وأخبر الناس في البصرة، وكانت البصرة موالية له جداً كما كان البصريون من أكثر أنصاره وأشدهم انقياداً وطاعة له، ولإبراهيم كلمة بليغة في الثناء على البصريين لإيوائهم إياه مع أصحابه وقد اتخذ أصحابه من هذه الكلمة شعاراً لهم وأنشودة ينشدونها، وقد جاء في ختام الكلمة قوله: «إن أملك فلكم الجزاء وإن أهلك فعلى الله الوفاء»[2].

توالت على المنصور الفتوق ـ بعد خروج إبراهيم ـ من البصرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد إلى جانب كثير من أهل الكوفة[3]، ويبدو لنا أن كثيراً من زعماء العراق في الكوفة وفي الموصل وغيرهما مالوا إلى إبراهيم وبايعوه[4] وقد أجمع المؤرخون على أن إبراهيم وجم واغتم بخروج أخيه وأمره أياه بالخروج، فلعله كان يرى خروجه مبتسراً أي قبل أوانه، ويفهم أن المنصور أكثر من استشارة رجال دولته في أمر إبراهيم وخروجه، وقد أخذ برأي

---

(١) وأبدع ما في قصيدة بشار هذه قوله:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي صديق أو إشارة حازم
وخل الهوينا للضعيف ولا تكن نؤوما فإن الحزم ليس بنائم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم
وحارب إذا لم تعط إلا ظلامة شبا الحرب خير من ركوب المظالم

انظر الملاحم والفتن لرضى الدين بن طاووس (١٦١ ـ ١٦٢) ورويت هذه المقطوعة لبشار في شرح «درة الغواص» للشهاب الخفاجي في بحث له عن لفظة «المشورة».

(٢) المقاتل لأبي الفرج (٢٢٧) وتجد بعض خطبه في غاية الاختصار (١٨).

(٣) الكامل (٥/ ٢٦٨) وتأريخ الطبري (٩/ ٢٥٥).

(٤) تاريخ الطبري (٩/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠).

من ارتأى منهم بأن يقاتله بجند من أهل الشام لأنهم لا يميلون إلى آل أبي طالب بخلاف العراقيين[١].

استولى إبراهيم على واسط والقسم الجنوبي من العراق وأرسل إلى تلك الجهات عماله، بايعه أهل واسط بعد البصريين وبايعه الزعماء والفقهاء ولم يبق أحد إلا تبعه، وقد سمى أبو الفرج جميع من خرج معه من الفقهاء والمحدثين ونقلة الآثار[٢] وكانت وجهته الكوفة وفيها المنصور، ويلاحظ أن كثيراً من أصحابه لا بصر لهم بفنون الحرب ولكنهم شجعان[٣] وقد وقعوا في هفوات حربية إليها مرد ظفر الجيش العباسي[٤]، وبعض هذه الغلطات الحربية في واقعة «باخمري» أدت إلى مقتله وتشجيع جيش أبي جعفر المنصور على الثبات بعد الهزيمة[٥]، وعلى كل حال كانت ثورة إبراهيم في العراق أخطر من ثورة أخيه في المدينة، وبين الثورتين فروق أخصها إن ثورة إبراهيم ألحقت بالدولة العباسية خسائر كبيرة في الأموال والأرواح وهي أضعاف ما ألحقته ثورة أخيه المذكورة وكانت وقعة باخمري قريبة من الكوفة وفيها سرير المنصور.

نقلة الآثار يؤيدون الثوار:

خرج مع إبراهيم عدد غير قليل من أهل العلم والفقه ونقلة الآثار سماهم وترجم لهم أبو الفرج الأصفهاني[٦]، كما أفتى بالخروج معه فقهاء آخرون سماهم غير واحد من المؤرخين كابن سعد والطبري، وقد عللنا فيما مر تأييد أهل الفقه والنسك في صدر الدولة العباسية للثائرين عليها من العلويين، ومرد

---

(١) المصدر نفسه (٢٤٨).

(٢) المقاتل لأبي الفرج (٢٣٩ ـ ٢٤١، ٢٤٥) وعمدة الطالب (٩٥) ط. النجف.

(٣) المقاتل (٢٣٢).

(٤) عمدة الطالب (٩٦).

(٥) انظر عن معركة باخمري وعن الهفوات الحربية فيها شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٤/ ٢٤٩).

(٦) المقاتل (٢٣٩ ـ ٢٤١).

ذلك إلى هوان السياسة وطلب الملك والدولة على هذا الفريق من الفقهاء والنساك وإن ذلك فيما يرون، أقل شأناً من أن تراق في سبيله الدماء وأحرى أن يركن بسببه إلى العزلة والانزواء، فقد صح أن أبا حنيفة كان يجهر بآرائه في نقد سياسة المنصور وأصحابه نقداً لاذعاً ويعلن عن مناوأته للخليفة ولعماله في شدة وطأتهم على العلويين على رؤوس الأشهاد، حتى قال له بعض أصحابه: «والله ما أنت بمنته حتى توضع الحبال في عناقنا»[١]، والواقع إن أبا حنيفة عارض سياسة الأمويين المجافية للدين والمبنية على اضطهاد العلويين قبل معارضته لسياسة العباسيين فرفض ولاية القضاء في أيام مروان بن محمد، وضرب وحبس في هذا السبيل[٢]، وفي هذا الامتناع الشديد عن ولاية القضاء في العصرين الأموي والعباسي بعد ذلك ما فيه من الدلالة على تبرمه بالسياسة وعلى مجافاته للحكام من أمويين وعباسيين، ويعده المؤرخون كافة من الموالين لآل علي، وكان لخروج زيد بن علي وقتله على الصورة التي قتل فيها ـ في أيام هشام بن عبد الملك ـ أثر عميق في نفسه ومشت بين زيد الشهيد وأبي حنيفة رسل وبعث إليه بمال وأطلعه على بعض الموانع التي منعته من الخروج[٣].

ومما لا شك فيه أن اغتباط أبي حنيفة كان عظيماً بزوال دولة بني أمية وانتقال الأمر إلى العباسيين، وتروى له خطبة في الكوفة عند بيعة السفاح استقبل فيها الدولة الناجمة استقبال الولي الناصر[٤]، ولم تعرف عنه خصومة لهذه الدولة في أيام السفاح وفي شطر غير قليل من أيام المنصور، ولما خرج محمد بن

(١) قف على هذا القول واسم قائله في تأريخ الخطيب (١٣/ ٣٣٠).

(٢) عقد الخطيب فصلاً عنوانه «إرادة ابن هبيرة أبا حنيفة على القضاء وامتناعه عن ذلك» تجده في تأريخ بغداد (١٣/ ٣٢٦ ـ ٣٢٩)، وانظر مناقب المكي (٢/ ٢١ ـ ٢٤) عن هذه القصة، ومنها يظهر أنها وقعت في سنة ١٣٠ أي قبل قيام الخلافة العباسية بسنتين.

(٣) انظر في هذه الباب مناقب أبي حنيفة للمكي (١/ ٢٥٥) ط حيدر آباد.

(٤) رويت هذه الخطبة في مناقب المكي (١/ ١٥١) ومناقب ابن البزاز (٢/ ٢٠٠) ويذهب بعضهم إلى أن أبا حنيفة كان في مكة عند بيعة السفاح بعد فراره من ابن هبيرة، وقد يقال: إنه دعي دعوة خاصة إلى حضور الاحتفال بالبيعة في مدينة الكوفة ثم عاد إلى مكة.

عبد الله النفس الزكية بعد مضي عشر سنوات على بيعة المنصور ـ وكانت تربط أبا حنيفة بالنفس الزكية رابطة قديمة إذ كان أبوه عبد الله بن الحسن من أجل أشياخه ـ ظهرت الخصومة بينه وبين أمراء الدولة العباسية ولم يسعه إلا المجاهرة بآرائه في مناصرة العلويين، لذلك نرى كتب التأريخ حافلة بأخبار سخطه على بني العباس بعد هذه الثورة وبعد مقتل العلويين الثائرين.

آراؤهم في الخروج على السلطان:

وقد عقد الخطيب فصلاً عنوانه «ذكر ما حكي عن أبي حنيفة من رأيه في الخروج على السلطان»[(١)]، وهذا الفصل عبارة عن أحاديث يستنتج منها أن أبا حنيفة يرى الخروج بالسيف على سلطان زمانه الجائر، وقد ناقش هذه الروايات فريق من المؤلفين والمحدثين زاعمين أنها روايات واهية الإسناد، وقال آخرون: إنها كذب وافتراء على أبي حنيفة ودليلهم على ذلك أن فقهاء الحنفية مجمعون على القول بعدم جواز الخروج على السلطان وأن طاعته واجبة ما لم يأمر بمعصية، ويفهم مما قالوه أن ما نقله الخطيب في هذا الشأن لا أصل له في مذهب أبي حنيفة[(٢)].

وممن ناقش الخطيب البغدادي فيما حكاه عن أبي حنيفة وأسند إليه وإلى أصحابه أقوالاً تنافي الأقوال الواردة في تأريخه وأنكر تلك الأقوال المنسوبة إليه في جواز الخروج على ولاة الأمور الملك عيسى بن العادل الأيوبي في كتابه: «السهم المصيب» وقد نقل عن أبي حنيفة قوله: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وأولياء أمورنا وإن جاروا علينا وندعو لهم» ثم قال: «وإجماع أصحاب أبي حنيفة على ذلك»[(٣)].

ومن رأي بعض المؤرخين أن هذا القول مرجوح وأن في إجماعهم على

---

(١) تأريخ بغداد (١٣/ ٣٩٥ وما يليها).

(٢) انظر هذه الروايات وكيف نوقشت في تأريخ بغداد (١٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٩).

(٣) السهم المصيب (٦٠ ـ ٦٣).

صحته ما يكفي لترجيح قول القائلين بخلاف ذلك، فالمنصور أعقل من أن يؤذي أبا حنيفة لمجرد امتناعه عن القضاء وإنما اتخذ من هذا الإضراب ومن مواقف أخرى عارض بها أبو حنيفة رغبات المنصور[١] ذريعة يتذرع بها لإيقاع هذه المحنة، وقد ثبت أن في أعوان المنصور ووزرائه من يحرض على أبي حنيفة ويثير الخصومة بينه وبين الخليفة ومنهم الربيع بن يونس وأبو العباس الطوسي والأمير عيسى بن موسى أمير الكوفة الآنف ذكره وغير هؤلاء.

كان أبو حنيفة وهو في الكوفة يحث الناس على الخروج مع إبراهيم بن عبد الله ويأمرهم باتباعه ويشجع إبراهيم على الطلب بدم أخيه ويدعوه إلى نزول الكوفة مهوناً عليه أمر عيسى وعمه المنصور، وقد أفتاه ـ على ما يقول هذا الفريق ـ أن يسير معهم سيرة جده مع أهل الشام[٢]، وكان بقاؤه في الكوفة ـ وهي علوية في دعوتها ـ خطراً على القوم، ولذلك هم واليها الأمير عيسى بهدر دمه ثم اكتفى بأن أشخصه من الكوفة إلى بغداد بأمر من المنصور، وتوفي أبو حنيفة سنة (١٥١) على أصح القولين أي بعد مقتل إبراهيم بن عبد الله بست سنوات، ويجب أن تكون إقامته هذه المدة ببغداد أو أنه كان يتنقل بينها وبين الكوفة، وفي كيفية وفاته ببغداد أقوال بيد أن المؤرخين مجمعون على وفاته وهو في المحنة.

هذا ويلاحظ أن مذهب أبي حنيفة في الفقه أصبح مذهب الدولة العباسي في عصر الهادي والرشيد بعد أن نوهض صاحب المذهب في عصر المنصور، وقد اختير جل القضاة من بين المنتمين إلى المذهب المذكور، وكان لأبي يوسف[٣] صاحب أبي حنيفة شأن يذكر في ذلك حتى قيل: مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: الحنفي في الشرق والمالكي في الغرب[٤]،

---

(١) قف على معارضة أبي حنيفة للمنصور في إنفاذ جيشه إلى الموصل للفتك بأهلها في الكامل (٥/ ٢٧٧).

(٢) قف على تفصيل ذلك في مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصبهاني (٢٤٧ ـ ٢٤٨، ٢٥٦).

(٣) له ترجمة في تأريخ بغداد (١٤/ ٢٤٢).

(٤) يراجع في ذلك بحث للمقريزي في خططه (٤/ ١٤٤ ـ ١٤٦).

وكان مرد رغبة كثير من الطلاب بعد ذلك بدرس الفقه الحنفي إلى تولي المناصب القضائية[1] أو مناصب التدريس.

محنة أخرى:

كان المنصور يلاحق من خرج مع محمد وأخيه إبراهيم أو أفتى بجواز الخروج معهما، وقد أجمعت كلمة المؤرخين على محنة امتحن بها مالك بن أنس المدني صاحب الموطأ فضرب بالسياط ومدت يداه حتى انخلعت كتفاه وقيل: ضرب سبعين سوطاً في المدينة[2] هذا ما أجمع عليه المؤرخون وأصحاب السير، وفي أسباب هذه المحنة المتفق عليها أقوال أشهرها فتوى مالك المعروفة في «يمين المكره»، وفي «طلاق المكره» إذ استفاض في كثير من كتب المؤرخين أن مالكاً أفتى بجواز الخروج مع محمد بن عبد الله وبصحة البيعة له: فقيل له: إن في أعناقنا بيعة للمنصور فقال إنما بايعتم مكرهين[3] أو قال: ليس على مكره يمين[4]، وقد احتج من احتج بهذا الحكم على بطلان بيعة أبي جعفر المنصور وبائع أهل المدينة النفس الزكية[5]، وعلى هذا فإن التحلل

---

(١) يراجع للوقوف على الأقاليم التي غلب فيها مذهب أبي حنيفة كتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي، ويراجع عن بعض البلدان التي شاع فيها المذهب المذكور معجم البلدان لياقوت (٢/ ١٩٣) ومقدمة ابن خلدون (٣١٢ ـ ٣١٤) ط المطبعة البهية، ومقدمة الفوائد للكنوي.

(٢) روى ذلك الطبري في تأريخه (٩/ ٢٠٦) ونقله ابن الأثير في الكامل (٥/ ٢٥١) والسمعاني في كتاب الأنساب في مادة «الأصبحي» من الورقة (٤١) وقد نسب الضرب إلى والي المدينة وسمى في كتاب الأنساب هذا «سليمان بن علي» والمشهور أنه «جعفر بن سليمان بن علي»، انظر تأريخ الطبري (٩/ ٢٦٤، ٢٧٨) وانظر كتاب الإمامة والسياسة، وقد ولاه المنصور المدينة وعزل به واليها عبد الله بن الربيع وبقي جعفر على ولاية المدينة إلى سنة (١٥٠) وفيها عزله المنصور.

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ٨٤).

(٤) هذا النص في تأريخ الخالفاء للسيوطي (١٠٢) وقال السمعاني لفتياه في يمين المكره، وقال ابن النديم سعى به إلى جعفر بن سليمان فقيل له، إنه لا يرى أيمان بيعتكم انظر الفهرست (١٩٨).

(٥) الانتقاء لابن عبد البر والبداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ٨٤)، ومن أوفى المراجع في قصة مالك كع والي المدينة جعفر بن سليمان ومع المنصور بعد ذلك كتاب الإمامة والسياسة للدينوري (١٥٠ ـ ١٥٩) وانظر عن حكم يمين المكره في البيعة وفتوى مالك بنسائها وعن محنته بسبب فتواه المذكورة مقدمة ابن خلدون (١٤٧) ط المطبعة البهية.

من بيعة أبي جعفر المنصور هو المقصود من هذه الفتوى، ونفى آخرون عن مالك الخوض في السياسة والتحريض على السلطان ذاهبين إلى أن هذه الفتوى عامة لم تقصد بها نازلة أو حادثة بعينها، وهذا الفريق من المحدثين والمؤلفين يذهبون إلى أن مالكاً التزم الحيدة في حرب المدينة بين الأمير عيسى بن موسى مقدم جيش المنصور والعلويين ومقدمهم النفس الزكية، بيد أن بعض حساد مالك ومثيري الخصومة بينه وبين المنصور استندوا إلى هذه الفتوى فيما جرى بين مالك ووالي المدينة.

دولة لبني الحسن في المغرب:

لم يكن بنو عبد الله بن الحسن الذين خرجوا على بني العباس في صدر دولتهم أو في خلافة خلفائهم الأول دولة تذكر في المشرق ولا أمهلتهم الأيام أن يقوموا بذلك وإن قامت لأعقابهم وأحفادهم إمارات ودويلات بعد ذلك في بلاد الديلم وفي بعض بلاد العرب كاليمن، وإنما قلنا دولة في المشرق لأن بني الحسن كونوا لهم ـ والحق يقال ـ أكثر من دولة واحدة في المغرب الأقصى وفي بلاد الأندلس، عرفت الدولة الأولى في كتب التأريخ بدولة الأدارسة وعرفت الثانية بدولة بني حمود من أعقابهم، وقد استندت هاتان الدولتان في قيامهما على حزب لا يستهان بقوته وشدة مراسه قوامه البربر والمغاربة المراكشيون، وقد نسبت دولة الأدارسة إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن وإلى ابنه الذي خلفه في المغرب وسمي باسمه، ويقال لإدريس بن عبد الله «إدريس الأكبر»[1] تمييزاً له عن ابنه الذي يقال له «إدريس الأصغر» كما يقال لكل منهما

---

(١) راجع عن سيرة إدريس هذا تاريخ الطبري (٦/ ١٤ ـ ٣١) ومروج الذهب (٢/ ١٨٣ ـ ١٨٤) ومقاتل الطالبيين ط النجف (٣٢٤ ـ ٣٢٧) والكامل (٦/ ٣٦ ـ ٣٨) والعبر (٤/ ١٢ ـ ١٤) والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي ط ليدن (٨٢ ـ ٨٤، ١١٠ ـ ١١٥)، وفي هذا الفصل أخبار الأدارسة من بعد دخولهم إلى المغرب، وراجع أيضاً نفح الطيب للمقري (١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٧) وكتاب الاستقصا لدول المغرب الأقصى لتسلاوي ط مصر (١/ ٦٧) وما يليها، ومنهج المقال للأسترابادي ط طهران وقد عده في أصحاب جعفر بن محمد، ولاحظ اختلاف الروايات في تأريخ خروج الأدارسة.

«صاحب البربر» لأن جل من استجاب لدعوتهما وشد أزرهما من قبائل البربر ـ وكان ذلك في عصر هارون الرشيد ـ وإدريس الأكبر أو الأول ثاني اثنين من أولاد عبد اللّه بن الحسن المثنى أفلتا من وقعة «فخ» المشهورة[1]، أما أخوه وهو يحيى بن عبد اللّه الذي أفلت معه من هذه الواقعة فيقال له «صاحب الديلم» لخروجه على الرشيد في بلاد الديالمة[2] وإن خاب يحيى في حركته بخلاف أخيه إدريس وأبنائه الذين حالفهم التوفيق في تكوين الدولة الإدريسية:

خيبة صاحب الديلم:

تيسر للرشيد إحباط حركة يحيى لوقوعها في إقليم غير بعيد عن العراق، وشتان بين البلاد التي ظهر فيها إدريس ـ وهي مراكش ـ وبين بلاد الديلم من هذه الناحية، لذلك لم يستطع أن ينشئ ملكاً أو دولة كالتي أنشأها الأدارسة.

كان ساعد الرشيد في إحباط حركة صاحب الديلم الناجمة في المشرق وزيره الفضل بن يحيى. وهو وزير عرف بحنكته وكياسته واجتنابه سفك الدماء وميله إلى حل المعضلات سلمياً، فلما ندب الرشيد وزيره المذكور إلى قتال هذا

---

(١) واقعة «فخ» من أشهر الوقائع في صدر الدولة العباسية بين العباسيين وبني الحسن وأنصارهم وقعت سنة ١٦٩، ورد ذكرها في كثير من كتب الأخبار والتاريخ والأنساب، تجد تفصيلها في الكامل لابن الأثير (٦/ ٣٦ ـ ٣٨) أما صاحب فخ فهو الحسين بن علي بن الحسن المثنى خرج في أيام الهادي العباسي وتغلب عليه عسكر العباسيين في «فخ» فقتل وقتل معه جمهرة من أهله وأبناء عمه العلويين، ويروي له ابن الأثير (الكامل، ٦/ ٣٨) نادرة من نوادره في الكرم والسخاء، ومما هو جدير بالذكر أن صاحب فخ أراد الإمام موسى بن جعفر على البيعة فرده ونهاه وأخبره بمقتله كما فعل أبوه جعفر بن محمد مع غيره من بني الحسن فكان كما قالاه وأخبرا به، انظر في هذا الشأن «باب تفصيل المحق من المبطل في الإمامة» من كتاب الكافي (١٨٥)، أثارت وقعة فخ حماسة الهادي بن المهدي ـ وكان شاعراً ـ فأنشأ فيها أبياتاً يراجع عنها معجم الشعراء للمرزباني (٣٧٩).

(٢) ومما هو جدير بالذكر أن ملوك طبرستان والديلم وجرجان ومازندران والطالقان ملكوا تلك الأقطار أكثر من مائة وثلاثين سنة بعد ذلك، وخطب لهم على المنابر وضربت بأسمائهم النقود وحاربوا الدول وقادوا الجيوش وأحدثوا ما أحدثوه من الآثار ينتمون على الأكثر إلى زيد بن علي وبعضهم إلى غيره من أولاد الإمام الحسين. وجلهم على مذهب الزيدية، انظر عن ذلك شرح نهج البلاغة (٣/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧) وكتاب غاية الاختصار (٦٦ ـ ٦٧، ٧٨) وراجع عنهم مقاتل الطالبيين.

العلوي الثائر استماله وأقنعه بالتسليم بشروط، منها أخذ الأمان له بخط الرشيد في حادثة مشهورة[١] يظهر منها أن يحيى عاش في عاصمة الرشيد بعد تسليمه عيشة أمرائها المرفهين مدة ثم مات مسموماً، وفي رواية ابن الأثير حبسه فمات في الحبس بعد أن أفتاه بعض فقهائه بأن أمانه منقوض[٢]، هذا وليحيى بعد ذلك ضلع في التأريخ والعلم بالأنساب والأيام، ومناظراته مع بعض خصومه في مجلس الرشيد تدل على ذلك[٣].

ولصاحب الديلم حديث مع الإمام موسى بن جعفر في الموقف الذي يجب أن يقفه العلويون من الدولة العباسية في هذا العصر، وقد تبودلت بينهما رسائل طريفة[٤] وهذه الرسائل صريحة جداً في الخلاف الناشب بين هذين البطنين من العلويين في هذا الباب، وقد نهاه فيها الإمام موسى بن جعفر عن الخروج على هارون الرشيد وأوصاه بالإخلاد إلى السكينة، ويقول أحد شراح أصول الكافي: يكثر الزيدية من الثناء على يحيى ويروون أنه فيمن أوصى إليه جعفر بن محمد بعد ابنه موسى الكاظم، وليحيى ذكر في بعض معاجم الرجال وأصحاب الحديث[٥].

ورثة الحضارة الأندلسية:

بدأت دعوة الأدارسة[*] في المغرب الأقصى سنة ١٧٠، وفي قول بعد

---

(١) قف على أخبار يحيى هذا في كتاب الوزراء للجهشياري (١٨٩) وتأريخ الطبري (١٠/ ٨٤ ـ ٨٩) والمقاتل (٣٠٨ ـ ٣٢٤) وشرح ابن أبي الحديد (٣/ ٤٨٨) والكامل (٦/ ٥٠)، ووفيات الأعيان (١/ ١٥٨) ط باريس.

(٢) انظر عن جمع الفقهاء بأمر الرشيد واستفتائهم في صك الأمان واختلافهم في الحكم كتاب المقاتل لأبي الفرج ط النجف (٣١٩ ـ ٣٢٠)، والكامل (٦/ ٥٠).

(٣) يرجع في هذا الباب إلى المقاتل (٣١٦ ـ ٣٢٠) وإلى شرح النهج لابن أبي الحديد (٤/ ٣٥٢).

(٤) أورد الكليني نص هذه الرسائل في أصول الكافي باب تفصيل المحق من المبطل في الإمامة» (١٨٥ ـ ١٨٦).

(٥) ذكره الشيخ الطوسي في فهرسته والأسترابادي في منهجه ولم يذكره العلامة في خلاصته.

(*) تأتي دراسة مفصلة عن الأدارسة ودولتهم.

ذلك بقليل، وجل أنصارها من البربر الذين استجابوا لدعوة إدريس الأكبر[1] ثم بايع البربر ابنه إدريس الأصغر، وهو أول من بويع بالخلافة من بني إدريس بيعة عامة في البلاد المذكورة[2]، وقد خلفه من خلفه من أبناء إدريس الأكبر وأحفاده، والخلاصة: عبثاً حاول الرشيد وأد هذه الحركة الإدريسية بدس السم لإدريس الأكبر فإن أولاده خلفوا أباهم في تلك البلاد فعاشت هذه الدولة رغم إرادة بني العباس، ويقول ابن بسام (ـ ٥٤٢) ـ في معرض ذكره لبني الحسن وأسباب خروجهم إلى المغرب ما هذا نصه ـ «بلغني أن عقبهم إلى اليوم هنالك».

لا شك أن الدولة «الحسنية» القائمة الآن في مراكش وعاصمتها «الرباط» هي دولة إدريسية لأن ملوكها من ذرية الأدارسة، وإمارة الأدارسة المعروفة أخيراً في عسير شرقي اليمن أنشأها بعض ذرارى الأدارسة المعروفين في البلاد المغربية وكانت بين بني الحسن في المغرب وبني الحسن في المشرق ـ وهم أئمة الزيدية في اليمن ـ مراسلات.

مقارنة بين الدولتين الفاطمية والإدريسية:

عاشت دولة الأدارسة مدة تناهز مائة وثمانين سنة، وكان الفاطميون[*] أنبه ذكراً وأبعد مغاراً، حتى أن دولة الأدارسة التي استولت على المغرب كانت خاملة الذكر بالنسبة إليهم، ومرد ذلك إلى انزواء الأدارسة في المغرب الأقصى واقتصارهم على الدفاع عن أنفسهم ومملكتهم وخوفهم من بني العباس بخلاف

(١) توفي إدريس بسم دسه إليه الرشيد على يد أحد الزيدية من الفرقة البترية ودفن في جبل «زرهون» المطل على مكناسة، وفي تأريخ وفاته بعض الاضطراب، انظر عن كيفية سمه كتاب الفرق بين الفرق (٢٤).

(٢) في تأريخ وفاته أقوال مضطربة قد يعزى بعضها إلى تحريف النساخ، وقد أورد ابن الأثير وفاته في حوادث سنة ٢١٤ قائلاً: «وفيها توفي إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام بالمغرب وقام بعده ابنه محمد بأمر مدينة فاس فولى أخاه القاسم البصرة ـ بصرة المغرب ـ وطنجة وما يليها واستعمل باقي إخوته على مدن البرابرة.

(*) تأتي دراسة مفصلة عن الدولة الفاطمية.

دولة الفاطميين التي غزت المشرق وهددت بني العباس في عقر دارهم وأزالت دولتهم من مصر والشام، إلى غير ذلك مما لم يحلم به الأدارسة، ومع ذلك لا ينكر فضل هؤلاء الأدارسة على المغرب الأقصى أو مراكش، ففي عهدهم قطعت هذه البلاد شوطاً بعيداً في مراحل الحضارة، ومن مظاهرها تأسيس المدن الكبيرة.

لا شك أن المدن الكبرى في المغرب الأقصى ـ وفي مقدمتها «فاس» وهي مدينة الأدارسة، «ومكناس» و«سلا» و«تطوان» وغيرها من آثارهم أو ملحقات مملكتهم ـ تعد وارثة الحضارة الإسلامية في الأندلس، وأهلها ـ أعني أهل هذه المدن المغربية ـ يمثلون مسلمي الأندلس في عاداتهم وأطوارهم وثقافتهم، وتعد مدينة فاس[1] معقل الثقافة الإسلامية في المغرب وبها جامع القرويين المشهور يؤمه طلاب العلم من سائر أنحاء البلاد.

دولة بني حمود

هي الدولة الثانية بعد الدولة الإدريسية من دول بني الحسن، وهذه الدولة ـ أي دولة بنى حمود ـ إلى أن تكون دولة أندلسية أقرب من أن تكون دولة مراكشية، وحمود الذي تنتمي إليه هذه الدولة من أعقاب إدريس بن عبد اللّه بن الحسن المثنى السالف الذكر[2]، والواقع أن روايات المؤرخين فيما يتعلق بدولة

---

(١) يفهم مما يكتب عن «فاس» في أسفار البلدانيين انها تنقسم إلى عدوتين ـ أي جانبين ـ الأولى «عدوة الأدارسة» وهي أقدم العدوتين، والثانية «عدوة الأندلسيين» أسسها أهل ربض قرطبة إذ فروا من «الحكم الربضى» سنة ١٩٢، انظر عن ذلك البيان المغرب ط ليدن (١/ ٢١١، ٢٦٣) وانظر أيضاً مادة «فاس» من معجم البلدان، وكان الحكم المذكور سفاكاً للدماء جاهر الأندلسيون بعدوانه وعداوة بني أمية وثاروا عليه غير مرة، الكامل (٦/ ٧٥، ٨٠).

(٢) تجد سياق نسبه إلى إدريس في الذخيرة (ق١/ م١/ ٧٨)، ومن أوفى المراجع وأتقنها عن دولة بني حمود «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» ط القاهرة، ذكرهم في دول الأندلس وأشار إلى أولية بني حمود وسمى أمراءهم (٤٩، ٥٢. ٦١، ٦٩)، والعبر لابن خلدون (٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥ و٦/ ١٤٦) والذخيرة لابن بسام (ق١/ م١/ ٤٧، ٧٠، ٧٣ ـ ٧٨، ٢٧١ ـ ٢٧٣) و(ق١/ م٢ من هذا الكتاب/ ١٢ ـ ١٨. ٤٠١)، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب=

بني حمود في الأندلس لا تخلو من غموض واضطراب بل من تناقض في كثير من الأحيان، وقد مهد لظهور هذه الدولة الحمودية في الأندلس انحلال الدولة الأموية في قرطبة وغرناطة وإشبيلية، وهو انحلال نشأ عن الفساد والثورات والحروب الداخلية، وبعضها حروب تشيب لهولها الولدان مثل واقعة «الربض[1]»، وتأريخ القرطبيين والإشبيليين ومن إليهم من الأندلسيين حافل بمناوءة السلطات الحاكمة، هذا من جهة كما أنه حافل من جهة أخرى بمظاهر الشدة والقسوة من الأمويين، ومن ذلك توالت الفتن والحروب بين الفريقين.

ملك بنو حمود جبل طارق ومالقة وأجاز من أجاز منهم العدوة إلى الأندلس مع شيعتهم من البربر وحاربوا الأمويين في تلك البلاد وانتزعوا الملك منهم، وعلى يد بني حمود زالت الدولة الأموية من قرطبة وإشبيلية وغلبت دعوتهم على كل دعوة وبويع غير واحد منهم بالخلافة، وأول من بويع منهم بالخلافة في قرطبة ولقب الناصر لدين الله ولم يتخلف أحد عن بيعته «علي بن حمود» في مستهل القرن الخامس، ويلاحظ أن بني حمود استندوا في تكوين دولتهم الأندلسية على حزب قوامه البربر والمغاربة المراكشيون وهو الحزب الذي استند إليه أجدادهم الأدارسة في تكوين الدولة الإدريسية، كما مر. ومن هذه الناحية لم يكن مفر من تأصل العداوة بين البربر وأمويي الأندلس على توالي الأيام، وكانت الوقائع بين الفريقين تترى في المغرب وما إليها من بلاد الجزيرة كما يبدو لنا من مطاوي التأريخ[2]،

= (١/ ١٩٩، ٢٣٣ ـ ٢٣٦) ولا تخلو رواية ابن عذارى صاحب المغرب من خلط واضطراب في هذا الشأن، وكتاب «المرقبة العليا لمن يستحق المرتبة العليا» للمقالي الأندلسي ط مصر (٨٧، ٩٤)، ونفح الطيب «١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣، ٢٢٤ ـ ٢٢٧).

(١) واقعة «الربض» من أشهر وقائع الأندلس في دولة الحكم بن هشام الأموي، وفي مقدمة المؤرخين الذين بلغوا الغاية في وصفها وفي وصف غيرها من وقائع الحكم بالأندلسيين ابن الأثير في الكامل (٦/ ٧٩ ـ ٨١، ١٢٢ ـ ١٢٣)وقد عاد ابن الأثير بعد ذلك فأثنى على الحكم المذكور ووصفه بالحزم والشجاعة وأنه هو الذي مهد الملك لعقبه في الديار الأندلسية، انظر (١٥٥) من كتابه المذكور، ولاحظ اختلافهم في تأريخ واقعة الربض المذكورة.

(٢) يرجع في هذا الباب إلى الكامل (٦/ ١٧٠).

ومن ذلك يتضح أن البربر أمة ذات كيان خاص تعتز به وتحرص على بقائه.

عاشت الدولة الحمودية إلى منتصف المائة الخامسة، ولا حاجة إلى القول بأن هذا العصر هو العصر الذي تبربر فيه الحموديون - كما تبربر قبلهم الإدريسيون - فلم يعد هناك فرق بين الإدريسي أو الحمودي وبين البدوي البربري لغة وزياً وطباعاً إلى غير ذلك بل عني غير واحد من مؤرخي المغرب بالإشارة إلى هذه العجمة التي غلبت على السنة بني حمود في المغرب والأندلس حتى أصبحت البربرية لغة ثانية وربما تغلبت على العربية[١].

مشاهير بني حمود:

أشهر مشاهير بني حمود الذين ملكوا قرطبة وما إليها ثلاثة: على وأخوه القاسم ابنا حمود ويحيى بن علي، وعلي أشهر بني حمود قاطبة[٢]، وقد نوه المؤرخون بسطوته وسخائه وشجاعته وسيطرته على البربر كافة وأنه استمال أهل قرطبة بعدله وحذوه في بعض سيرته حذو الصدر الأول فجلس للمظالم بنفسه وانتصف من الظالم للمظلوم على ما يقول بعض المؤرخين، والواقع أن سيرته لا تخلو من شذوذ واضطراب بين صلاح وفساد وجور وإنصاف ورضا وسخط[٣] إلى أن قتله بعض مماليكه من الصقالبة في قرطبة سنة ٤٠٨[٤].

كان الناصر علي بن حمود حسبما يقول المقري[٥] على عجمة فيه يصغي إلى الشعر ويثيب عليه[٦] وله شعراؤه المختصون به وحسبك من هؤلاء ابن دراج

(١) الذخيرة (ق١/ م١/ ٧٨)، ونفح الطيب للمقري (١/ ٢٢٥).

(٢) انظر عن كيفية بيعته وعن سطوته وأمارته الذخيرة (ق١/ م١/ ٧٨-٧٩)، وتجد نبذة عن سيرة الأمير علي بن حمود وعن مدة ملكه في المصدر المذكور (٨٣)، وفي كتاب «المرقبة العليا فيمن يستحق المرتبة العليا» وهو تأريخ قضاة الأندلس للمقالي الأندلسي (٨٩).

(٣) الذخيرة (ق١/ م١/ ٥٢).

(٤) الذخيرة (ق١/ م١/ ٨٢).

(٥) المأخذ المذكور (٨٣)، ونفح الطيب (١/ ٢٢٥).

(٦) نفح الطيب (٣/ ٢٢٥).

القسطلي الذي كان يراسله نظماً ونثراً، ويظهر من أقوال ابن بسام أن ابن دراج الشاعر الأندلسي المشهور كان إدريسي العقيدة ومن أولياء بني حمود، وقد أطلق على بعض قصائدة التي أنشأها في مدح الأمير علي اسم «الهاشميات»، ومنها قصائد أعجب بها أبو الحسن بن بسام ونشرها في الذخيرة[1].

أسباب سقوط دولة بني حمود:

استطاع الناصر علي بن حمود بما له من سلطان أن يجمع كلمة البربر من حوله، وما إن قتل في قرطبة حتى فتن أنصاره البرابرة وانشقت كلمتهم فمال بعضهم إلى أخيه القاسم بن حمود وكان والياً على إشبيلية، ومال قوم من البربر وهم الأكثر إلى ابنه يحيى بن علي[2] وكان والياً على سبتة وتوالت الفتن بين يحيى وابن أخيه القاسم وتداولا قرطبة غير مرة، وقد أشار المقري وغيره من المؤرخين إلى نتائج الانشقاق الذي استشرى بين بني حمود ثم عصف بالدولة الحمودية بعد ذلك[3]، ومجمل القول كانت هذه الفتن المستمرة بين بني حمود أنفسهم بعد مقتل الأمير علي علة العلل في سقوط دولتهم المذكورة على يد بني عباد أمراء إشبيلية وبنو عباد هم الذين قتلوا يحيى بن حمود في وقعة طاحنة، ويلاحظ انتهاك المحارم وضعف الوازع الخلقي والديني في بني عباد وتحللهم من القيود الشرعية[4]، وهكذا مرج الأمر في الأندلس وانتقل السلطان من ملوك الجماعة إلى ملوك الطوائف[5] بني عباد وبني جهور، كانت خصومة ملوك

---

(١) الذخيرة (ق١/ م١/ ٤٧، ٧٠ ـ ٧٣) وانظر عن أحمد بن دراج القسطلي اليتيمة للثعالبي (٢/ ٩٠) والقسم المذكور من الذخيرة.

(٢) يحيى بن علي هذا من أشهر ملوك بني حمود في أشبيلية وقرطبة وقد أثنى عليه صاحب الذخيرة ثناء بالغاً، وكان الوزير الكاتب ابن شهيد من المختصين به وله فيه أشعار ومدائح قف على ذلك في القسم المذكور من الذخيرة (٢٧١ ـ ٢٧٣) وانظر عن ابن شهيد الكتاب المذكور (١٦١ ـ ١٧٠).

(٣) نفح الطيب (٣/ ٢٢٥ ـ ٢٢٨).

(٤) الذخيرة (ق١/ م١/ ٥٧٣).

(٥) يعتبر انحلال الدولتين الأموية والحمودية الهاشمية في الأندلس بداية لعصر ملوك الطوائف.

الطوائف فيما بينهم أعنف وأشد من خصومتهم للفرنجة وللإسبانيين الواقفين للأندلسيين بالمرصاد، بل كانوا لا يحجمون عن التحالف مع هؤلاء الطواغيت المجاورين لهم ليأمنوا شرهم في هذا النزاع القائم بينهم وبين بني حمود وغيرهم من أمراء الأندلس، وهكذا تطغى الأنانية وتغلب الأحقاد الجاهلية، وهكذا فقد سلموا الأندلس ذلك الملك الغريض وفقدوا معه الكرامة والاستقلال وأكره من بقي منهم في البلاد على الخروج عن دينهم بعد ذلك، ولم يطل الأمر بأمراء الطوائف هؤلاء حتى خضعت الأندلس لدول بربرية ناشئة من مرابطين[1] وموحدين[2] ومرينيين إلى أن طوي بساط الدول البربرية المذكورة.

الشيخ محمد رضا الشبيبي

ظهور الطالبيين في طبرستان[3]

مر الحديث موجزاً عن ذلك فيما تقدم، ونذكره ببعض التفاصيل:

بعد استشهاد الإمام زيد في الكوفة وابنه يحيى في خراسان توجه جمع من الطالبيين إلى بلاد الديلم وجيلان، وتفرق آخرون في الحجاز واليمن وآذربايجان وأصفهان والري.

يقول أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبين أن انتشار آل أبي طالب في

---

(١) بدأ عصر المرابطين في سنة ٤٦٢ وانتهى بانتصار الموحدين (عليهم في سنة ٥٤٢.

(٢) تبتدئ دولة الموحدين في المغرب سنة ٥١٤ وتنتهي سنة ٦٦٨، وهي من الدول التي امتد سلطانها إلى الديار الأندلسية.

(٣) طبرستان هو الاسم التاريخي، أما اليوم فتعرف باسم (مازندران). ويتألف معظمها مما يعرف اليوم بجبال ألبرز الممتدة في حذاء الساحل الجنوبي لبحر قزوين، وفي المئة السابعة الهجرية (الثالثة عشر) أي في نحو الفتوحات المغولية بطل استعمال طبرستان على ما يظهر وحل محله اسم مازندران.
وقال (ياقوت) وهو أول من ذكر اسم مازندران، بأنه لا يدري متى أُخذ بهذه التسمية. ومع أنه لم يعثر عليه في الكتب السالفة، فإنه كان شائع الاستعمال في جميع أنحاء البلاد.
وطبرستان كانت جزءاً من أجزاء الدولة الساسانية اعتنق أهله الإسلام، وظل ملوكه من أهل البلاد نيفاً وقرناً من الزمان بعد الفتح الإسلامي مستقلين في بلادهم الجبلية. والطالبيون هم الذين عمموا الإسلام فيها.

مختلف المناطق يعود إلى عهد الخليفة العباسي المتوكل. أما رابينو فيرجع انتقال هؤلاء إلى طبرستان إلى عهد الخليفة المأمون ويقول إنه بعد وفاة الإمام الرضا ذهب بعض أقربائه إلى ديلمان وطبرستان واستشهد بعضهم هناك، كما اتجه بعضهم من الحجاز وبلاد الشام والعراق إلى طبرستان واستمر هذا الأمر طوال حكومة الطالبيين هناك.

إن أحفاد الإمام الحسن عليه السلام الذين استوطنوا في المناطق الشمالية من إيران كانوا يعيشون في الخفاء، وكان زعماؤهم إذا ما سنحت لهم الفرصة يثورون على حكام الولايات.

وبنتيجة انتشار الطالبيين تأسست حكومات طالبية عديدة أقواها الدولة الزيدية في اليمن ودولة طبرستان.

إن دولة الزيديين في طبرستان مهدت الطريق لدخول الإسلام إلى تلك المنطقة، والحقيقة هي أن طالبيي طبرستان قاموا بدراية تامة بالمهمة الذي تعذر على الخلفاء القيام بها بالحرب والقتال، وهي نشر الإسلام في تلك المناطق.

يقول أشپولر: «إن الزيدية أسسوا حكومة لهم في السواحل الجنوبية من بحر الخزر في سنة ٨٦٤م ولكن مدة هذه الحكومة كانت قصيرة حيث انتهت في سنة ٩٢٨م ولكن كان لها أثر بارز في التاريخ وهو نشرها الإسلام في تلك المنطقة، وقد استمرت حكومتهم أكثر من مائة سنة.

ويقول جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء: تأسست حكومة طبرستان بظهور ستة من العلويين كان أولهم الحسن بن زيد وآخرهم الثائر بالله، الذي ساد سنة ٣٤٥ ولأول مرة جميع أنحاء طبرستان. ولدينا أسماء أربعة عشر من الطالبيين ثمانية منهم من أحفاد الإمام الحسن وستة من أحفاد الإمام الحسين عليها السلام وفيما يلي أسماء الذين حكموا طبرستان منذ تأسيس حكومتهم حتى انقراضها.

١ ـ حسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن حسن بن زيد بن حسن بن

علي بن أبي طالب عليه السلام الملقب بالداعي الأول وبالداعي الكبير وبالداعي إلى الحق.

٢ ـ أحمد بن محمد بن إبراهيم بن علي بن عبد الرحمٰن الشجري القاسم البطحاني بن الحسين بن علي بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، صهر حسن بن زيد.

٣ ـ محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام الملقب بالداعي الكبير ـ القائم بالحق.

٤ ـ أبو محمد حسن بن علي العسكري بن الحسن بن عمر الأشرف بن علي السجاد زين العابدين بن حسين بن علي عليه السلام الملقب بالناصر الكبير وبالأطروش.

٥ ـ أبو محمد حسن بن قاسم بن حسن بن علي بن عبد الرحمٰن الشجري بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي عليه السلام الملقب بالداعي الجليل وبالداعي الصغير.

٦ ـ أبو الحسن أحمد بن حسن بن علي بن الحسن بن عمر الأشرف بن علي السجاد زين العابدين بن حسين بن علي عليه السلام الملقب بصاحب الجيش وبالناصر الأول.

٧ ـ أبو القاسم جعفر بن حسن بن علي بن الحسن بن عمر الأشرف بن علي السجاد زين العابدين بن حسين بن علي عليه السلام (الناصر الثاني).

٨ ـ أبو علي محمد بن أحمد بن حسن بن علي بن الحسن بن عمر الأشرف بن علي السجاد زين العابدين بن حسين بن علي عليه السلام (الناصر الثالث).

٩ ـ أبو جعفر حسن بن أحمد بن حسن بن علي بن الحسن بن عمر

الأشرف بن علي السجاد زين العابدين بن حسين بن علي عليه السلام الملقب بصاحب القلنسوة (الناصر الرابع).

١٠ ـ أبو الفضل جعفر بن محمد بن حسين بن أبي الحسن علي العسكري بن حسن بن عمر الأشرف بن علي السجاد بن حسين بن علي عليه السلام الملقب بالثائر بالله وبالسيد الأبيض.

١١ ـ أبو عبد اللّه محمد بن حسن بن قاسم بن حسن بن علي بن عبد الرحمٰن الشجري بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي عليه السلام الملقب بالمهدي لدين الله ـ القائم بحق الله.

١٢ ـ أبو الحسن أحمد بن الحسين بن هارون بن محمد البطحاني بن قاسم بن حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام الملقب بالسيد المؤيد بالله.

١٣ ـ أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون بن محمد البطحاني بن قاسم بن حسن بن زيد بن حسن بن علي عليه السلام الملقب بالناطق بالله.

١٤ ـ أبو القاسم زيد بن أبي طالب الحسن بن زيد بن صالح بن محمد الأعلم بن محمد بن عبد الرحمٰن بن القاسم البطحاني بن حسن بن زيد بن الحسن السبط عليه السلام.

لقد كان طالبيو طبرستان يحاربون بشجاعة وشهامة وينادون بالحق والعدالة ولم يكن لهم نهج سوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن أعظم مآثرهم نشرهم الإسلام في مناطق لم تعرف الإسلام قبلهم.

وكان فيهم العلماء والشعراء، وعدا ما أقاموه من المساجد والجوامع الكثيرة، فإن أول المدارس الإسلامية وأول المكتبات في طبرستان المعروفة الآن بمازندران قامت في عهدهم. وقد ازدهر الشعر العربي والأدب العربي أيامهم أي ازدهار، وكانوا ملاذاً للعلماء والفضلاء والباحثين.

ومن الأسماء العلمية والشعرية والفكرية التي لمعت في ظلهم: أبو مقاتل الشاعر الأعمى وحمزة العلوي وعبد العزيز العجلي وأبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن هندو وأبو سعد مظفر بن إبراهيم وأبو العلاء المهرواني وأبو طالب علي بن أحمد وسعيد بن محمد الكاتب والأخطلي وعمر بن أحمد وأبو عبد الله أحمد بن محمد الوليدي وأبو العلاء السروي وأبو العباس سعد بن أحمد الطبري وأبو هشام العلوي الطبري وأمثالهم(١).

وقيل عن الحسن بن زيد مؤسس حكمهم في طبرستان ما يلي:

«كان الحسن بن زيد مع شرف نسبه وكرم حسبه عالي الهمة شجاعاً حازماً ثاقب الرأي متواضعاً جواداً كريماً عارفاً بمواضع الكلام».

ووصف في موضع آخر بأنه ـ إلى جانب الصفات المتقدمة ـ كان متفرداً في أنواع الفضائل النفسية، ذا ورع وزهد وديانة(٢) ووصفه ابن الأثير فيما وصفه بأنه كان متواضعاً لله تعالى.

وتلخص إنجازاته بنشره الإسلام في تلك البلاد التي كانت قد ظلت على دينها الزردشتي، ومكافحته المفاسد الاجتماعية ورعاية أحوال الناس ومساعدة الضعفاء والعمل بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويصف ابن الأثير أخاه محمد بن زيد الذي خلفه بأنه كان فاضلاً أديباً شاعراً حسن السيرة. ويصفه آخر بقوله: كان عالماً فاضلاً شجاعاً سمحاً، وكان العلماء والشعراء يعتبرونه ملجأهم(٣).

---

(١) أعيان الشيعة.

(٢) أولياء الله الآملي.

(٣) ناسخ التواريخ، ويقول بارتولد في كتابه (تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي) ص٣٣٨ ـ ٣٣٩ط ١٩٨١ عن الحكم الشيعي في طبرستان ما يلي: إن قسماً من الأراضي الواقعة بين ولايتي طبرستان والديلم المطلتين على بحر قزوين كان ملكاً للخليفة فمنحه لمحمد بن عبد الله بن طاهر الذي كان حاكماً لبغداد في الفترة بين عامي ٨٥١ و٨٦٧م وأوكل محمد إدارة هذه الأرض إلى رجل نصراني يدعى جابر بن هارون الذي وضع يده أيضاً على المراعي الملاصقة لأرض محمد، وهي المراعي التي ترعى فيها سائمة أهالي القرى المجاورة والتي =

ومما قيل في معرض الحديث عنه وعن أسلافه وأخلافه: ساسوا أهل طبرستان بالعدل والإنصاف وإبعاد الجور والظلم عنهم.

ويقول ابن خلدون عن حسن بن علي الأطروش الملقب بالناصر الكبير: كان عادلاً حسن السيرة لم ير مثله في أيامه، أقام بأرض طبرستان يدعو أهلها إلى الإسلام، فأسلم على يده خلق كثير وبني لهم المساجد. ويقول الطبري في تاريخه: ولم يز الناس مثل عدله وحسن سيرته وإقامته للحق.

دولتان حسنيتان

يقول حسن الأمين:

قامت لأحفاد الحسن (ع) في المغرب دولتان، هما: الدولة الإدريسية والدولة السعدية. وسأتحدث هنا عن كلتا الدولتين.

تلخيص أمر الأدارسة(*) ١٦٩ ـ ٣١٣هـ

نقدم هنا تلخيصاً لتاريخ قيام الدولة الإدريسية في المغرب، ثم نتبعه

= لم تكن ملكاً لأحد من الناس. وقد أدى هذا الاعتداء على حقوق الأهالي إلى اشتعال نيران ثورة شاملة تزعمها العلويون.

وفي عام ٨٦٤ تمكن الحسن بن زيد من سلالة العلويين من جعل نفسه حاكماً على الولاية، وظل حاكماً لها فيما عدا فترات قصيرة حتى عام ٨٨٤. فنحن أزاء حركة شيعية أشعلها الاعتداء على حقوق الزراع. ويبدو أن هذا الطابع الديموقراطي نفسه قد اتخذته الثورة التي اندلعت في ٣٠١هـ (٩١٣ ـ ٩١٤) على السامانيين بزعامة الحسن بن علي الأطروش. وقد نجح الحسن في نشر الإسلام بين الديلم واستمال إليه الأهالي وظل متمتعاً بالإجلال والتوقير في نفوسهم حتى وفاته، ويثني المؤرخون المنصفون على حمكه العادل. غير أن البيروني بما عرف عنه من عاطفة نحو التقاليد الفارسية القديمة يتهمه بالقضاء على نظام الأسرة الفارسي القديم الذي وضع أساسه أفريدون الأسطوري، وذلك بقوله: لا تملك أفريدون وما أمر به الناس من تملك دورهم وأهاليهم وأولادهم وتسميتهم بالكذخذاه أي رب الدار... وقد أزال الناظر الأطروش ذلك وأعاد اشتراك المودة مع الناس في الكذخذاهية». ومن هذا يتبين أن الحسن قد قضى على أرباب الضياع الكبيرة (انتهى بارتولد).

(*) من طرائف وسخائف الدكتور حسين مؤنس قوله إن الأدارسة ليسوا شيعة، ودليله على ذلك هذا الدليل الطريف السخيف قال: =

بتفاصيل واسعة. والمقصود بهذا أن تتكون لدى القارىء أولاً فكرة عن الأدارسة وابتداء أمرهم وانتهائه، ثم يدخل بعد ذلك في التفاصيل:

أعلم أنه لما كانت (١٦٩هـ) في خلافة موسى الهادي العباسي، خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (ع) وكان معه جماعة من أهل بيته منهم إدريس ويحيى وسليمان بنو عبد اللّه بن الحسن المثنى وهم أخوة محمد النفس الزكية، فكان من أمرهم ما يأتي:

كان سبب خروج الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أن موسى الهادي (ابن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور) ولى المدينة إسحاق بن عيسى بن علي (بن عبد اللّه بن العباس) فاستخلف عليها رجلاً من ولد عمر بن الخطاب يعرف بعبد العزيز بن عبد اللّه (ابن عمر بن الخطاب) فحمل على الطالبيين وأساء إليهم وأفرط في التحامل عليهم وطالبهم بالعرض (إثبات الوجود) في كل يوم وكانوا يعرضون في المقصورة وأخذ كل واحد منهم بكفالة قريبه ونسيبه. أخذ الحسن بن محمد بن عبد اللّه بن الحسن ومسلم بن جندب الهذلي الشاعر وعمر بن سلام مولى آل عمر بن الخطاب وهم مجتمعون، وافترى عليهم بأنه وجدهم على شراب، وابن الأثير قال على نبيذ فأمر بضربهم فضرب الحسن ثمانين سوطاً وابن جندب خمسة عشر سوطاً وابن سلام سبعة أسواط وجعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة مكشفي الظهور ليفضحهم.

قال أبو الفرج فبعثت الهاشمية صاحبة الراية السوداء في أيام محمد بن عبد اللّه فقالت له: ولا كرامة لا تشهر أحد من بني هاشم وتشنع عليهم وأنت

= من الأخطاء الشائعة القول بأن دولة الأدارسة دولة شيعية لأن مؤسيسها وأئمتها كانوا من أهل البيت، وقد غاب عن القائلين بذلك أن آل البيت لا يمكن أن يكونوا شيعة، لأن الشيعة هم الذين يتشيعون لهم!!

فهل في الدنيا أطرف وأسخف من هذا الدليل؟!

ظالم، فكف عن ذلك وخلى سبيلهم. وقولها (وأنت ظالم) دال على أن ذلك مجرد افتراء لا حقيقة له. وقال ابن الأثير: فجاء الحسين بن علي إلى العمري وقال له: قد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون بالنبيذ بأساً، فلم تطوف بهم؟ فأمر فردوا وحبسهم، ثم أن الحسين بن علي بن عبد الله بن الحسن كفل الحسن بن محمد فأخرجه العمري من الحبس. قال أبو الفرج في مقاتل الطالبين: ووافى أوائل الحاج وقدم من الشيعة نحو من سبعين رجلاً فنزلوا دار ابن أفلح بالبقيع ولقوا حسيناً وغيره وبلغ ذلك العمري فأنكره وغلظ أمر العرض وولى على الطالبيين رجلاً يعرف بأبي بكر بن عيسى الحائك مولى الأنصار فعرضهم يوم جمعة فلم يأذن لهم في الانصراف حتى بدأ أوائل الناس يجيئون إلى المسجد، ثم أذن لهم فكان قصارى أحدهم أن يغدو ويتوضأ للصلاة ويروح إلى المسجد، فلما صلوا حبسهم في المقصورة إلى العصر ثم عرضهم فدعا باسم حسن بن محمد فلم يحضر، فقال ليحيى وحسين بن علي لتأتياني به أو لأحبسنكما فإن له ثلاثة أيام لم يحضر العرض، وقال ابن الأثير: فغاب الحسن بن محمد عن العرض يومين، قال أبو الفرج: فراده بعض المرادة وأسمعه يحيى وخرج فمضى ابن الحائك فدخل على العمري فأخبره فدعا بهما فتهددهما وأغلظ لهما (قال في أعيان الشيعة) هنا موضع قول أبي تمام:

فعلتم بأبناء النبي ورهطه أفاعيل أدناها الخيانة والغدر

وقول الشريف الرضي:

ليس هذا لرسول الله يا أمة الطغيان والبغي جزا

وتسليط الحائك عبد الأنصار على آل رسول الله ﷺ يحبسهم ويتهددهم بغير ذنب أقل بقليل مما فعل معهم من الفظائع. قال أبو الفرج: فتضاحك حسين في وجه العمري وقال: أنت مغضب يا أبا حفص، فقال له العمري: اتهزؤني وتخاطبني بكنيتي، فقال: لقد كان أبو بكر وعمر وهما خير منك يخاطبان بالكنى فلا ينكران ذلك وأنت تكره الكنية وتريد المخاطبة بالولاية.

فقال له: آخر قولك شر من أوله، فقال: معاذ الله، يأبى الله لي ذلك ومن أنا منه فقال له: أفإنما أدخلتك إلي لتفاخرني وتؤدبني، فغضب يحيى فقال له: فما تريد منا؟ قال: أريد أن تأتياني بحسن بن محمد، فقالا: لا نقدر عليه، هو في بعض ما يكون فيه الناس، فابعث إلى آل الخطاب فاجمعهم كما جمعتنا ثم أعرضهم رجلاً رجلاً فإن لم تجد فيهم من قد غاب أكثر من غيبة حسن عنك قد أنصفتنا. فحلف على الحسين بطلاق امرأته وحرية مماليكه أنه لا يخلي عنه أو يجيئه به في باقي يومه وليلته وأنه إن لم يجيء به ليركبن إلى سويقة (وهي موضع قرب المدينة فيه مساكن ونخيل للحسنيين) فيخربها أو يحرقها وليضربن الحسين ألف سوط، وحلف بهذه اليمين أن عينه إن وقعت على الحسن بن محمد ليقتله من ساعته.

(قال في أعيان الشيعة) بمثل هذه السياسات الخرقاء كانت تدار بلاد الإسلام، يولى على أشراف الناس من في قلبه الضغائن عليهم حتى يحرجهم ويضطرهم إلى فعل ما لا يمكن أن يفعلوه أو الخروج عليه فتراق الدماء وتنتهك حرمات الله وتنهب الأموال ويجري أفظع الظلم والفساد، كيف يمكن أن يجيء حسين ويحيى بابن عمهما إلى العمري فيقتله، أو لا يجيئان به فيخرب ملكهما الذي به معاشهما ويضرب الحسين ألف سوط، وهل بعد هذا مخرج إلا الخروج عليه وما هو الذنب الذي استوجبوا به هذا؟ فوثب يحيى مغضباً فقال له: أنا أعطي الله عهداً وكل مملوك لي حر إن ذقت الليلة نوماً حتى آتيك بحسن بن محمد، أو لا أجده فأضرب عليك بابك حتى أضرب عليه بابه ومعي السيف أقتله به إن قدرت عليه فقال حسين: هذا ينقض علينا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الميعاد، وكانوا تواعدوا أن يظهروا بالموسم فقال يحيى: قد كان ذلك وإنما بيننا وبين ذلك عشرة أيام حتى نسير إلى مكة. فوجه الحسين إلى حسن بن محمد فقال يا ابن عم قد بلغك ما كان بيني وبين هذا الفاسق فامض حيث أحببت فقال الحسن لا والله يا ابن عم بل أجيء معك الساعة حتى أضع يدي في يده فقال له الحسين ما كان الله ليطلع علي وأنا جاء إلى محمد ﷺ وهو خصيمي

وحجيجي في أمرك ولكني أفديك بنفسي لعل الله أن يقي نفسي من النار وعملا في الخروج من ليلتهم، ووجه الحسين فجاءه يحيى وسليمان وإدريس بنو عبد اللّه بن حسن بن عبد اللّه بن حسن وعبد اللّه بن حسن الأفطس وإبراهيم بن إسماعيل طباطبا وعمر بن الحسن بن علي بن حسن بن حسن وعبد اللّه بن إسحاق بن إبراهيم بن حسن بن حسن بن علي وعبد اللّه بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب، ووجهواإلى فتيان من فتيانهم ومواليهم فاجتمعوا ستة وعشرين رجلاً من ولد علي (ع) وعشرة من الحاج ونفر من الموالي وجاء يحيى فضرب على العمري باب داره فلم يده وجاؤوا فاقتحموا المسجد وقت الصبح ثم نادوا: أحد، أحد. وصعد عبد اللّه بن حسن الأفطس المنارة التي عند رأس النبي ﷺ عند موضع الجنائز فقال للمؤذن أذن بحي على خير العمل فلما نظر إلى السيف بيده أذن بها وسمعه العمري فأحس بالشر ودهش وصاح أعلقوا البغلة بالباب وأطعموني حبتي ماء فولده الآن بالمدينة يعرفون ببني حبتي ماء، ثم مضى هارباً على وجهه يسعى ويخرج منه الريح، هذه رواية المقاتل وتدل رواية ابن الأثير الآتية أن العمري بقي إلى ما بعد ذلك. فصلى الحسين بالناس الصبح فلما فرغ من الصلاة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال (أيها الناس) أنا ابن رسول الله على منبر رسول الله وفي حرم (مسجد) رسول الله أدعوكم إلى سنة رسول الله ﷺ. (وفي رواية) أدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله استنقاذاً مما تعملون أيها الناس، أتطلبون آثار رسول الله في الحجر والعود تتمسحون بذلك وتضيعون بضعة منه فقام الناس فبايعوه. وروى أبو الفرج في المقاتل بسنده أنه لما كانت بيعة الحسين بن علي صاحب فخ قال أبايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وعلى أن يطاع الله ولا يعصى وأدعوكم إلى الرضا من آل محمد وعلى أن نعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ والعدل في الرعية والقسم بالسوية، وعلى أن تقيموا معنا وتجاهدوا عدونا، فإن نحن وفينا لكم وفيتم لنا، وإن نحن لم نف لكم فلا بيعة لنا عليكم. قال أبو الفرج ودعا بالشهود العدول

الذين كان العمري أشهدهم عليه بأن يأتي بالحسن إليه وقال للشهود هذا الحسن قد جئت به فهاتوا العمري وإلا والله أخرجت من يميني. قال وجاء حماد البريدي(1) وكان مسلحة للسلطان بالمدينة ومعه أصحابه في السلاح حتى وافوا باب المسجد الذي يقال له باب جبرائيل، فقام إليه يحيى فضربه بالسيف على جبينه وعليه البيضة والمغفرة والقلنسوة فقطع ذلك كله وأطار مخ رأسه وحمل على أصحابه فانهزموا. ويدل كلام ابن الأثير أن يحيى وإدريس معاً قتلا البريدي فإنه قال: وجاء خالد البريدي في مائتين من الجند وجاء العمري ومعهم ناس كثير فدنا خالد منهم فقام إليه يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن فضربه يحيى على أنفه فقطعه ودار إدريس من خلفه فضربه فصرعه ثم قتلاه فانهزم أصحابه ودخل العمري في المسودة فحمل عليهم أصحاب الحسين فهزموهم من المسجد وانتهبوا بيت المال وفيه بضعة عشر ألف دينار وقيل سبعون ألفاً وتفرق الناس وأغلق أهل المدينة أبوابهم فلما كان الغد اجتمع عليهم شيعة بني العباس فقاتلوهم وفشت الجراحات في الفريقين واقتتلوا إلى الظهر، وكان مبارك التركي قد حج في تلك السنة فبدأ بالمدينة فبلغه خبر حسين وقد اختلف قول المؤرخين في أمره فقيل أنه أتى شيعة بني العباس فقاتل معهم فاقتتلوا أشد قتال إلى منتصف النهار ثم تفرقوا ورجع أصحاب الحسين إلى المسجد وواعد مبارك الناس في الرواح إلى القتال فلما غفلوا عنه ركب رواحله وانطلق وراح الناس فلم يجدوه فقاتلوا شيئاً من قتال إلى المغرب ثم تفرقوا، وقيل أن مباركاً لم يقاتل الحسين بل أرسل إلى الحسين من الليل إني والله ما أحب أن تبتلي بي ولا أبلتي بك والله لأن أسقط من السماء فتخطفني الطير أيسر علي من أن تشوكك شوكة أو أقطع من رأسك شعرة فابعث الليلة إلي نفراً من أصحابك ولو عشرة يبيتون عسكري حتى انهزم واعتل بالبيات فوجه حسين عشرة من أصحابه فلما دنوا من عسكره صاحوا وكبروا في نواحي عسكره فطلب دليلاً يأخذ به على غير الطريق فوجده

---

(1) سماه ابن الأثير فيما يأتي خالد البريدي ولا شك أنه صحف أحدهما بالآخر.

فمضى به حتى انتهى إلى مكة فصار مع بني العباس واعتل عليهم بالبيات فغضب عليه الهادي وأخذ ماله وجعله سائس الدواب.

قال ابن الأثير وأقام الحسين وأصحابه أياماً يتجهزون فكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يوماً ثم خرجوا إلى مكة لستَ بقين من ذي القعدة فعاد الناس إلى المسجد. قال ابن الأثير: وبلغ خبرهم إلى الهادي، فولى الهادي محمد بن سليمان على الحرب وعسكروا بذي طوى، قال المسعودي: وكانوا أربعة آلاف فارس، تهيأ للمسير إلى حسين فسار حتى أتى بستان بني عامر فنزل وأرسل من ينظر إلى عسكر حسين فرجع الرسول له وقال ما رأيت خللاً ولا فللاً ولا رأيت إلا مصلياً أو مبتهلاً أو ناظراً في مصحف أو معداً السلاح، فقال هم والله أكرم خلق الله، ثم سار إليهم، قال ولقيته الجيوش بفخ فأمر موسى بن عيسى بالتعبئة فالتقوا في يوم التروية وقت صلاة الصبح، وكان أول من بدأهم موسى فحملوا عليه فاستطرد لهم شيئاً حتى انحدروا في الوادي وحمل عليهم ابن سليمان من خلفهم فقتل أكثر أصحاب الحسين وجعلت المسودة تصيح يا حسين: لك الأمان، فيقول الأمان أريد؟ ما أريد الأمان، ويحمل عليهم يحيى وكان حماد التركي ممن حضر وقعة فخ فقال: أروني حسيناً. فأروه إياه، فرماه بسهم فقتله، فوهب له محمد بن سليمان مائة ألف درهم ومائة ثوب، وقال ابن الأثير اقتتلوا يوم التروية فانهزم أصحاب الحسين وقتل منهم وجرح وانصرف محمد بن سليمان ومن معه إلى مكة ولا يعلمون ما حال الحسين فلحقهم خراساني يقول: البشرى البشري هذا رأس الحسين، فأخرجه وبجبهته ضربة طولى وعلى قفاه أخرى، وقال المسعودي: قتل الحسين وأكثر من كان معه وأقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى أكلتهم السباع والطير، قال أبو الفرج: وأصاب الحسن بن محمد (وهو الذي تأخر عن العرض كما مر) نشابة في عينه فتركها فيها وجعل يقاتل أشد القتال فناداه محمد بن سليمان يا ابن خال اتق الله في نفسك لك الأمان، فقال والله ما لكم أمان ولكن أقبل منكم ثم كسر سيفاً هندياً كان في يده ودخل إليهم، فصاح العباس بابنه عبد اللّه قتلك الله إن لم تقتله فقال له موسى بن

عيسى: أي الله عاجلوه فحمل عليه عبد اللّه فطعنه وضرب العباس وقيل موسى بن عيسى عنقه بيده صبراً ونشب الخصام بين العباس بن محمد ومحمد بن سليمان وقال: آمنت ابن خالي فقتلتموه، فقالوا: نحن نعطيك رجلاً من العشيرة تقتله مكانه (وانتهت مهزلة نكث الأمان بهذا الجواب الفارغ) وقال ابن الأثير: كانوا قد نادوا بالأمان فجاء الحسن بن محمد بن عبد اللّه فوقف خلف محمد بن سليمان والعباس بن محمد فأخذه موسى بن عيسى وعبد اللّه بن العباس بن محمد فقتلاه، فغضب محمد بن سليمان غضباً شديداً (ولكن غضبه هذا الشديد لم يكن له أثر) وغضب الهادي على موسى بن عيسى في قتل الحسن بن محمد وقبض أمواله، وكان يحيى الأقطع والد الفراء النحوي قد قطعت يده في الحرب مع الحسين صاحب فخ، قال ابن الأثير وأخذت رؤوس القتلى فكانت مائة رأس ونيفاً وفيها رأس الحسن بن محمد بن عبدا للّه بن الحسن بن الحسن بن علي واختلط المنهزمون بالحاج وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبد اللّه بن الحسن فأتى مصر وخرج منها إلى أرض المغرب فأسس هناك دولة الأدارسة[1].

إدريس في المغرب

لحق إدريس بالمغرب الأقصى فنزل بمدينة وليلي[2] (١٧٢هـ). فأجاره إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير البربر وأكرمه وجمع البربر على القيام بدعوته، ولما بايع البربر إدريس خطب الناس فقال: بعد الحمدلة والصلاة، لا تمدن الأعناق لغيرنا، فإن الذي تجدوه عندنا من الحق لا تجدوه عند سوانا. ثم وفدت عليه قبائل زنانة وغيرها من كافة البربر بالمغرب الأقصى فبايعوه أيضاً ودخلوا في طاعته فتمكن سلطانه وقويت شوكته. ثم اتخذ جيشاً من وجوه البربر

---

(١) أعيان الشيعة.

(٢) هي قاعدة جبل زرهون وكانت مدينة متوسطة حصينة كثيرة المياه والغروس والزيتون وكان لها سوء عظيم من بنيان الأوائل يقال أنها المسماة اليوم بقصر فرعون.

وخرج غازياً إلى بلاد تامسنا ثم زحف إلى بلاد تدلا ففتح معاقلها وحصونها. وكان أكثر هذه البلاد يدينون بغير الإسلام، والإسلام بها قليل فأسلم جميعهم على يده (١٧٢هـ). ثم غزا في السنة التالية من كان تحصن منهم في المعاقل والجبال، حتى دخلوا في الإسلام. ثم خرج بعد سنة أيضاً لغزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل البربر فبايعه صاحبها محمد بن خزر وبنى مسجد تلمسان (١٧٤هـ) ثم عادإلى مدينة وليلي منصوراً.

ولما نال إدريس ما نال من التمكن والقوة، واتصل خبر ذلك بالخليفة العباسي هارون الرشيد وبلغه أن إدريس قد استفحل أمره وكثرت جنوده وأنه عازم على غزو أفريقيا خاف الرشيد عاقبة ذلك. وأنه إن لم يتدارك الأمر الآن ربما عجز عنه في المستقبل. وشاور الرشيد نصحاءه فأشاروا عليه بمن يقتله غيلة، ووقع اختيار الرشيد في ذلك على رجل من موالي والد الرشيد اسمه سليمان ويعرف بالشماخ، فأحضروه وزوده مالاً وطرفاً يستعين بها على أمره، وأصحبه الرشيد كتاباً إلى واليه على أفريقيا إبراهيم بن الأغلب وقيل إلى روح بن حاتم عاملها. ثم قدم الشماخ على إدريس مظهراً النزوع إليه في من نزع، فاختصه إدريس وعظمت منزلته لديه، وكان الشماخ عارفاً بصناعة الجدل فكان إذا جلس إدريس إلى رؤساء البربر تكلم الشماخ فذكر فضل أهل البيت وعظيم بركتهم على الأمة. ويقرر ذلك ويحتج لإمامة إدريس وأنه الإمام الحق دون غيره، فكان ذلك يعجب إدريس. فاستولى الشماخ عليه حتى صار من ملازميه ولا يأكل إلا معه. وكان راشد مولى إدريس قلما ينفرد عنه لأنه كان يخاف عليه لكثرة أعداء آل البيت يومئذ. وكان الشماخ يترصد الغرة من راشد ويترقب الفرصة من إدريس إلى أن غاب راشد ذات يوم فدخل الشماخ على إدريس فجلس معه كالعادة وتحدث ملياً. ولما لم ير الشماخ راشد بالحضرة انتهز الفرصة في إدريس وكان إدريس يشتكي وجع الأسنان واللثة فأعطاه سماً في سواك يستاك به وقيل سمه بطريقة أخرى. ولما علم الشماخ أن السم تمكن من إدريس خرج مسرعاً فاراً إلى الشرق. ومات إدريس (١٧٧هـ). ويقال أن راشداً

لحق بالشماخ في هربه وطعنه فقطع يمناه وشج رأسه، وقيل أن الشماخ هرب منه ورؤي بعد ذلك في بغداد مقطوع اليد.

إدريس بن إدريس (١٧٧ ـ ٢١٣هـ): لما توفي إدريس لم يترك ولداً إلا حملا من أمة بربرية له. فاتفق وجوه البربر على جعل مقاليد الأمور لراشد مولى إدريس لعلو منزلته عندهم وفضله ودينه حتى تلد الجارية. فقام راشد بأمر البربر تلك المدة ولما تمت للجارية أشهر حملها وضعت غلاماً أشبه الناس بأبيه إدريس فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر حتى نظروا إليه فقالوا هذا إدريس بعينه. فسماه راشد إدريس وبايعه البربر وكفله راشد مولى أبيه وقام بأمره أحسن قيام فأقرأه القرآن ثم علمه الحديث والسنة والفقه في الدين والعربية ورواه الشعر وأمثال العرب وحكمها وأطلعه على سيز الملوك وعرفه أيام الناس ودربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام وغير ذلك. فلم يمض عليه مقدار من العمر يبلغ إحدى عشر سنة إلا وقد ترشح للأمر فبايعه البربر عن طاعة وإخلاص بجامع وليلي (١٨٨هـ).

وكان إبراهيم بن الأغلب عامل أفريقية للرشيد قد دس إلى بعض البربر الأموال واستمالهم حتى قتلوا راشداً مولاه (١٨٦هـ). وقام بكفالة إدريس من بعده أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي. ولم يزل على ذلك إلى أن بايعوا لإدريس وقد أظهر إدريس من صغر سنه من وفور عقله ونباهته وفصاحته ما بهر عقول الخاصة والعامة. ولما استقام أمره وعظم سلطانه وكثرت جيوشه وفدت عليه الوفود من البلدان ووفود العرب من أفريقيا والأندلس، فجعل له منهم بطانة وأدنى منزلتهم، وكان إبراهيم بن الأغلب لا ينفك عن التضريب بين البربر واستفسادهم على إدريس فلم ينجح.

ولما كثرت الوفود على إدريس وضاقت بهم مدينة وليلي، أراد أن يبني لنفسه مدينة فركب يوماً في حاشيته وتخير بقعة واختط مدينة فاس الحالية (١٩٢هـ)، وجعلها بلدين لكل بلد منهما سور يحيط به، وأبواب تختص به

وأنهر فاصلة بينهما، ولما فرغ من بنائها اتخذها دار ملكه. وصار يغزو منها قبائل البربر العاصية والخارجية وغيرهم وكانت وفاته (٢١٣هـ) ودفن بفاس وقد انتظمت له كلمة البربر ومحا دعوة الخوارج وقطع المغرب عن دعوة العباسيين وضرب السكة باسمه.

محمد بن إدريس (٢١٣ ـ ٢٢١هـ): لما مات إدريس قام بالأمر بعده ابنه محمد بعهد منه ولما تولى قسم المغرب بين أخوته بإشارة جدته، اختص القاسم منها بطنجة وسبتة وقصر مصمودة وقلعة حجر النسر وتطوان وما انضم لذلك من القبائل والبلاد. واختص عمر بقبائل صنهاجة وغمارة وغيرهما واختص داود ببلاد هوارة وتازة وقبائل مكاسة وغيرها. واختص يحيى بأصيلة والعرائش وبلاد ورغة وغير ذلك، واختص عيسى بسلاوتامسنا وما انضم إليهما من القبائل، واختص حمزة بمدينة وليلي وأعمالها واختص أحمد بمدينة مكناسة وغيرها واختص عبد الله بأغمات وجبال المصامدة والسوس الأقصى، وبقيت تلمسان لولد عمه سليمان بن عبد الله واستمرت بأيديهم إلى أن تلاشى أمرهم بدخول الفاطميين. ثم أقام محمد بن إدريس بدار ملكه من فاس وأخوته ولاة على بلاد المغرب قد ضبطوا أعمالها وسدوا ثغورها وآمنوا سلبها. ثم حصلت الفتن بعد ذلك بين الأخوة فافترقوا وتحاربوا ثم صفا الأمر لمحمد بعد ذلك إلى أن مات بمدينة فاس (٢٢١هـ) بعد أن عهد بالأمر لابنه علي بن محمد المعروف بحيدرة وقام من بعده:

علي بن إدريس (٢٢١ ـ ٢٣٤هـ): لما مات محمد بن إدريس كان علي بن محمد صغير السن فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب والبربر وأحسنوا كفالته وطاعته، وسار بسيرة أبيه وجده في العدل فكان الناس في أيامه في أمن ودعة وكانت وفاته (٢٣٤هـ) وعهد بالأمر لأخيه يحيى.

يحيى بن محمد بن إدريس (٢٣٤ ـ ٢٥٠هـ): لما جلس يحيى على تخت بني إدريس امتد سلطانه وعظمت دولته واستمر عمران فاس وبنيت بها

الحمامات والفنادق للتجار وبنيت خارجها الرياض ورحل إليها الناس من البلاد البعيدة وفي زمنه بني مسجد القرويين الشهير بمدينة فاس وقام من بعده:

يحيى بن يحيى (٢٥٠ ـ ٢٩٢هـ): لما مات يحيى الأول قعد يحيى الثاني على تخت الأدارسة فأساء السيرة وكثر عبثه في الحرم، فثاروا عليه وأخرجوه من قصره وأشارت عليه زوجته بالاختفاء بعدوة الأندلس، ريثما تسكن الفتنة فتوارى بها فمات من ليلته أسفاً على ما صنع بنفسه، وكتبت زوجته إلى أبيها علي بن عمر بن إدريس صاحب الريف والسواحل تعلمه الخبر وتستدعيه، واستدعاه أيضاً أهل الدولة من العرب والبربر والموالي. فجمع حشمه وجيشه وجاء إلى فاس فاستولى عليها وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس وصار بعد هذا تارة يكون في عقب عمر ابن إدريس صاحب الريف وتارة يكون في عقب القاسم بن إدريس. ولما دخل علي بن عمر مدينة فاس بايعه الناس ودخلت الكافة في طاعته وخطب له بجميع المغرب إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الفهري من الخوارج الصفرية، وحصل بينه وبين علي بن عمر حرب شديدة كان الظفر في آخرها لعبد الرزاق، فانهزم علي وفرّ بنفسه. ودخل عبد الرزاق مدينة فاس وملك عدوة الأندلس وخطب له بها وامتنع عنه أهل عدوة القرويين وبعثوا إلى يحيى بن القاسم ويعرف بالعوام فوصل إليهم فبايعوه وولوه على أنفسهم. ثم قاتل عبد الرزاق حتى أخرجه من عدوة الأندلس فدخلها وبايعه أهلها. مكان للأمير يحيى بن القاسم حروب كثيرة مع الصفرية. ثم اغتاله الربيع بن سليمان (٢٩٢هـ). وفي زمنه خدث قحط شديد ببلاد المغرب وغلاء بالأندلس والمغرب وأفريقية ومصر والحجاز حتى رحل الناس عن مكة إلى الشام، وحدثت زلزلة عظيمة تهدمت منها المباني وانحطت منها الصخور من الجبال، وعمت هذه الرجفة جميع بلاد الأندلس وجميع بلاد العدوة، واستمرت المجاعة والوباء إلى (٢٨٥هـ). ولما قتل يحيى العوام ولى الأمر من بعده يحيى الثالث بن إدريس وخطب له بفاس. وامتد ملكه على جميع أعمال المغرب وخطب له على سائر منابره، وكان يحيى هذا واسطة عقد البيت الإدريسي

أعلاهم قدراً وأبعدهم ذكراً وأكثرهم عدلاً وأغزرهم فضلاً وأوسعهم ملكاً وكان فقيهاً حافظاً للحديث ذا فصاحة وبيان بطلاً شجاعاً ذا دين وورع لم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في الدولة والسلطان، إلى أن طما على ملكه عباب الفاطميين القائم بأفريقية فأغرقه. وذلك أن عبد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين لما استولى على أفريقية أراد تملك المغرب الأقصى فأغزاه قائده مصالة بن حبوس فزحف إلى المغرب الأقصى (٣٠٥هـ) وانتهى إلى فاس فبرز إليه يحيى بن إدريس لمدافعته في جموع العرب والبربر، والتقوا بقرب مكناسة فانهزم يحيى وعاد إلى فاس. ثم تقدم مصالة إلى فاس وحاصرها إلى أن صالحه يحيى على مال يؤديه إليه وعلى البيعة لعبد الله المهدي، فقبل يحيى الشرط وأبقى عليه مصالة في سكن فاس وعقد له على عملها خاصة وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية المكناسي على ما سوى ذلك من بلاد المغرب. وبذلك دخل المغرب الأقصى في يد الفاطميين واندرجت دولة الأدارسة في دولتهم (٣٠٧هـ). ثم أن موسى أوغر صدر مصالة على يحيى فقبض عليه وقيده بالحديد واستصفى أموزاله ثم نفاه إلى أصيلا. ثم ساءت حالته بعد ذلك وافتقر ومات بالمهدية (٣٣٢هـ). ثم خرج من الأدارسة شخص يقال له الحسن بن محمد ويعرف بالحجام وطرد عامل الفاطميين على المغرب واستولى على فاس. فاجتمع الناس على بيعته ودخل في طاعته أكثر قبائل البربر وكانت دولتهم أخذت في الانحلال ودولة عبيد الله المهدي في الإقبال فملك الحسن المذكور عامين، ولم يتم له مطلب، وانقرضت دولتهم في جميع المغرب الأقصى وحمل أغلب الأدارسة إلى المهدي المذكور وولده إلا من اختفى بالجبال (٣١٣هـ). وبعد (٣٤٠هـ) ثار إدريس من ولد محمد بن القاسم فأعاد الإمامة لهذا البيت ثم تغلب على بر العدوة عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر الأندلسي وخطب في تلك البلاد لبني أمية بالأندلس، ثم رجع عبد الملك إلى الأندلس فاضطربت دولة بر العدوة فتغلب على فاس بنو أبي العافية الزناتيون حتى (٣٦٣هـ). ثم ظهر يوسف ابن تاشفين واستولى على تلك البلاد واستأصل ذرية ابن أبي العافية

بالمغرب وكانت دولة ابن أبي العافية بالمغرب ١٤٠ سنة (٣٠٥ _ ٤٤٥هـ) وكانوا متمسكين بالدعوة الفاطمية فكانوا كنواب عنهم بالمغرب الأقصى.

وكان للأدارسة ببلاد الريف دولة صغيرة لبثت على سبيل الاستقلال، كما كانت لهم أولاً بفاس بالمغرب، إنما كانوا فيها تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب، إما من الفاطميين أصحاب أفريقية، وإما من المروانيين أصحاب الأندلس، وبقيت بلاد الريف بيد بني إدريس يتوارثونها، فلما انقرضت دولتهم بفاس على يد موسى بن أبي العافية انحاز من بقي منهم إلى بني عمهم وعشيرتهم ببلاد الريف وتحصنوا بقلعة يقال لها حجر النسر وبقوا هناك إلى أن ذهبت رياستهم تماماً (٣٦٣هـ). ومن أشهر أمرائهم أبو العيش أحمد بن القاسم. وعلى ذلك تكون مدة الأدارسة بالمغرب من يوم بويع إدريس بن عبد الله (١٧٢هـ) إلى أن قتل الحسن بن كانون، قتله المنصور بن أبي عامر الأندلسي (٣٧٥هـ)، مائتي سنة وثلاث سنين وشهرين تقريباً. وكان عمالهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران وقاعدة ملكهم مدينة فاس وكان ينازعهم الملك دولتان عظيمتان: دولة الفاطميين بأفريقية ودولة بني أمية بالأندلس. وكانوا يزاحمون الخلفاء إلى ذروة الخلافة ويقعدهم عنها ضعف سلطانهم وقلة مالهم[1].

التفاصيل[*]

بعد مرور حوالي ١٣٠٠ سنة على مقتل الإمام إدريس بن عبد الله بن

---

(١) تاريخ دول المغرب لإسماعيل سرهنك.

(*) هذا الفصل بقلم أحمد بن سودة. ونقول: كان امتداد الدولة الإدريسية في أقصى اتساعها عند وفاة إدريس الثاني، وهي دولة واسعة الأرجاء تشمل المغرب الأقصى كله من ساحل البحر المتوسط إلى بلاد السوس الأقصى، بل تمتد إلى جنوبها فتسود بلاد قبيلة لمطة جنوبي وادي درعة، وحدُّها في الشرق نهر المولوية، بل لها بعض السلطان على ناحية تلمسان، ثم إنها كانت تسيطر بالفعل على كل أهل القبائل المصمودية ومن سكن معهم في أرضهم من صنهاجيين، وتبسط سلطانها على قبائل زناتية ضخمة مثل مكناسة ومواطنها حوض المولوية وامتداده إلى واحات تافللت.

الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب على يد العباسيين، لا يزال المغاربة يحتفلون حتى اليوم بذكرى مؤسس الدولة الإدريسية الذي بايعته القبائل المغربية في العام ١٧٢هـ ـ ٧٨٨م بعد أن أسلمت على يديه كافة.

ففي منتصف أيلول (سبتمبر) من كل سنة يتحول سفح جبل زرهون ـ حيث يوجد ضريح مؤسس الدولة الإدريسية ـ إلى محج يقصده آلاف المواطنين من كل فج، ليقيموا ذكراه، بالإذكار والتمجيد والذبائح التي تعني في عرف هذه الاحتفالية نهاية طقوس الموسم الحالي على أمل اللقاء في موسم قادم.

وتعمل السلطات في محافظة مدينة مكناس، التي يقع في محيط نفوذها جبل زرهون، على توفير أسباب الأمن والنظام بهذه المناسبة التي تشهد المنطقة فيها إقامة آلاف الخيم.

وحينما يريد المؤرخون كتابة التاريخ الإدريسي يجمعون على أمرين أو حقيقتين مختلفتين:

الأولى: أن رحلة إدريس الأول إلى المغرب، أسبابها والظروف التي أحاطت بها، ومقامه بين المغرب كقادم محاط بهالة من التقديس والإجلال، ثم مبايعته، وتأسيسه لدولة إسلامية مغربية، أن كل ذلك في تفاصيله الجزئية أو في مظاهره العامة، يستعصي على التحليل التاريخي أو السياسي، فهو ظاهرة خارقة للعرف، ظاهرة هي إلى المعجزة أقرب منها إلى ما تعارف عليه المنطق وأجازته القواعد التي تفسر بها أحداث التاريخ الكبرى.

والثانية: أن مصادر التاريخ الإدريسي شحيحة وقليلة ومراجعه متناثرة، فسواء الذين كتبوا التاريخ العام، أو الذين أرخو للفترة الإدريسية، من الرحلة، إلى النشأة، إلى الدولة، استندوا إلى نفس الأحداث، ولهذا تباعدت تفسيراتهم وتحليلاتهم وذهبت مذاهب شتى، كل حسب اجتهاده وفهمه لهذا الحدث أو ذاك.

لكني أحب أن استعمل وصف الظاهرة الإدريسية بدل وصف المعجزة

الإدريسية، فالمعجزات إنما خص الله بها رسله وأنبياءه وهي فوق طاقة الإدراك البشري وقوانين الطبيعة والمنطق.

فالمولى إدريس الأول كان ظاهرة فريدة على مستوى سيرته أو في مستوى المهمة الكبرى التي أنجزها وحققها.

ويبقى إدريس الظاهرة مثالاً شاهداً على قوة الإيمان، ورسوخ العقيدة، وثابت الموقف، وهي صفات ميزت تلك القلة القليلة من الرجال الذين صنعوا التاريخ وحولوا مجراه وأخضعوه لأحلامهم النبيلة، وسخروا رياحه المضادة لتمخر سفنهم باندفاعها أمواج البحر الطاغية، لكن هذه الصفات والمؤهلات الإنسانية والخلقية التي تحلى بها المولى إدريس، وأهلته لتلك المهمة الكبرى، لم تكن وحدها كافية، إن هناك العناية الإلٰهية التي يسر الله بها الطريق وعبد السبل وهيأ الأسباب هنا وهناك ليكون المولى إدريس هو الرجل الذي كان المغرب مهيأ لاستقباله واحتضانه والالتفاف حوله، وليكون المغرب البلد والشعب مهد ومحطة انطلاق الدعوة الإسلامية والرسالة الإسلامية في هذه الرقعة من العالم، ويصبح مرصداً ثم مناراً ثم قلعة من قلاع الإسلام الحصينة ينشر رسالته، ويوزع على الدنيا إشعاعه، ويقيم في الآفاق قواعد حضارته، ويبرز لا كجزيرة في بحر شاسع، بل كامتداد لهذا البحر يتنفس الإسلام به غرباً وشرقاً.

ومع كون المولى إدريس ظاهرة، فإن هذه الظاهرة ليست مستعصية على الفهم والإدراك، وليست حاجزاً سميكاً يختبىء وراءه العجز عن الإحاطة بالأسباب والظروف التي تضافرت ومهدت الطريق لانبثاق واقع جديد أو عالم جديد أو تاريخ يشكل انعطافاً حاسماً في مسيرة الأحداث، ذلك أن التاريخ جسم كجسم الإنسان، له قدمان يتحرك بهما، وله يدان، وله مركز أعصاب يوجه ويضبط، لكن أيضاً له قلب يوزع دورة الأحداث في ذلك الجسم، وهذا القلب هو مركز القوة التي لا يدرك كنهها وسرها بمعايير العلم والمنطق والتحليل إلا

في حدود معلومة والظاهرة الإدريسية هي قلب بداية التاريخ الإسلامي للمغرب، وعلى من يريد اكتشاف سر هذه الظاهرة العميق والخفي أن ينصت لدقات ذلك القلب ويتلقى بشفافية المؤمن إشاراته.

لقد أدهشني دائماً وأثار كوامن إحساسي ذلك التعلق القوي والعميق الذي لم تستطع السنون النيل من وجهه وصفائه والذي انتقل من جيل إلى جيل، تعلق المغاربة بالمولى إدريس الأكبر، وابنه الأزهر، ومحبتهم لهما، وتقديسهم لمقامهما، وكنت أرى في طفولتي وشبابي، والمغاربة يرزحون تحت نير الاستعمار، ويتأرجحون بين اليأس والأمل للتخلص من استعباده لهم واذلاله لكرامتهم، كنت أراهم يفزعون بيأسهم وأملهم إلى ضريحي الإدريسيين فزع من يلقي بأحمال أثقلت كاهله وهدت قوته، يلتمس من المقامين العون والقوة ويستمد منهما طاقة الاحتمال ويحتمي بهما من شدة الأهوال. فيجد في رحابهما الأمن، وفي أرجائهما الحمى. بل إن المغاربة كلهم يجدون في مقام الرجلين، الأب في جبل زرهون[1]، والثاني في قلب فاس وأعماقها المحصنة خلف متاريس التاريخ المهيب المهاب، يجدون في مقاميهما روح المغرب وسر أسراره ونبع قوته وعمق قراره، فالتاريخ يبتدىء بهما، فهما دوماً مصدر الإلهام والاعتزاز.

الظاهرة والتاريخ

إن الجو الذي تربى وترعرع فيه المولى إدريس، في وسط أسرته وعشيرته، وفي أجواء المدينة المنورة التي كانت تعج بالعلماء والمحدثين والتابعين وتابعي «التابعين» إن ذلك الجو كان قمينا بتكوين شخصية تتحلى بكل صفات الورع والتقوى والشجاعة والشهامة وعلو الهمة والتشبع بالمبادىء المثلى

---

(١) زرهون جبل بالقرب من مدينة مكناس يبلغ ارتفاعه ١١١٩ متراً، وتحف به غابة من أشجار الزيتون والتفاح والليمون ويمتاز بمناظره الطبيعية الخلابة ومياهه المتدفقة العذبة. وفي وسطه مقام إدريس الأكبر. وبالقرب من هذا المكان توجد آثار المدينة الرومانية الشهيرة وليلي.

والقيم العظيمة للإسلام ديناً وعقيدة ونظاماً. فهو ابن أسرة تلحظها الأعين بالإكبار والإجلال، وسليل رجال من المجاهدين الصابرين الذين لم تفتنهم الدنيا أو يذعنوا للباطل أو الظلم، فهم رجال المواقف يدفعون دون الحق حياتهم.

وكان ما حدث لجده علي بن أبي طالب (ع) ثم لأبنائه من بعده، وما واجهوه من بلاء ومكاره، لا تزال حديث الناس وتعاليقهم وتباين آرائهم ومواقفهم، ثم إن ما حدث لم يتوقف، لأنه لم يكن خلافا من تلك الخلافات التي تتكفل الأيام بمحو آثارها والتئام جروحها، فما حدث كان شرخاً ما فتئ يتسع في الجسد السياسي والفكري للدولة الإسلامية الناشئة التي اتسعت رقعتها وانتشر شعاعها.

وكان الحديث عن الإمامة ومن هو أحق بها ليس مجرد حديث يدور في حلقات فكرية مغلقة، بين مؤيد لهذه النظرية أو تلك، ومستدل بهذه الحجة أو تلك، فهو بالإضافة إلى ذلك، حديث عن حالة أو واقع سياسي ومذهبي توزعت بشأنه المذاهب والأحزاب والشيع، وقامت بسببه حروب ومصادمات بين الفرقاء، سالت فيها الدماء، واجتثت الرؤوس، ودبرت المكائد.

كان المولى إدريس إذاً وليد هذا الصراع بل ولد وتربى في أجوائه سواء داخل أسرته التي كانت طرفاً رئيسياً في ذلك الصراع، أو وسط الجو العام الاجتماعي والسياسي المحيط به.

والحق أن هذا الصراع قد فرض على آل بيت علي (ع) فرضاً، فسواء سيدنا علي أو ابنه الحسن من بعده، ثم بالتتابع إلى عبد الله والد المولى إدريس، كل هؤلاء وجدوا أنفسهم من جهة مطوقين برغبة لم تفتأ تعبر عن نفسها بقوة من طرف الذين التفوا حولهم وبايعوهم، وأسندوهم، ومن جهة ثانية، مطوقين بذلك الإيمان القوي الذي لا يستطيعون الفكاك منه والذي يدعوهم إلى الدفاع عن الأمة وحماية دينها ومعتقداتها، وصد كل زيغ يحوم حول وحدتها أو عقيدتها، ومن جهة ثالثة، فإن خصومهم لم يتوانوا عن استعمال كل الوسائل من

عنف ودسائس وتحريض عليهم بما في ذلك اغتصاب حقهم أو حياتهم.

وسنرى أن المولى إدريس كان صورة طبق الأصل لسيرة أجداده، في العزوف عن الجاه أو السلطة، واستهجان أساليب الكيد السياسي، أو استجداء العواطف والنعرات واستعدائها ضد خصومهم، لقد كانت هذه الأخلاقيات هي سلاحهم القوي، وفي نفس الوقت هي نقطة ضعفهم السياسي في مواجهة خصوم مسلحين!.

لقد خاض المولى إدريس تجربة ذلك الصراع منذ طفولته إلى جانب والده عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (ع) وامتلأ صدره إيماناً بالحق الذي ما فتىء أجداده وأعمامه يطالبون به، وعرف ما عرف من المكاره التي لحقت بأهله من جراء ذلك، ولكن نضجه السياسي بهذا الحق يكتمل ويتبلور إلى جانب أخيه محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية، فهذا الأخير كان آخر من عقدت له البيعة من بني علي، في فصول ذلك الصراع الذي امتد من أول خليفة أموي هو معاوية إلى مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية.

وقصة البيعة التي عقدها أهل الحل والعقد بالمدينة المنورة لمحمد بن عبد الله النفس الزكية تعتبر فصلاً حاسماً في حياة ومسيرة المولى إدريس وما كان في قصة مجيئه إلى المغرب ومبايعة المغاربة له.

وأترك الكلمة هنا لمؤرخنا الكبير صاحب «الاستقصا» الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، حيث يسرد قصة تلك البيعة التي أشعلت نار مواجهتين دائمتين عنيفتين كان من نتائجهما حصد رؤوس بني علي في موقعتين متباعدتين نجا المولى إدريس من واحدة منهما، هي موقعة فخ.

يقول مؤرخنا الناصري:

«ولما صار أمر بني أمية إلى الاختلال أيام مروان الحمار آخر خلفائهم اجتمع (بنو هاشم) بالمدينة وتشاوروا فيمن يقدمونه للخلافة، فوقع اختيارهم

على محمد بن عبد اللّه النفس الزكية فبايعوا له بالخلافة وسلموا الأمر بأجمعهم، وحضر هذا العقد أبو جعفر عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس وهو المنصور، وذلك قبل أن تنتقل الخلافة إلى بني العباس، فبايع للنفس الزكية فيمن بياع له من (بني هاشم) وأجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم لما علموا له من الفضل عليهم».

قال ابن خلدون: «ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما الله يحتجان له حين خرج بالحجاز، ويريان أن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر المنصور لانعقاد هذه البيعة أولاً، وكان أبو حنيفة يقول بفضله ويحتج لحقه، فتأدت إلى الإمامين المحنة بسبب ذلك أيام أبي جعفر المنصور، حتى ضرب مالك على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة على القضاء».

ولما انقرضت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس وصار الأمر إلى أبي جعفر المنصور منهم سعي عنده بآل البيت، وأن محمد بن عبد اللّه يروم الخروج عليه، وأن دعاته قد ظهروا بخراسان فأمر المنصور عامله على المدينة رباح بن عثمان المري بحبس عبد اللّه بن حسن ومن إليه من آل الحسن بن علي بن أبي طالب، فحبس جماعة من بنيه وإخوته، وبني عمه، قال ابن خلدون: في خمسة وأربعين من أكابرهم، وقدم المنصور المدينة في حجة حجها فساقهم معه إلى العراق، وحبسهم بقصر ابن هبيرة من ظاهر الكوفة حتى هلكوا في حبسهم، وجد المنصور في طلب محمد بن عبد اللّه النفس الزكية وأخيه إبراهيم لكونهما تغيبا فلم يحبسا في جملة من حبس من عشيرتهم.

ثم لما كانت سنة خمس وأربعين ومائة وأرهق محمد بن عبد اللّه الطلب، وأعيت عليه المذاهب ظهر بالمدينة المنورة ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه.

واستفتى أهل المدينة المنورة الإمام مالك في الخروج مع محمد بن عبد اللّه وقالوا في أعناقنا بيعة للمنصور، فقال إنما بايعتم مكرهين، فتسارع

الناس إلى محمد وأجابوا دعوته، ولزم الإمام مالك بيته وخطب محمد بن عبد اللّه على منبر رسول الله ﷺ وذكر المنصور بما نقمه عليه، ووعد الناس واستنصر بهم، وتسمى بالمهدي، ولم يتخلف عن بيعته من وجوه الناس إلا القليل.

ولما بلغ المنصور خبر محمد بن عبد اللّه وما كان منه بالمدينة، أشفق من ذلك غاية الإشفاق، وكتب إلى محمد كتاب أمان يعده بالجميل إن هو راجع الطاعة، فأجابه محمد بعدم قبول ذلك منه، ودارت بينهما مكاتبات ومحاورات في الأفضلية واستحقاق الخلافة.

وآخر الأمر أن المنصور بعث لحرب محمد ابن عمه عيسى بن موسى العباسي. فاستعد المهدي للقتال وأدار على المدينة الخندق الذي حفره رسول الله ﷺ يوم الأحزاب وقدمت جيوش العباسيين ونزلوا على المدينة.

وخرج إليهم محمد بن عبد اللّه فيمن بايعه واقتتل الناس قتالاً شديداً، وأبلى محمد في ذلك اليوم بلاء عظيماً. وقتل بيده سبعين رجلاً.

ولما اشتد القتال وعاين مخايل الاختلال انصرف فاغتسل وتحنط وجمع بين الظهر والعصر ومضى فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من بايعه وجاء إلى السجن فقتل رباح بن عثمان عامل المنصور على المدينة، وقتل معه جماعة كانوا مسجونين عنده ثم عاد إلى المعركة وقد تفرق عنه جل أصحابه ولم يبق معه إلا نحو ثلاثمئة فقال له بعضهم: نحن اليوم في عدة أهل بدر. ثم تقدم فقتل، ثم احتز رأسه وأتى به عيسى بن موسى فبعث به إلى المنصور.

وكان مقتل محمد رحمه الله في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وقتلت معه جماعة من أهل بيته وأصحابه ولحق ابنه علي بن محمد بالسند إلى أن هلك هناك، واختفى ابنه الآخر عبد اللّه الأشتر إلى أن هلك أيضاً في خبر طويل.

ثم خرج إبراهيم بن عبد اللّه أخوه بالبصرة عقب ذلك فبعث إليه المنصور

عيسى بن موسى المذكور آنفاً فقاتله آخر ذي القعدة من السنة فانهزم إبراهيم وقتل رحمه الله.

ثم لما كانت سنة تسع وستين ومائة في أيام موسى الهادي بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (ع) وكان معه جماعة من أهل بيته منهم إدريس ويحيى وسليمان بنو عبد الله بن الحسن المثنى - وهم إخوة محمد النفس الزكية - فاشتد أمر الحسين المذكور بالمدينة، وبايعه الناس على كتاب الله وسنة نبيه للرضى من آل محمد - وكانوا يكنون بذلك عن الإمام إلى أن يقدر على إظهار أمره - وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة يتجهزون أياماً ثم خرجوا إلى مكة يوم السبت لست بقين من ذي القعدة فانتهى الحسين إلى مكة، وانظم إليه جماعة.

وكان قد حج تلك السنة جماعة من وجوه بني العباس وشيعهم وانضم إليهم من حج من قوادهم ومواليهم وهاجموا الحسين فكانت مجزرة رهيبة قتل الحسين ومن معه، يوم التروية - الثامن من ذي الحجة - واختلط المنهزمون بالحجاج فذهبوا في كل وجه وكان مقتلهم بموضع يقال له فخ على ثلاثة أميال من مكة سنة تسع وستين ومائة كما قلنا.

إن هذه الحادثة، المأساة حقاً، هي بالتأكيد الحادثة التي أثرت أعمق التأثير في فكر وشخصية ومسيرة المولى إدريس، لقد عاش إذا فترة الصراع الأكثر دموية بين أهله ومواليهم ومؤيديهم، وبين خصومهم الذين حسموا بالسيف الصراع لصالحهم، على الأقل في محيط سلطتهم المباشرة.

ولكن هذا «النصر» كان ثمنه باهظاً على مستوى ما خلفته الهزيمة من رواسب تفاعلت فكرياً ومذهبياً في الساحة المشرقية.

ولكن المولى إدريس الذي قدرت العناية الإلهية له أن يأتي إلى المغرب وحيداً إلا من رفقة بعض المغاربة.

فهو قد نجا من الموت في مذبحة «فخ» فكان من المفروض أن يقضي في مكان يختبىء فيه عن عيون بني العباس وسيوفهم، إن وجد من يوفر له ذلك المكان الآمن، أو يتيه في فلاة فيموت عطشاً، أو يستسلم لقدره فيلقى مصير إخوته. ولكنه سلك الطريق الشاق الطويل إلى المغرب، متطلعاً إلى الأمن في رحابه، والعيش في كنف رجال لن يغدروا به.

وإذا عرفنا أن وقعة فخ كانت في عام مائة وتسعة وستين، وأن بيعته في مدينة وليلي المغربية كانت عام مائة واثنين وسبعين، أي أن المدة الفاصلة بين الوقعة والبيعة كانت ثلاث سنوات أمكننا أن نخمن أن رحلة المولى إدريس من مكة إلى المغرب عبر مصر فليبيا فتونس فالجزائر، قد تكون استغرقت وقتاً نرجح أن يكون نصف سنة تقريباً، لأنه كان مضطراً للتخفي وسلوك الطرق غير المطروقة عادة من القوافل، والمكوث هنا وهناك بعض الوقت، وخاصة في مصر.

إن هذه الفترة المفترضة للرحلة الشاقة كانت فرصة للمولى إدريس للتدبر والتفكير والتأمل ومراجعة شريط الأحداث الدامية، ومسلسل المواجهات والنكبات.

بلاد اللاجئين السياسيين

ولا بد أن المولى إدريس، وهو في رحلته إلى المغرب قد سمع من مرافقيه المغاربة، وبالأخص من مولاه راشد المغربي، أشياء كثيرة عن البلد الذي شد إليه الرحال، فعرف من أحوال المغرب ما عرف، وقارن بينها وبين الأحوال التي ترك عليها المشرق. إن هذه المقارنة قد هدأت روعه وشحذت زناد إرادته وشحنت عاطفته المكلومة بأنوار الثقة، فها هو يبتعد شيئاً فشيئاً عن ذلك المحيط المشحون بحروب وحملات التصفية وبالاصطخاب السياسي والانفتاح الفكري على ثقافات الشعوب التي دخلت الإسلام، لقد كان العباسيون

منهمكين في تصفية آثار الأمويين وأتباعهم، ومنشغلين بمطاردة خصومهم، وبث العيون لاصطيادهم، ونصب الشباك للإيقاع بهم.

كان المولى إدريس يفكر في ذلك ويراجعه ويحلله، ليستنتج أسباب النكبة التي أصيب بها أهله، ليتطلع إلى عالم آخر خال من شوائب ذلك الجو المشحون بالخوف والصراع والمطاردة.

عالم آخر

إن هذا العالم الآخر كان هو المغرب، كان بعيداً عما يجري في مشرق الخلافة العباسية بعد من تصله الأخبار لا من تؤثر فيه وتجد لها الصدى في النفوس والعقول أو الميول. إن عامل الجغرافيا لم يكن هو سبب عدم انهماكه في أتون الصراعات المشرقية، بل إن العامل الأساسي كان يتعلق بطبيعة أهله، فهم أميل بتفكيرهم ومزاجهم النفسي إلى التضامن والتآلف فيما بينهم وإلى البساطة والعزوف عن التعقيدات وحبهم العميق المتأجج للحرية والاستقلال، ولكن، مع ذلك فقد انعكست آثار الصراع الذي نشب بالمشرق على المغرب، وتجلى ذلك بصفة خاصة في الحرية التي وجدها أتباع بعض المذاهب المشرقية في الدعوة لأنفهسم، وتكوين محيط سياسي منجذب لهم، فأسسوا دويلات صغيرة هنا وهناك، ووجدوا من يعلن الولاء المذهبي لهم، وهكذا كان «المغرب الأقصى» البعيد عن مركز الخلافة مكاناً آمناً لكل معارض أو مضطهد أو خائف، فلم تستطع يد السلطة المركزية في بغداد أن تطول تلك الأفواج من «اللاجئين السياسيين» الذين توافدوا على المغرب بحثاً عن الأمان النفسي والأمن السياسي ووجدوا في المغرب والمغاربة حسن الاستقبال وسماحة الإيواء.

وهكذا فإن المولى إدريس الظاهرة والفلتة والشعلة، كان متجهاً إلى بلد يشكل وضعه من جميع النواحي المكان الوحيد المناسب لرجل يحمل في صدره رسالة الدعوة إلى الحق، حق سلب من إخوته وأجداده، ورسالة نشر الإسلام الصافي. وهي رسالة كان سلاح المولى إدريس الوحيد من أجلها هو إيمانه

وصدق نيته وسلامة طويته واعتماده على الله لا على جيش أو حزب أو طائفة، وهو إن ذاق مرارة الهزيمة السياسية والحربية معاً، فإن إيمانه لم يتزعزع إلى أن يحقق النصر أو يستشهد دونه راضياً آمناً كما فعل إخوته وأبناء أعمامه وأجداده.

وعند قدومه إلى المغرب كانت جملة من الأحداث المؤثرة قد وقعت وكأنها كانت من تدبير قوة خارقة للعادة لتهيء لإدريس كل الظروف لإشعاع رسالته وانتقالها من حيز الإيمان الكامن في صدره، إلى حيز الواقع. وجد المغاربة أنفسهم في وضعية حائرة، وبين مجموعة من الدويلات والتجمعات الكيانية المبعثرة. فإلى أين يتجهون ولمن يمنحون ولاءهم الذي كان عميقاً وصادقاً كمسلمين لا كمحكومين؟ وكان قد مضى وقت كاف وهم في ظل الإسلام ليتساءلوا ويبحثوا عن دور لهم في الحياة وفي الوجود كأمة إسلامية، فبعد مئات السنين من الكفاح الذي لم ينقطع في مقارعة ومقاومة المحتلين والغزاة آن لهم أن يمارسوا استقلالهم كأمة لها دين ينظم حياتها الروحية والدنيوية. ولكن أين القائد وأين ذلك الرجل الذي يحول تساؤلهم وحيرتهم إلى واقع يجمع صفوفهم حول هدف محدد واضح، يتولى أمرهم ويرشدهم إلى الطريق ويترجم سياسياً تطلعهم العميق للتعبير عن ذاتهم الجديدة في ظل الإسلام؟

كان هذا الرجل، الظاهرة، قد حل بين ظهرانيهم، بلا دعاية مسبقة، أو دعاة مهدوا له الطريق ونشروا بين الناس أفكاره ودعوته.

ولكن، هنا يتحتم عليّ أن أوقف اندفاع أفكاري وألتزم بالخط الذي رسمته مسبقاً لتتبع ورصد رحلة المولى إدريس إلى المغرب. عليّ أن أبقى مع المولى إدريس ـ الظاهرة ـ التاريخ، وأعود إلى رحلته، قبل أن أقف أمام المولى إدريس الظاهرة ـ الرسالة، أي أنني سأعود لاحقاً إلى مقامه بالمغرب إلى حين بيعته.

وهل اختار المولى إدريس المغرب مكاناً لهجرته، أو بالأحرى مكاناً بعيداً

عن اليد الطولى للعباسيين الذين كانوا يبحثون عنه وعن أخيه وهما الناجيان من مذبحة فخ؟

هل كان المولى إدريس يريد النجاة بحياته، أم كان مصمماً على مواصلة كفاحه والدعوة لرسالته انطلاقاً من أرض تتوفر فيها شروط الأمن وظروف التحرك وإمكانيات نشر الدعوة وتجنيد الأنصار حولها وحوله؟ وهل كان المغرب هو تلك الأرض التي فكر فيها إدريس وشد إليها الرحال واعتزم الترحال؟

من الصعب الجزم بما كان يفكر فيه المولى إدريس لحظة خروجه من معركة فخ سالماً ونجاته من الموت الذي حصد رؤوس أهله وعشيرته ومؤيديهم ومناصريهم، ولنا أن نتصور حجم الألم وهو يعتصر قلب رجل خرج من معركة دامية، ورأى جثث إخوته وأهله ورفاقه متناثرة هنا وهناك مخضبة بالدم والتراب، فوجد نفسه بين عشية وضحاها وحيداً طريداً تلاحقه الأعين وتتربص به السيوف وتسد في وجهه الأبواب والآفاق.

الموكب من الحج إلى تأسيس الدولة

كان الموسم موسم حج، ومكة المكرمة تغص بالحجاج المسلمين من كل الآفاق، وكان من بين هؤلاء حجاج مغاربة لا يستطاع تقدير عددهم، ولكن بالمستطاع الاعتقاد بأنهم كانوا يشكلون مجموعة أو ما يشبه أن يكون وفداً متحداً جمعت بين أفراده رفقة رحلة طويلة تستغرق أشهراً من المغرب إلى الحجاز، كذلك كانت مواكب الحجاج المغاربة في ذلك الوقت وأصبحت مع مرور السنين عبارة عن قطار بشري يتكون من عدة عربات تتفاوت المسافات فيما بينها ولكنها تتقارب وتتوحد وتتجمع في محطات معلومة على الطريق لتستريح قبل أن تستأنف المسير.

وتتحدث الروايات التاريخية عن موقعة فخ فتقول إن بعض الحجاج رأوا وشاهدوا أطواراً من تلك المعركة في ذلك اليوم الدموي، وهو أمر يمكن الوثوق

به لأن المكان المسمى فخ كان يقع في ضواحي مكة وعلى بعد أميال قليلة منها، وتبعاً لذلك يتسنى لنا المضي من غير جنوح في الخيال في رسم المشهد الذي لم تتحدث عنه روايات المؤرخين، لقد كان بعض الحجاج المغاربة من بين من شاهد تلك المذبحة المؤلمة، وحينما انجلى الغبار عنها، وأسدل الليل ستاره على مشاهد القتلى والمجندلين وصيحات الغالبين، اختلط الناجون من المعركة بجموع الحجاج ولا بد أن المولى إدريس كان واحداً من أولئك.

إلى هنا تنتهي حدود التخيل المسموح به لرسم جزء من تفاصيل حدث تاريخي لا يختلف عليه المؤرخون، لتبرز عدة تساؤلات واحتمالات وأولها يتعلق براشد المغربي الذي تجمع الروايات على نعته بأنه كان مغربياً، ووصفه بأنه كان رفيق إدريس في الرحلة من الحجاز إلى المغرب، وإبراز وفائه وتعلقه بالمولى إدريس.

إن المصنفات التاريخية القديمة، وكذا مؤلفات المؤرخين المحدثين لا تشفي غليل من يريد معرفة التفاصيل عن هذا الرجل الذي لعب دوراً بالغ الأهمية والتأثير في حياة المولى إدريس الشخصية ومسيرته السياسية وخاصة بعد موقعة فخ. ولكن تلك المصنفات والمؤلفات، وما تناثر في طياتها حول المولى راشد، تمكننا من رسم صورة لراشد وأدواره وتأثيره.

وأول شيء يستوقفنا هنا الوصف الذي لازم اسمه، أي كونه مولى إدريس الأول.

فالمولى يطلق على الرفيع السامي من المراتب والمنازل، كما يطلق على عكسها، فهي كلمة يتغير معناها من سياق وضعها، ومصدر الكلمة الولاء وهي كالبيعة عقدة بين شخصين أو فئتين أو جماعتين، وهي بمعنى الأنساب فيقال: قرشي ولاء أو انتساباً، ويستعملها الصوفية في مكان التقديس فيقولون: ولي الله، وقد وردت في القرآن الكريم في عدة سور وتباينت دلالاتها فيقول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ﴾ وفي سورة أخرى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ وتكون الولاية بمعنى الرعاية والقيام بشؤون الغير من موضع ثقة، وهذا المعنى للكلمة هو أقرب الأوصاف وأدقها بالنسبة لراشد مولى إدريس، فقد كان قيماً بشؤونه راعياً لأمره، مؤتمناً على أسراره رؤوفاً رحيماً به، يؤثره على الناس جميعاً وعلى نفسه. وبهذا المعنى كان راشد يداً يمنى لإدريس، ودرعاً يقيه من المكاره، وعقلاً يفكر ويدبر لما فيه مصلحة ونجاة وسؤدد مولاه.

ونجد اسم راشد مرتبطاً بالمولى إدريس من رحلة النجاة إلى المقام بالمغرب إلى مبايعة إدريس إلى وفاته، ثم بعد ذلك إلى مبايعة ولده إدريس الثاني، وخلال هذه الرفقة الحميمة التي لم تنقطع نرى راشداً يلعب دوراً متعاظماً يبلغ ذروته بعد مقتل المولى إدريس على يد الشماخ، حيث يبرز راشد كرجل دولة محنك يحظى باحترام وثقة الجميع، ويتولى ما يشبه أن يكون رئيس مجلس الوصاية إلى أن ولدت زوجة إدريس كنزة المولى إدريس الثاني حيث تعهده راشد وتولى رعايته وتدبير شؤون الدولة الناشئة إلى أن بويع خلفاً لوالده.

لم يكن راشد مجرد مولى تمتع بصفات الإخلاص والوفاء، فالرجل كان بالإضافة إلى ذلك على جانب كبير من الذكاء وبعد النظر والدهاء السياسي، وكان يتمتع باحترام أهله من المغاربة القادة منهم والناس العاديين، وهذا يحمل على الاعتقاد الجازم بأنه كان من وجه قومه، ففي مجمتع قبلي صارم في تقاليده الاجتماعية لا يمكن أن يرقى إنسان عادي تلك الدرجة من الاحترام والتوقير إن لم تكن تسنده تراتبية اجتماعية واضحة ومؤكدة لا لمجرد أن يكون وفياً ومخلصاً ورفيق رحلة ورسالة لسبط الرسول ﷺ.

نحن إذاً أمام رجل كان دوره بارزاً في قيام الدول المغربية الإسلامية المستقلة، وفي تركيز دعائم هذه الدولة والتمكين لها، وهو دور يشبه الدور الذي لعبه أبو مسلم الخراساني في تأسيس الدولة العباسية مع الفارق الذي لا يخفى في الوسيلة التي اتخذها كل منهما، فأبو مسلم الخراساني كان قائد

جيش، وكان يداً قوة ضاربة، لأن العباسيين انتزعوا السلطة غلاباً من الأمويين وخاضوا من أجلها وفي سبيل تثبيتها معارك ضارية، أما راشد فلم يخض معركة، وإنما تجشم عناء رسالة تمثلت في مسيرة وحياة ودعوة مولاه إدريس الأول، رسالة لم تتخذ من القوة مطية لنشرها، ولا من المعارك أداة لتثبيتها.

ولم تتحدث المصادر التاريخية عن متى تعرف راشد على المولى إدريس، هل كان ذلك قبل وقعة فخ أم بعدها؟. وفي اعتقادي فإن معرفة ذلك تفتح المجال للتساؤل عن ظروف هجرة راشد من المغرب إلى الحجاز، وهل إذا ما كانت هجرة عادية أم هجرة ذات طابع سياسي، ولماذا اختار المولى إدريس ليكون مولى له وانضم إلى معكسر الأشراف الذي كان يخوض معركة مفتوحة ضد الحكم العباسي.

إن هذا التساؤل يكتسب مبرراته:

أولاً: من الدور الذي لعبه راشد في قيام الدولة الإسلامية المغربية المنفصلة عن الخلافة العباسية، وهو دور يثبت أن الرجل كان يتمتع بمكانة مرموقة في أوروبة التي استقبلت إدريس وبايعته ومنها انطلقت دعوته وعمت المغرب كلها.

ثانياً: إن التجارب التي مر بها المغاربة مع الولاة الأمويين ومع زعامات الخوارج رسخت لديهم القناعة بأن الوقت قد حان للبحث عن طريقة يدبرون بها أمورهم ويحققون في ظلها استقلالهم في ظل الشرعية الإسلامية.

فهل كانت رحلة راشد إلى الحجاز بهدف البحث عن سبيل للإنقاذ؟ وهل كان هذا الإنقاذ الذي تطلع إليه راشد هو البحث عن رجل صالح يتفهم هذه الرغبة العميقة التي تشبع بها المغاربة، رجل من خارج دائرة الخلافة العباسية.

نعود إلى راشد دون أن يكون بإمكاننا الجزم القاطع بظروف وأهداف هجرته إلى الشرق والتقائه بالمولى إدريس، ولكن الشيء الذي لا يتطرق إليه الشك أن راشداً قد ركب المخاطر حينما خاض مع مولاه تلك الرحلة المحفوفة

بالأهوال من الجزيرة العربية إلى مصر إلى المغرب، ومن السذاجة الاعتقاد بأن الوفاء المجرد، الوفاء العاطفي هو وحده كاف ليتحمل المرء مشقة مغامرة خطيرة كتلك التي خاضها مع المولى إدريس، لا بد أن يكون الرجل واعياً كل الوعي بأهمية الرجل الذي وهب نفسه لحمايته ومرافقته، وكان يعرف أنه موصود وأن العيون تلاحقه في كل مكان، وكان يعرف أنه لو حدث واكتشف أمره فسيكون مصيره الموت حتماً.

وفي أثناء الرحلة الطويلة كان راشد على خلوة دائمة مع مولاه، خلوة تفضي فيها النفس بلواعج وأحلام وذكريات، ولا بد أن المولى إدريس وقد رأى من وفاء وولاء رفيقه ما رأى، قد أسر له بكوامن نفسه، وأفضى إليه بذكرياته وأحلامه.

ونعرف من قصة مرور المولى إدريس ومولاه راشد بمصر أن قرار التوجه إلى المغرب كان قد اتخذ لحظة الوصول إلى مصر، أو قبلها عند الانطلاق عند البحر الأحمر من الجزيرة إلى الكنانة.

فكيف اتخذ هذا القرار؟

هل أوحى به راشد لإدريس أم أن هذا الأخير كان قد قر عزمه عليه بعد موقعة فخ مباشرة، ولدى التقائه بذلك العدد من الحجاج المغاربة الذين رافقوا المولى إدريس في رحلته؟

إن المصادر التاريخية لا تشفي غليلنا مرة أخرى، لذلك لا مفر من استنطاق الأحداث واستكشاف دلالاتها الخفية، أنني أرجح هنا أن يكون راشد وصحبه من المغاربة قد أشاروا على المولى إدريس بالتوجه معهم إلى المغرب، فهو البلد الذي سيجد فيه الأمن من كل خطر، ولعلهم قالوا له: إن أهلنا بالمغرب سيرحبون بك وينزلونك عندهم منزلة الضيف الكريم المعزز، فأنت سبط الرسول ﷺ، وآل البيت لهم بالمغرب مكانة رفيعة من المحبة والاعتزاز، وإن المغاربة في حاجة إلى رجل مثلك يرشدهم في دينهم ويعلمهم ويفقههم.

ولعلهم أيضاً حدثوه طويلاً عن المغرب وعن الحالة التي يوجد عليها، وعن المذاهب والشيع التي تفشت فيه، وعن تطلع المغاربة إلى رجل يوحدهم حول كلمة الحق وصراط الإسلام المستقيم.

ولا شك أن المولى إدريس وقد سمع هذا قد اطمأنت نفسه أكثر، ونزلت في قلبه السكينة، ورأى أن الله سبحانه وتعالى قد عوضه عن الحزن أملاً، وعن المحنة رجاء، فهو متوجه إلى بلد أهله على فطرة الإسلام، وأرضه في مأمن من الخطر، فلا خوف عليه من سيوف بني العباس.

وباستثناء اللحظات الحرجة التي مرت بإدريس ومولاه راشد ذات يوم في مدينة الفسطاط بمصر، فإن مراحل الرحلة كانت على ما يبدو خالية من الخطر، وخاصة بعد اجتياز الحدود المصرية إلى برقة في ليبيا، وتتحدث الروايات عن محطة أخرى في الرحلة هي القيروان، حيث أقام المولى إدريس وراشد بعض الوقت دون أن يكتشف أمرهما، ثم تحدثنا الروايات عن المولى إدريس في مدينة طنجة.

المولى إدريس في المغرب

كانت مدينة طنجة آنذاك حاضرة سياسية ومدينة كبرى في المغرب، وكان صيتها قد ذاع مرتبطاً بطارق بن زياد فاتح الأندلس، ثم بعدد من الحوادث التي عرفها المغرب إبان حكم الخوارج وكانت مدينة سبتة إلى جانب طنجة تشكل هي الأخرى مركزاً هاماً لأحداث سياسية في فترة الحكم الإسلامي الأموي قبل مجيء المولى إدريس. والواقع أن شمال المغرب كله في الفترة من دخول الإسلام إلى قيام الدولة الإدريسية كان مركز الاستقطاب، إلى جانب سجلماسة في الجنوب، ولكن منطقة الشمال بصفة خاصة كانت سباقة إلى لعب دور أساسي في التاريخ الأول للإسلام بالمغرب حيث انتشر الدين الإسلامي بهذه المنطقة أكثر مما انتشر في مناطق أخرى، حتى إن مدينة «غساسة» الواقعة غرب مدينة مليلة والتي اندثرت آثارها، تعتبر أول مدينة بنيت في عهد الإسلام

بالمغرب، مما يدل على استتباب الإسلام بمنطقة الشمال، فالعمران علامة من علامات الاستقرار.

إن ثلاث سنوات هي الفترة الفاصلة بين وقعة فخ ومبايعة المولى إدريس بوليلي، ونقدر أن تكون الرحلة قد استغرقت ستة أشهر، وستة أشهر أخرى قضاها المولى إدريس في ضيافة إسحاق زعيم أوروبة، إذاً يمكننا القول أن المولى إدريس أقام بمدينة طنجة سنتين متصلتين.

فماذا فعل إدريس خلال هاتين السنتين بالمدينة، وأي أثر خلفه بها؟

إن الأثر الذي بقي واضحاً وجلياً في نظري لحد الآن يتمثل في ثلاث ظواهر:

أولهما: أن شمال المغرب، وبالأخص القبائل المتناثرة على الجبال من طنجة إلى الشاون شرقاً، ومنها عبر سواحل البحر المتوسط إلى سبتة، ثم إلى حدود الريف، إن هذه القبائل قد توارثت جيلاً بعد جيل، استظهار القرآن الكريم، وأصبحت تشكل مدرسة ومقصداً لحفظة الذكر الحكيم، وهو أمر لا نجد نظيراً له في باقي أنحاء المغرب، ومع القرآن الكريم ازدهرت في هذه المناطق علوم اللغة وآدابها، كما ازدهرت علوم الشريعة، ولا أجد لهذه الظاهرة تفسيراً إلا أن يكون المولى إدريس بطنجة، والتفاف الناس حوله هو السبب الرئيسي، فالمولى إدريس سبط الرسول ﷺ، وخريج مدرسة القرآن والحديث بالمدينة المنورة، والمتفقه في الدين كتاباً وسُنة، هو الذي نشر هذه الدعوة إلى حفظ القرآن واستظهاره، فجميع الروايات تجمع على أن المولى إدريس عند مقامه بطنجة قد تفرغ لدعوة الناس وإرشادهم وتعليمهم، فتآلفت القلوب حوله، وشاع ذكر صلاحه وشرفه بين الناس فقصدوه وعكفوا على مجالسه، ولربما قام برحلات هنا وهناك في المناطق القريبة من المدينة.

والظاهرة الثانية: تتجلى في أن مقام المولى إدريس بطنجة لمدة سنتين واعتكافه على تعليم الناس وإرشادهم ودعوتهم إلى الإسلام قدوضع اللبنات

الأولى والبذرة الخيرة لانتشار وشيوع اللغة العربية بين الناس، ذلك أن استظهار القرآن الكريم هو بحد ذاته المدرسة الأكثر تأثيراً في تعلم اللغة العربية والتشبع ببلاغتها. وقد كان المغاربة قبل مجيء المولى إدريس لا زالوا يتكلمون لهجاتهم البربرية فهي وسيلتهم في التعامل والتخاطب، وظلت اللغة العربية في ذلك الحين محصورة في أوساط فئات معينة خاصة بين العرب القادمين وجمهور محدود من الفقهاء والمتعلمين وبعض القادة المحليين، وكان هذا النقص الملحوظ في انعزال اللغة العربية أحد الظواهر التي دلت على التقصير من الولاة الأمويين الذين انصرف أغلبهم في المغرب إلى تأمين سلطتهم لدى دولة الخلافة.

وهكذا تتوالى إشراقات المولى إدريس ـ الظاهرة، منذ اللحظة التي نجا فيها من الموت المحقق في فخ، إلى مراحل رحلته المحفوفة بالأخطار، إلى مقامه بين المواطنين المغاربة في مدينة طنجة.

أول منشور سياسي

هو رسالة كتبها المولى إدريس لتوزع وتقرأ على الناس، وأحسب أن هذه أول منشور سياسي في تاريخ الإسلام كله، والراجح أن المولى إدريس رأى نفسه مضطراً لتدبيج هذه الرسالة، ليس بدافع الرغبة في الدعاية أو حشد الأنصار حوله، بل لتلبية رغبات الآلاف من الذين كانوا يتوقون إلى رؤيته وسماعه والاستفادة منه ولم يكن باستطاعته تلبية رغبتهم بالانتقال إليهم، فوجه إليهم رسالة ضمنها توجيهاته، كما بث في ثناياها آلامه، وعبر عن مبتغى ما يتوق إليه وقد رأى تطلع الناس إلى هديه وقيادته وتوجيهه.

وجاء في تلك الرسالة ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي جعل النصر لمن أطاعه، وعاقبة السوء لمن عند عنه، ولا إله إلا الله المتفرد بالوحدانية، الدال على ذلك بما أظهر من عجيب حكمته، ولطف تدبيره، الذي لا يدرك إلا أعلامه.

وصلى الله على محمد عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، أحبه واصطفاه، واختاره وارتضاه، صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين.

أما بعد، فإني:

١ ـ أدعوكم إلى كتاب الله وسُنة نبيه ﷺ.

٢ ـ وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية، ورفع المظالم والأخذ بيد المظلوم.

٣ ـ وإحياء السُّنة وإماتة البدعة، وإنفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد.

٤ ـ واذكروا الله في ملوك غبروا، وللأمان خفروا، وعهود الله وميثاقه نقضوا، ولبني بيته قتلوا.

٥ ـ واذكروا الله في أرامل احتقرت، وحدود عطلت، وفي دماء بغير حق سفكت.

٦ ـ فقد نبذوا الكتاب والإسلام، فلم يبق من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه.

٧ ـ واعلموا عباد الله مما أوجب الله على أهل طاعته، المجاهرة لأهل عداوته ومعصيته، باليد وباللسان.

أ ـ فباللسان الدعاء إلى الله بالموعظة الحسنة، والنصيحة والحض على طاعة الله، والتوبة عن الذنوب بعد الإنابة والإقلاع، والنزوع عما يكره الله، والتواصي بالحق والصدق، والصبر، والرحمة والرفق، والتناهي عن معاصي الله كلها، والتعليم والتقديم لمن استجاب لله ورسوله، حتى تنفذ بصائرهم وتكمل، وتجتمع كلمتهم وتنتظم.

ب ـ فإذا اجتمع منهم من يكون للفاسد دافعاً، وللظالمين مقاوماً، وعلى البغي والعدوان قاهراً، أظهروا دعوتهم وندبوا العباد إلى طاعة ربهم، ودفعوا

أهل الجور إلى ارتكاب ما حرم الله عليهم، وحالوا بين أهل المعاصي وبين العمل بها، فإن في معصية الله تلفاً لمن ركبها، وإهلاكاً لمن عمل بها.

ج ـ ولا يؤيسنكم من علو الحق واضطهاده، قلة أنصاره، فإن فيما بدا من وحدة النبي ﷺ، والأنبياء الداعين إلى الله قبله، وتكثيره إياهم بعد القلة، وإعزازهم بعد الذلة، دليلاً بيناً، وبرهاناً واضحاً، قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، فنصر الله نبيه وكثَّر جنده وأظهر حزبه، وأنجز وعده، جزاء من الله سبحانه، وثواباً لفضله وصبره وإيثاره طاعة ربه، ورأفته بعباده، ورحمته وحُسن قيامه بالعدل والقسط، في تربية ومجاهدة أعدائهم، وزهده فيما زهد فيهم، ورغبته فيما يريده الله ومواساته أصحابه، وسعة أخلاقه كما أدبه الله، وأمر العباد باتباعه وسلوك سليم، والاقتداء بهدايته، واقتفاء أثره، فإذا فعلوا ذلك أنجز لهم ما وعدهم، كما قال عز وجل: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾.

وكما مدحهم وأثنى عليهم كما يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، وقال عز وجل: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

د ـ وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأضافه إلى الإيمان والإقرار بمعرفته، وأمر بالجهاد عليه، والدعاء إليه، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾.

وفرض الله قتال المعاندين على الحق، والمعتدين عليه وعلى من آمن به، صدق بكتابه، حتى يعود إليه ويفيء، كما فرض قتال من كفر به، وصد عنه،

حتى يؤمن به، ويعترف بشرائعه. قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

هـ ـ فهذا عهد الله إليكم، وميثاقه عليكم بالتعاون على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، فرضاً من الله واجباً وحكماً لازماً، فأين عن الله تذهبون؟ وأنى تؤفكون؟».

و ـ وقد خانت جبابرة في الآفاق شرقاً وغرباً، وأظهروا الفساد وامتلأت الأرض ظلماً وجوراً، فليس للناس ملجأ، ولا لهم عند أعدائهم حسن رجاء.

فعسى أن تكونوا معاشر إخواننا من البربر، اليد الحاصدة للظلم والجور، وأنصار الكتاب والسُنة، القائمين بحق المظلومين، من ذرية النبيين، فكونوا عند الله بمنزلة من جاهد من المرسلين، ونصر الله مع النبيين.

٨ ـ واعلموا معاشر البربر أني أتيتكم، وأنا المظلوم الملهوف الطريد الشريد، الخائف الموتور الذي كثر واتره، وقل ناصره وقتل إخوته، وأبوه وجده وأهله، فأجيبوا داعي الله فقد دعاكم إلى الله، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أعاذنا الله وإياكم من الضلال وهدانا وإياكم إلى سبيل الرشاد.

٩ ـ وأنا إدريس بن عبد اللّه، بن الحسن، بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وحمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار في الجنة عمّاي، وخديجة الصديقة وفاطمة بنت أسد الشفيقة جدتاي، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بنت الحسين سيد ذراري النبيين أماي، والحسن والحسين أبناء رسول الله ﷺ أبواي، ومحمد وإبراهيم أبناء عبد اللّه المهدي والزكي أخواي.

١٠ ـ هذه دعوتي العادلة غير الجائرة، فمن أجابني فله ما لي وعليه ما علي، ومن أبى فحظه أخطأ، وسيرى ذلك عالم الغيب والشهادة أني لم أسفك

له دماً، ولا استحللت محرماً ولا مالاً، واستشهدك يا أكبر الشاهدين، وأستشهد جبريل وميكائيل أني أول من أجاب وأناب.

فلبيك اللهم لبيك، مزجي السحاب، وهازم الأحزاب، مصير الجبال سراباً، بعد أن كانت صماً صلاباً.

أسألك النصر لولدك من نبيك، إنك على كل شيء قدير، وصلى الله على محمد وآله وسلم».

وأريد أن أقف أمام هذه الوثيقة وقفة تأمل. . وفي اعتقادي إن هذه الرسالة الإدريسية قد لقيت رواجاً كبيراً بين الناس، ولعلها وجدت مع ذلك الرواج من يتحمس ويدعو لصاحبها، إنها إذاً أول إعلان تلقاه الناس وحللوه تحليلاً سياسياً، وقد يكون هذا ما هدف إليه المولى إدريس، وإن كان ذلك هو لب الحقيقة كما يذهب بعض المؤرخين، فإن ذلك يعني أن المولى إدريس قد أنس من تجاوب الناس والتفافهم حوله رغبة عبروا عنها في أن يخرج من عزلته واستنكافه للظهور السياسي، ووثق أن هذا الشعب الذي رحب به وأكرم وفادته هو في حاجة إليه لتحقيق مطامحه ورغباته، وأن مقام سنتين بين ظهرانيه قد مكنته من معرفة دقيقة بأحوال المغرب، وساعدته على التعمق في فهم الذهنية المغربية، وهي ذهنية لم يتوفق من سبقوه إلى استكناه أبعادها، فهذه الذهنية مجبولة على صفاء الرؤيا والابتعاد عن التعقيد والمغامرة، واتخاذ القرار بعد رؤية واحتراز، والنفاذ إلى جوهر الحقائق بعفوية الطبيعة قبل جدلية المنطق والتحليل، لذلك تحتوي الرسالة الإدريسية على ذلك القدر من الوضوح والبساطة والتعبير المباشر عن الأهداف والأفكار، ولذلك فهم المغاربة مدلولها ورأوا فيها وفي صاحبها الأمل المنشود.

ويبقى مع ذلك القول بأن المولى إدريس أثناء مقامه بطنجة كان يخطط وينتظر الفرصة المناسبة للإعلان عن هدفه السياسي. يبقى ذلك التحليل الذي ارتكز عليه بعض المؤرخين في رسم صورة للرجل الثائر المصمم على الثأر

لإخوته وآل بيته وارداً وغير مستبعد، خاصة وأن الرجل بعد مقدمه للمغرب قد وجد الجو المناسب لذلك، ولا يمكن أن نستبعد طموحه وإرادته السياسية الثابتة. ولكن يجب القول أن الهدف الذي يكون قد رسمه المولى إدريس لنفسه، لم يمتط لبلوغه صهوة المغامرة، ولا عمد إلى إقناع الناس به عن طريق ما هو مألوف في سيرة باقي الزعماء السياسيين، أي ممارسة أساليب «غسل الدماغ» والدعاية، وحشد المؤيدين بالإغراء. فالمولى إدريس عاش في مدينة طنجة كإنسان عادي، لم يحط نفسه بحاشية ولا بمظاهر الإمارة أو الزعامة، لم يكسب مالاً ولا صرف ثروة للدعاية لنفسه. ولكنه كان ذا معنوية فولاذية، وإيمان قوي راسخ وشجاعة فكرية وإنسانية مثالية، فكان تأثيره بذلك أبلغ من تأثير من يركب مراكب الدعاية والحماسة المصطنعة، لقد ملك قلوب الناس وملأها حباً فيه وفي دعوته.

وملاحظة أخرى تستوقفني في الرسالة الإدريسية، وهي تلك الروح الفياضة، روح الدعوة إلى كتاب الله وسُنة نبيه وإحياء السُّنة وإماتة البدعة، ورفع المظالم والأخذ بيد المظلوم. إن هذه المبادىء التي استهل بها المولى إدريس رسالته تدل دلالة قاطعة على وعيه ومعرفته بالأحوال السائدة في المغرب آنذاك، فلقد كانت البدع كثيرة، والمذاهب شتى، إنها إذاً الخطوط الأساسية للدعوة الإدريسية، دعوة إلى توحيد القلوب والصفوف، ونفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد، لقد مس بهذه الدعوة وتراً حساساً فيما كان يرى المغاربة حالهم عليه، وهم التواقون إلى الوحدة في ظل شريعة الإسلام ودولة الإسلام.

أما ما كان من إشارة إلى ما حل بأهل بيته من نكبات، وما لحقهم من ظلم، فذلك شيء طبيعي من رجل قاتل من أجل رسالة آمن بها واستشهد من أجلها إخوته وأعمامه، إنها إفضاء صريح ومباشر بما في نفسه من ألم، والتماس من شعب المغرب أن يتضامن معه فيما يعتبره حقاً وشرعاً.

لقد كانت الرسالة واضحة والدعوة صريحة والالتزام بيّناً لا غبار عليه.

كانت النتيجة السياسية المباشرة للدعوة الإدريسية هي دعوته من إسحاق عبد الحميد الأوروبي زعيم قبيلة أوروبة، ويقول بعض المؤرخين أن المولى إدريس هو الذي سعى إلى الاتصال بالزعيم الأوروبي في إطار خطة لربط الصلات مع زعماء القبائل المغربية النافذة، وسواء دعي المولى إدريس أو سعى هو برغبته، فإن المكان الذي ذهب إليه، وهو أوروبة كان منطقة لها نفوذ قوي، وزعيمها من أشهر زعماء القبائل المغربية، وكان الإسلام بها مستتباً، وموقعها يتحكم في قلب المغرب البربري، وكان للمنطقة تاريخ مشهود مع الرومان حيث كانت توجد مدينة وليلي أحد أشهر وأبقى المواقع التي خلفها الحكم الروماني للمغرب.

ويقيم المولى إدريس ضيفاً على زعيم أوروبة مدة ستة أشهر، كان فيها الرجلان يختليان ويتحدثان، وقد عرف إسحاق عبد الحميد الأوروبي كل شيء من ضيفه، وخبره عن قرب، واستمع إلى قصته وإلى معاناته وإلى ما جرى له ولأهله على يد العباسيين. ولا شك أن المولى إدريس كان صريحاً واضحاً مع مضيفه. فقد أفضى إليه بمشروعه واستماله إليه ورغبه في أن يكون عوناً له على تحقيق هذا المشروع لما فيه الخير للمغرب وشعبه، كما لا شك أن زعيم أوروبة كان وطنياً غيوراً ومسلماً مؤمناً متشبثاً بشيم النزاهة والاستقامة، مدركاً للحالة التي توجد عليها بلاده، شاعراً بتطلعات شعبه في ظل دولة الشرع، عارفاً بما ارتكب من أخطاء وتجاوزات، خاصة وأن منطقة أوروبة بالذات هي موطن ذلك الزعيم الأوروبي مسيرة ـ أو كسيلة ـ الذي لاقى معاملة سيئة من طرف عقبة بن نافع، فثار انتقاماً لكرامته وقتل مع جماعة من قومه في معركة فاصلة.

لقد كانت ستة أشهر كافية ليتدبر زعيم أوروبة أو ضيفه وما أتى به من دعوة، وليقرر في النهاية أن يقف ذلك الموقف العظيم المثالي الشجاع الذي سجله له التاريخ، موقف الإيثار الذي لا يقدم عليه إلا الرجال الصالحون المؤمنون المجاهدون في سبيل الله.

وجاء شهر رمضان من عام ١٧٢، وكان اليوم يوم جمعة.

ودعا إسحاق عبد الحميد الأوروبي قومه بعد الصلاة إلى اجتماع حاسم فقام فيهم خطيباً فعرفهم بنسب إدريس وبفضله ومكانته وعلمه وتقواه، ثم توقف ليرى أثر ما قاله عليهم ويجس رد انفعالهم لقوله، فقام الجميع يعربون عن تقديرهم ومحبتهم لآل البيت وقالوا بلسان أحدهم:

وإنه سيدنا فما يريده منا؟

فقال إسحاق عبد الحميد الأوروبي «تبايعونه».

فقال من نطق باسمهم «ما منا من يتوقف عن بيعته» وطفق الناس يتهافتون عليه مبايعين مظهرين محبتهم وعميق ولائهم.

وصعد المولى إدريس المنبر وخطب في الناس خطبة أورد منها المؤرخ الناصري الجملة التالية «أيها الناس لا تمدن الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا».

وكان أول المبايعين إسحاق عبد الحميد الأوروبي زعيم أوروبة.

وكان ذلك يوم الجمعة ١٤ من شهر رمضان ١٧٢ الموافق ٦ شباط (فبراير) سنة ٧٨٩ ميلادية.

ميلاد الدولة المغربية المستقلة

لقد تم إذاً ميلاد الدولة المغربية الإسلامية المستقلة عن الخلافة العباسية، وكان ذلك حدثاً على أكبر قدر من الأهمية على مستوى المغرب، ذلك أن قيام الدولة على رأسها أمير للمسلمين يستمد سلطته الدينية والدنيوية من بيعة الناس، كان أملاً تعلقت به قلوب المغاربة وانحاز إليه تفكيرهم وعزمت عليه إرادة نبهائهم. وهكذا فقد بايعوا المولى إدريس الذي هو بدوره لم يعمد طوال سنتين ونصف السنة من إقامته بين ظهراني المغاربة إلى إثارتهم أو تحريضهم أو استغلال الأخطاء التي وقعت بحقهم، أو استفزاز مشاعرهم الوطنية أو نزعاتهم

القبلية أو العصبية، بل إنه تسامى حتى على مشاعره المكلومة مما لقيه أهله من بني العباس، ولم يتخذ من الظلم الذي لحق به، وهو سبط الرسول ﷺ ذريعة لإثارة البغضاء على خصومه، بل اكتفى بالإشارة إلى ما حل بأهله في إطار الدعوة إلى حق اغتصبه خصومه بقوة السيف.

وتمت بيعة المولى إدريس أيضاً في ظروف كانت فيها سلطة الخلافة العباسية واهية على مجموعة بلدان المغرب العربي، وتكاد تكون منعدمة في المغرب الأقصى، فكان هناك فراغ سياسي حقيقي يتنافى ووجود شعب مسلم قوي متطلع إلى أن يلعب دوره في نشر الدعوة الإسلامية وإشعاع نورها، خاصة وأن هذا الدور كان قد برز مدى تأثيره وفعاليته حينما أسندت لقائد مغربي مهمة فتح الأندلس فحقق نصراً عظيماً كان انطلاقة إشعاع دولة الإسلام ورسالته في الغرب المسيحي، ولو استمر الوضع في المغرب بما يؤهله للقيام بدوره لحقق انتصارات لصالح الإسلام ورسالته.

ولا شك أن الفرحة كانت عارمة في قبائل أوروبة التي كانت السباقة إلى فتح هذا العهد الجديد للمغرب، وهو شرف يليق بهذه القبائل التي كان لها شأن عظيم في المغرب، وكان لها دور بارز في نصرة الإسلام ونشر دعوته، وهي القبائل التي منحت المولى إدريس خالص محبتها وعرفته عن قرب، كما لا شك أن خبر البيعة قد ذاع في مجموع أنحاء المغرب وكان له الأثر القوي في النفوس والصدى الواسع في جميع الأوساط والقيادات المحلية هنا وهناك، وقد رأى فيه الجميع حدثاً بالغ الدلالة على التحول الحاسم في حياة المغرب والمغاربة في ظل الإسلام، لقد كانت البيعة بحق فتحاً ثانياً للإسلام بعد الفتح لدولة المغرب الإسلامية بعد فتح المغرب الإسلامي.

ولم تكن بيعة قبائل أوروبة للمولى إدريس بيعة لزعيم ينطق باسمها أو أمير يتولى أمورهم دون غيرهم، بل كانت بيعتهم للمولى إدريس بيعة أمة لملك ورعايا لراع، كذلك كانت نيتهم وكان عزمهم، وكذلك تلقى منهم المولى

إدريس البيعة، فكان عقد البيعة عقداً تاماً، والالتزام بها التزاماً جماعياً روعيت فيه مصلحة الأمة المغربية وليس مصالح جماعة أو قبيلة أو أشخاص، وكذلك فهم المغاربة في جميع الأماكن الأخرى مدلول هذه البيعة وأهميتها وما ترمز إليه كالتزام من الأمة تجاه أمير الأمة وراعيها والمؤتمن على حقوقها والقائم على تنفيذ شريعة الله بين أفرادها.

وكانت البيعة من جهة أخرى على أكبر قدر من الخطورة بالنسبة لدولة الخلافة العباسية من جهة، وبالنسبة لزعماء الدويلات الضيقة التي قامت هنا وهناك بالمغرب من جهة أخرى، فبالنسبة للخلافة العباسية فإن هذه البيعة كان معناها نقض الولاء السياسي والروحي بين المغاربة ودولة الخلافة، أي فصم عرى تلك العلاقة التي كانت ضعيفة وفاترة، ولكنها على أية حال كانت من الوجهة الشرعية والإدارية قائمة لانعدام بديل لها. وكان هذا بالنسبة للعباسيين أكبر تحد يواجهونه بعد أن استتب لهم الأمر في مناطق الخلافة المشرقية بالقضاء نهائياً على الأمويين وبإسكات صوت أبناء عمومتهم العلويين، وكان معنى هذا أن السحابة المحملة بالمطر يمكنها أن تمطر في بقعة لا يعود ريع زرعها ونباتها وثمار أشجارها إلى هارون الرشيد! وهذا أمر يخدش تلك الهيبة المحيطة بعظمة بغداد وقوتها ونفوذها، ويقصر حدود الخلافة في رقعة جغرافية ذات ذراع ونصف ذراع في المغرب العربي، ويبقى المغرب حاجزاً دون نفوذ الخلافة إلى المغرب الإسلامي، لذلك كان رد فعل الرشيد غاضباً قوياً، ترجم إلى فعلة شنعاء مشينة تمثلت في تلك المؤامرة المحبوكة لاغتيال المولى إدريس، ولقد قدر هارون الرشيد الموقف تقديراً دقيقاً ولم يغامر بحرب تغرق هذه المنطقة في بحر من دماء المسلمين، ولعله كان مقتنعاً في قرارة نفسه وبحسابات سياسية وعسكرية واستراتيجية أن من المستحيل عليه، وهو القوي والمالك لسلطة سياسية وعسكرية عظيمة، أن يكسب حرباً يريد بها إخضاع المغرب لسلطته، واكتفى بالانتقام الشخصي بديلاً عن شن حرب خاسرة مسبقاً.

وقصة ذلك معروفة لا أحتاج إلى سردها، ولكن تستوقفني منها نقطتان:

الأولى: تتعلق بالمولى إدريس كإنسان، فقد وثق بالشماخ وقربه منه دون أن يخالجه أدنى شك في طويته، أو ينقص حقيقة هويته، وهذا يعكس جانباً مهماً في شخصية المولى إدريس، فهذا الرجل المؤمن المجاهد الصالح هو رجل قضية ورسالة وليس رجل سياسة بالمعنى المكيافيلي لهذه الكلمة، فالرسالة هي التي تحدد وترسم معالم أخلاقه وطبيعته، فمن خلالها يرى العالم والناس، ولو كان رجل سياسة لكان الحذر من قواعد تعامله وتحركاته لأحاط نفسه بما يحيط به الزعماء والحكام أنفسهم من مظاهر ورجال وتشريفات وحرس يحطيون بها أنفسهم من المتطفلين أو المتآمرين، ويرسمون تلك الهالة التي تضع حدوداً معلومة ومطلوبة بينهم وبين كل من يقصد رحابهم أو يسعى إلى مطلب عندهم، لهذا فإن الشماخ لم يجد أية صعوبة في التقرب إلى المولى إدريس والتسرب إلى دائرته الشخصية وحياته الخاصة ولم يكلف نفسه عناء كبيراً لامتلاك ثقته والتمكن من مودته. وأكاد أقول أن نجاح الشماخ في الوصول إلى المولى إدريس وتنفيذ الخطة التي كلفه بها هارون الرشيد بتسميمه وقتله لا تعزى إلى دهاء الرجل ومكره بقدر ما تعزى إلى طيبة وسماحة وبراءة المولى إدريس رضي الله عنه وخلو قلبه الطاهر من الغل وسرعة وثوقه وتصديقه لما يبثه الناس على شفاههم من طيب الكلام، لا مما تنطوي عليه القلوب من مكر وخديعة دفينة تحجبها مظاهر الود الكاذبة، إن هذه الصفات التي تحلى بها المولى إدريس هي صفات سلالة البيت النبوي الشريف، وهي قبس من نور التربية المحمدية والسيرة النبوية.

والنقطة الثانية: وهي أن الاغتيال كأسلوب طبع التاريخ السياسي في أكثر من بلد، واتخذه البعض مطية لتصفية الحسابات السياسية وحسم الصراعات، الصراعات المذهبية أو السلطوية، إن هذا الأسلوب المستهجن كان وبقي ضد الطبيعة المغربية، ولأنه حدث وطبق لأول مرة في حق المولى إدريس الذي اجتمعت على محبته قلوب المغاربة، فقد ترك جرحاً غائراً في المشاعر واقترن في ذاكرة المغاربة بالغدر والخيانة.

فهرس

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)

فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين عليها السلام

ابو محمد الحسن بن علي بن ابي طالب (ع)